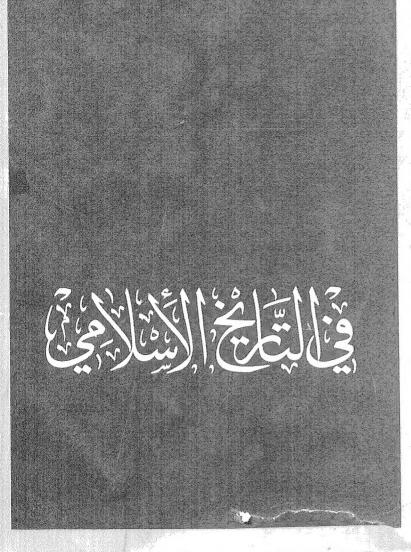
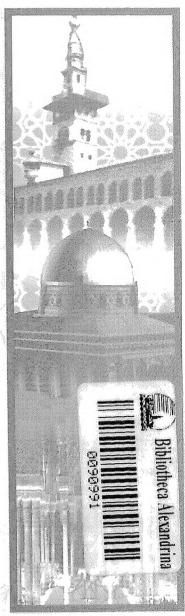


الدكوّر شعر في أبوفليك





الدكتورست وقي أبوخليب ل

التُّولد : مدينة بيسان ، الأحد ٢٩ ربيع الثاني ١٣٦٠ هـ ، الموافق ١٩٤١/٥/٢٥ م .

المؤهل العلمي: دكتوراه في التاريخ الإسلامي عربة الشَّرف الأولى .

الوظائف: مدرس مادة التاريخ في ثانويات دمشق، ثم رئيس قسم الامتحانات، ثم الموجه الاختصاصي لمادة التاريخ في مديريَّة تربية مدينة دمشق، ثم عضو المناهج والكتب في وزارة التربية العربيَّة السُّوريَّة. محاضر في كلية الشريعة (جامعة دمشق).

_ الأمين العام لجامعة العلوم الإسلاميَّة والعربية .

ـ مدير التحرير في دار الفكر بدمشق.

من كتبه التي تجاوزت الخسين كتاباً: الحضارة العربية الإسلامية ، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، الإنسان بين العلم والدين ، الإسلام وحركات التحرر بين العلم والدين ، الإسلام وحركات التحرر العربية ، هارون الرشيد ، جرجي زيدان في الميزان ، الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين ، التسامح في الإسلام ، الإسلام نهر يبحث عن مجرى ...

ـ غزوات الرسول الأعظم ﷺ (١٠-١٠).

- المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام (١-١٥).

ـ سلسلة أحب أن أكون (١ ـ ٢٠) .

ـ سلسلة أحب أن أعرف تاريخ أمتي (١-٦).

وجميعها من إصدارات دار الفكر بدمشق

بِيُّهُ الْمُعْدِدُ الْحَدِّدُ الْحَدِيدُ الْحَدِّدُ الْحَدِّدُ الْحَدِّدُ الْحَدِّدُ الْحَدِّدُ الْحَدِيدُ الْحَدِّدُ الْحَدِّدُ الْحَدِيدُ الْحَدِيدُ الْحَدِيدُ الْحَدِيدُ الْحَدِيدُ الْحَدْثُ الْحَدِيدُ الْحَدْثُ الْحَدْثُ الْحَدِيدُ الْحَدْثُ الْحَدُّ الْحَدْثُ الْعِلْمُ الْعُلْمُ الْعُلِمُ الْعُلْمُ الْعُلِمُ الْعُلِمُ الْعُلْمُ الْعُلِمُ الْعُلْمُ الْ

909.00

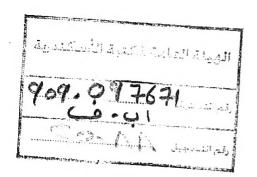
فِيُ النِّي الْمِينِ الْمِينِ اللَّهِ عِنْهِ اللَّهِ عِنْهِ اللَّهِ عِنْهِ اللَّهِ عِنْهِ اللَّهِ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّهُ عَلَّ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّا عَلَّهُ عَ

في التاريخ الإسلامي/ شوقي أبو خليل. - دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦ . - ٣٥٢ص؛ ٢٥سم.

١- ٩٥٦ خ ل ي ف ٢- العنوان ٣- أبو خليل

مكتبة الأسد

ع- ۱۹۹۲/۱۰/۱۳۹٤



الدكتور سشه قي أبوخليي ل

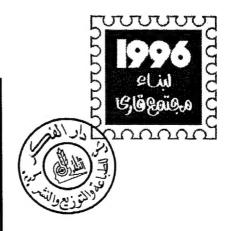
فِي النَّالَيْ الْمِي الْمُعْلِينَ الْمُعْلِينِ الْمُعْلِينَ الْمُعْلِينِ الْمُعْلِينِ الْمُعْلِينَ الْمُعْلِينِ الْمُعْلِينَ الْمُعْلِينِ الْعِلْمِينَ الْمُعْلِي الْمُعْلِينِ الْمُعْلِينِ الْمُعْلِينِ الْمِعْلِي الْمُعْلِينِ الْمُعْلِينِ الْمُعْلِينِ الْمُعْلِي الْمُعْلِي الْمُعْلِي الْمُعْلِي الْمُعْلِي الْمُعْلِي الْمُعْلِي الْمُعِلِي الْمُعْلِي الْمُعِلِي الْمُعْلِي الْمُعِ



General Organization of the Alexandric Library (GC L. Believillean Sincaminists

دَارُٱلفِکِے ٚ يَتشن- شُوريَـة

كَارُٱلْفِظِيْرِ ٱلْمُعُاصِرِ بَدِوتُ - بِسَنَان



الرقم الاصطلاحي: ٨٤٩, ٠١١. الرقم الدولي: 9-020-57547- ISBN: 1-57547-الرقم الموضوعي: ٩٣٠ الموضوع: تاريخ العرب والإسلام

الموضوع: تاريخ العرب والإسلام العنوان: في التاريخ الإسلامي

العلوان في الناريخ المسارمي التأليف: د. شوقي أبو خليل

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذالطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ٣٥٢ ص

قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطى من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد سورية - دمشق - ص. ب (٩٦٢).

برقياً: فكر

فاکس ۲۲۳۹۷۱٦

هاتف ۲۲۱۱۱۶۲، ۱۲۲۱۱۲۲۲

http://www.Fikr.com/

E-Mail: Info @Fikr.com

إعادة 1417مـ = 1996 م ط1: 1991م

بين يدي الكتاب

بسم الله القائل في محكم التّنزيل:

﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا مِنْكُم وَالَّـذِينَ أُوتُـوا العِلْمَ دَرَجَــاتٍ ﴾ ، [الجــادلــة : ٨٥/١٠] ، والصّلاة والسّلام على سيّد الأنبياء والمرسلين ، الَّـذي جعل طلب العلم فريضة على أُمّته ، فليس فيها إلاّ عالِم أو متعلّم ، وبعد ..

هذه مجموع محاضرات (في التّاريخ الإسلامي) ، ألقيت على طلاب السّنة التّالثة في كلّيّة الشّريعة في جامعة دمشق ، بدءاً من العام الدّراسي ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ م ، وهي محاضرات ما فكّرت بطبعها عندما ألقيتها ، حيث اعتمدت على نقاط رئيسة كنت أسجلها ، تاركا لخزانة النّاكرة إغناء المحاضرات بالمعلومات المطلوبة شرحاً للنّقاط الرّئيسة المدوّنة ، ولكن إلحاح عدد من الطّلاب في أخذ قصاصات هذه المحاضرات لتصويرها ، جعلني أفكّر جدّيّاً في إغنائها وتوثيقها ، ودفعها للطّباعة ، خصوصاً عندما رأيت عدداً من طلابنا الّذين تخرّجوا من الكلّيّة يطالبونني بين آونة وأخرى ، عند مصادفتهم في مكان ما ، أو مقابلتهم في الكلّيّة خلال زياراتهم لها ، بطبع المحاضرات الّتي استمعوا بها .

فبناء على طلب طلابنا ، أُقدِّم هذه المحاضرات مطبوعة بين دَفَّتَيُّ هـذا الكتاب ، آملاً أن يكون فيها الخير والفائدة لهم ، ولمن يقع هذا الكتاب بين يديه .

ولقد بدأت المحاضرات في أحوال شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ، ثمّ ركّزت على سيرة المصطفى عَلَيْكُم ، وعلى طبيعة الرّسالة الخاتمة ، ثمّ لمحات عن الهجرة والأحداث الّتي تلت حتّى خلافة الصّدِيق رضي الله عنه ، ثمّ الفاروق عمر ، وعثان ذي النّورَيْن ، وعلى بن أبي طالب حتّى عام الجماعة ، وانتقال الخلافة إلى الأمويّين .

وأبرزت في أكثر من محاضرة الفتوحات العربيّة الإسلاميّة ، معجزة التّاريخ الإنساني الكبرى ، مع تمهيد فيه مقارنة بين آثار الفتح ونتائجه ، وبين آثار الاستعار

ونتائجه ، وختت بمحاضرتَيْن اثنتَيْن ، الأولى عن الدّولة الأمويّة ، والثّانية عن الدّولة العبّاسيّة ، في الأولى لمحات سريعة عن خلفاء الدّولة الأمويّة ، وأسباب سقوط هذه الدّولة ، والثّانية لحة سريعة عن بدايات الدّولة العبّاسيّة ، ومحاضرة عن (الرّشيد) عنوانها : هارون الرّشيد الخليفة المفترى عليه ، ألقيت على طلابنا في كلية الشّريعة ، كا ألقيت على مدرّج اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق ضمن نشاطه الثّقافي ، في ألقيت على مدرّج اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق ضمن نشاطه الثّقافي ، في ١٩٩٠/١٢/٣

ولئن كانت في الكتاب ثغرة ، فلست غائباً عنها ، ألا وهي اختصار الدولتين الأموية والعبّاسيّة ، ومردٌ ذلك ، عدد الحصص المقرّرة للتّاريخ الإسلامي ، وهي في الفصل الدّراسي الأوّل فقط من كلّ عام ، وهذه الحصص المقرّرة لا تسمح إلاّ بهذا القدر من المحاضرات .

هذا .. ولئن غاب قسم الحضارة عن هذا الكتاب ، فردّه أيضاً السّبب السّابق ، مع وجود كتاب لي عنوانه : (الحضارة العربيّة الإسلاميّة) ، وهو كتاب جامعي مقرّر في كلّيّة الدَّعوة الإسلاميّة العالميّة في طرابلس ، وفي فروع هذه الكلّيّة في بيروت ودمشق وكراتشي والْحُدَيْدة . وهو كتاب أشعر بسرور كبير بتدريسه ، لأنّني أرى الحضارة أعلى من كلمة مدنيّة وأسمى ، فالحضارة في مفهومها الواسع تفاعل بين الإنسان والكون من حوله ، وهذا التفاعل لا يتم إلا بالعلم ، والعلم لا يتم إلا بالعقل ، والعقل هبة الله سبحانه إلى الإنسان لإدراك تسخير الكون له ، بينما المدنيّة جانب من هذه الحضارة ، تمثّل التّقدّم العلمي فيها .

أرجو أن يجد القارئ الفائدة في دراسة هذا الكتاب ، مع الاعتزاز بهذا التّاريخ العربي الإسلامي الجيد .

الدكتور شوقي أبو خليل والحمد الله أوّلاً وآخراً . دمشق في ٢٠ ربيع الأوّل ١٤١٢ هـ ، ٢٨ أيلول ١٩٩١ م .

شِبْهُ جَزِيرَةِ العَرَبِ قَبْلَ الإسلام

لقد سادت الوثنيّة العالم ، وأمسى الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض مسخّراً لشهواته ، وأصبح العالم بحاجة إلى دين يعيد أنوار التوحيد الخالص .

الأعْصُرُ التَّارِيخيَّةُ:

درج المؤرِّخون الغربيُّون (الأُوربيُّون) على تقسيم العصور التَّـاريخيَّـة إلى ثـلاثـة أقسام هي :

١ ـ الأعصر القديمة : وتبدأ منذ اختراع الكتابة (٣٢٠٠ ق.م) (١) ، وحتَّى سقوط رومة سنة ٤٧٦ م على أيدي البرابرة .

٢ - الأعصر الوسطى: وتبدأ من سقوط رومة، وتنتهي بسقوط القسطنطينيّة (٢) سنة ١٤٥٣ م، بيد محمَّد الثَّاني (الفاتح) (٢) ، سابع سلاطين الدُّولة العثانيّة .

⁽١) في وادي النَّيل ، وهي كتابة تصويريَّة : Pictography .

⁽٢) أو باكتشاف أمريكة سنة ١٤٩٢ م ، أو بمعركة وادي الخازن سنة ١٥٧٨ م .

⁽٣) محمد (الثَّاني) بن مرادخان ، ولد في ٢٠ نيسان ١٤٢٩ م ، وتوفي في ٣ أيَّار ١٤٨١ م عن ثلاث وخمسين سنة ، ومدّة حكمه ٣١ سنة ، تمّ خلالها مقاصد أجداده ففتح القسطنطينيَّة ، وجميع أقاليم آسية الصُّغرى ، والصِّرب وألبانية ، [تاريخ الدُّولة العليّة ، محمَّد فريد المحامي ، ص ١٦٠ ، دار النَّفائس ، ط٢ ، سنة ١٩٨٧ م] .

٣ ـ الأعصر الحديثة: وتبدأ سنة ١٤٥٣ م بسقوط القسطنطينيَّة ، وهي مسترة حتَّى يومنا هذا ، وضمن هذه الأعصر ، بدأ التَّاريخ الحديث بسقوط الباستيل Bastille في ١٤ تموز سنة ١٧٨٩ م (١) .

الأعصر القديمة ٢٧٦م الأعصر الوسطى ١٤٥٣م الأعصر الحديثة ١٧٨٩م التّاريخ المعاصر العصر الحديثة ١٧٨٩م التّاريخ المعاصر القصوط القسطنطينيّة سقوط البستيل

إعادة النَّظر في تقسيم الأعصر التَّاريخيَّة :

إنَّ تقسيم الأعصر التَّارِيخيَّة تقسيماً جديداً ، ضرورة علميَّة لينطبق على تاريخ الحضارة بشكل منطقي سليم ، وفيا يتعلَّق بتاريخ الإسلام خاصَّة ، والتَّقسيم الجديد المقترح هو التَّالي :

ا ـ تنتهي الأعصر القديمة (الجاهليَّة) (٢) بظهور الإسلام ، و (الهجرة) هي الحدث البارز في تاريخ الإسلام ومسيرة انتصاراته ، والَّتي وافقت ٢٠ تموز ١٢٢ ميلاديَّة .

⁽۱) الباستيل : حصن في باريس كان معتقلاً للسَّجناء خاصَّة السِّياسيِّين منهم ، خرَّبه النُّوار في ١٤ تموز ١٤ م المراه م ، فأصبح ذلك اليوم بداية تاريخ النُّورة الفرنسيَّة ، ولتأثُّر النُّورات الَّتي قامت بعدها بشعاراتها : (حريَّة ، عدالة ، مساواة) ، اتَّخذ المؤرِّخون هذا التَّاريخ بداية للتَّاريخ المعاصر .

⁽٢) الأعصر الجاهليّة (أو تاريخ ما قبل الإسلام) ، وكاسة جاهليّة وردت في القرآن الكريم في الآيات الكرعة التالية :

ـ ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤/٣] .

ـ ﴿ أَفَحُكُمُ الْجَاهِلِيَةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حِكُمًّا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ، [المائدة : ٥٠/٥] .

ـ ﴿ وَقَرْنَ فِي بَيُوتَكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولِي ﴾ ، [الأحزاب : ٣٣/٣٣] .

ـ ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَميَّةَ حَميَّةَ الجاهليَّة ﴾ ، [الفتح : ٢٦/٤٨] .

وقال المفسّرون : الجاهليّة : الفترة بين عيسى ومحمّد عليها السّلام ، والّتي مضت بـلا أنبياء ، وقـال ابن عبّاس وعكرمة : الجاهليّة الأولى ماكان بين نـوح وإدريس ، والـدّور الثّاني بين عيسى ومحمّد عليهم السّلام .

٢ ـ وتبدأ الأعصر الوسطى بالهجرة (٦٢٢ م) ، لأن الهجرة أبرز من سقوط رومة
 في أيدي البرابرة سنة ٤٧٦ م ، وأشد أثراً في الحضارة الإنسانية .

سقوط رومة واقعة محلّيّة ، أو أُوربيّة على الأكثر ، بينما ظهور الإسلام وانتشاره كان ذا نتائج حضاريّة عامّة ، بعيدة الأثر في آسية وإفريقية وأُوربة معاً .

سقوط رومة قضاء على حضارة شائخة كانت في طريق الزَّوال ، ولقد كان بالإمكان أن تسقط بكلِّ حدث آخر ، يدلُّنا على ذلك أن ضعف الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة بدأ منذ أواسط القرن الأوَّل للميلاد ، فسقوط رومة كان متوقعاً ، ولم يكن دخول الجرمان (البرابرة) إليها هو السَّبب في سقوطها ، ولكن ضعفها المتوالي في خلال أربعة قرون كاملة ، هو الذي جرًا الجرمان على دخولها ، وبعد سقوط رومة ، غاصت أوربة ـ أو العالم المسيحي في أوربة على الأصح ـ في ظلام دامس قروناً كثيرة ، ثمَّ أخذت تسترد أنفاسها عا عرفته من علوم الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة (١).

أمًّا الإسلام (دين التَّوحيد) الخالص، فهو حضارة جديدة، لم يترك بفتوحاته آسية في وثنيَّتها، ولا أوربة البيزنطيَّة في أساطيرها، ولا إفريقية في غفوتها وعزلتها، مثلما فعل سقوط رومة بأوربة، بل نقل هذه القارَّات الثَّلاث إلى حضارة إنسانيَّة جديدة، فتيَّة قويَّة في العقيدة والسِّياسة والثَّقافة..

٣ _ وتبدأ الأعصر الحديثة بفتح القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣ م .



⁽١) مجلّة الباحث ، السّنة التَّانية ـ العدد الشّاني ، أيلول ـ تشرين الأوَّل ١٩٧٩ م ، ص ٩ : (من أسس تجديد التَّاريخ : إعادة النَّظر في تقسيم الأزمنة التَّاريخيَّة) ، د . عر فرُّوخ ، رحمه الله تعالى .

شِبْهُ جزيرةِ العرب:

الموقع والحدود والتضاريس والمُناخ: تقع شبه جزيرة العرب في الجزء الجنوبي الغربي من قارَّة آسية ، يحدُّها شرقاً: الخليج العربي ، وخليج عُهان ، وجنوباً: بحر العرب وخليج عدن ، وغرباً: البحر الأحمر ، وشالاً: البَلْقاء ، وبادية الشَّام ، وأطراف العراق الجنوبيَّة الغربيَّة (١) .

وهي رقعة صحراويَّة على الأغلب ، تقسم إلى خمسة أقسام :

ا ـ سهول تِهَامة (٢) : وهي الأرض الواطئة الممتدَّة بمحاذاة ساحل البحر الأحر (١) من ينبع إلى نجران في الين ، وأهمَّ مدنها : جُدَّة (٤) .

٢ ـ مرتفعات السَّراة : تمتد من مرتفعات البَلْقاء وحتَّى الين ، وتقع شرقي تِهَامة وبحاذاتها ، وأهم جبالها :

أ ـ جبال مَدْين : في الشَّمال ، وأعلى قمها (الشفا ٢٧٠٠ م) .

ب ـ جبال الحجاز^(٥) : وهي أقل ارتفاعاً من جبال مَدْين ، تتخلَّلها معابر لطرق التِّجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي ، وفي شرقها تقع الحرَّات^(١) البركانيَّة ، وأهمها خيبر .

ج ـ حبال عسير : في الجنوب ، وأعلى قمها (جبل السُّودا ٢٩٠٠ م) .

⁽١) ومن العلماء من يجعل الحدود الشاليَّة حتَّى أطراف الجزيرة العُلْيا ، شالي العراق وبلاد الشَّام .

⁽٢) تِهَامة : أرض تَهمة : شديدة الحرّ ، [اللَّسان : تهم] .

⁽٣) أو بحر القُلْزُم .

⁽٤) جُدَّة : بالضمُّ والتَّشديد ، فرضة مكَّة المكرَّمة ، [معجم البلدان : ١١٤/٢] .

ه وسمّي حجازاً لأنّه يحجز بين تهامة ونجد .

⁽٦) الْحَرَّة : أرض ذات حجارة سود نَخِرات كأنّها أحرقت بالنّار ، والجمع : حرّات وحِرّار ، [اللّسان : حرر] .

د ـ جبال الين : وهي أعلى مرتفعات السّراة ارتفاعاً ، حيث تصل قمَّة (النّبي شُعيب إلى ٣٧٦٠ م) غربي صنعاء ، وتنحدر جبال الين تدريجيّاً باتّجاه السّرق إلى حضرموت ، ومَهْرَة ، وظَفَار .

٣ ـ نَجد: هضبة في قلب الجزيرة العربيّة ، متوسّط ارتفاعها ٥٠٠ م ، تبرز فيها بعض المرتفعات البركانيّة كجبل شمر ١٨٠٠ م ، يجاورها شرقاً الدّهناء (أو النّفوذ الصّغرى) ، وجنوباً الرّبع الخالي والين ، وغرباً الحجاز ، وشمالاً النّفوذ الكبرى .

٤ ـ العَرُوض (١) : في شرقي شبه جزيرة العرب ، ويشمل عُمان ، وأعلى قمم جبال عُمان (الجبل الأخضر ٢٠٠٠ م) ، واليامة والبحر يْن (٢) .

٥ ـ صحراء النّفوذ الكبرى شالي نجد ، وتمتد بين جنوبي فلسطين ، والرّبع الحالي :
 بين حضرموت والين ونجد .

تخترق هذه التَّضاريس أودية ، تفيض بالماء عنىد هطول الأمطار ، حيث تغور مياهها في الرِّمال بعد سيلها فيها لمسافات طويلة .

وتقع شبه جزيرة العرب في نطاق المُناخ المداري ، فالحرارة مرتفعة بشكل عام ، لا يقل المتوسِّط السَّنوي عن ثلاثين درجة مئويَّة ، ترتفع في السَّهول السَّاحليَّة والصَّحاري بشكل خاص .

ويختلف الْمُناخ بين منطقة وأخرى ، فهو صحراوي في الوسط والشَّرق ، وتصل المؤثِّرات المتوسطيَّة إلى الشَّال والشَّال الغربي لشبه جزيرة العرب .

وتتعرَّض شبه جزيرة العرب إلى رياح شاليَّة شرقيَّة جافَّة ، وشاليَّة غربيَّة رطبة قادمة من البحر المتوسِّط ، وجنوبيَّة غربيَّة موسيَّة صيفيَّة رطبة ، تهبُّ على عسير

⁽١) العَرّوض : تمان ، والبهامة ، والبحرين ، وبتَّمّي عروضاً لاعتراضه بين البين ونجد والعراق .

⁽٢) البحرين : ساحل الخليج العربي من شالي عَان وحتَّى كاظمة .

والمين وظفار . وتهبُّ في الرّبيع رياح (السُّمُوم) ، وهي رياح جافَّة حارّة تثير الغبار .

وتنعدم الجاري المائيّة الدّاعّة الجريان في شبه جزيرة العرب ، بسبب سيطرة الجفاف ، وتقتصر على أودية طويلة تمتلئ بالمياه في بعض السّنين مسبّبة الفيضانات ، كوادي : الرّمّة ، والدّواسر ، وحضرموت ، ومأرب ...

وللمياه الجوفيَّة دور كبير في شبه جزيرة العرب ، حيث تغذِّي الآبار والواحات ، وأغناها في الأحساء والنَّفوذ .

تعدُّ شبه جزيرة العرب من المناطق الفقيرة نباتياً ، فعلى المرتفعات ـ ولا سيًا في عسير ـ تنو غابات المنطقة المعتدلة ، مثل : السَّرو والعرعر ، بينا تنو في الدَّاخل الشُّجيرات ، كالأثل ، والغضا ، والشِّيح ، والنَّخيل في الواحات وبطون الأودية .

وفي المنطقة الجنوبيَّة _ في ظفار خاصَّة _ نجد الْمُرَّ والبخُّور واللَّبان .

وفي الصَّحراء: تنمو بعض النَّباتات الشُّوكيَّة ، الَّتي تأقلمت مع الْمُناخ الجاف.

أمًا حيوان المنطقة فقليل أيضاً ، ونجد الغزال والنَّمر والقردة والضَّب والأرانب البرّيّة .. وبعض الطَّيور مثل الصَّقور والحجل(١) ...

وفي البحار يعيش اللؤلؤ والمرجان ، مع ثروة سمكيَّة كبيرة ، خصوصاً على السَّاحل الجنوبي .

☆ ☆ ☆

العَرَبُ:

« العرب جيل من النَّاس ، لم يزالوا موسومين (٢) بين الأمم بالبيان في الكلام ،

⁽١) الثَّروة الحيوانيَّة البرِّيَّة آخذة بالانقراض بسبب الصَّيد وأدواته الحديثة .

⁽٢) السُّمة : العلامة ، وفي [اللَّسان : وسم] واتَّسَمَ الرَّجلُّ إذا جعل لنفسه سِمةً يُعرف بها .

والفصاحة في النَّطق ، والذَّلاقة (١) في اللِّسان ، ولذلك سُبُّوا بهذا الاسم ، فإنَّه مشتقٌ من الإبانة ، لقولهم أعرب الرَّجل عمَّا في ضيره ، إذا أبان عنه ، ومنه قوله عَلَيْكُم : « الثَّيِّبُ تُعْرِبُ عن نفسها » ، والبيان سمتهم بين الأَمم .. »(١) .

والعرب أهل الأمصار ، والنّسبة إلى العرب (عربي) ، أمَّا الأعراب فهم سكان البادية « بادية العرب الأعراب » ، وفي العُرف ، يُطلق لفظ العرب على الجميع .

أرجع المؤرِّخون العربَ إلى قسمَيْن عظيمَيْن :

العرب البائدة : وهم الله الله بادوا ، ودرست آثاره ، مثل : عاد ، وغود ، وجَديس ، وجُرْهُم الأولى .

والعرب الباقية : وأرجعهم المؤرِّخون خطأً إلى فرعين رئيسيَّيْن هما :

أ ـ العرب العاربة: وهم القحط انيُّون ، وموطنهم الأصلي بلاد الين ، ومن أشهر قبائلهم جُرُهُم ، ويعرب ، ومن يعرب تشعَّبت القبائل والبطون إلى فرعين كبيرين هما : كهلان وحمير ، وأشهر بطون كهلان : الأزد ، ومنهم الأوس والخزرج ، وأولاد جَفْنَة (الغساسنة) ، وطيء ، ومذحج ، والنَّخع ، وعَنْس ، وهمدان ، وكندة ، ولخم .

وأشهر بطون حِمْيَر: قضاعة ، ومن فروع قضاعة : بَلَى ، وجهينة ، وكلب ، وبَهْراء ..

ب ـ العرب المستعربة : (أو المتعرّبة) ، وهم العدنانيُّون ، قال بعض المؤرّخين : سُمُّوا بـذلـك لأنَّ إسماعيـل كان يتكلَّم السُّريانيَّة أو العبريَّة ، فلما نزلت جرهم (من القحطانيَّة) بمكَّة ، وسكنوا معه ومع أُمِّه ، تزوَّج منهم ، وتعلَّم هو وأبناؤه العربيَّة ،

⁽١) النَّلاقة : البلاغة في النُّطق ، والنَّليق : الفصيح اللَّسان ، [اللَّسان : ذلق] .

٢) لبوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الآلوسي : ١٨٨

⁽٣) تاريخ الإسلام: ٨/١

فسمُّوا بذلك : (العرب المستعربة) ، وهم جمهور العرب من البدو والحضر الَّذين يسكنون أواسط شبه جزيرة العرب ، وبلاد الحجاز إلى بادية الشَّام ، حيث خالطتهم أخيراً في مساكنهم عرب الين بعد انهيار سد مأرب (١) .

ومن أولاد عدنان : معد ، ومنه تناسل عقب عدنان كلهم ، وكان لمعد أربعة أولاد : إياد ، ونزار ، وقَنَص ، وأنمار ، ومن نزار البطنان العظيان : ربيعة ومضر .

نزلت ربيعة : « من بلاد نجد إلى الغور من تِهامة » ، وانتشر بنو مضر في الحجاز ، وكثروا كثرة عظيمة ، فغلبوا على كثير من المواضع في نجد وغيرها ، وانتهت إليهم رئاسة الْحَرَم بمكّة المكرّمة .

وتشعّبت مضر إلى شعبتَيْن : قيس عيلان ، وإلياس ، ومن قبائل قيس عيلان : هوازن ، وسُلّم ، وثقيف ، وكان لإلياس ثلاثة أولاد تفرّعت منهم بطون كثيرة منها : أَسُلّم ، وخُزاعة ، ومُزَينة ، وتميم ، وخزية ، والهون ، وأسد ، وكنانة ، ومن كنانة : النّضْر ، ومن النّشْر : مالك ، ومن مالك : فهر وهو (قريش) .

(العرب المستعربة) أُسطورة ذكرها بعض المؤرِّخين فدرجت ، مع أن عصر إبراهيم وابنه إساعيل ، عصر عربي قائم بذاته ، ليس له أيَّة صلة بسُرْيان أو يهود ، وعيَّز الآن علميّاً بين قوم إبراهيم ، وقوم يعقوب (إسرائيل) ، وقوم موسى ، واليهود ، والعبرانيّين .

ونظراً لأهمّية هذا الأمر نذكر التّالي (٢):

إنَّ مصطلح (العبري) ، أو (العبراني) كان يُطْلَق في نحو الألف الثَّانية قبل

⁽١) تعرَّض سدَّ مأرب (أو سدّ العرم) للتَّصدَّع أكثر من مرَّة ، وانهار أخيراً حوالي سنة ٥٦٥ م ، إبان الاحتلال الحبشي للين ، وقبل الهجرة النَّبويَّة بنحو ٥٧ سنة ، [القاموس الإسلامي : ٢٨٣/٣] .

⁽٢) للتَّوسُّع : مفصَّل العرب واليهود في التَّاريخ ، د . أحمد سوسة ، ط ٥ ، سنة ١٩٨١ ، ص : ٨٦ وما بعدها .

الميلاد ، وفيا قبل ذلك على طائفة من القبائل العربيّة في شال جزيرة العرب في بادية الشّام ، وعلى غيرهم من الأقوام العربيّة في المنطقة ، حتّى صارت كلمة (عبري) مرادفة لابن الصّحراء أو البادية بوجه عام ، وبهذا المعنى وردت كلهة (الإبري) ، أو (الحبيرو) ، أو (العبيرو) في المصادر المساريّة والفرعونيّة ، ولم يكن للإسرائيليّن والموسويّين واليهود أي وجود بعد .

ومصطلح عبري أو عبراني لم يرد في القرآن الكريم مطلقاً ، وإنَّا ورد فيه ذكر الإسرائيليِّين ، وقوم موسى ، ويهود ﴿ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ ، أمَّا كلمة عبري للدَّلالة على اليهود ، فقد استعملها الحاخامون بهذا المعنى في وقت متأخَّر في فلسطين (١) .

وأظهرت الاكتشافات الأخيرة أن كلمة (إسرائيل) كانت اسماً لموضع في فلسطين ، وهي تسمية كنعانيَّة ، وبهذا المعنى وردت في الكتابات الفرعونيَّة الَّتي ترجع إلى ما قبل عصر موسى ، كا أن أساء إبرام (إبراهيم) ويعقوب ويوسف ، وردت في الكتابات الفرعونيَّة ، وهي تعود إلى ما قبل عصر موسى ، مما يدلُّ على أنها كنعانيَّة أيضاً .

ومن الجدير ذكره في هذا الصّدد ، أن فلسطين كانت أرض غربة بالنّسبة إلى إبراهيم وولده إسحاق ، وحفيده يعقوب (إسرائيل) ، وذلك بتأكيد التّوراة ذاتها ، لأنّهم كانوا مغتربين بين الكنعانيّين سكان فلسطين الأصليّين ، وبخاصة بني إسرائيل الذين وُلِدُوا جميعهم في (حَرّان) (٢) ، ونشأوا فيها ، وانتهى هذا الدّور بعد أن هاجرت أسرة يعقوب إلى مصر ، وانضّت إلى يوسف ، واندمجت في البيئة المصريّة وذابت فيها .

وهكذا .. إنَّ مصطلح (إسرائيل) المقصود به يعقوب حفيد إبراهيم وأبناءه ،

⁽١) دائرة المعارف البريطانيَّة : ٣٧٩/١١ طبعة ١٩٦٥ م .

⁽٢) حَرَّان : مدينة في أعالي الجزيرة ، بينها وبين الرُّها يوم ، وبين الرَّقَّة يومان ، [معجم البلدان : ٢٠٥/٢] .

ودورهم محصور في منطقة حَرَّان ، حيث موطنهم الأصلي الَّذي وُلدوا ونشأوا فيه ، أما فلسطين ، فهي أرض غربتهم ، وقد وُجدوا في القرن السَّابع عشر قبل الميلاد ، وهو عصر إبراهيم ذاته ، وكانت اللَّغة في هذه المنطقة في ذلك العصر ، لغة واحدة (اللَّغة الأم) الَّتي كان يتكلَّم بها أبناء الجزيرة العربيَّة قبل هجرتهم إلى الهلال الخصيب ، أي قبل أن تتفرَّق هذه اللَّغة إلى اللَّهجات الختلفة ، كالكنعانيَّة والآراميَّة والعموريَّة .. وهكذا كانت لغة العشائر الآراميَّة الَّتي كان ينتي إليها إبراهيم ، هي اللَّغة ذاتها الَّتي كان يتكلَّم بها الكنعانيُّون والعموريُّون في فلسطين ، وهي قريبة جداً من اللَّغة الأم .

أمَّا (قوم موسى) فهم من الجنود الفارّين - على أرجح الاحتالات - تصحبهم جماعة كبيرة من بقايا الهيكسوس في القرن التَّالث عشر قبل الميلاد ، وهؤلاء كانوا يدينون بدين التّوحيد الخالص ، وهو غير دين اليهود الّذي يدعو إلى عبادة الإله (يَهْوَه) الخاص بهم ، بوصفهم الشَّعب الختار .

وتعاليم موسى وشريعته كُتِبت بالهيروغليفيَّة ، ولم يُعثر على أيِّ أثرٍ لها ، ثمَّ أخذ هؤلاء الموسويُّون بلغة كنعان وثقافتها وتقاليدها ، منحرفين عن تعاليم موسى وشريعته ، وهؤلاء هم الَّذين عُرِفوا فيا بعد باليهود .

(يهود) : تسمية أُطلقت على بقايا جماعة يهوذا ، الله نبوخذ نصر إلى بابل سنة ٥٨٦ ق.م ، وقد سُمُّوا كذلك نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة ، واقتبس هؤلاء قبيل السَّبي لهجتهم المقتبسة من الآراميَّة ، وبها دوَّنوا التَّوراة الَّتي بين أيدينا في الأسْر في بابل ، أي بعد زمن موسى بثان مئة سنة ، لذلك صارت تُعرف هذه اللهجة (بآراميَّة التَّوراة) ، وقد استعملوا الحرف المسمَّى بالربع ، وهو مقتبس من الخط الآرامي القديم ، وهذه بلا شك غير الشَّريعة الَّتي أُنزلت على موسى ، و يمكن أن نطلق عليها اسم (توراة اليهود) ، لتمييزها عن (توراة موسى) .

وكان هؤلاء اليهود عندما دوَّنوا التَّوراة ، قد استهدفوا تحقيق غرضَيْن رئيسيَّين :

أوّهما: تمجيد تاريخهم ، وجعل أنفسهم صفوة الشّعوب البشريّة ، (الشّعب الختار) اللّذي اصطفاه الرّب من دون بقيّة الشّعوب ، ولتحقيق ذلك كان لابدّ من إرجاع أصلهم إلى أقدس شخصيّة قديمة ، أي شخصيّة إبراهيم ، الّذي كان صيته قدع جميع أرجاء العالم في تلك الأزمان ، فسردوا تاريخهم ودوّنوه حسب أهوائهم بمهارة ، وأضفوا عليه صبغة دينيّة ليضنوا تقبّله من أتباعهم ، وهكذا أرجعوا تاريخهم إلى إبراهيم ، وإلى حفيده يعقوب (إسرائيل) ، وسمّوا قوم موسى ببني إسرائيل على الرّغ من كونهم ظهروا بعد إسرائيل بزهاء ست مئة سنة .

أما ثانيها: فهو جعل فلسطين وطنهم الأصلي ، على الرَّغ من تأكيد التَّوراة ذاتها على أن فلسطين هي أرض غربة بالنِّسبة لإبراهم وإسحاق ويعقوب وأبنائه الَّذين وُلِدوا في حَرَّان ونشأوا فيها .

فإبراهيم - وابنه إسماعيل - ينتيان إلى القبائل الآراميَّة العربيَّة ، وهي تعود إلى ما قبل وجود الإسرائيليِّين والموسويِّين واليهود بعدَّة قرون ، فعصر إبراهيم هو عصر عربي قائم بذاته ، ليست له صلة بعصر اليهود ، وقد نبَّه القرآن الكريم إلى هذه النَّاحية : هو يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ في إبراهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوراةُ والإنجيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفْلا تَعْقلُونَ ، هَا أَنْتُمْ هؤلاء حَاجَجُتُم فيا لَكُم بِهِ عِلْمَّ (أ) فَلِمَ تُحاجُّونَ فيا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَالله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ، مَا كَانَ إبراهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرانيّاً وَلكنْ كان حَنيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، [آل عران : ٣/٥٥ و ٦٦ و ٣٧] .

المالِكُ العربيَّةُ قَبْلَ الإسلام:

من الطَّبيعي أن تقوم مجمّعات مستقِرّة تمتهن الزّراعة في منطقة خصيبة معرّضة

⁽۱) محاورة نصارى نجران وأحبار اليهود بالتَّوراة والإنجيل اللَّذين بين أيىديها ، أمَّـا إبراهيم فقبلهم زمنيّـاً ، فكيف يكون يهوديّاً أو نصرانيّاً ؟!

لرياح موسميَّة ممطرة ، ومن الطَّبيعي أيضاً أن تشكِّل هذه المجتمعات فيا بعد حكومات تنظِّم حياة هذه المجتمعات وشؤونها ، ومن أهمِّ هذه المالك الَّتي قامت في الين :

- ـ مملكة مَعِين : [١٢٠٠ ـ ٦٥٠ ق.م] ، حاضرتها قرناو شرقي صنعاء .
- ـ مملكة سَبَأ : ورثت مملكة معين ، ودامت من ٦٥٠ ق.م ، وحتَّى ١١٥ ق.م .
- ـ مملكة قتبان : الَّتي عاصرت معين سنة ١٠٠٠ ق.م ، وبقيت حتَّى ٢٠٠ ق.م .

ملكة حضرموت: اندمجت في مملكة معين قرابة ثلاثة قرون ، انتهت نحو سنة ٦٣٠ ق.م ، ثمَّ اندمجت بعد ذلك في مملكة سبأ من سنة ٦٣٠ ق.م وحتَّى ١٨٠ ق.م ، ثمَّ استقلَّت وبقيت حتَّى سنة ٣٠٠ م .

- مملكة حِمْيَر : [٣٠٠ - ٥٢٥ م] ، حاضرتها ريدان ، ومن ملوك حِمْيَر (يوسف ذو نواس) الَّذي اعتنق اليهوديَّة واضطهد المسيحيَّة ، فطلب جستنيان - امبراطور الدَّولة البيزنطيَّة الشَّرقيَّة - من نجاشي الحبشة غزو الين ، وإنقاذ المسيحيِّين من جهة ، واتّخاذ الين طريقاً لتجارته إلى الشَّرق ، ليقضي على تجارة منافسيه الفُرْس .

قكَّن أرياط الحبشي من احتلال الين ، وحكمها من قِبَل النَّجاشي ، ثمَّ خلف البرهة ، الَّذي بني كنيسة (القُلَّيْس) (١) لصرف الحجيج عن الكعبة ، كا غزا مكَّة لهذا الغرض ، فأخفق (عام الفيل) سنة ٥٧٠ م .

استنجد سيف بن ذي يزن الحميري بكسرى أنو شروان [٥٣١ - ٥٧٨ م] فأنجده ، واستعاد سيف المين من الأحباش وحكمه ، وحكم من بعده وُلاة من قبل كسرى ، كان آخرهم (باذان) ، الَّذي عاش إلى عهد النَّبيِّ عَلَيْكُم ، وأسلم هو وقومه .

⁽١) القُلْيْسُ: بِيعَة لِلْحَبَشِ كانت بصنعاء بناها أَبْرَهة وهدمتها حِمْيَر، والتَّقليس: ضرب اليدين على الصَّدر خضوعاً، والتَّقليس: السَّجود، والتَّقليس أيضاً: رفع الصَّوت بالدُّعاء والقراءة والغناء، [اللَّسان: قلس].

- مملكة الحيرة: (المناذرة)، إمارة حدود جنوبي العراق، شكّلت حائلاً بين الفُرس وبين بيزنطة والقبائل العربيّة في الشّام، ويرجع تاريخها إلى القرن الثّالث الميلادي، واسترّت إلى ظهور الإسلام.

- مملكة غسّان: (الغساسنة) ، هاجرت الأزد من بلاد الين على إثر انهيار سدّ مأرب ، فسار بطن منهم إلى الشّام ، وأقاموا على ماء هناك يُقال له غسّان ، فسمّوا أزد غسّان ، وولّى الرُّوم من الغسّانيّين (جفنة بن عرو) ملكاً على عرب الشّام ، متّخذاً منهم أعواناً له على الفرس ، ووسيلة للسّيطرة على القبائل العربيّة القريبة منهم ، فهي (إمارة حدود) أيضاً .

ولم يزل الغساسنة يحكمون البَلْقاء وحوران من قِبَل الرَّوم ، حتَّى دخل الفرس بلاد الشَّام سنة ٦١٣ م ، فقضوا على مُلْكِهم .

- مملكة الْحَضَر (عَرَبايا): [٥٠ ق.م - ١ نيسان ٢٤١ م]، قامت على أرض الجزيرة بين دِجلة والفرات ، وهي تشبه تماماً تدمر والبتراء وجَرَش والفاو عاصمة كندة ، وعوامل قيامها في موقعها المنعزل: الدّين: إذ وجدت فيها معابد للشّمس، ومملكة حدود بين الفرس والبيزنطيّين، والتّجارة: فهي على طريق هام قادم من الصّين والهند، ذاهب إلى آسية الصّغرى وأوربة، قضى عليها سابور الأوّل سنة ٢٤١ م.

- مملكة الأنباط: هاجر الأنباط من جنوبي الجزيرة العربيَّة إلى جنوبي البحر الميَّت وشرقه في القرن الخامس قبل الميلاد، وتوسَّعوا شمالاً فاحتلُوا دمشق سنة ٥٥ ق.م في عهد الحارث الثَّالث، وبلغت مملكة الأنباط أوج عظمتها زمن الحارث الرَّابع: [٩ ق.م - ٤٠ م]، قضى الرَّومان على مملكة الأنباط سنة ١٠٦ م.

ـ مملكة تدمر : ازدهرت تدمر وارتفعت إلى مكانة باهرة من الغني والسُّلطة منـ ذ

⁽١) (الحضر مدينة الشَّمس) ، فؤاد سقر ومجمَّد على مصطفى ، وزارة الإعلام ، مديريَّة الآثـار العـامَّـة ، العراق ، وانظر مصوّر عربايا في (أطلس التّاريخ العربي) ، ص : ٢٤

أوائل القرن الميلادي الأول ، حيث بدأت (البتراء) عاصة الأنباط في الضّعف والاضمحلال ، توسّعت تدمر حتّى الأناضول شالاً ، ودُومة الجندل جنوباً ، والأنبار والحيرة شرقاً ، وسيناء ودلتا النّيل غرباً ، وقضى عليها الامبراطور الرّوماني (أورليانُس) سنة ٢٧١ م .

- مملكة كنْدة (١): عاصتها (الفاو)، قرية حاليّاً، الّتي تقع على الطّريق التّجاري الهام الَّذي يربط جنوبي الجزيرة العربيّة وشالها، وشالها الشَّرقي، لقد كانت القوافل القادمة من سبأ ومعين وقتبان وحضرموت وحمير مرّ منها متّجهة إلى اليامة والخليج وبلاد الرَّافدين وبلاد الشَّام، فهي بذلك تعتبر مركزاً تجاريّاً واقتصاديّاً هامّاً في وسط الجزيرة العربيّة. وجاءت أهميّة الفاو من كونها عاصة لمملكة لها دور هام في تاريخ الجزيرة العربيّة لمدة تزيد على خسة قرون قبيل الإسلام.

الحجاز: حافظ الحجاز على استقلاله منذ أقدم العصور، منذ أن سكنه العالقة، وجرهم الثّانية الَّتي خلفتهم، وحين قدمت خزاعة من الين آلت إليها السّيادة، ولما قويت قريش أخذ قصيّ بن كلاب سنة ٤٤٠ م السّيادة في مكّة، وأجلى خزاعة إلى بطن مر (وادي فاطمة) .

أسُّس قصيّ (دار النَّدوة) ، وكان له من مظاهر السَّياسة :

- ١ _ رئاسة دار النَّدوة ، وهي نادي قريش ، ومجمع الملا وذوي العُلا منها .
 - ٢ ـ اللَّواء : رئاسة القوى الحربيَّة المقاتلة .
- ٣ ـ الحجابة : وهي حجابة الكعبة وسدانتها ـ أي خدمتها والعنابة بها ـ فلا يفتح
 بابها إلا هو .

⁽١) انظر كتاب (قرية) الفاو، صورة للحضارة العربيّـة قبـل الإسلام، د. عبــد الرحمن الطّيّب الأنصاري، جامعة الرّياض، ١٤٠٢هـ.

٤ ـ سقاية الحجيج ورفادته : سقايته من ماء زمزم ، بعد تحليته بشيء من التَّمر أو الزَّبيب ، والرِّفادة إطعام الحجيج من منطلق الضّيافة والكرم .

* * *

أيَّامُ العَرَبِ:

كثر النّزاع بين القبائل العربيّة في الجاهليّة بسبب الاختلاف على السّيادة ، أو التّسابق على موارد الماء ومنابت الكلا ، فوقعت بينهم حروب كثيرة أريقت فيها الدّماء في أيّام معدودة معلومة ، عُرفَت هذه الحروب بأيّام العرب ، ومن أشهرها(١) :

حرب البَسُوس: والبسوس اسم امرأة ، وهي خالة جَسَّاس بن مُرَّة الشَّيباني ، كانت لها ناقة يقال لها سَرَاب ، رآها كُلّيبُ وائل في حِاه ، فرمى ضَرْعها بسهم ، فوثب جَسَّاس على كُليب فقتله ، فهاجت حربُ بكر وتَغْلبَ ابني وائل بسببها أربعين سنة ، حتَّى ضربت بها العرب المثل في الشؤم ، وبها سُمِّيت حرب البسوس ، ومن أمثال العرب : « هو أشأمُ من البسوس » (٢)

قاحِسُ والغَبْراء (٣): بين عَبْس وذُبيان ، وكان سبب هذه الحرب أن قيس بن زهير ، وحمل بن بدر تراهنا على داحس والغبراء ، أيّها يكون له السّبق ، وفي اليوم الحدّد للسّباق ، أكن حمل بن بدر فتياناً على طريق الفرسيْن ، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردّوا وجهه عن طريقه ، وهذا ماكان ، فثارت الحرب بين عبس وذبيان ، وبقيت أربعين سنة سجالاً بينها ، حتّى ملّت عبس الحرب ، بعد أن قلّت الرّجال

⁽١) انظر تاريخ الإسلام: ٥٢/١ ، وللتُّوسُّع: (أيَّام العرب في الجاهليَّة) ، محمد أحمد جاد المولى .. دار إحياء الكتب العربيَّة .

⁽٢) وفي كتــاب : (أيَّــام العرب في الجــاهليّــة) : ١٦٥ : « وملَّت جموع تغلب فصــالحوا بكراً ، ورجعوا إلى بلادهم ، وتركوا الفتنة » .

⁽٣) كان داحس فحلاً لقيس بن زهير ، والغبراء فَرَس لحمل بن بدر ، والدَّحْسُ لغة : امتلاء أكمة السَّنبل من الحبّ ، [اللَّسان : دحس] .

والأموال ، وهلكت المواشي ، وقالت : نرجع إلى إخواننا من ذبيان ، فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم (١) .

أيَّام الفِجَار (٢): هي حروب وقعت في الأشهر الْحَرَم بين قبائل من عرب الحجاز ، والفجار الأول بين كنانة وهوازن ، والفجار الثَّاني كان بين قريش وهوازن ، والفجار الثَّالث كان بين كنانة وهوازن .

ومن أشهر هذه الأيّام: الفجار الرّابع، والّدي كان بين قريش وكنانة من ناحية ، وهوازن من ناحية أُخرى ، وسببها: قَتْلُ البرّاض الكناني عروة الرّحال الكلابي من هوازن ، فأبت هوازن أن تقتل بعروة البرّاض ، لأنّ عروة سيّد هوازن ، والبرّاض خليع من بني كنانة ، وأرادوا أن يقتلوا به سيّداً من قريش .

تجمّعت قريش وكنانة بأشرها والأحابيش (٢) بقيادة حرب بن أُميَّة ، وعلى مجنبته الأُولى عبد الله بن جَدْعان ، وعلى مجنبته الثّانية هشام بن المغيرة ، وجمعت هوازن وسُلَم جموعها وأحلافها ، وكان على بني عامر ملاعب الأسِنَّة أبو براء ، وعلى بني نصر وسعد وثقيف سبيع بن ربيع ، وعلى بني جُشَم الصَّمَّة (والد دريد) ، وعلى غطفان عوف بن أبي حارثة ، وعلى بني سُلَم عباس بن زَغَل ..

كانت أيَّام الفِجَار خمسة في أربع سنين ، أوَّلها يوم نخلة ، ثمَّ يوم شَمْطَة ، ثمَّ يوم العَبْلاء ، ثمَّ يوم عكاظ ، ثمَّ يوم الْحُرَيرة (٤) ، ثمَّ كان الرَّجلُ بعد ذلك يلقى الرَّجلُ ،

⁽١) أيَّام العرب في الجاهليَّة : ٢٤٦ _ ٢٧٧

 ⁽٢) في اللَّسان : الفِجَارُ يوم من أيَّام العرب ، وهي أربعة أفْجِرَةٍ .. سمَّت قريش هذه الحرب فِجاراً لأنها
 كانت في الأشهر الْحُرُم ، فلما قاتلوا فيها قالوا : قد فَجَرْنا فسمِّيت فِجاراً .

 ⁽٣) الأحابيش : يسمون أحابيش قريش ، وسمُّوا كذلك لأنَّهم تحالفوا بالله أنَّهم ليد على غيرهم ، ماسجا ليلً وما وضح نهار ، وما رسا حُبْشِيٍّ ، وفي (معجم البلدان ٢١٤/٢) : حُبْشِيٍّ : جبل بأسفل مكّة بنعان الأراك .

⁽٤) لخلة : موضع قريب من مكَّة فيه نخل وكروم ، وهي (نخلة محمود) كما في [معجم البلدان : ٢٧٧/٥] ، =

والرَّجلان يلقيان الرَّجلَيْن ، فيقتل بعضهم بعضاً ، ثمَّ تداعَوْا إلى الصَّلح على أن يعدُّوا القتلى القتلى ، فأيُّ الفريقَيْن فضل له قتلى أخذ ديتُهم من الفريق الآخر ، فتعادُّوا القتلى فوجدوا قريشاً وبني كنانة قد أفضلوا على قيس عشرين رجلاً ، وانصرف النَّاس بعضهم عن بعض ، ووضعوا الحرب (۱) .

وهذه الحرب كانت قبل مبعث النَّبِيِّ عَلِيْكُ بست وعشرين سنة ، وقد شهدها عَلَيْكُ وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، قال عَلَيْكُ : « كنت أنبل على أعمامي يوم الفِجَار وأنا ابن أربع عشرة سنة »(٢) .

حِلْفُ الفُضُول : قال ابن الأثير (٢) : « ثمَّ إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحِلْف ، فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنّه ، وكانوا بني هاشم ، وبني عبد المطلّب ، وبني أسد بن عبد العُزّى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرَّة ، فتحالفوا وتعاقدوا ألاَّ يجدوا بمكَّة مظلوماً من أهلها ، ومن غيرهم من سائر النّاس إلاّ قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ، حتَّى تردَّ مظلمته ، فسمَّت قريش ذلك الحلف (حلف الفضول)(٤) ، فشهده رسول الله عَرِيلًا وقال - حين أرسله الله تعالى -: لقد شهدت مع

و قَمْطَة : موضع قريب من عكاظ ، [معجم البلدان : ٣٦٣/٣] ، والعَبُلاء : علم على صخرة بيضاء إلى جنب عكاظ ، [معجم البلدان : ٨٠/٤] ، والْحُرَيْرَةُ : موضع بين الأبواء ومكَّة قرب نخلة ، [معجم البلدان : ٢٠٠/٢] .

⁽١) أيَّام العرب في الجاهليَّة : ٣٣٧

⁽٢) العقد الفريد : ٣٦٨/٣

⁽٣) الكامل في التَّاريخ: ٢٦/١

⁽³⁾ كان نفر من جُرْهُم يقال لهم: الفضيل بن الحرث ، والفضيل بن وداعة ، والمفضل بن فضالة ، اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقرَّوا ببطن مكَّة ظالماً ، وقالوا لا ينبغي إلاّ ذلك لما عظَّم الله من حقها ، فقال عرو بن عوف الجرهي:

إنَّ الفضول تحالفوا وتعاقدوا أن لا يقرّ ببطن مكَّة ظلسالِم أمرَّ عليه تعاهدوا وتواثقوا فالجسارُ والمعترُّ فيهم سسالِم ثم دُرسَ هذا الحلف، فأحيته قريش مجدَّداً، [الكامل في التَّاريخ: ٢٦/١].

عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أُحبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعَم ، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت »(١) .

☆ ☆ ☆

مَعَارِفُ العَرَبِ :

من الطّبيعي أن يتاز أهل مكّة بنشاط تجاري ، بسبب طبيعة أرضهم الصّخريّة ، فلا ماء ولا زرع من ناحية ، ولكونها محطّة هامّة للقوافل التّجاريّة القادمة من الين ، والمتّجهة شالاً إلى الشّام والعراق من ناحية ثانية ، لذلك أصبحت مكّة منذ القرن السّادس الميلادي مركزاً للتّجارة بين الين والشّام والحبشة والعراق .

ولقد أثرت قريش من التّجارة ثراءً عظياً ، « وبما أنّ التّجارة تقتضي عِلْماً بالسّياسة العامّة ، والعلاقات التّجاريّة ، عني القرشيّون بالوقوف على العلاقات بين فارس والرَّوم ، وبين الين والحبشة ، دون معيقات تعترض تجارتها ، وبذلك كانت تجارة قريش مدرسة لتكوين أفراد يصعب على المدارس العاديّة تخريجهم فيها ، كا تقتضي التّجارة علماً خاصاً بالحساب التّجاري ، وكلّ ما يتعلّق بالتّجارة من مكاييل ومقاييس »(٢).

وكانت مكَّة مركز الحركة الأدبيَّة ببلاد الحجاز ، يفد إليها العرب من جميع أرجاء الجزيرة في أيَّام الحج ، وفي المواسم ، فيتناقلون الآداب الاجتماعيَّة بعضهم من بعض ، ويتناشدون الأشعار ويتفاخرون بشرف أصلهم وكرم محتدهم .

أمًا المعارف الَّتي حذقها العرب بحكم البيئة الَّتي عاشوها ، وطبيعة البلاد الَّتي درجوا على أرضها ، فهي :

⁽١) رواه ابن إسحاق في السِّيرة كما في ابن هشام : ٩٢/١ ، وأخرجه الإمام أحمد : ١٦٥٥ و ١٦٧٦

⁽٢) تاريخ الإسلام: ٦٣/١

(الأنواء) : ومنها التَّعرُّف على أوقات نزول الغيث ، وهبوب الرِّياح ، وأنواع السَّحب ، وأحوال الجو .

(القيافة) : فقد كانت لهم دراية خاصّة بمعرفة آثار الأقدام ، وساعدهم على ذلك الأراضي الرّمليّة .

(الأنساب) : ولحفظ الأنساب أهيَّة في عقد محالفات العرب ، أو في شنِّ الغارات ، أو المنافسة على مركز الرِّئاسة فيهم .

هذا .. وامتزجت معارفهم الطّبيّة بالكهانة أحياناً ، ومن أشهر أطبّائهم : الحرث بن كلدة الثّقفي ، الذي وفد على كسرى أنوشروان ـ أعظم ملوك السّاسانيّين ـ ، والنّضر بن الحرث بن كلدة (۱) .

\$ \$ \$

دينُ العرب:

كان معظم العرب وثنيِّين ، ويقال إنَّ الَّذي نقل الوثنيَّة إلى العرب هو عمرو بن لُحَي الْخُزَاعي كا يذكر ابن الكلبي في كتاب الأصنام ، وكان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها ، وكان :

هُبَل : أعظمها شأناً ، وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد الينى ، فصنعت له قريش يداً من ذهب ، وعنده كانت تستقسم بالقِدَاح (٢) .

ومَنَاة : كانت أقدم الأصنام ، وهي إلهة القضاء ، ولا سيا قضاء الموت ، نُصِبت على ساحل البحر بقديد بين يثرب ومكّة ، وكانت تعظّمها الأزد والأوس والخزرج .

واللات : بالطَّائف ، وكانت صخرة مربِّعة أُقيم عليها بناء ، وقامت ثقيف على سدانتها .

⁽١) عيون الأنباء في طبقات الأطبًاء ، لابن أبي أصيبعة ، ص : ١٦١ ، طبعة دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

⁽٢) القداح : هي الأزلام ـ أي السّهام ـ الّتي كان أهل الجاهليّة يستقسمون بها ، [اللّسان : زلم] .

والعُزَّى : شجرة كانت لغطفان يعبدونها في وادي نخلة .

ومن معبودات العرب الوثنيّين: سُواع بأرض ينبع، ووُدّ بدُومة الجندل، ويغوث، ويعوق، ونسرا في الين (١).

وعرفت شبه جزيرة العرب أيضاً ، ديانات أخرى منها :

الصَّابِئة : ويعبد أتباعها النَّجوم والكواكب ، وقد انتشرت في الين ، كا انتشرت في حرَّان شالي الجزيرة السُّوريّة .

والزَّرادُشتيَّة: وهي ديانة رمزيَّة تقول بأنَّ في العالم قوَّتين هما الخير والشَّر، ويرمز لإله الخير بالنُّور، ولإله الشَّر بالظُّلمة، والنَّار عندهم مصدر النُّور الَّذي هو أساس الخير.

واليهوديّة: الّتي عُرِفت في الين ، ووادي القرى وخيبر وتياء ويثرب ، واليهود في هذه المناطق عرب تهوّدوا على الأرجح .

والمسيحيّة: انتشرت في قبائل تغلب وغسّان ، وفي الين عن طريق الحبشة .

والحنيفيَّة : الَّتِي عرفت التَّوحيد ، وآمنت بالبعث بعد الموت ، وهي استرار لديانة إبراهيم عليه السَّلام .

☆ ☆ ☆

الاضطرابُ الفِكْريُّ قُبَيْلَ البعثَةِ:

انقسمت المسيحيّة عندما درست طبيعة السيّد المسيح عليه السّلام ، فإبيون يرى أن المسيح لا يساوي الآب ، بل هو بشر مثلنا ، امتاز عن غيره بالنّبوّة ، كا أنكر صَلْبَ (١) وفي الحيرة وفي سيناء قُدَم عدد من الأسرى قرابين (لڤينوس) : الزّهرة ، والتي عبدت مع القمر والشّبس في الين أيضاً ، وخصً الحضريّون (في مملكة الحضر : عربايا) الشّبس مكانة خاصّة في عبادتهم ، وعرفت تدمر أربعين إلها ، مثّل بعل الإله الأهم بينها .

المسيح . ورأى آريوس أن المسيح غير مساو للآب في الجوهر ، وأنكر ألوهيّة المسيح ، واعتقد نسطور أنَّ الله لم يلد ولم يولد ، وأنَّ المسيح ليس إلها ، ومريم لا تُدعى أم الله ، بل أم المسيح (١) .

وأغرقت اليهوديّة في ماديّتها وعنصريّتها ، فاليهود ـ حسب معتقدهم ـ أبناء الله وأحبّاؤه ، وهم شعب الله الختار .

وعجزت الفلسفة اليونانيّة عن حلِّ مشكلة أصل الوجود .

وفي بلاد فارس اعتقدت الزّرادُشتيَّة أنَّ للوجود إلهَيْن (الخير والشَّر) يتنازعان ، ثم دعا (ماني) (٢) إلى فناء الجنس البشري لأنَّ الإنسان لعنة على الأرض ، وقرَّر والخطيئة باقية ببقائه ، ثمَّ جاء (مزدك) (٢) ليعلنها إباحيَّة في المال والنساء ، وقرَّر الانفلات من كلِّ قيد .

وفي الهند جعل البراهمة الجمع خس طبقات: الكهنة ـ وحسب اعتقادهم ـ خُلِقُوا من رأس الإله براهما ، والجند خُلِقوا من كتفيه ، ومن ركبتيه خُلِق الزَّراع ، وخُلِق الحدم والرَّقيق من قدميه ، والمنبوذون ـ أولاد الزِّني ـ طبقة لا تنتسب إلى طبقة .

كتابهم (الڤيدا) $^{(2)}$ يعود إلى ١٥٠٠ ق.م ، يعتقد بعضهم أنَّ له أصلاً سماويّاً .

⁽١) انظر: قصة الحضارة ، ومحاضرات في النَّصرانيَّة ، والعقائد الوثنيَّة في الدّيانة النَّصرانيَّة ، إظهار الحق ، مقارنة الأديان ، دراسة الكتب المقدِّسة على ضوء المعارف الحديثة .

⁽٢) ماني : [٢١٥ ـ ٢٧٦ م] .

⁽٣) مزدك : داع فارسي ، أيّد مذهبه الملك قباذ الأوّل [٤٨٨ م] حتّى خُلع فأعاد كسرى أنوشروان الزّرادُشتيّة .

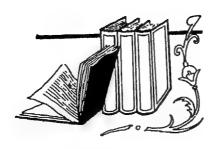
 ⁽٤) الثيدا: تعني المعرفة ، وهي المعرفة لكسب رضاء الخالق ، بقي منها أربعة أسفار: ڤيدا الأناشيد ،
 وڤيدا النَّغات والتَّراتيل عند شرب شراب السَّوما ، وڤيدا القرابين ، وڤيدا الرَّق السَّحريَّة .

ثمَّ ظهر (بوذا)^(۱)، وكانت دعوته خلقيَّة لتخفيف ويلات الإنسانيَّة الَّتي أرهقها نظام الطَّبقات .

وفي الصِّين تعود الكونفوشيوسيَّة في أُصولها إلى البوذيَّة ، ومن وصاياها : لا تَقْتُل ، لا تسرق ، لا تكذب ، ولا تشرب خراً .. وَعُبدَ كونفوشيوس (٢) بعد وفاته .

لقد سادت الوثنيَّة العالم ، وأمسى الإنسان الَّذي استخلف الله في الأرض مسخَّراً لشهواته ، وأصبح العالم بحاجة إلى دين يعيد أنوار التَّوحيد الخالص .





⁽١) بوذا (بدها غَوتَها) ، حوالي [٥٦٦ ـ ٤٨٦ ق.م] من حكماء الهند ، لُقَّب ببوذا أي (المنوَّر) .

⁽٢) كونفوشيوس : نحو [٥٥١ ـ ٤٧٩ ق.م] ، فيلسوف صيني .

البعثة النّبويّة

طبيعة الرَّسالة الخاتمة : عامَّة للعالمين ، وتخاطب العقل ، وتجمع النَّاس حول شرع الله ، ومعجزتها خالدة باقية ، وحقائقها ثابتة ، لأنَّها تنزيل مهين عليم .

أرْضُ النُّبوَّة:

يرى بعض المستشرقين أن بيت المقدس (أورسالم) أرض النّبوّة فقط ، لظهور داود وسليان وعيسى فيها ، وهذا رأي باطل ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، يختار سبحانه الزّمان والمكان المناسبين ، ولقد أرسل هوداً في الأحقاف ، وصالحاً في الحجر(٢) ، وإسماعيل في الحجاز ، والأحقاف ، والحِجْر والحجاز أليست في أرض شبه جزيرة العرب ؟!

ومع ذلك : الحجاز قلب القارات القديمة ، لذلك قيل : « الكعبة سُرَّة الأرض » ، أي تقع في مكان متوسِّط بينها ، وفي الحجاز مكَّة ، وفي مكَّة الكعبة الَّتي بناها أبو الأنبياء ، إبراهيم عليه السَّلام ، والحجاز لم تكن بمعزل عن قلب العالم القديم مطلقاً ، فكَّة _ أهمُّ مدن الحجاز قبل الهجرة _ كانت عقدة مواصلات تجاريَّة .

وُلد محمد بن عبد الله عَلَيْكُم بكّة فجر يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأوَّل ٥٣ ق.هـ ، الموافق للثلاثين من شهر آب (أغسطس) سنة ٥٧٠ م، من أوسط قريش ، من أسرة فيها سموَّ وعَلُو ، ولم يكن سموَّه عَلِيلِيَّ وشرفه بأنَّه من خيرهم مالاً

⁽١) الأَحْقَاف : واد بين عَهان وأرض مَهْرَة في حضرموت ، [معجم البلدان : ١١٥/١] .

⁽٢) الحِجْر : ديار تمود بوادي القرى (شالي المدينة سؤرة) ، [معجم البلدان : ٢٢٠/٢] .

وسطوة ، بل كان شرفه بأنَّه من خيرهم نفساً وبيتاً ، فلجده قُصي سدانة البيت ، وإمرة مكَّة ، والحجابة والرِّف ادة والسَّق اية ، ورئاسة دار النَّدوة (دار الشُّورى لقريش) ثمَّ لكل العرب ، التي كانت تعقد في دار قصيّ ، والَّذي كان له اللَّواء أيضاً .

ولعبد المطَّلب - حفيد قصي - رئاسة قريش ، استحقَّها بقوَّة نفسه ، ورفيع خلقه وسماحته ، في طلعته يُمْن وعزية وقوَّة ، مع هدوء وطيب من غير هوان ، وهو الَّذي حفر زمزم بعد أن ردمتها جُرْهُم برؤيا صادقة مكرَّرة ، لمس عَلَيْكُمْ في حضانته عزَّة الرَّجال ، وحكة الشَّيوخ ، وعطف الأبوَّة (١) .

وأُمُّه آمنة بنت وهب الزُّهريَّة ، تشبه البتول في سموِّها وصبرها ، حملت سرَّ هذا الوجود ، وكأنَّها أودعت أمانة النَّبوَّة لتحتفظ بها ، ولا هادي يهديها إلاَّ ماانبعث في نفسها من نور الفطرة والإحساس بعبء الأمانة ، فأحداث هذا الوجود تسير على مقتضى ناموس كوني ثابت عند ربِّ العالمين .

كَافِح مَرْفِيْكُ مِن أَجِل لقمة العيش ، ثبت أنَّه مَرْفِيْكُ رعى الغنم في مكَّة ، ثمَّ عمل مع عُه أبي طالب بالتِّجارة ، وسار معه إلى بُصْرى ، وهو ابن تسع أو ابن اثنتي عشرة سنة ، حيث لاقاه بَحِيرَى الرَّاهب (٢) ، حيث نزل ركب التِّجارة قرب صومعته ، فرأى غمامة تظلَّه ، وشجرة تتهضَّر (٢) فروعها عليه .

وهنا يرى عدد من المستشرقين والمبشّرين أن القرآن وكلَّ ما فيه من تأليف الرَّاهب بَحِيرى ، أعطاه محمداً أثناء وجوده في بُصرى ، عندما سافر مع عمّه إلى بلاد الشَّام .

⁽١) خاتم النَّبيِّين ، محمد أبو زهرة ، ص : ١١٥

⁽٢) بَحِيرى : كلمة آراميَّة ومعناها (المنتَخَب) ، واسمه (سرجيوس) ، [دائرة المعارف الإسلاميَّة : ٣٩٦/٣] .

⁽٣) جاء في [اللَّسان : هصر] : وفي الحديث : أنَّه عَلِيْكُ كان مع أبي طالب ، فنزل تحت شجرة فتهصَّرتُ أغصانُ الشَّجرة ، أي تهدَّلت عليه .

وردُّ هذه الشُّبهة يكن أن نجمله بما يلي (١):

لاذا لم يجمع بحيرى قومه من حوله ، فيغلب بهم من سواهم ، بعد أن يدَّعي القرآن لنفسه ؟

وهل كان بحيرى رئيس (أكادييّة) تخرّج الأنبياء، والكتب المعجزة ؟

وزمن الزّيارة قصير جدّاً ، وحجم القرآن كبير ، والطّفل - محمد بن عبد الله - أُمّي ، فَلِمَ لم يختر بحيرى شابّاً ناضجاً ، وقارئاً متعلّاً ، يعود إلى ماأعطاه - قراءة ومراجعة - متى شاء ؟!

وما العلاقة بين محمد وبحيرى ؟ وما تاريخها ؟ وما نوعها ؟ ولماذا اختـار طفلاً من مكّة بالذَّات ؟!

وقريش _ قبيلة محمد _ حاضرة بعدد من رجالاتها ، فلو أعطاه شيئاً لقالت _ عندما قال لها : هذا كتاب الله الموحى إليّ _ : لا .. بل أعطاكه بحيرى في بصرى بوجودنا !!

وأين بحيري من أحداث ما بعد البعثة ، وأحداث ما بعد الهجرة (٢) ؟

والإعجاز الغيبي ، والعلمي فوق طاقة القدرات البشريَّة ، ومن أين لبحيرى (الأعجمي) هذا الإعجاز اللُّغوي ؟

إن بحيرى هو المستفيد الأوَّل والأخير من لقائمه بمحمد بن عبد الله عَلَيْكُم ، فلولا هذا اللَّقاء لاندثر اسم بحيرى كما اندثرت أسماء أُلوف الرَّهبان من قبله ومن بعده .

⁽١) انظر الجلسة الثَّانية في كتاب (الإسلام في قفص الاتَّهام) ، والَّتي تحت عنوان : (القرآن والكُهَّان) .

ر٢) لم يدرك بحيرى القرن السَّابع الميلادي ، ففي (المنجد في الأعلام) ـ وهو قاموس مسيحي ، جاء ص : ١١٩ أنَّه عاش في النَّصف الثَّاني من القرن السَّادس .

ثمَّ تاجر ﷺ في مكّة ، مع شركاء منهم : السَّائب بن أبي السَّائب ، وسُمِّي في هذه الفترة (الأمين) فإن أُطلقت لا تنصرف إلاَّ إليه .

ولم ينقطع على عن قومه في أعمالهم الجماعيّة ، وكان يحضر (دار النّدوة) ، ولما جاء وفد من الين ورأى فيه كبارهم نظرات قويّة أحياناً ، وهادئة مستبشرة أحياناً أخرى ، قال أحدهم : مالي أرى هذا الغلام تارة ينظر إليكم بعيني لبؤة ، وأخرى بعيني عذراء خفرة (۱) ، والله لوأن نظرته الأولى كانت سهاماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً ، ولو أن نظرته الأنشرت أمواتكم (۱) .

وشارك ﷺ وهو ابن عشر سنين في حرب الفِجَار ، وشهد حلف الفضول ، ولفت بواهبه نظر خديجة بنت خويلد ، الَّتي كانت تُدعى في الجاهليَّة (الطَّاهرة) ، فكان زواج (الأمين) بِـ (الطَّاهرة) ، و (الأمين) أروع صفــة تطلق على رجـل ، و (الطَّاهرة) أجل صفة تطلق على امرأة .

☆ ☆ ☆

طبيعة الرّسالة الخاتِمة :

كان عَلَيْكُم يَتعبَّد في غار حِرَاء (٤) ، على دين إبراهيم (الحنيفيَّة) ، حتَّى نزل عليه جبريل بِ ﴿ آقُرَا ﴾ وهو في الأربعين من عمره ، لتبدأ مسيرة شريعة الإسلام ، شريعة خامّة ، وبذلك يكون محمد بن عبد الله عَلِينَ خاتم الأنبياء والمرسلين أيضاً ، ولهذا جاءت شريعة الإسلام تميَّز بما يلي :

السّائب بن أبي السّائب : وابم أبي السّائب صيفي بن عائد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي ، اختلف في إسلامه ، قال عنه علي : « نعم الشّريك ، كان لا يُشارِي ولا يُمَارِي » ، [أسد الغابة : ٣١٥/٢] ، والمشاراة : اللّجاج والجادلة بالباطل .

⁽٢) الْخَفَرُ: شِدَّة الحياء ، [اللَّسان : خفر] .

⁽٢) خاتم النَّبيِّين ، ص : ١٨١ ، عن (زهرة الآداب) .

⁽٤) حِرّاءُ: جبل من جبال مكَّة على ثلاثة أميال ، معجم البلدان : ٢٣٣/٢] .

١ ـ عامّة للعالمين:

- ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكُرٌ لِلْعَالَمِينَ ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ، [ص : ٨٧/٢٨ و ٨٨] .
 - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، [الأنبياء: ١٠٧/٢١].
- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزُّلَ الفُرْقانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعالَمِينَ نَذِيراً ﴾ ، [الفرقان : ١/٢٥] .

بينا: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ .. ﴾ ، [الأعراف: ١٠٥٥] ، ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُم شُعَيْباً .. ﴾ ، [الأعراف: ١٠٥٨] ، ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً ﴾ ، [الأعراف: ١٠/٧٧] ، ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُم هُوداً ﴾ ، [هود: ١١/٥٠] ، وموسى أرسل لقومه ، والسّيّد المسيح أرسل لخراف بني إسرائيل الضّالة .

٢ - تُخَاطِبُ العَقْلَ : لكمال نضجه ، فلا كسب للأتباع بالعواطف ، ولخلوده وبقائه ، لاأسرار ولا رموز :

﴿ قُلُ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْفَ بَـدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشَأَةَ الآخِرَةَ إنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، [العنكبوت: ٢٠/٢٩] .

﴿ قُلُ هَلُ يَسْتَوِي الَّـذِينَ يَعْلَمـونَ وَالَّـذِينَ لاَ يَعْلَمُـونَ إِنَّا يَتَـذَكَّرُ أُولِـوا الأَلْبَابِ ﴾ ، [الزَّمر : ٧/٣٩] .

﴿ وَقَـلُ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ ، [طه: ١١٤/٢٠] ، علماً يصلح أمر الفرد والمجتمع في الدّين والدُّنيا ، وقال ﷺ : « ليس منّي إلاّ عالِم أو مُتعلّم » ، « العِلْم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة » .

ووردت آيات عديدة في القرآن الكريم فيها ذكر: ﴿ أُولُوا الأَلْسِابِ ﴾ ، وهواضع عديدة ذكر فيها القرآن الكريم آيات يُخَاطب بها ﴿ قوم يَعْقِلُون ﴾ .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتِ لأُولِي الأَلْبابِ ﴾ ، [آل عران: ١٩٠/٢] .

٣ - جمعت النَّاسَ حَوْلَ شَرْعِ الله : لا حول شخصه عَلَيْكَةٍ ، فهي شريعة إلهيَّة إلى السلاميّة ، لا شريعة محمَّديّة ، مع أنَّه عَلِيْكَةٍ قبل البعثة مثال الرَّجولة الكاملة ، والأمانة المطلقة ، والإنسانيّة التَّامّة ، فهو (المصطفى) ، وهذا الاصطفاء أثبت الزَّمان صحّته وروعته .

٤ ـ معجزة خالدة : ليست آنيَّة استفاد منها من رآها ، فمعجزة القرآن الكريم باقية خالدة لمس العربي الإعجاز اللَّغوي والعلمي فيها ، ولمس الأعجمي الإعجاز العلمي والتَّشريعي والاجتاعي ..

ولطبيعة الرِّسالة الخاتمة ، جاءت الآيات تؤكِّد على (الظَّاهرة القرآنيَّة) معجزةً إلهيَّة ، وترفض الخوارق والمعجزات الآنيَّة :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِن رَبِّهِ قُلْ إِنَّا الآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّا أَنَا نَذيرٌ مَبِينٌ ﴿ أَوَلَمْ يَكُفِهِمِ أَنَّا أُنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحَمَةً وَذِكرَى لِقَوْم يؤمِنُونَ ﴾ ، [العنكبوت: ٥٠/٢٩ و ٥٠] .

﴿ فَلا تُطِعْ الكافِرينَ وَجَاهِدُهُم بِهِ (١) جِهاداً كبِيراً ﴾ ، [الفرقان : ٢/٢٥] .

ه ـ حقائقه ثابتة : وكلَّ ما في القرآن الكريم من أخبار تاريخيَّة ، ولفتات كونيَّة ، وعليَّة ، وطبيعيَّة .. مها مرَّ الزَّمن ، وتقدم العلم وارتقى ، لا تُنْقَض ، ولن يأتي العِلْم بما يعاكسها ، فهي تنزيل مهين عليم ، وهو أعلم بما خَلَقَ ، فهي لا تحتل الخطأ مطلقاً :

⁽١) بــه: يعني القرآن: انظر مثـلاً مختصر تفسير الإمـــام الطّبري ، ص: ٢٠٩، وفي تفسير الجــلالين: ﴿ وجاهدهم به ﴾ أي القرآن ، ص: ٤٨٢، وفي الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور: ٧٤/٥: ﴿ وجاهدهم به ﴾: بالقرآن.

- ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ ، [يس: ٢٨/٢٦].
 - ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ ، [الزُّمر : ١٣٩٥] .
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكِ يَسْبَحُونَ ﴾ ، [الأنبياء : ٢٣/٢١] .
 - ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِي تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. ﴾ ، [النَّمل : ٨٨/٢٧] .
- ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْض .. ﴾ ، [النّور: ٤٠/٢٤] .
 - ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً ﴾ ، [نوح : ١٦/٧١] .
- ﴿ أُولَمْ يَرَ الَّـذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَـواتِ وَالأَرْضَ كَانَتَـا رَتْقَـاً فَفَتَقْنَـاهُما ﴾(١) ، [الأنبياء: ٢٠/٢١] .
 - ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ ، [الذَّاريات: ١٧/٥١] .
- ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ (١) الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأَنْثَى ﴾ ، [القيامة : ٢٨/٧٥ و ٢٦] .
- ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ (٢) وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ ، [الرُّوم: ٢/٢٠ و ٣] .
- ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ، [الرَّعد: ٧/١٣] ، وحمَّد بن عبد الله عَلِيلَةٍ لِكُلِّ الأقوام: ﴿ قَلْ يَسَالُيُهِ النَّسَاسُ إِنِّي رَسَولُ اللهِ إليكُم جَميعاً ﴾ ، [الأعراف ١٥٨/٧] ،
 - (١) الرُّتق ضدّ الفتق ، أي كانت ملتئة ، [اللَّسان : رتق] .
- (٢) يقرر القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة أنَّ جنس المولود مصدره الرَّجل ، وهذه حقيقة عليَّة أيضاً
 جاءت متأخرة جداً عن كتاب الله الجيد .
 - (٣) دنا الشِّيء دنوّاً : قَرُب ، والأدنى : السَّفُل ، نقيض العُلُو ـ أي المنخفض ـ ، [اللَّسان : دنا] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ ، [سأ : ٢٨٧٢] ، لذلك جاءت معجزته باقية لكل عصر ، يستطيع كلُّ عالِم كبير ، أو (أكاديمي) مختص أن يدرس القرآن ويتفحَّصه من خلال اختصاصه فيدهش .

☆ ☆ ☆

دَعْوَةُ الحق :

بدأت الدَّعوة بنبوَّة مُحَّد عَلِيْكَ ، كَا أَرادها الله أَن تكون ، ثمَّ أنذر عشيرته الأقربين ، ثمَّ قبيلته وقومه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنا إلَيكَ قُراناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ، [الشُّورى : ١٤٧٧] . ثمَّ (الهدف) البشريَّة جمعاء ، والعالَم كلُه : ﴿ إِنْ هُوَ الله ذِكْرُ وَقُرانَ مُبِينٌ ثم لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً .. ﴾ ، [يس : ١٩/٢٦ و ٧٠] ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَة بِالْمُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ علَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلُو كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ، [التَّوبة : ٢٢/١] .

وتتجلَّى عالميَّة الدَّعوة الإسلاميَّة وتتوضَّح أيضاً بما يلي :

- تنبُّو رسول الله عَلِيْنَ عند هجرته إلى المدينة ، وهو في أشدَّ ساعات الحرج والخطر بأنَّ سُراقة بن مالك سيلبس سواري كسرى ونطاقه عندما قال له : كيف بك ياسراقة إذا سوِّرت بسواري كسرى ؟! قال سراقة : كسرى بن هرمز ؟ قال عَلِيْنَهُ : نعم (١) .

- وصيَّة رسول الله عَلَيْتُهُ لصحابته بأن يستوصوا بأهل مصر خيراً عندما قال: إنَّ الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإنَّ لهم فيكم صهراً وذمَّة (٢٠).

⁽۱) الكامل في التَّاريخ : ۷٤/۲ ، عيون الأثر : ١٨٢/١ ، ابن هشام : ٩٦/٢ ، البداية والنَّهاية : ١٨٥/٣ ، السِّيرة النَّبويَّة : ٢٧٢/١

⁽٢) الطّبري : ٢٢٨/٤

- وقال عَلِينَ لرسولَي باذان عامل الين من قبل كسرى : إن ديني وسلط اني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى (١) .

* * *

محمَّد عَلَيْكُم (الإنسان) :

شدور من كلامه عَلَيْنَ : الَّذي هو النَّهايةُ في البيان ، والغايةُ في البرهان ، المشتمل على جَوَامع الكَلِم ، وبدائع الحِكَم ، وقد قال عَلِينَ : أنا أفصَحُ العرب بَيْدَ أنِّي من قريش ، واستُرضعت في سعد بن بكر (٢) :

وليس بعضُ كلامه بأولى من بعض بالاختيار ، ولا أحقَّ بالتَّقديم والإيثار ، إنَّها شذور من قوله عَلِيْتُ الصَّريح الفصيح ، العزيز الوجيز ، المتضِّن بقليل من المباني كثيرَ المعانى :

- ـ قوله ﴿ وَإِلَيْهِ لِلأَنصارِ : إِنَّكُم لَتَقلُّونَ عند الطَّمع ، وتكثُّرون عند الفَزَع .
- ـ وقوله عَلِيُّ : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويَسْعى بذمّتهم أدنـاهم ، وهم يَـدّ على مَنْ
 - سِوَاهم .
 - _ إِيَّاكُمْ وخَضْراء الدِّمَن (٢) .
 - _ كلَّ الصَّيدِ فِي جَوْفِ الفِرَا^(٤) .
 - _ مَطْلُ الغنيِّ ظُلم .

⁽١) الكامل في التَّاريخ : ١٤٦/٢

⁽٢) ﴿ زَهْرُ الآدابِ وَثُمُرُ الأَلْبَابِ : ٥٩/١ ﴿ طَبِعَةَ دَارِ الجِيلِ ﴾ ، ط ٤ سنة ١٩٧٢ م .

⁽٣) الدّمن : جمع دمنة ، وهي مربط الإبل والخيل ، ينبت فيها النّبات فيكون رائع الخضرة لكثرة الماء والسّماد ، وخضراء الدّمن : كناية عن المرأة الوسية تدرج من بيت السوء ، [زهر الآداب : ٦٠/١] .

⁽٤) الفرّا: حمار الوحش ، « كلُّ الصّيد في جوف الفرا » مثل ، ومعناه أن من قبال الأمر العظيم كان خليقاً أن ينسى ماسواه مما ينال النُّاس .

- _ حمي الوطيس^(١).
- _ مات حَتْف أنفه .
- ـ لا يُلدَغُ المؤمنُ مِن جحرٍ مرَّتَيْن .
 - ـ السَّعيدُ من وُعظَ بغيره .
 - _ ولا ينتطح فيه عنزان .
 - ـ جنَّة الرَّجل دارُه .
- _ النَّاسُ نيام ، فإذا ماتوا انتبَهُوا .
- إنَّكم لن تَسَعُوا النَّاس بأموالكم ، فسَعُوهم بأخلاقكم .
 - ـ ماقلَّ وكفي ، خيرٌ مما كثر وألهي .
 - ـ كلُّ مُيَسَّرٌ لما خُلقَ له .
 - ـ المستشير مُعَان ، والمستشار مؤتمن .
 - ـ من حُسْنِ إسلام المرء تركة ما لا يعنيهِ .
 - ـ النَّدَمُ تَوْبة ، وإنتظارُ الفَرَج عبادة .
 - ـ المرءُ كثيرٌ بأخيه .
- _ كلُّ مَنْ في الدُّنيا ضيف ، وما في يديه عاريَّةٌ ، والضَّيف مُرْتَحِل ، والعاريَّة مؤدَّاة (٢) .

☆ ☆ ☆

- (١) في [اللَّسان : وطس] : وطس الشِّيءَ وَطُساً : كسره ودقِّه ، والوطيس : المعركة لأن الخيل تطبُّها بحوافرها ، قال رَبِيُّ في حنين : الآن حمي الوطيس ، وهي كلمة لم تُسمع إلاَّ منه ، وهو من فصيح الكلام عبر به عن أشتباك الحرب وقيامها عن ساق .
- (٢) قال الجاحظ عن كلامه ﷺ: « الكلام الذي قلَّ عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجلَّ عن الصَّنعة ، ونزه عن التَّكُلُف ، استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السَّوقي ، فلم ينطق إلاَّ عن ميراث حكة ، ولم يتكلم إلاً بكلام حقاً ، العصة ، وهذ بالتَّاييد ، ويسر بالتَّوفيق ، وهذا الكلام الذي ألقى الله تعالى الحبة عليه ، وغشاه

تكامُلُ إنسانيٌّ:

مهيب عَلَيْكُ ، طاف بالبيت ، والملا من قريش جالسون في فنائه ، فكلًا مرَّ غزوا بالقول ، فيبدوا ذلك في وجهه عَلَيْكُ ، ولَمَّا أَتَمَّ طوافَه سبعاً ، التفت إليهم ، وقال لهم : يا معشر قريش ، شاهت الوجوه ، وأرغم الله هذه المعاطس ، فراعهم قوله وأفزعهم ، وقالوا : اذهب أبا القاسم موفوراً ، ما علمنا عليك شراً قط .

وكان أبو جهل أشد النّاس طغياناً على رسول الله عَلَيْهُ ، لا شرف في القول يقيّده ، ولا خُلُق كريم يمنعه ، بل كان الحقد الدّفين يدفعه ، وكان لبعض العرب دين عليه فاطله ، ثم امتنع عن السّداد ، فاستعان الرَّجل ببعض زعماء مكّة ممّن هم على شاكلة أي جهل ، فأحالوه تهكماً على محد بن عبد الله ، فذهب إليه الرَّجل يستعين به ، فذهب عَلَيْهُ إلى بيت أبي جهل الطّاغية ، وطرق الباب ، فخرج إليه ، وفرائِصه ترتعد من العزيمة المحمديّة ، فقال له عَلَيْهُ : أدّ للرَّجل دَيْنَه ، فَذَلً كبرياء الجاهليّة ، وأحضر المال ، وسدّد الدّين صاغراً ، وصار أبو جهل أضحوكة الجاهليّين أشباهه .

وقدم ضِمَادُ بن ثعلبة الأزدي مكّة ، وكان يَرْقي ، فسع سفهاء من أهل مكّة به ، فدعوه ليعرضوا عليه رسول الله عَلَيْتُهُ ، وقالوا : لو رأيت هذا الرَّجلَ لعلَّ الله أن يشفيه على يديك ، فلقيه ، فقال ضِمَاد : يا عمّد ، إنّي أرقي من هذه الرِّيح ، وإنَّ الله يُشفي على يدي من يشاء ، فهل لك ؟

القبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإلهام ، وقلة عدد الكلام ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السّامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلّت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبدأ الخطب الطّوال بالكلام القصير ، ولا يلمس إسكات الخصم إلا بما يعرف الخصم ، ولا يحتج إلاّ بالصّدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطئ ، ولا يعجل ، ولا يسهب ، ولا يحصر ، ثمّ لم يسمع النّاس بكلام قط أثم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل خرجاً ، ولا أفصح في معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه منظياً » .

فقال عَلَيْكَ : إنَّ الحمد لله ، نحمَده ونستعينه ، من يَهْدِه الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يَضْلِل فلا هادي له ، وأنَّ محمَّداً عبده يُضْلِل فلا هادي له ، وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله .

فقال ضاد: أعد علي كالماتك هؤلاء ، فأعادهن على ثلاثا ، فقال : والله لقد سمعت قول الشّعراء ، فما سمعت مثل معت قول الشّعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكامات ، والله لقد بلغت قامُوس (١) البحر ، فمدّ يدك أبايعك على الإسلام ، فدّ على قومي (٢) .

تكامل إنساني ، مع العفو والتَّسامح والرِّفق والحياء ، واللَّطف في المعاملة والتَّاديب ، قال خَوَّات بن جبير : نزلت مع رسول الله عَيِّلَةٍ عِرِّ الظَّهران (٢) ، فخرجت من خبائي فإذا نسوة يتحدَّثن فأعجبنني ، فرجعت فأخرجت حُلَّة من عيبتي فلبستها ، ثمَّ جلستُ إليهن ، فرَّ رسولُ الله عَيِّلَةٍ فهبتُه ، فقلت : يا رسول الله جمل لي شَرُود ، وأنا أبتغي له قيداً !

فمضى رسول الله ﷺ وتبعتُه ، فألقى إليَّ رداءه ، ثمَّ دخل الأراكَ فقضى حاجته ، وتوضّأ ، ثمَّ جاء فقال : ياأبا عبد الله ، ما فعل شَرودُك ؟

ثمَّ ارتحلنا ، فجعل لا يلحقُني إلاَّ قال : السَّلام عليكم ، ياأبا عبد الله ، ما فعل شراد جلك ؟ قال : فتعجَّلت إلى المدينة ، واجتنبت السجد ، ثمَّ أتيت السجد فجعلت أصلي ، فخرج رسول الله عَلَيْنَ من بعض حُجَرِه ، فجاء فصلى ركعتَيْن خفيفتَيْن ، وطوَّلت الصَّلاة رجاء أن يذهب ويدعني ، فقال عَلَيْنَة : طوِّل ياأبا عبد الله ماشئت ، فلست بقائم حتَّى تنصرف ، فقلت : والله لأعتذرن اليه ، فانصرفت ، فقال عَلَيْنَة :

⁽١) قاموس البحر: قعر البحر، وقيل وسطه ومعظمه (اللسان: قس) .

⁽٢) أسد الغابة : ٣/٥٥

 ⁽٣) مَرُّ الظَّهْرَان : الظَّهران : واد قرب مكَّة وعنده قرية يقال لها مَرَ تضاف إلى هذا الوادي فيقال مرَّ الظَّهران : فيه عيون كثيرة ونخيل لأسلم وهذيل وغاضرة : [معجم البلدان : ٦٣/٤] .

السُّلام عليكم يا أبا عبد الله ، ما فعل شراد الجمل ؟ فقلت : والَّذي بعثك بالحقِّ ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت ، فقال عَلَيْتُم : رحمكَ الله ، رحمكَ الله ، رحمكَ الله ، ثمَّ أمسكَ عنّي فلم يَعُد (١) .

صلَّى الله عليه وسلَّم ، إنَّه غرة القرآن الكريم الأُولى ، كان خُلُقه القرآن ، يرضى برضاه ، ويسخط بسخطه ، إنَّه الكمالُ البشري ، شديدُ الشُّعور بالله : « والَّذي نفس عمَّد بيده .. » ، ومثالُ الرَّجولة ، قال عليَّ رضي الله عنه : « إنَّا كنّا إذا حمي البأس واشتد ، واحمرَّت الحدق ، اتَّقينا برسول الله عَلَيْكُم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه »(٢).

وكان ـ على جليل قدره ـ يمازح أصحابه ويخالطهم ، عن جابر بن عبد الله ، قال : دخلت على رسول الله على الل

زاهر بن حَرَام ، رجل من أهل البادية ، كان يهادي رسول الله عَلِيْنَةٍ بموجود البادية وما يستطرف منها ، وكان عَلِيْنَةٍ يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة وما يستطرف منها ، وكان عَلِيْنَةٍ يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة وما يستطرف منها ، وكان عَلَيْنَةٍ يحبّه ، فأتاه عَلَيْنَةٍ وهو يبيع في السَّوق متاعاً له ، فاحتضنه من خلفه من حيث لا يبصره ، فقال : أرسلني ، من هذا ؟ فالتفت فعرف أنَّه رسول الله عَلِيْنَةٍ ، فجعل يسح ظهره في صدر رسول الله عَلِيْنَةٍ ، فجعل يسح ظهره في صدر رسول الله عَلِيْنَةٍ ، وجعل الرَّسول عَلِيْنَةٍ يقول : من يشتري العبد ؟ فقال زاهر : يا رسول الله إذن تجدني كاسداً ، فقال عَلَيْنَةٍ : أنت عند الله غال (٢) .

⁽١) أسد الغابة : ١٤٨٧ ، أبو عبد الله خَوَّات بن جبير بن النَّعان بن أُميَّة بن امرى القيس الأنصاري الأوسى .

⁽٢) البداية والنّهاية : ٢٧٩/٣

٣) زاهر بن حَرَام الأشجعي ، شهد بدراً مع رسول الله عَلِيْتُهِ ، أُسد الغابة : ٢٤٥/٢

نعيان بن عرو بن رُفاعة الأنصاري ، خرج مع أبي بكر تاجراً إلى بُصْرى ، ومعها سُوَيبط بن حَرْملة (۱) على الزّاد ، فجاء نعيان فقال : أطعمني ، فقال : لاحتّى يجيء أبو بكر ، وكان نعيان رجلاً مضْحاكاً ، فقال : لأغيظننك ، فجاء إلى ناس مرّوا به ، فقال : ابتاعوا منّي غلاماً عربيّاً فارهاً ، وهو ذولسان ، ولعلّه يقول : « أنا حُرّ » ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعُوه ، لاتفسدوا عليّ غلامي ! فقالوا : بل نبتاعه منك بعشر قلائص (۱) ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتّى عَقلَها ، ثمّ قال : دونكم ، هو هذا ، فجاء القوم فقالوا : قد اشتريناك ، فقال سُويبط : هو كاذب ، أنا رجل حر ، فقالوا : قد أخبَرَنا خبرك ، فطرحُوا الحبل في رقبته ، وذهبوا به ، وجاء أبو بكر فأخبر ، فذهب هو وأصحاب له ، فردًوا القلائص وأخذوه ، فلما عادوا إلى رسول الله عَرِيبًة فضحك عَرَبِيهُ وأصحابه منها حَوْلاً (۱)

☆ ☆ ☆

⁽١) وكلاهما بدري ـ نعيمان وسويبط ـ وكأن نعيمان كثير الْمُزَاح يضحك رسول الله عَلِيْنَ من مُزَاحه .

⁽٢) القلائص: جمع قلوص، وهي النَّاقة الشَّابة.

⁽٣) أُسد الغابة : ٥/١٥٣ ، وعيون الأخبار : ٣١٦/١ ، والاستيعاب : ١٥٢٧٤ و ١٥٢٧

⁽٤) القَرَم: شدَّة الشُّهوة إلى اللَّحِم، [اللَّسان: قرم].

⁽٥) أسد الغابة : ٥٠/٥٠ ، وفي الاستيعاب : ١٥٢٧/٤ و ١٥٢٨

الإسلامُ يخرجُ إلى القَبائِل :

بدأ الإسلام يجد طريقه إلى القبائل ، فازدادت مناوأة قريش ، وازداد إيذاؤها ، فكلًا رأت غاء الدَّعوة ، أحسَّت بالخطر الشَّديد على سيادتها ، فتزيد من مقاومتها واضطهادها للمسلمين ، فكانت الهجرة إلى الحبشة ، الَّتي جعل المستشرقون (١) أسبابها تعود إلى :

١ ـ خَوْفِ رسول الله عَلِيَّةِ من خطر الرِّدَّة إن بقوا في مكَّة .

٢ ـ أو : إنَّهم ذهبوا للتَّجارة .

٣ ـ أو : أرسلهم رسول الله عَلَيْلَةٍ لطلب مساعدة عسكريّة .

٤ - أو : إن انشقاقاً وقع ضن الجماعة الإسلاميّة ، جناح بزعامة أبي بكر ، وآخر بزعامة عثان بن مظعون ، فانحاز رسول الله عَيْقِيّة ، وأمر عثان بن مظعون بالهجرة - ومن معه - إلى الحبشة .

مع أنَّه ليس من سبب أكثر من الاضطهاد يمكن أن يدعو إلى الهجرة في كلِّ زمان ومكان (٢).

والحبشة ليست السَّوق التَّجارية الهامَّة لقريش ، ولو ذهب المهاجرون إليها للتِّجارة ، لِمَ ترسل قريش في طلبهم ؟ وما يضيرها ذلك ؟! فمن ذهب للتَّجارة سيعود بعد قضائها ، أو انتهاء موسمها .

والمساعدة العسكريَّة مرفوضة أيضاً ، ولو كانت هي الهدف ، لأرسل عَلَيْكُ فرداً واحداً ، أو فردَيْن اثنين ، لا أُسَر بأطفالها ونسائها .

⁽۱) انظر: دراسات تاریخیّة باللّفة الانکلیزیّة ، للسّنة الشّالثة ـ کلیة الآداب ـ قسم السّاریخ ـ جامعة دمشق: ٦٣ ـ ١٩٦٤ م ، ص: ١٢ ـ ٢٢

⁽٢) والاضطهاد الـدّيني في إنكلترة كان سبب الهجرة إلى أمريكة وتـأسيس المستعمرات ، والاضطهـاد حتّى اليوم يدفع بالآلاف إلى الهجرة من بلادهم إلى أنحاء الأرض .

أمًّا الانشقاق فخيال في ذهن المستشرقين ، لأنَّ عثان بن مظعون هاجر ، وهاجر أبو بكر الصَّدِّيق أيضاً ، فردَّه ابن الدَّغُنَّة قائلاً له : إن مثلك ياأبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج ، إنَّك تكسب المعدوم ، وتصل الرَّحم ، وتحمل الكلَّ(١) ، وتقري الضَّيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربَّك ببلدك (١) ...

إذن لماذا الهجرة إلى الحبشة بالذَّات ؟

لسماع رسول الله على بتسامح النَّجاشي وبحسن خلقه : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإنَّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتَّى يجعل الله لكم فَرَجاً مما أنتم فيه »(٢) . (وهذا الحديث يوضِّح لنا سبب الهجرة) .

ولصلة قريش الوثيقة مع البن والحيرة والشَّام ، حيث المسالح التّجاريَّة المتبادلة .

وكانت رحلته عَلَيْتُهُ إلى الطَّائف ، ففَقَد في رحلته هذه ، من مكَّة إلى الطَّائف ، حَقَّه في حماية قبيلته ، فلم يستطع العودة عَلَيْتُهُ إلى مكَّة إلاَّ بجوار الْمُطْعِم بن عَدِي (٤) ، ولعلَّه اشترط على رسول الله عَلَيْتُهُ ألاَّ يدعو داخل مكَّة ، فاتَّجه نشاطه عَلَيْتُهُ إلى الدَّعوة خارجها .

ولما أراد سبحانه إظهار دينه ، خرج رسول الله عَلَيْكُم في الموسم الَّذي لقيه فيه نفر

⁽١) الثّقل ، والعيال ، واليتيم ونحوه .

⁽٢) إلى آخر الرّواية في البخاري ، وانظر أيضاً : حياة الصَّحابة : ١٦/١ و ٤١٧

⁽٣) الكامل في التَّاريخ : ٢٥/٢ وما بعدها .

⁽³⁾ المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، من قريش ، رئيس بني نوفل في الجاهليّة ، أجار رسول الله لما انصرف عن أهل الطّائف وعاد متوجّها إلى مكّة ، ونزل بقرب (حِرّاء) ، فتسلّح المطعم وأهل بيته ، وخرج بهم حتّى أتوا المسجد ، فأرسل من يدعو رسول الله عَيِّلِيَّ للدُّخول ، فدخل مكّة ، وطاف بالبيت وصلّى عنده ، ثمَّ انصرف عَيَّلِيَّ إلى منزله آمناً ، مات المطعم قبل بدر وله بضع وستون سنة ، ولم يسلم ، [الأعلام : ٢٥٢٧٧] .

من الأنصار ، حيث جلس إليهم ، ودعاهم إلى الله ، في مكان يدعى (العقبة) ، بين منى ومكّة (١) ، فأسلم اثنا عشر رجلاً _ وهذا ما يسمّى بيعة العقبة الأولى (بيعة النّساء (٢)) _ ، وعادوا إلى يثرب ومعهم مصعب بن عمير (٢) معلّماً مفقّها .

وفي موسم العام التَّالي ، عاد مصعب إلى مكَّة ، وخرج المسلمون معه ، فكانت بيعة العقبة الثَّانية (بيعة الحرب (٤)) ، أخطر بيعة في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة ، لقد فاجأت قريشاً وذمام المبادرة يفرُّ من يدها ، بعد أن بايع الأنصار رسول الله عَلَيْكَة : « أنا منكم وأنتم منّي ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .. » (٥) .

بايع ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما : نسيبة بنت كعب ، وأساء بنت عمرو بن عدي ، فَلِمَ هذه الاستجابة السَّريعة من أهل يثرب ؟ لقد أسلم خلال أقل من عامَيْن في يثرب ، أكثر مما أسلم في مكَّة خلال ثلاث عشرة سنة !!

إنّ مردَّ ذلك إلى الأُمور التَّالية :

١ _ اختلاف البيئة والْمُناخ تركا أثراً كبيراً واضحاً في طبائع السَّكان ، فعُرِف أهل مكَّة بالشَّدَة والصَّلابة والقسوة والجفاف في معاملاتهم ، في حين عُرِف أهل يثرب بلين الجانب ، وحسن المعاملة والمعشر .

٢ ـ عقلية الأوس والخزرج كانت مهيّاة لظهور نبي آخر الزّمان ، فلما رأوا رسول الله وسمعوا منه ، أدركوا مبلغ الشّبه بينه وبين ما توعّدهم به اليهود ، فبادروا إلى

⁽١) تبعد عن مكَّة نحو ميلَيْن ، عندها مسجد ، ومنها ترمي جمرة العقبة ، [معجم البلدان : ١٣٤/٤] .

⁽٢) لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي أوَّل امرأة بايعت .

⁽٣) أبو عبد الله مصعب بن عمير ، من السَّابقين إلى الإسلام ، شهد بدراً ، واستشهد في أحد ، [أسد الغابة : ١ /١٨١٥] .

⁽٤) لأن الأنصار بايعوا رسول الله عَلِيلي : « .. أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .. » .

⁽٥) الكامل في التَّاريخ : ٢٩/٢ ، والطُّبري : ٣٦٢/٢ ، ابن هشام : ٦٦/٢ ، البداية والنَّهاية : ١٦٢/٣

تصديقه ، حتَّى لا يسبقهم هؤلاء اليهود إلى اتَّباعه ، فيقتلوهم قَتْلَ عاد وإرم (١) .

٣ ـ ووجـ د الأوس والخزرج في شخص رسول الله ﷺ بغيتهم المنشودة في القضاء
 على التّنازع فيا بينهم ، خصوصاً وأُمُّه من بني النّجار ، أحد بطون الخزرج .

٤ - وصلابة قريش وعنادها جاءت من خوفها على مصالحها التّجاريّة ، فالكعبة محطّ أصنام العرب ، فإن حطّمت هذه الأصنام ضاعت مكانة قريش ، وفقدت احترامها .

٥ ـ ومحمَّد ـ ﷺ ـ الـذي درج طفلاً في شوارع مكَّة وحـاراتها ، هـو اليـوم نبي مُرْسَل ؟! ويتيم أبي طالب ، وحي من الله ينزل عليه ؟! عجيب ، غريب هذا .

ولكن قريش أدركت خطر بيعة العقبة الثّانية ، فهي الفيصل بين عهدين من عهود الدّعوة الإسلاميّة ، عهد مكّة حيث السّيطرة القرشيّة الوثنيّة ، عهد ابتلاء واختبار وأذى للمسلمين ، وبين عهد الدّعوة في المدينة ، عهد القوّة ، ورفع الظّلم ، وانتشار الدّعوة .

عهد آيات الصّبر والصّفح عن الجاهلين ، وعهد آيات الإذن بالقتال ، وقريش خير من يعلم ماعليه الأوس والخزرج من قوّة وبأس ، فقدّرت خطورة هذا العهد الجديد ، وبخاصّة وأنّ تجارتها إلى الشّام ستكون مهدّدة في ذهابها وإيابها ، سيّا وأن المسلمين المكّيّين سيهاجرون جميعاً إلى المدينة ، فيزداد الإسلام في المدينة قوّة إلى قوّة الأوس والخزرج .

لقد كانت بيعة العقبة الثَّانية أخطر بيعة في تاريخ الإسلام ، لأنَّ تطوُّر الأحداث بعدها جاء سريعاً وخطيراً ، ولصالح الفئة المسلمة الَّتي صبرت ، وانفتحت أبواب

⁽۱) كان اليهود يقولون لأهل يثرب إذا كان بينهم شيء : إنَّ نبيًا مبعوث الآن ، قد أظلَّ زمانه ، فنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، [عيون الأثر : ١٥٥/٢ ، ابن هشام : ٥٤/٢ ، الكامل في التَّاريخ : ٢٧/٢ ، الطَّبري : ٢٥٥/٢] .

جديدة لانتشار الإسلام بعد طول احتباس (١) .. وفوجئت قريش بذمام المبادرة يفرّ من يدها ، لتبدأ الدَّعوة الَّتي احتبستها في شعاب مكَّة تجد طريقها إلى قلوب العرب ، بعد أن أصبح الموقف من جميع جوانبه بيد المسلمين ، فانتقلت في اجتاعها في دار النَّدوة من الإيذاء إلى الإفناء ، فدبَّرت لقتل رسول الله عَلَيْ مَاذَن الله لنبيّه بالهجرة ، ونام علي فرض الله عنه في فراش رسول الله مطمئناً : « فإنَّه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم "١) ، ويخرج عَلَيْ من باب داره ، وأبو جهل عنده يهزأ برسول الله ونبوته ؛ النَّار لمن لم يؤمن برسالته !! فسمعه عَلَيْ ، فخرج وهو يقول : « أنا أقول ذلك ، وأنت أحدهم "(٢) .

خرج رسول الله عَلَيْ في غاية الهدوء والأمن متهلاً ، فهو مع حليف لا يُغلب ، إنّه مع الله تبارك وتعالى ، وحفنة من التَّراب على رؤوس من على باب داره عَلَيْنَةٍ ، دليل على حسّي على الهدوء النّفسي عند رسول الله عَلَيْنَةٍ ، خرج ليهاجر مع أبي بكر رضى الله عنه .

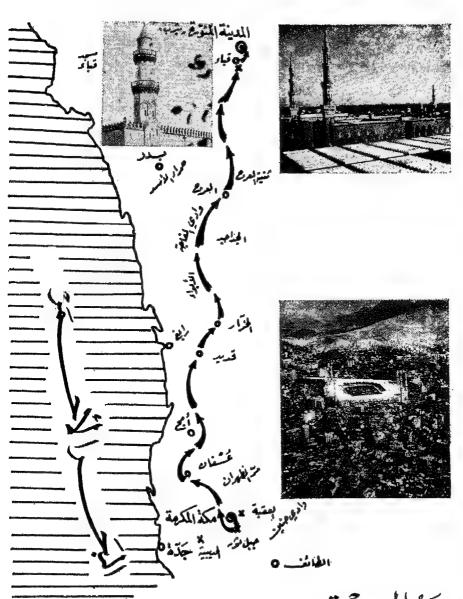
جُنْت قريش ، وطار صواب أبي جهل ومن معه ، وأحدقوا بعليًّ رضي الله غنه ، وحاولوا بكل وسيلة أن يعرفوا منه مكان وجود رسول الله عليه ، وعبثاً حاولوا ، فلما استيأسوا منه أطلقوه ، فقام رضي الله عنه بالأبطح ينادي : « من كان له عند رسول الله عليه الله عليات تؤدَّ إليه أمانته » .

وسار أبو جهل مذهولاً إلى بيت أبي بكر ، ليسأل أساء رضي الله عنها : أين أبوكِ يا بنت أبي خبيثاً ؟ وتجيب أساء : لا أدري والله يا أبي !! فكان جوابه ، جواب من لا جواب عنده ، لطمها لطمة طرح منها قرطها .

⁽١) صور من حياة الرُّسول ، ص : ١٢٨ بتصرُّف .

 ⁽۲) الكامل في التّاريخ : ۷۲/۲ ، الطّبري : ۳۷۲/۲ ، مروج الـذّهب : ۲۸٥/۲ ، ابن هشام : ۹۱/۲ ، السّيرة النّبويّة : ۲۵/۱۰ و ۳۵۱

⁽٣) الطُّبري: ٣٦٩/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة : ٣٥٦/١



ودليل طريق الهجرة (عبد الله بن أريقط) ، مشرك لم يَخُن ، لصداقته مع أبي بكر ، والخيانة سُبَّة كبيرة عند العرب .

والطَّريق : مكَّة _ جبل ثور _ مرُّ الظَّهران _ عُسْفان _ قُدَيد _ الأبواء _ ثنية العرج _ قُباء _ يثرب .

نتائج الهجرة: انطلق الرَّكب باسم الله ، وتحت رعايته سبحانه ، حين أرخى اللَّيل سدوله ، وكان القمر هلالاً في مستهل ربيع الأوَّل . فلم يلبث أن اختفى بُعَيْد الغروب ، وحين أخذ الرَّكب وجهته إلى يثرب نظر رسول الله عَلَيْكُ إلى مكَّة ، نظرة وداع حارَة ، ثمَّ قال : « إنِّي لأخْرَج منك ، وإنِّي لأعلم أنَّك أحب بلاد الله إلى الله وأكرمها على الله تعالى ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت منك » (١) .

وفي الشَّاني عشر من ربيع الأوَّل للسَّنة الرَّابعة عشرة من البعثة ، الموافق الشَّامن عشر من تموز (يوليه) سنة ٦٢٢ م ، حين اشتدّ الضحاء ، وكادت الشَّمس تعتدل ، وصل الرَّكب المبارك قُباء ، فأقام فيها الثَّلاثاء ، والأربعاء ، والخيس ، يؤسس مسجده ، وهو أوَّل مسجد بني في الإسلام .

ولما أراد عَيْشَةٍ دخول المدينة ، أضاء منها كلَّ شيء ، يقول أنس رضي الله عنه : شهدت يوم دخول رسول الله عَيْشَةٍ المدينة ، فلم أرّ أحسن منه ولا أضوأ (٢) .

وفي البخاري عن البراء بن عازب قال : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله على الله

⁽١) عيون الأثر: ١٨٢/٢

⁽٢) عيون الأثر: ١٩٢/٢ ، لقد تمّت هجرة رسول الله عَلَيْكُ سِرًا ، وهـاجر بعض الصّحابـة ـ كعمر بن الخطّاب رضي الله عنه ـ علناً ، وسبب ذلك أن رسول الله لوهاجر علناً لوجبت الهجرة علناً ، وهناك من يعجز عن ذلك ، ومن هاجر علناً ليس مقصوداً بذاته ، بينا رسول الله مستهدف بشخصه ، للقضاء على الإسلام في مهده .

لقد ازدانت المدينة ، ولبس النّاس أحسن ملابسهم ، كأنّهم في يوم عيد ، وصرخ النّاس رجالهم ونساؤهم جاء رسول الله ، جاء رسول الله ، وجعل الإماء والجواري ينشدن ويغنّين ويضربن بالدُّفوف ، والحبشة تلعب بحرابها فرحاً بقدومه علياته .

لم يكن أمراً عارضاً ، ولا مصادفة محضة ، ولا مجرَّد خاطر ، أن يختار رسول الله عَلَيْتُ المدينة المنوَّرة داراً لهجرته ، وملجأ لدعوته ، ومقرّاً لدولته ، ومن نتائج هذه الهجرة المباركة :

١ ـ تجمَّع المسلمون في موطن واحد يمكِّنهم من الدِّفاع عن أنفسهم ، والدَّعوة إلى دينهم والجهر به .

٢ ـ ودبَّت حركة جديدة في المجتمع الإسلامي في المدينة المنوَّرة ، وبدأت تتوضَّح عالميَّة الإسلام .

٣ _ وتفرَّغ رسول الله عَراقية لبناء الدُّولة ، بعد بناء الفرد في مكَّة المكرَّمة .

٤ ـ وبني مجتمع جديد ، فيه العقيدة والمنهج ، بدل العصبيَّة القبليَّة .

٥ ـ وبدأ كيد اليهود وحقدهم العميق على الإسلام وأهله ، وسيكون لتآمرهم نتائج
 سيئة عليهم .

٦ ـ وأصبحت تجارة قريش في خطر في ذهابها وإيابها إلى الشَّام ، وستنع أيضاً من طريق نجد .

٧ ـ وظهر المنافقون بزعامة عبد الله بن أُبّي بن سلول ، الّذي كان مرشّحاً للزّعامـة في يثرب قبيل الهجرة .

٨ - ولو قاتل رسول الله عَلَيْتُ في مكّة ، لقامت قريش تؤدّب فرداً من أفراد القبيلة ، أما اليوم ، فلقد تمايز المجتمعان ، مجتمع مشرك في مكّة ، ومجتمع مؤمن موحّد في المدينة .



الجِهَادُ بَدْرٌ الْكُبْرى « ۱۷ رمضان ۲ هـ = ۱۳ آذار ۲۲۶ م »

ما بدأ رسول الله على حرباً قط ، إذ كان حريصاً ألا يراق دم إنساني ، فهو نبي المرحمة . ولكن إذا كانت لا محالة واقعة كان رجلها الأول ، فهو نبي الملحمة . لقد كان عظيماً في رحمته بالنّاس ، عظيماً في استعداده للحرب ، عظيماً في خططه ، عظيماً في تحقيق النّصر واستثاره .

ضاعفت قريش من جهودها في محاربة الدَّعوة الإسلاميَّة ، فأخذت تحرِّض القبائل الحيطة بالمدينة المنوَّرة على المسلمين ، وتؤلِّب عليهم أعداء الإسلام في داخلها ، فكان من الطَّبيعي إيجاد قوَّة تحمي الدَّعوة من قريش ، ومن المنافقين في المدينة ، ومن اليهود الَّذين في المدينة وما حولها ، فكان القتال المسلَّح الَّذي ثبَّت أركان الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة .

الجهاد:

مكث رسول الله عَلَيْكَةِ بمكّة ثلاث عشرة سنة ، يدعو النّاس بالحجّة والموعظة الحسنة ، وقد أذاقته قريش ـ هو والمؤمنين عامّة ـ كلّ صنوف الأذى ، وصبّر الله نبيّه : ﴿ فَآصُيرُ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلُ ﴾ ، [الأحقاف ـ وهي سورة مكيّة ـ: ٢٥/٤٦] .

وبدأ عَلَيْكِ حرباً اقتصاديَّة ضد قريش ، وهي حرب بدأتها قريش في شعب أبي طالب ، شملت أيضاً النَّاحية الاجتماعيَّة ؛ فلا زواج ولا تزويج .

وخص رسول الله على عربه قريشا ، وليست قبيلة أخرى ، وما أكثرها من قبائل تسكن الحجاز وتهامة ونجد ... وبدء الاشتباكات المسلّحة بين المسلمين والمشركين أمر طبيعي بعد تمايز المجتمعين ، والحرب معلنة بينها ، وقريش تعلم ذلك ، فهي الّتي أهدرت دم رسول الله على عند الهجرة ، فأوجدت بذلك ظروفا حربيّة ضدّ المسلمين المهاجرين . فعند بدء الاشتباكات لن تجد قريش مفاجأة ، فالأمر طبيعي ، لن تنكره ، ولن تنكره القبائل كلّها ، لأنّها تدري بالّذي فعلته بالمسلمين من اضطهاد وتعذيب ، ومصادرة ومطاردة .

الحربُ الاقتصاديَّةُ (عِيرُ قريش):

لما سبق ، قرَّر عَلِيْكُ أَن يمنع قريشاً من استخدام طريق (مكَّة ـ الشَّام) في تجارتها ، لأنَّ هذا المنع سيحدث لها مشكلة حيويَّة ، وأثراً سيِّئاً في حياتها الاقتصاديَّة ، فهي الَّتي كانت تعيش على تجارتها أوَّلاً ، وعلى موسم الحج ثانياً .

وليست قريش أُمَّة بحر ، تعتمد على سفن في نقل بضاعتها إلى الشَّام عن طريق خليج العقبة ، وإن فكَّرت بطريق جديدة ، وهي طريق : (نجد - العراق - الشَّام) ، فإنَّها لن تفلح في استخدامها لسببَيْن : طول هذه الطَّريق ، وسيطرة المسلمين عليها أيضاً .

يقول الطّبري: « وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك ، فقُتلت قتلى ، وقُتِل ابن الحضرمي في ناسٍ بنخلة ، وأسرت أسارى من قريش ، فيهم بعض بني المغيرة ، وفيهم ابن كَيْسان مولاهم ، أصابهم عبد الله بن جحش ، وواقد حليف بني عديّ بن كعب في ناسٍ من أصحاب رسول الله عَلَيْتٍ بعثهم مع عبد الله بن جحش ، وكانت تلك الموقعة (۱) ، هاجت الحرب بين رسول الله عَلَيْتُ ، وبين قريش ، وأوّل من أصاب به بعضهم بعضاً من الحرب ، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشّام »(۱) .

وقال أبو جهل - عمرو بن هشام - لسعد بن معاذ وهو يطوف بالكعبة المشرَّفة: « ألا أراكَ تطوف بكَّة آمناً وقد آويتم الصَّباة ، وزعمتم أنّكم تنصرونهم وتعينونهم ، أما والله لولا أنّك مع أبي صفوان - أُميَّة بن خلف - ما رجعت إلى أهلك سالماً »(٢) ، فقال سعد مجيباً بصوت قويًّ مرتفع: « أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة » .

⁽١) بين عبد الله بن جحش وعير لقريش كان فيها عرو بن الحضرمي الله في قُتِلَ ، وأسر بعض من كان معه ، كل ذلك في الطّريق إلى نخلة ، في موضع يقال له (بُحْران) .

⁽٢) الطّبري : ٤٢١/٢

⁽٣) الطبري: ٢١/٢٦ ، البداية والنّهاية: ٢٥٨/٣

⁽٤) ابن هشام : ١٨٢/٢ ، الطبقات الكبرى لابن سعد : ١٢/٢ ، السّيرة الحلبيّة : ١٥٣/١ ، الطّبري : ٢٧٧٢ ، البداية والنّهاية : ٢٥٦/٣

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسّس الأخبار (١) ، ويسأل من لقي من الرُّكبان تخوَّفاً على عير قريش ، حتَّى أصاب خبراً من بعض الرُّكبان : أنَّ محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك ، واستأجر ضَّمْمَ بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى مكَّة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضَمْمُ بن عمرو إلى مكّة مسرعاً (١) .

رأت عاتكة بنت عبد الطلب قبل دخول ضمضم مكّة بثلاث ليال ، رؤيا أفزعتها ، فبعثت إلى أخيها العبّاس بن عبد المطلب ، فقالت له : ياأخي ، والله لقد رأيت اللّيلة رؤيا أفظعتني (٢) ، وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شرّ ومصيبة ، فاكتم عنّي ما أحدّتك به ، فقال لها : وما رأيت ؟ قالت : رأيت راكبا أقبل على بعير له ، حتّى وقف بالأبطح ، ثمّ صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا ياآل غُدر (٤) لمصارعكم في ثلاث ، فأرى النّاس اجتمعوا إليه ، ثمّ دخل المسجد والنّاس يتبعونه ، فبينا هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة ، ثمّ صرخ بأعلى صوته بمثلها : أن انفروا ياآل غُدر لصارعكم في أخذ للصارعكم في ثلاث ، ثمّ مثل به بعيره على رأس أبي قبيس (٥) ، فصرخ بمثلها ، ثمّ أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوي حتّى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت (١) ، فما بقي بيت مخرة فأرسلها ، ولا دار من دورها إلا خلت منها فلقة .

⁽١) التّحسس بالحاء: أن تتسمّع الأخبار بنفسك ، والتّجسّس بالجيم : هو أن تفحص عنها بغيرك ، وفي الحديث : « لا تجسّسوا ، ولا تحسّسوا » .

⁽٢) ابن هشام : ١٨٢/٢ ، الاكتفا : ٨٧/١

⁽٢) أفظعتني : اشتدَّت عليُّ .

⁽٤) غُدَر: بضم الغين وفتح الدَّال ، ورجل غادر وغدَّار وغدير وغدور ، وأكثر ما يستعمل هذا النَّداء في الشُّم ، يقال : يا غُدَر، وقال السَّهيلي : هو بضم الغين والدَّال جمع غدور ، [الاكتفا : ٨٧/١ ، تعليق على هامش الصَّفحة ، جمعنا بينه وبين معاجم اللُّغة] .

⁽٥) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكَّة ، [معجم البلدان : ٣٠٨/٤] .

⁽٦) ارفضَّت: تفرُّقت وتفتَّتت.

قال العبّاس: والله إن هذه لرؤيا رأيتِ فاكتمها ولا تذكرها لأحد، ثمّ خرج العبّاس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان صديقاً له و فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث بحكّة، حتّى تحديّثت به قريش في أنديتها (١).

وصل ضمضم مكّة في ثلاثة أيّام فجدع (٢) بعيره ، وشق قيصه وهو يصيح : يا معشر قريش ، اللّطية اللّطية (٦) !! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث ! فخرجت قريش : ٩٥٠ رجلاً ، ومعهم قرابة ١٠٠ فَرَس عليها ١٠٠ درع سوى دروع المشاة (٤) ، ومعهم القينات يضربن بالدّفوف يغنّين بهجاء المسلمين .

وحسب أصحِّ الرَّوايات ، كان مع رسول الله عَلَيْكَ ٢٦٣ مجاهداً ، منهم ٧٧ رجلاً من الله الله عَلَيْكَ ٢١٣ مجاهداً ، و ٢٠ درعاً ، و أن المهاجرين ، و ٢٣٦ رجلاً من الأنصار ، معهم جميعاً ٧٠ بعيراً ، و ٢٠ درعاً ، وفَرَسان فقط ، واحدة مع الرَّبير بن العوام ، والأُخرى مع المقداد بن الأسود .

وأمر عَلَيْكَ بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل فقطعت ، وقال بعد أن نظر إلى صحابته رضوان الله عليهم : « اللَّهم إنَّهم حفاة وعراة فاكسهم ، وجياع فأشبعهم ، وعالة فأغنهم من فضلك » ، وكان عَلَيْكُ يريد معرفة رأي الأنصار بوضوح ، خشية ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة المنوَّرة من عدوِّه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ في دياره .

فقام سعد بن معاذ وقال : قد آمنا بك وصدَّقناك ، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السَّمع والطَّاعة ، ولعلَّك يا رسول الله

⁽١) الطُّبري: ٤٢٩/٢ ، البداية والنَّهاية: ٢٥٧/٣

⁽٢) جدع بعيره: قطع أنفه.

⁽٣) اللَّطية : الإبل الَّتي تحمل البز والطّيب .

⁽٤) قُدَّرت في [البداية والنَّهاية : ٢٦٠/٣] بست مئة درع .

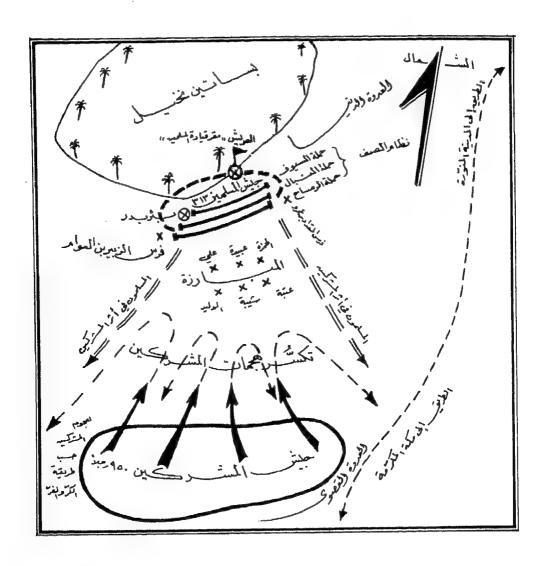
فَسُرَّ رسول الله عَلَيْكَ بقول سعد ، ثمَّ قال : « سيروا وأبشروا ، فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطَّائفتَيْن ، والله لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم »(٢) .

وقال سعد بن معاذ : يانبيّ الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثمّ نلقى عدوّنا ، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدوّنا كان ذلك ماأحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا فقد تخلّف عنك القوم ، يانبيّ الله مانحن بأشد لك حبّاً منهم ، ولو ظنّوا أنّك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك ، ينعك الله مانحن بأشد لك حبّاً منهم ، ولو ظنّوا أنّك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك ، ينعك الله بهم ، يناصحونك و يجاهدون معك . فأثنى عليه رسول الله خيراً ودعا له بخير ، وقال علياتية : « أو يقضي الله لك خيراً من ذلك ياسعد » ، وهو نصرهم وظهورهم على عدوّهم ، ثمّ بني لرسول الله عبيلية عريش فوق تلّ مشرف على ميدان المعركة ، فكان فيه . وقال علياتية : « هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً ، ووضع يده على الأرض ، وهذا مصرع فلان ههنا ، وهذا مصرع فلان ههنا » ، قال أنس : « ما ماط أحدهم عن موضع يده عيلان الله .

☆ ☆ ☆

⁽١) ابن هشام : ١٨٧/٢ ، الطُّبري : ٤٣٤/٢ ، البداية والنَّهاية : ٢٦٤/٣ ، ابن سعد : ١٤/٢

 ⁽٢) ابن هشام: ١٨٨/٢، الطّبري: ٤٣٤/٢ و ٤٣٥، البداية والنّهاية: ٢٦٣/٣ و ٢٦٣، الاكتفا: ٨٨/١، ووالطّأئفتان: عير قريش الّتي مع أبي سفيان، أو النّصر عند اللّقاء.



عَنْ زُوة سِدُرالِ الْحَارِيْ فَانْ يَوْمِالْمُقَىٰ الْجَسَمَانَ يُومِالْمُقَىٰ الْجَسَمَانَ الْمُ سَعَانَ ١٧ مِنَانَ ١٥ مَ ١٣ آذار ١٢٤ م

بدر الكبرى : [١٧ رمضان المبارك ٢ هـ = ١٣ آذار (مارس) ٦٢٤ م] :

وهكذا .. تهيّاً جوَّ المعركة ، وما هي إلاَّ لحظات ويخرج القوم إلى المبارزة ، ويلتحم الجيشان بعدها مباشرة ، فما هي الرَّوح المعنويَّة ، وما هي الحالة النَّفسيَّة عند الطَّرفَيْن المتحاربَيْن ؟!

أ ـ خاض المسلمون الحرب بتفاؤل ويقين بالنّص ، فرسول الله عَلِينَةٌ قرَّر قبل المعركة نتيجتها ، مع أن ظاهر الأمر ، القوَّة إلى جانب قريش من حيث العدد ، ومن حيث الاستعدادات والعُدد : ٩٥٠ رجلاً ، يقابلهم ٣١٣ رجلاً في جانب المسلمين ، فقريش خرجت لحرب ، والمسلمون خرجوا لاعتراض قافلة ، ومع ذلك حزم عَلِينَة في أكثر وجزم ، أنَّ النّصر حمَّا ويقيناً إلى جانب المسلمين ، وظهر ذلك على لسانه عَلِينَةً في أكثر من موضع :

١ ـ « سيروا على بركة الله وأبشروا فإنَّ الله قد وعدني إحدى الطَّائفتَيْن »(١) ، فالقافلة أفلتت ونجت ، فلم يبق إلاَّ النَّصر في المعركة يقيناً ، لأنَّ الوعد نُسِبَ إلى الله عزَّ وجلَّ : « فإنَّ الله قد وعدني » ، فالنَّصر محقَّقٌ لا محالة .

٢ ـ « والله لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم ، هذا مصرع فلان .. » (١) ، يضع يده على الأرض ههنا ، فما أناط أحدهم عن موضع يده الشّريفة .

٣ ـ ولما أشار سعد بن معاذ رضي الله عنه ببناء العريش ، وإعداد الرَّكائب ليعود رسول الله على الله ع

⁽١) ابن هشام : ١٨٨/٢ ، الطُّبري : ٤٢٤/٢ ، البداية والنَّهاية : ٣٦٣/٣ ، الاكتفا : ٨٨/١

⁽٢) البداية والنَّهاية : ٢٦٣/٢ ، الطُّبري : ٤٤١/٢

⁽٣) السَّيرة النَّبويَّة والآثار المحمَّديَّة : ٢٣٤/١

٤ ـ وفي العريش ـ مركز القيادة ـ قال عَلَيْتَهُ : « اللَّهم فنصرك الَّذي وعدتني » ، حتَّى إنَّه على الله بعض رؤوس الكفر بـ أسمائهم : « اللَّهم لا تفلتن أبا جهل فرعون هذه الأمَّة ، وزمعة بن الأسود .. » .

وهنا نقرِّر أمراً خطيراً ؛ لولم يكن محمَّد رسول الله حقّاً وصدقاً ويقيناً ، لما قرَّر قبل معركة غير متكافئة مصيرها ، فلولم يكن على صلة بالله ، وعلى يقين بالله ، وأنَّ وعده سبحانه حق ، لما تنبَّا بأُمور إن أخطأت أضحت حرباً إعلاميَّة تستغلها قريش لإثبات زيف النَّبوَّة ، ولارتدَّ المسلمون عن دينهم أيضاً .

فاليقين بالنَّصر حُدِّد قبل المعركة ، لأنَّ الله حدَّده وقرَّره وأنزله ، وأطلع عليه نبيَّه ، وأطلع عليه السَّحابة عليه ، فطابت نفوسهم ، وهذه النَّبوءات وأمثالها من مؤشِّرات صدق رسول الله ، وصدق الرِّسالة أجمع .

٥ - كا استبشر المسلمون بالمطر الَّذي لبَّد لهم الأرض ، واستبشروا بالماء الَّذي أصبح بحوزتهم ، ومنعوا عدوَّهم منه ، واستبشروا وتفاءلوا بنتيجة المبارزة في بدء القتال ، بانتصار المبارزين المسلمين على المبارزين المشركين .

وبالمقابل خاض المشركون الحرب بتشاؤم وغرور بالكثرة ، ودليل ذلك :

١ ـ رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب : « انفروا يا آل غُدَر لمصارعكم .. ثمَّ أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوي حتَّى إذا كانت بأسفل الوادي ارفضَّت ، فما بقي بيت من بيوت مكَّة ولا دار من دورها ، إلاَّ دخلت منها فِلْقَة » .

٢ ـ ورؤيا لجهيم بن الصَّلت : « قُتِلَ أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأبو البختري وأُميَّة بن خلف ... وأُسِرَ سهيل بن عمرو .. » .

٣ ـ وجعل المطر أرض معسكرهم طيناً ، وحُرِموا من مياه الشَّرب بتغوير المسلمين للآبار .

٤ ـ ومن الشؤم فقدان قريش ثلاثة من صناديدها الأبطال في لحظات في بدء
 المعركة أثناء المبارزة ، وقريش تنظر إليهم .

٧ - وخاض المسامون الحرب بقيادة حكيمة رحيمة ، استطلعت وقدرت حجم عدوِّها ، ومن فيه من الرِّجالات ، وهي الَّتي أمرت بقطع الأجراس من أعناق الإبل لتأمين سرِّيَّة الحركة والتَّنقُّل ، وهي الَّتي استشارت المهاجرين والأنصار ، ورجعت إلى رأي أهل الرَّأي ، رأي الْحُبَاب بن المنذر في اختيار موقع المعسكر ، وقبلت رأي سعد بن معاذ في بناء العريش مقرّاً للقيادة في موضع مشرف على ميدان القتال ، مع حرس من المسلمين اختارهم سعد من فتيان الأنصار برئاسته ، فكان العريش غرفة عليَّات ، ومكان القيادة والتَّوجيه .

أمًّا عن القيادة الرَّحية ، فيكفينا الإشارة إلى أنَّ رسول الله عَلَيْكَ كان يركب ساعة ويمشي ساعتيْن كأيِّ رجل من الجند ، ولما طُلِبَ منه عِلِيلَةٍ : اركب حتَّى نمشي ، يجيب : « ما أنتا بأقوى منِّى على المشي ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما »(١) .

ومن المواقف المؤثّرة قبل المعركة ، والَّتي أظهرت روعة رسول الله قائداً رحماً ، عادلاً حكماً ، موقف سَوَاد بن غَزيَّة عندما عدل عَلَيْتَة صفوف أصحابه وفي يده سهم ، فرَّ بسواد وهو خارج متقدِّم من الصَّف ، فدفعه في بطنه بالسَّهم ، وقال عَلِيْتَة : « استو ياسواد » ، فقال سواد : يارسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدني (٢) أقتص في من نفسك ، فقال عَلِيْتَة : « اقتص » ، فقال سواد : إنَّ عليك قميصاً فأقدني قميص ، فرفع عَلِيَّة قميصه ، فكشف عن بطنه وقال : « استقد » .. فاعتنقه واحتضنه سواد فقبَّل بطن رسول الله ، فقال عَلَيْتِه : « ما حملك على هذا ياسواد ؟» ، قال : يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك ، فدعا له رسول الله بخير (٢) .

⁽١) كان رسول الله علي وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً واحداً .

⁽٢) أقدني : أي مكّني .

⁽٣) ابن هشام: ١٩٥/٢ ، الطّبري: ٤٤٧/٢ ، البداية والنّهاية: ٢٧١/٣ ، الاكتفا: ٨٩/١

وخاضت قريش الحرب بقيادة هوجاء مستكبرة ، وفي خيلاء مصدرها أنّها أهل الحرم وسدنة البيت ، وأنّهم الأعزّة الله ين لم ينلوا ، ولهم بين العرب مكانتهم الرّفيعة ، فكيف يتطاول ويتجرّأ على التّصدّي لعيرهم محمد بن عبد الله ومن معه ؟ فخرجوا ليوجّهوا ضربة قاصمة تقضي على الإسلام وأهله .

وهذه القيادة الهوجاء هي الَّتِي قالت : « والله لا نرجع حتَّى نَرِد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً ، وننحر الْجُزُر ، ونطعم الطَّعام ، ونسقي الخور ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، ويرانا من غشينا من أهل الحجاز ، فإنَّه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا .. فلا يزالون يهابوننا أبداً »(١).

م وخاض المسلمون الحرب بخطّة مدروسة محدّدة مقرّرة ، وهي نظام الصّف ، والشّمس خلفهم .

لقد فوجئت قريش بصفوف المسلمين المتراصّة : ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كأنَّهُم بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ، [الصّف: ٤/٦١] .

فنظام الصَّف (٢) خطَّة مُحْكَمَة غيَّرت نظام الكَرِّ والفَرِّ الَّذي كانت القبائل العربيَّة تحارب بموجبه ، حيث تبدأ المعركة بمبارزة بين الصَّفَيْن المتحاربَيْن ، ثمَّ ينقضُّ الطَّرفان ، حيث يقاتل كلُّ فرد فرداً من الطَّرف الآخر .

بينما هنا أمر رسول الله عَيْلِيَّةُ أصحابه وهم في صفوف كصقوف الصَّلاة ، أن لا يحملوا حتَّى يأمرهم ، وقال : « إن اكتَنفكُم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل » ، وقال : « لا تسلُّوا السَّيوف حتَّى يغشوكم » .

⁽١) الطَّبري: ٤٣٤/٢ ، البداية والنَّهاية: ٢٦٦/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة: ١٦٦/٢ ، الاكتفا: ٨٨/١

⁽٢) قال عبد الرَّحمن بن عوف : « صفّنا رسول الله ﷺ يوم بدر ليلاً » ، وقال أبو أيوب الأنصاري (خالد بن زيد) : « صفّنا رسول الله ﷺ يوم بدر ، فبدرت منا بادرة أمام الصّف ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ : فقال : معي ، معي » ، تفرّد به الإمام أحمد بإسناد حسن .

⁽٣) أي لا ترموهم على بعد ، فإن الرَّمي مع البعد غالباً ما يخطئ ، فيضيع النبل .

وخاضت قريش الحرب بغير خطَّة محـدُّدة ، والشَّبس في وجوههم ، والماء مع أعدائهم .

3 _ وخاض المسلمون الحرب بجند على قلب رجل واحد معتمدين على ربِّهم :

قال المهاجرون: «يارسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك .. اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون ما دامت لنا عين تطرف ، فوالَّذي بعثك بالحقّ نبيّا ، لوسرت بنا إلى بَرْك الغِاد (١) لجالدنا معك من دونه حتَّى نبلغه ، نقاتل عن يمينك وعن يسارك ، ومن بين يديك ومن خلفك »(١).

وقال الأنصار: « فاظعن حيث شئت ، وصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا ما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد .. » (٢)

وخاضت قريش الحرب متكبِّرة مغرورة ، معتمدة على كثرتها ، قال أبو جهل : « محمَّد وأصحابه أكلَةُ جزور » (٤) .

هذه الأمور، وهذه العوامل، أهلت المسلمين للفوز والنَّصر، ولا يعني أن هذه الأمور، وهذه العوامل وحدها كافية لتحقيق النَّصر، لقد أنزل الله نصره وأيَّد المسلمين على على كانت هذه العوامل لها تأثيرها، فهي فيض من فيوضات الإسلام على

⁽١) موضع بناحية الين ، وقيل مدينة بالحبشة ، والمراد بعد المسافة .

⁽٢) القول للمقداد بن عمرو.

⁽٣) القول لسعد بن معاذ ، انظر : ابن هشام : ١٨٧/٢ ، الطّبري : ٣٣٤/٢ ، البداية والنّهاية : ٣٦٤/٢ ، ابن سعد : ١٤/٢

⁽٤) الطّبري : ٤٤٤/٢

العرب بعد إسلامهم ، فلولا نبوّة محمد بن عبد الله ، ولولا دين الله الّذي ارتضاه لعباده ، لما تفتّح العقل العربي على مثل هذه الاستعدادات ، وهذا النّظام ، بقيادة حكية ، وبألفة تامّة ، وبعقيدة واحدة متينة ، مع تفانٍ في سبيلها .

لقد جمع الله سبحانه الطَّرفَيْن ببدر ، وخَرَقَ للمسلمين العوائد في بدء نشوء دولتهم قبل استكال قواها المادِّيَّة ، فكانت بدر توطيداً للنَّواة الطَّيِّبة الَّتي لوهلكت ، لما عُبِدَ الله بحقِّ بعدها .

4 4 4

نتائج بدر : (كان حصاد بدر أكثر من بذارها) :

لقد كان انتصار المسلمين ببدر نتيجة تربية دامت خمس عشرة سنة ، جعلت المسلمين شخصاً واحداً ، عقيدةً وهدفاً وأخلاقاً وسلوكاً وتربية .

وأقبل عَيْكُ قافلاً إلى المدينة المنوَّرة ، ومعه الأسارى من المشركين ، فلقيه المسلمون يهنَّئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين .

وناحت قريش على قتلاها ، ثمَّ قالت : لا تفعلوا فيبلغ محمَّداً وأصحابه ، فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا في أسراكم حتَّى تستأنوا بهم لا يأرب (١) عليكم محمَّد وأصحابه في الفداء .

انتصار بدر نتيجة عمل دؤوب ، وجهد مستر ، لاحادث عفوي .

وانتصار بدر يعني انتصار وحدة العرب وإخائهم ، وانتصار حُرِّيَّة الفكر ، وانتصار التَّوحيد على الشِّرك ، وانتصار التَّاريخ الجيد العظيم ، على تاريخ الوثنيَّة والضَّياع والنِّسيان .

وانتصار المسلمين في بدر، انتصار عروبة عمر وعلي على عروبة أبي جهل

⁽١) حتَّى تستأنوا بهم : أي تؤخَّروا فداءهم ، ويأرب : يأبي ويتشدَّد .

وأبي لهب، وانتصار عروبة أبي بكر والحمزة على عروبة زمعة بن الأسود وأبي البختري بن هشام، فعروبة عمر وعلي، وأبي بكر والحمزة .. هي التي ستصنع للعرب مجدهم وعزَّتهم وتاريخهم الَّذي يفخرون به حتَّى أيّامنا هذه، فانتصار بدر، انتصار عروبة مباركة خَيِّرة طيِّبة مؤمنة، عروبة عالميَّة، على عروبة العزلة والتَّبعيَّة والنَّارات واللَّت والعُزَّى وهُبَل.

انتصار بدر يعني فوز الإيمان الصّادق ، مع فوز صدق العزيمة ، فكانت المقدّمات سليمة صحيحة ، والنّضوج كاملاً ، فمن يستطيع أن يمنع النّتيجة الرَّائعة ، إذا هُيِّئت المقدّمات زماناً ومكاناً ورجالاً وإعداداً ؟!

ومن يحول دون الغاية المرجوَّة إذا صدقت العزيمة باكتمال التَّربية والإيمان ؟!

ومن يحول دون العزَّة والرَّفعة ، إذا وجد القائد المثالي ، الَّذي يسيطر على ما يحيط به من أحداث ، وما سلبته الأحداث سيطرتَه وتوازنه لحظة واحدة ، فبقيت ثقة رجاله به ثابتة كاملة ، وبالتَّالي امتلك أهمَّ مقوِّمات القيادة ؟!

(إنَّ القيادة فنَّ وعلم) ، وأظهر رسول الله ﷺ الفن والعلم ببراعة في التَّطبيق العملي ، وما نظام الصَّف الَّذي فوجئت به قريش إلاَّ جزء من عبقريَّة عسكريَّة .

وكان عَلَيْكُ عظيماً في علم النَّفس ، فحفظ معنويات جنده في الأوج ، قبل المعركة وأثناءها وبعدها .

أمام المعنويات الرَّفيعة السَّامقة ، وهذه الرُّوح العالية ، لم تعد الأعداد ذات جدوى (١) ، فتحطَّم غرور قريش ، وتحطَّمت كثرة العلى صخرة النَّظام والعقيدة والرُّوح المعنوية العالية .

⁽١) يقول الفيلد مارشال منتفمري في كتابه (الحرب عبر التّاريخ) : « الأعداد وحدها لم تعد ذات جدوى في مواجهة الإيمان والثّبات والعقيدة » .

ومن نتائج بدر:

١ - قويت شوكة المسلمين عندما دوّى انتصارهم في بدر في كلِّ نواحي الجزيرة العربيَّة ، وبدأ خيلاء قريش الوثنيَّة بالانهيار ، وأضحت هناك قوَّة جديدة حقيقيَّة ، يحسب لها حسابها ، هي قوَّة الدِّين الجديد ، فانتصار المسلمين انتصار التَّوحيد الَّذي لاتدين به القبائل العربيَّة ، فصدمها الأمر ، وبدأت تراجع حساباتها ، وتنظر إلى الدِّين الجديد نظرة تفحُّص ، ونظرة المتريِّث المذهول ، أمام هذه الصَّدمة العنيفة الَّتي فاجأت قريشاً ذاتها ، فالانهزام كان للأعزَّة ، للكبرياء ، للمكانة الرَّفيعة الَّتي لم تمس .. فبدأ نجم جديد يتلألاً في ساء العرب ، ليفرض نفسه حقّاً مدعّاً بالقوَّة .

٢ ـ ذهول قريش أمام الصَّدمة المفاجئة ، فناحت على قتلاها نحو شهر ، ثمَّ خافت شاتة المسلمين ، ولن يخفف حزنها العميق إلاَّ الانتقام والتَّأر .

٣ ـ استشهد من المسلمين يوم بدر أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاحرين ، ومن الأنصار ثمانية . وقُتِل من المشركين من قريش سبعون رجلاً ، وأُسرَ منهم سبعون رجلاً ، فبدأ الإسلام معركته للقضاء على الأمّيّة ، ذكر ابن سعد في طبقاته الكبرى : ٣٢/٢ : « فمن لم يكن له فداء ، دُفِعَ إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلَّمهم ، فإن حذقوا فهو فداؤه » ، وبذلك رقَّى رسول الله مُتَطِيَّةٍ العرب ، فجعل من أسراهم في بدر أساتذة ، فما أذلُّهم وهم أسرى ، بل جعل منهم معلِّمين للأمَّة ، مع أرقى معاملة يعامل بها أسير حرب .

٤ ـ وفكّرت قريش بعد بدر بطريق جديد لتجارتها ، لقـد خـافت طريقهـا الّتي سلكتها إلى الشَّام ، فسلكت طريق العراق عبر نجد ، وهي طريق طويلة .

جاء في الطبري : قالت قريش : قد عوَّر علينا محمَّد مَتْجَرنا وهو على طريقنا ، وقال أبو سفيان وصفوان بن أميَّة : إن أقنا عِكَّة أكلنا رؤوس أموالنا ، وقال زمعة بن الأسود : فأنا أدلُّكم على رجل يسلك بكم النَّجديَّة ، لوسلكها مغمض العينين الاهتدى ، في التاريخ الإسلامي (٥)

_ 70 _

قال صفوان : مَنْ هو ؟ فحاجتنا إلى الماء قليلة ، إنَّا نحن شاتون ، قال : فرات بن حَيَّان ، فدعواه فاستأجراه ، فخرج بهم في الشِّتاء ، فسلك بهم على ذات عِرْق ، ثمَّ خرج بهم على غَمْرة . فأرسل عَرَاتُهُ ويد بن حارثة ، فاعترضها ، فظفر بالعير ، وأفلت أعيان القوم (١) ، وترك ذلك أثراً سيّئاً في حياة قريش الَّتي تعيش على تجارتها .

٥ ـ بدأ النّفاق بعد بدر ، وظهر المنافقون الّذين ادّعوا الإسلام في ظاهر قولهم ، وأبطنوا الكفر والكيد للإسلام وأهله ، لقد انتصر رسول الله عَلَيْكَ والمسلمون ، فهم أقوياء ، ولكن .. أيدوم هذا الانتصار طويلاً ؟ وهذه القوَّة ، أهي عارضة ستضعف بعدها ؟ الموقف حرج ، فأظهروا إسلاماً ، وكفروا قلباً وروحاً ، وهؤلاء كانوا خطراً على المسلمين لاطّلاعهم على أسرارهم مع ممالأة أعدائهم كلّما وجدوا فرصة سانحة .

٦ ـ بدأ اليهود عداوتهم ، وهي عداوة جديدة بعد عداوة قريش ، بدأت هجرته عَلَيْكُم إلى المدينة ، وسببها : بغياً وحسداً وضغينة لما خص الله سبحانه به العرب : ﴿ قَدْ بَدْتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ ، [آل عران : ١١٨/٢] .

وأنهى عَلَيْتُ خلافات الأوس والخزرج وانقساماتهم ، فانتهت بذلك دسائس اليهود بينهم ، وتعاليهم فوق الطَّرفين بسبب خلافاتهم ، فأرادوا أن يشفوا غليلهم ، وغيظ قلوبهم ، وكان رسول الله حين قدم المدينة قد وادع يهودها ، على أن لا يُعينوا عليه أحداً ، وأنَّه إن دَهَمَه بها عدوَّ نصروه ، فلما قُتِل من قُتِل ببدر من مشركي قريش أظهروا له الحسد والبغي ، وقالوا : لم يلق محمَّد من يُحْسِنُ القتال ، ولو لقينا لاقى عندنا قتالاً لا يشبهه قتال أحد ، وأظهروا نقض العهد ، فجمعهم رسول الله عَلَيْلًا بسوق بني قَيْنَقاع ، ثمَّ قال : يا معشر يهود ، احذروا من الله عزَّ وجلَّ مثل ما نزل بقريش من النَّقمة ، وأسْلِموا ، فإنَّم قد عرفتم أنِّي نبيَّ مرسل تجدون ذلك في كتابكم ، وفي عهد من النَّقمة ، وأسْلِموا ، فإنَّم قد عرفتم أنِّي نبيَّ مرسل تجدون ذلك في كتابكم ، وفي عهد

⁽١) الطّبري: ٤٩٢/٢ ، الاكتفا: ٩٩/١

الله إليكم ، قالوا : يا محمَّد ، إنَّك ترى أنَّا كقومك ! لا يغرنَّك أنَّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنَّا والله لئن حاربتنا لتعلمنَّ أنَّا نحن النَّاس ، وبذلك كان بنو قنيقاع أوَّل يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله عَلَيْلَةٍ ، فحاصرهم المسلمون خس عشرة ليلة ، ثمَّ استسلموا فأجلوا شمالاً (١) .

☆ ☆ ☆

لقد بدأت حرب معلنة بين المسلمين وقريش ، وبين المسلمين واليهود ، ولن تنتهي إلا بعد فتح مكّة المكرّمة وانتهاء الوثنيّة بتطهير البيت العتيق من الأصنام والأوثان ، محقّقة بذلك وحدة العرب وتماسكهم الكامل تحت راية التّوحيد المطلق ، وبإجلاء اليهود عن الحجاز ، وبعدها من كلّ جزيرة العرب .

وهذه الحرب خطَّط لها رسول الله ﷺ بحكة ورحمة وحنكة .. محقِّقاً وحدة الأُمَّة العربيَّة بأقل الحسائر في الأنفس والأموال ، حرب حاول ﷺ دفعها بشتَّى الصَّور ، وعلى الرَّغ من وقوعها ، كانت الحسائر قليلة إذا ما قورنت بمنجزاتها العظيمة .





⁽۱) الطّبري: ۲۸۱/۲، الاكتفا: ۹۹/۱، وفي البداية والنّهاية: ۳/۵ من أسباب إجلائهم أنّ امرأة مسلمة قدمت بحلية تريد بيعها بسوق بني قنيقاع، فجلست إلى صائغ منهم، فعمد الصّائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحك الصّائغ ومن عنده، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصّائغ فقتله، ووثبت اليهود على المسلم فقتلوه.

أُحُدٌ تأوَّلَ الرَّماةُ فأخطَؤوا

خطأ واحد مع كل الفضائل ، ما حال دون العقوبة ، فكانت أُحُد درساً مؤثّراً ، عسَّقَ الإيمان ، فجاء النَّصر الدَّائم المستر ، حتَّى فتح الله للمسلمين مكَّة المكرَّمة ، ثمَّ دانت لهم جزيرة العرب ..

أسباب أحد:

أوقفت قريش عير تجارتها في دار النَّدوة لم تعط لأصحابها ، وقال رجال مَّن أصيب آباؤهم وإخوانهم في بدر: يما معشر قريش ، إنَّ محمَّداً قد وتركم (١) ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فعلَّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منَّا .

قال أصحاب التّجارة: ونحن طيّبو النّفوس أن تجهزوا لذلك بربح المال ، فسُلّمت لهم رؤوس أموالهم ، وكانت خمسين ألف دينار ، وأخرجوا أرباحها ـ وكان الرّبح لكلّ دينار ديناراً ـ فأخرج لتجهيز الجيش خمسون ألف دينار (٢) ، فاجتعت قريش لحرب المسلمين بقيادة أبي سفيان بن حرب ، ومعه الأحابيش ومن أطاعه من قبائل كنانة وأهل تهامة .

⁽١) وَتَرَهُ حَقُّه يَتِره وتُرأ : نَقَضَه ، [مختار الصَّحاح : ٧٠٧] .

⁽٢) ابن خلدون : ٢٤٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٢٩/٢

 ⁽٣) الأحابيش: الجماعة أيّاً كانوا ، أو هم أحابيش قريش ، أو هم بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمة ،
 اجتمعوا عند جبل يُسمَّى (حبشياً) بأسفل مكَّة ، فحالفوا قريشاً ، [الطبري : ٢٠٠/٥] .

ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشيّاً يقال له وحشي ، يقذف بحربة له قلّا يخطئ بها ، فقال له : اخرج مع النّاس ، فإن أنت قتلت حمزة ع محمّد بعمي طعية بن عدي فأنت عتيق ، لذلك كانت هند بنت عتبة ـ زوج أبي سفيان ـ كلّا مرّت بوحشي أو مرّ بها قالت : « وَيْها أبا دَسْمَة ، أشف واستشف يه(١) .

وأقبلت قريش ، في ثلاثة آلاف رجل ، مع الأحابيش ، وفيهم مائتا فَرَس (٢) ، وثلاثة آلاف بعير ، وسبع مئة دارع ، حتًى نزلوا مقابل المدينة ، عند جبل أُحُد ، على بعد ميل شمالي المدينة المنوَّرة .

بلغ رسول الله على أمر قريش ، وذلك من رسالة أرسلها العباس مع رجل استأجره من بني غفار ، وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيّام بلياليها ، ففعل ذلك .

وقال عَلَيْكُ لكبار الصَّحابة: « إنِّي قد رأيتُ والله خيراً ، رأيت بقراً لي يذبح ، ورأيت في ذرع حصينة ، وأنِّي ورأيت في ذرع حصينة ، وأنِّي مردف كبشاً (١) .

وقال عَلَيْكَ : « فأمَّا البقر فهي ناس من أصحابي يُقتَلُون ، وأمَّا الثَّم الَّذي رأيت في ذباب سيفي ، فهو رجل من أهل بيتي يقتل ، وأمَّا الكبش فإنّي أقتُل كبش القوم » ، وأوَّل عَلَيْكُ الدّرع الحصينة بالمدينة المنوّرة ، ثمَّ قال عَلَيْكُ : « فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » .

⁽١) (وَ يُها) كلمة تقال للتّحضيض ، الطّبري : ٥٠٢/٢ ، عيون الأثر : ٣/٢ ، الاكتفا : ١٠٠/٢ ، الرّوضُ الأُنف : ٣/٢

⁽٢) في البداية والنَّهاية : ١٣/٤ : (مئة فرس) ، والنَّابت مئتا فرس كا في معظم المراجع الأُخرى .

⁽٣) ذباب السَّيف : حدُّ طرفه الَّذي بين شفرتيه ، [اللَّسان : ذبب] .

⁽٤) ابن هشام : ١٦/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ١٠٣/٢ ، عيون الأثر : ٣/٢ ، الاكتفا : ١٠٠/١

وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله عَلَيْكِيم ، يرى رأيه في ذلك ، وألا يخرج إليهم ، فقال رجال من المسلمين لم يحضروا بدراً : يارسول الله ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنّا جَبُنًا عنهم وضعفنا ، فيكون ذلك جراءة منهم علينا ، والله لا نظمع العرب في أن تدخل علينا منازلنا .

ولم يزل النّاس برسول الله عَلَيْ الّمندين كان من أمرهم حبّ لقاء القوم حتّى دخل عَلَيْ بيته ، فلبس درعه ، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصّلاة ، ثمّ وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، وأخبرهم أنّ لهم النّصرة ماصبروا ، وأمرهم بالتّهيؤ لعدوهم ، ففرح النّاس في بادئ الأمر ، ولكن سعد بن معاذ وأسيد بن حضير قالا : استكرهتم رسول الله على الخروج ، ولم يكن لنا ذلك ، فردّوا الأمر إليه ، فقالوا : يارسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك ، وسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك ، وسول الله علين يقان من أصحابه ، منهم مئة دارع ، مع فرس لرسول الله علين الله علين ، وفرس لأبي بردة .

وفي منتصف المسافة بين المدينة وأُحُد ، انخذل عن رسول الله عليليم عبد الله بن أُبِي بن سلول بثلث الجيش ، وجعل تبرير خيانته وانخذاله قوله : أطاعهم وعصاني ، ماندري عَلام نقتل أنفسنا هاهنا أيها النَّاس (٢) .

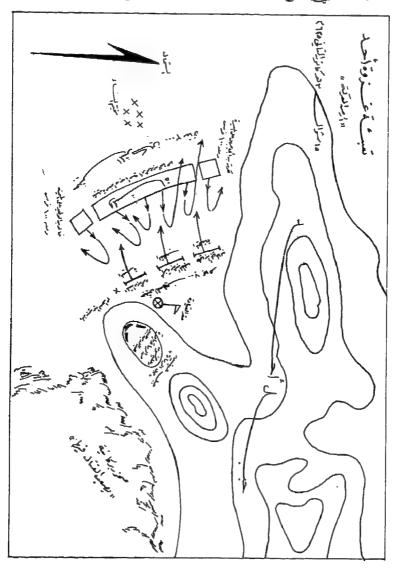
وصل عَلَيْ ومن معه عن طريق حرَّة بني حارثة ، من طريق لا يرَّ على جيش قريش ، كيلا ترى عدد قواته ، فلو مرَّ عَلَيْ بجموع قريش ، وعرفت إمكانات المسلمين ، وكشفت قلّة عددهم ، وبصورة عامَّة ، لعرفت قريش ما لا يجب أن تعرف ، وكسب عَلَيْ الزَّمن ، لقد وصل في غاية السَّرعة ، مع تمام الرَّاحة الجسميَّة ليضع خطَّته

⁽١) لأُمَّتُه : درعه ، وقد يُسبَّى السَّلاح كلُّه لأُمة .

⁽٢) البداية والنَّهاية : ٩/٤، الطَّبري : ٥٠٤/٢ ، الكامل في التَّاريخ : ١٠٣/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة : ١٧/٢

الحربيَّة حسب طبيعة الأرض ، مع أخذ المكان المناسب التَّحصين ، والَّذي يتلاءم مع قلَّة عدد المسلمين ، وكثرة عدد عدوِّهم .

جعل عَيْكُ ظهره إلى أُحد ، واستقبل المدينة ، وفي صباح السَّبت ١٥ من شوَّال سنة ٣ للهجرة عبًا عَيْكُ سبع مئة رجل على التَّشكيل التَّالي :



- على المينة علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
- ـ وعلى الميسرة المقداد بن عمرو السَّاعدي رضي الله عنه .
 - ـ وعلى القلب حمزة بن عبد المطَّلب رضي الله عنه .
- وجعل الزَّبير بن العَوَّام على رجال قُبالة خالد بن الوليد ، وقال له : « كن بإزائه » .
- وعلى الرَّماة عبد الله بن جبير ، والرَّماة خمسون رجلاً ، وقال عَلَيْهُ : «انضح (٢) الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك لا نُوتين من قِبَلك ، الزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، فإذا رأيتونا نهزمهم حتَّى ندخل في عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتونا تُقْتَل فلا تغيشونا ولا تدفعوا عنًا ، وارشقوهم بالنبل فإنَّ الخيل لا تقدم على النبل ، إنَّا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم ، اللهم إنِّي أشهدك عليهم ، احموا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا ، إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتَّى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم وأوطأناه (٢) ، فلا تبرحوا حتَّى أرسل إليكم ، إن رأيتمونا ، وإن رأيتمونا ، وإن رأيتمونا قد غننا فلا تشركونا ، اللهم إنِّي أشهدك عليهم » (٤)

ومن الملاحظ ، أن رسول الله عَلَيْكُم قبيل بدر أكَّد النصر ، بينا كان قبل أُحُد يحـذَّر من أمر كأنَّه يلوح بين ناظريه ، يحذّر من الخالفة ، وسنرى عاقبتها !!

وسؤال يعرض لنا : لماذا لم يختر أبو سفيان ، وبالتَّالي قريش ، الموقع الاستراتيجي من أرض المعركة ، على الرَّغ من وصولهم إلى موقع أُحد قبل المسلمين ؟

⁽١) الكامل في التاريخ : ١٠٥/٢ ، البداية والنهاية : ١٤/٤ ، ابن هشام : ١٨/٣ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٢٩/٣

⁽٢) انضح : ادفع .

⁽٣) أوطأناهم : مشينا عليهم وهم قتلى .

⁽٤) تاريخ خليفة بن خياط : ٢٩/١ ، الكامل في التَّاريخ : ١٠٥/٢ ، البدايـة والنَّهـايـة : ١٤/٤ ، ابن هشام : ١٨/٢ ، السَّيرة الحلبية : ٢٣٥/٢

إجابة من الإجابات الخس التَّالية كافية جواباً لهذا السُّؤال ، وقد تكون مجتمعة الجواب الكامل :

١ ـ ضيق الأفق العسكري عند أبي سفيان وقريش ، فالعرب في الجاهليّة ، لم
 يخوضوا معارك كبيرة منظّمة ، فيها خطط حربيّة مدروسة .

٢ ـ ولعلَّ قريشاً ماأرادت حصر نفسها في مساحة قليلة صغيرة ضيِّقة ، وهم ثلاثة
 آلاف مع خيلهم وإبلهم ونسائهم .

٣ ـ ولعلَّ القرشيِّين لم يقدِّروا سير الأحداث القادمة ، ولا أين من المكن أن يتركز رسول الله عليه ، وما ظنوا أنَّه لن يرَّ عليهم ليتجاوزهم إلى شِعْبَ معيَّن ، فيجعل ظهره إلى الجبل ، ووجهه نحو المدينة المنوَّرة .

٤ ـ ولعلَّهم فكّروا بالفرار عند الحاجة ، بعد أن ذاقوا مرارة الهزية المنكرة ببدر ، .
 فهم في منبسط من الأرض متّصل بطريق القوافل العام الموصل إلى مكّة .

٥ ـ لقد فرض رسول الله على موقع المعركة وميدانها على القرشيّين ، فاختار المكان الأنسب الّذي يلائم قلّة عدد جنده ، مما يعطيه الفعالية ، ويشل حركة جيش المشركين ، وبخاصّة فرسانهم ، وتمّ له على الله ذلك كا أراده .

ونادى أبو سفيان : يا معشر الأوس والخزرج ، خلّوا بيننا وبين بني عمّنا وننصرف عنكم ، فجاء الجواب حاسماً قاسياً ، لأنّ أبا سفيان فاته أنّ رابطة العقيدة وحدّ بين رسول الله عَيْسَة وبين أبناء عمّه الوثنيّين لله عَيْسَة وبين أبناء عمّه الوثنيّين لذلك شهه الأنصار أقبح شتم ، ولعنوه أشد اللّعن (١) .

وخرج طلحة بن أبي طلحة ، وكان بيده لواء قريش ، وطلب المبارزة ، فخرج إليه على رضي الله عنه فقتله . فأخذ لواء قريش أخو طلحة ، عثان بن أبي طلحة ،

⁽١) الطَّبري : ٥١٣/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٣٥/٢

فحمل عليه حمزة فقتله وهو يقول: أنا ابن ساقي الحجيج (١) ، فأخذ لواء قريش أخو عثان ، وأخو طلحة ، أبو سعيد بن أبي طلحة ، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فقتله ، فحمل لواء قريش مسافع بن طلحة بن أبي طلحة فقيل ، ثم قيل أخوه الحرث ثم أخوهما كلاب ، ثم أخوهم الجلاس ، وكل قيل كأبيهم ، عند ذلك حمل اللواء أرطاة بن شرحبيل فقيل ، فحمله شريح بن قارظ ، فقتل ، فحمله أبو زيد بن عرو بن عبد مناف ، فقيل ، فحمله ولد لشرحبيل بن هاشم فقيل ، فحمله صؤاب غلام حبشى ، فقتل .

وعند قتل أصحاب اللّواء ، صار المشركون كتائب متفرّقة ، فجاس المسلمون فيهم ضرباً حتَّى أجهضوهم وأزالوهم عن أثقالهم ، وكان شعار المسلمين : أمت ، أي أمتهم يا الله ، وشعار المشركين : يا للعُزَّى ، يا لهبل .

وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرَّات ، فكانت تُنضح بالنَّبُل ، نبل الرَّماة الحسين ، فترجع مندحرة متفرِّقة .

وقتىل وحشيُّ حمزة ، وقتىل ابن قئمة اللَّيثي مصعب بن عمير ، وهو يظنُّ أنَّه رسول الله عَيْنِيَّةٍ .

☆ ☆ ☆

عِنْدَ فَقْدِ الْمُبادَأَةِ يستحيلُ تحقيقُ النَّصر:

أنـزل الله نصره على المسلمين ، وصـدقهم وعـده ، حتى كشفـوا المشركين عن معسكرهم ، وكانت الهزيمة لاشك فيها ، ولما قُتِل أصحاب لـواء قريش واحداً بعد

⁽۱) ساقي الحجيج : عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، زعيم قريش في الجاهليَّة ، وأحد سادات العرب ومقدميهم ، كان عاقلاً ، ذا أناة ونجدة ، فصيح اللَّسان ، حاضر القلب ، كانت لـه السِّقاية والرَّفادة ، وهو جدّ رسول الله عَلَيْقَةٍ ، [الأعلام : ٢٩٨٤] .

⁽٢) كانت راية المسلمين مع مصعب ، فلما استشهد أعطى على اللواء لعلى بن أبي طالب رض الله عنه .

واحد ، ولم يقدر أحد أن يدنو منه ، انهزم القرشيُّون ، وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السلاح ، ويأخذون الغنائم ، ففارقت الرَّماة مكانهم الَّذي أمرهم وَ الله أن لا يفارقوه ، ونهاهم أميرهم عبد الله بن جبير ، فقالوا له : انهزم المشركون فيا مقامنا هنا (۱) ؟ وانطلقوا إلى الغنائم ، وانكشف المسلمون ، فيأتوا بخيل قريش من خلفهم ، وصرخ صارخ : ألا إنَّ محدًا قد قُتل ، بعد أن أصاب المسلمون أصحاب اللّواء حتَّى ما يدنو منه أحد من القوم .

لقد أحاط المشركون بالمسلمين وقد شُغلوا بالغنائم ، ووضعوا السُّيوف في المسلمين فتفرَّقوا في كلِّ وجه مَّا أصابهم من الدَّهش والحيرة ، إنَّ لحظة واحدة يمكنها أن تُحدَّد مصر المعركة .

انكشف المسلمون ، فأصاب العدو فيهم ، حتَّى خلص إلى رسول الله عَلَيْتُم ، وقُذِف بالحجارة حتَّى وقع لشقِّه (٢) ، فأصيبت رباعيَّته ، وشُجَّ في وجهه ، وكُلِمَت (٢) شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر (٤) في وجنته عَلَيْتُم .

وقاتلت أُمَّ عمارة ، نسيبة بنت كعب المازنيَّة يوم أُحُد ، وقال عَلَيْكُمْ في حقِّها : « ماالتفتُ عيناً ولا شِمالاً يوم أُحُد إلاَّ ورأيتها تقاتل دوني » ، وقد جُرِحت رضي الله عنها اثنى عشر جرحاً بين طعنة برمح ، أو ضربة بسيف (٥) .

وترَّس دون رسول الله عَلَيْ أبو دُجانة _ سِماك بن خَرَشَة _ بنفسه ، يقع النَّبُل في ظهره وهو منحن عليه ، حتَّى كثر فيه النَّبل .

⁽١) في الاكتفا : ١٠٢/١ : قال الرُّماة : واللهِ مانجلس هنا لشيء ، قد أهلك اللهُ العدوَّ ، وإخواننا في عسكر المشركين ، فتركوا منازلهم الَّتي عهد إليهم رسول الله ﷺ أَن لا يتركوها .

⁽٢) الشِّق: الْجَنْبُ.

⁽٣) كلمت : جُرحت .

⁽٤) المغفر : حَلَقٌ (أَو حَلِقٌ أَو حِلاقٌ جمع حَلْقة) يجعل على الرَّأس يُتَّقى به ضرب السَّلاح في الحرب .

⁽٥) البداية والنِّهاية : ٣٤/٤ ، ابن هشام : ٣٠/٣ ، الاكتفا : ١٠٢/١ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٤٣/٢

وأخذ على رضي الله عنه بيسد رسول الله على ، ورفعه طلحة بن عبيسد الله رضي الله عنه حتى استوى قائماً ، وأجلسه على صخرة ، ونزع أبو عبيدة بن الجرّاح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله على الله على مناع الأخرى فسقطت ثنيّته الأخرى ، فكان ساقط التَّنيَّتين .

وقال المقداد بن الأسود: يا سعد، هذا رسول الله عَلِيْتُهُ يدعوك، فقام، فأجلسه عَلِيْتُهُ أمامه، وجعل يعطيه سهاماً ويقول: ارم فداك أبي وأُمِّي، وجاء أنَّ سعداً رضي الله عنه رمى يوم أُحُد ألف سهم مامنها سهم إلاَّ ورسول الله عَلِيْتُهُ يقول: ارم فداك أبي وأُمِّي، ففدًاه ذلك اليوم ألف مرَّة (٢).

وحين أراد أبو سفيان الانصراف ، أشرف على الجبل ، ثمَّ صرخ بأعلى صوته فقال : أنعمت فعال أن ، وإن الحرب سجال ، مرَّة لنا ومرَّة علينا ، يوم أحد بيوم بدر ، يوم نُسَر ، حنظلة بحنظلة (أ) .. أعْلُ هبل ، أعْلُ هبل .

فقال رسول الله عَلِيْهِ : قم يا عمر فأجبه ، فقل : « الله أعلى وأجّل لا سواء (٥) ، قتلانا في الجنّة وقتلاكم في النّار » ، فلما أجاب عمر أبا سفيان ، قال له أبو سفيان : هلمّ إليّ يا عمر ، فقال رسول الله عَلَيْهِ لعمر : ائته فانظر ما شأنه ، فجاء فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمّداً ؟ قال عمر : اللّهم لا ، وإنّه ليسمع كلامك الآن ، قال أبو سفيان : أنت أصدق عندي من ابن قمّئة وأبر ، لقول عبد الله بن قمئة : إنّى قد قتلت محمّداً .

⁽١) ثنيته : الأسنان الأماميّة (التُّنايا) ، ومن كُسِرَت ثناياه فهو : أَهْتُم ، [اللَّسان : ثني] .

⁽٢) البداية والنَّهاية : ٢٧/٤ ، الاكتفا : ١٠٢/١ ، السَّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٥٤/٣

 ⁽٦) خطاباً لنفسه وللأزلام التي استقسم بها قبل خروجه من مكة ، ويقصد : بالغنا في فعالنا .

⁽٤) حنظلة بن أبي سفيان قُتل ببدر ، وقُتل حنظلة غسيل الملائكة بأحد .

⁽٥) أي نحن وأنتم لسنا سواء ، ولا ينبغي لك أن تقول هذا .

ثمَّ نـادى أبـو سفيـان : إِنَّـه قــد كان في قتــلاكم مُثُـل (١) ، والله مـــارضيت ، ومــا سخطت ، وما نهيت ، وما أمرت .

لماذا لم يهاجم أبو سفيان المدينة المنوّرة ؟

لقد فكَّر أبو سفيان في نهب المدينة ، فهذا أمر يخطر في البال ، ما دام جيش المسلمين في أُحد يعتني بجرحاه ، ويدفن قتلاه ، بعد أن أعاد تجمُّعه ، ولكن صفوان بن أُميَّة قال : لا تفعلوا ، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم فيها .

حقَّق أبو سفيان بعد هزيمة نصراً لم يكن يملك مقومات تحقيقه ، ولولا خطأ الرَّماة ما أحرزه ، فهو ليس بقدرة احتلال المدينة بعد إعادة تنظيم جيش المسلمين ، وعندها سيشترك كلُّ من في المدينة ـ شيوخاً ونساءً وصبياناً ـ في سحق أبي سفيان ومن معه .

لقد اكتفى المشركون بقيادة أبي سفيان بسمعة انتصار بين القبائل ، وأعادوا مكانة قريش بعد هزيمة بدر ، فتحقّق الهدف الإعلامي من أُحد .

إنَّ النَّصِ الَّذِي أَحرزه أبو سفيان ، أحرزه مغلوب منهزم ، أخطأ خصه خطأ واحداً قرَّر مصير المعركة لصالح المنهزم المغلوب ، ولولاه ماعرف النَّصر ، فآثر الانسحاب إلى مكَّة ، وعدم دخول المدينة ، حفاظاً على الكسب الَّذي حقَّقه ، ولم يكن بقدوره تحقيقه لولا خطأ الرَّماة المسلمين .



حَمْراءُ الأسد: (الأحد ١٦ شوَّال ٣ هـ):

وفي يوم الأحد السَّادس عشر من شوَّال ، السَّنة الثَّالشة للهجرة ، أَذَّن مؤذّن

⁽١) مثّلت هند بنت عتبة _ والنّسوة اللآتي معها _ بشهداء أُحُد ، يجدعن الآذان والآنف ، حتّى اتّخذت هند من آذان الرّجال وآنفهم الخلاخيل والقلائد .

رسول الله عَلَيْكَ فِي النَّاس بطلب العدو ، وأن لا يخرجنَّ معنا أحد إلاَّ من حضر يومنا بالأَمس (١) .

خرج ﷺ والمسلمين في طلب أبي سفيان ومن معه ، ليعلموا أنَّه ما زال بهم قوّة ، وأن الّذي أصابهم في أحد لم يوهنهم عن عدوّهم ، الّذي تلاوم وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكة القوم وحدّهم ، ثمَّ تركتموهم ولم تبتروهم ، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم ثمَّ نرجع قبل أن نستأصلهم ، لنكرنً على بقيّتهم فلنفرغن منهم .

وقال صفوان بن أُميَّة لقريش : لاتفعلوا ، فإنَّ القوم قد حَرِبوا^(٢) ، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الَّذي كان ، فارجعوا ، فرجعوا .

⁽١) ابن هشام : ٤٤/٣ ، البداية والنّهاية : ٤٧/٤ ، ابن خلدون : ٢٧/٢

 ⁽٢) الروحاء: اسم لموضع بين مكّة والمدينة ، وفي معجم البلدان: ٧٦/٥: والروحاء فَجّ واسع يقع على طريق المدينة _ مكّة ، على مقربة من حمراء الأسد .

⁽٣) خَرِبُوا : غضبُوا .

وفي حمراء الأسد ، كان المسلمون يوقدون تلك اللّيالي _ الاثنين ، والشّلاثاء ، والأربعاء _ خمس مئة نار ، حتّى تُرى من المكان البعيد ، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كلّ جهة ، وأظهرت هذه النّيران أنّ المسلمين ألوف مؤلّفة ، وأن عددهم كبير جداً .

لقد كان رسول الله عَلَيْتُهُ بارعاً في علم النَّفس ، فحفظ معنويات جنوده مرتفعة عالية ، قال عَلِيْتُهُ : « لا يصيب المشركون منا مثلها حتَّى يفتح الله علينا »(١).

☆ ☆ ☆

نَتائجُ أُحُد :

« مما لاشك فيه أن الطّاعة هي قوام النّظام في كلّ جيوش العالَم ، وعلى أساسها يضع القائد خطّته في المعركة ليحقّق النّصر ، فإذا ماانعدمت الطّاعة ، فسدت الخطّة ، وصار الأمر فوض وخسرانا » .

استشهد من المسلمين يـوم أُحُـد سبعـون ، وجرح منهم مئـة وخمسـون . وتــذكر الرَّوايات التَّاريخيَّة أَنَّه قُتِل من المشركين ثلاثة وعشرون فقط ، وهـذا الرَّق فيـه نظر ، فقد جاء أن عليّاً وطلحة وأبا دجانة .. قتل كلَّ واحـد منهم ثمانية أو تسعة من المشركين ، ولا يمكن تفسير ذلك إلاَّ بـاًحـد احتالَيْن : إمّـا أنَّ قريشـاً حملت بعض قتلاها ، وإمّا أنّها دفنت بعضهم ، وهذا مالم يذكره المؤرِّخون .

وكان ماحدث بعد مخالفة الرَّماة كافياً بعد التفاف خالد بن الوليد بفرسانه (٢) لإفناء جيش كامل ، وتحطيم كلِّ قواته وعتاده ، ولكن انسحاب رسول الله عَلِيَّةُ ببراعة

⁽١) ابن خلدون : ٢٧/٢ ، البداية والنّهاية : ٤٧/٤ ، الاكتفا : ١٠٥/١

⁽٢) لم يوضّح المؤرّخون أن تصرّف خالد بن الوليد بأمرٍ من أبي سفيان لكونه القائد العام الخَطّط ، أمْ ببادرة شخصيّة من فكره العسكري ، والأرجح أن خالداً تصرّف من ذاته ، وحسب تقديره هو للموقف .

إلى شِعْبِ أُحُد ، حنكة حربيَّة ، وتقدير للموقف دقيق ، مع سرعة في اتِّخاذ القرار الصَّحيح في الوقت المناسب ، مع السَّيطرة التَّامة على سير الأحداث ، وبذلك تجنَّب عَلَيْتٍ خطر الإفناء الكامل لقواته .

لقد كان عَلَيْ وهو في أشد ساعات الحرج في أحد ، مثال الاتزان والهدوء ، والنظرة الصَّحيحة الثَّاقبة البعيدة المدى ، مع القرار السَّريع ، الَّذي يحمل في ثناياه الحكمة التَّامة ، ولقد كان مصير الجيش بعد التَّطويق الإفناء لا محالة ، وبخاصَّة بعد أن أحدث التَّطويق ارتباكاً حتَّى فقد المسلمون قدرة التَّمييز بين الصَّديق والعدو ، فاستطاع عَلَيْ أن يجعل الخسارة أقل ما يكون ، ففك طوق الحصار ، وأمَّن سلامة الجند ، مع العلم أن المشركين المطوِّقين ، كانوا خمسة أمثال المسلمين المطوَّقين .

ولم يخطر بباله عَلَيْكَ لَحظة أَن أُحُداً قد رسمت مصير دعوته في المستقبل ، بل هو على يقين أنها صورة عارضة ، سرعان ماتتلاشى ، فقال لعلي رضي الله عنه : « لن ينالوا منًا حتَّى يفتح الله علينا » .

وكانت حمراء الأسد بأمره على : « لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس » ، لقد أراد على أن يخرج معه جريح الجسد معافى الرُّوح ، ورفض معافى الجسد ، عليل الرُّوح . فكان خروجه على مناورة عسكريَّة رائعة وبارعة ، أعادت الرُّوح المعنوية الرَّفيعة العالية للمسلمين ، وأعادت هيبتهم ومكانتهم بين القبائل بعدما سمعوا بأحد ، فقنع زعيم قريش من أحد بغنية العودة إلى مكّة فرحاً بسمعة الفوز والغلبة ، مع اليأس من القضاء على المسلمين ، بعد أن كان إفناؤهم أمراً سهلاً ، يكن وعقيقه ، لو امتلك أبو سفيان خبرة عسكريَّة ، وحنكة حربيَّة .

ومع ذلك .. لم تحقّق قريش ماأرادت ، على الرّغ من الخطأ الفادح الْمُرْتَكَب ، والّذي ساق إليها النّصر ، وهي المهزومة المندحرة .

فإن أرادت ثأراً لقتلاها ببدر ، فقد حقَّقت مطلبها ، ولكن إن أرادت الأمر الأهم

الأُعظم ، أَلا وهو القضاء على المسلمين ، والقضاء على رسول الله عَلَيْكُ لتستطيع فتح طريق تجارتها إلى الشَّام ، فهذا مالم تستطع تحقيقه .

ولكن ، ما الله دفع الرَّماة إلى هذه الخالفة الَّتي خرقت الخطَّة العسكريَّة ، وأُوقعتهم في الهزيمة ؟

- ـ أهو الخروج على طاعة القائد ؟
- أم هو الحرص على اغتنام الغنائم وجمع الأسلاب ؟
- أمُّ هو خطأ التُّقدير لظروف المعركة وملابساتها ؟

إنّهم تأوّلوا قول رسول الله وَلِيليّة حين رأوا الأعداء منهزمين ، وإخوانهم يجمعون الغنائم ، فلا بأس من مغادرة المواقع والاشتراك في جمع الغنائم ، فأراد الله أن يدرك المؤمنون سننة من سننه في خلقه ، أنّ النّصر لا يكون إلاّ بأسبابه ، وأنّ الهزيمة لها أسبابها أيضاً ، حتّى لو كان رسول الله بين الصّحابة في المعركة ، وهذا يدل بوضوح على أن صلاح العقيدة وحده غير كافي لتحقيق النّصر ، فللنّصر نواميسه وأسبابه ، وأن الأخذ بهذه الأسباب من صلاح هذه العقيدة .. إنّ منهج الله ثابت ، وموازينه ثابتة .

☆ ☆ ☆

غزوة بني النَّضير :

يقول كارل بروكلمان : « وكان على محمّد أن يعوّض هذه الخسارة الّتي أصابت مجده العسكري من طريق آخر ، ففكّر في القضاء على اليهود ، فهاجم بني النّضير ، لسبب واه ، وحاصرهم في حَيِّهم ، وإذ لم يجرؤ إخوانهم في الـدّين من بني قريظة ، على أن يسعفوهم ، فقد اضطروا إلى الاستسلام بعد حصار دام بضعة أسابيع ، ثمّ إنّهم هاجروا إلى واحة خيبر ، الّتي تقع على بُعْدِ عشرين ميلاً شالي المدينة ، والّتي كانت تنزل فيها جالية كبيرة من اليهود »(١) .

⁽۱) تاريخ الشَّموب الإسلاميَّة : ٥٦ . وبُعد خيبر لا كا جاء في النَّص ، بل مئة ميل شالي المدينة المنوَّرة . في التاريخ الإسلامي (٦)

وهذا قول كلُّه افتراء ومخالفة للحقيقة التَّاريخيَّة الَّتي تقول:

خرج رسول الله على النّه على إلى بني النّضير، يستعينهم في دية قتيلَيْن من بني عامر، للجوار الّذي كان على قد عقده معهم، والّذي نصّ على أن يعاونوه في الديّات (١) وكان مع رسول الله نفر من أصحابه (٢) ، فقال بنو النّضير: نعم ياأبا القاسم، نعينك على ماأحببت مما استعنت بنا عليه، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا، ولكن حتّى تُطْعَم وترجع بحاجتك، وكان على الله على مثل جنب جدار من بيوتهم، فخلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لن تجدوا الرّجل على مثل هذه الحالة، فن رجل يعلو على هذا البيت فيُلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟!

فقال عرو بن جحاش بن كعب - وهو أحد ساداتهم - أنا لذلك ، فقال لهم سلام بن مشكم : لا تفعلوا ، والله ليُخبرن عما همتم به ، إنّه لنقض للعهد الّذي بيننا وبينه ، فلما صعد عرو بن جحاش ليلقي الصّخرة ، أتى رسول الله عليه الخبر من السّماء عما أراد القوم ، فقام عليه مظهراً أنّه ذهب لقضاء حاجته ، وترك أصحابه في مجالسهم ورجع مسرعاً إلى المدينة ، ولم يعلم من كان معه من أصحابه ، فقاموا في طلبه عليه لم السبطؤوه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه فقال : رأيته داخل المدينة ، فأقبل أصحابه حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم رسول الله عليه على بنو النّه به الله على بنو النّه القوا به بنو النّه على بنو النّه على بنو النّه على بنو النّه بنو النّه على بنو النّه بنو النّه على بنو النّه بنو النّه بنو النّه النّه على بنو النّه بنو النّه النّه النّه النّه النّه بنو النّه بنو النّه الن

لقد طرح الإسلام في لحظاته الأولى في المدينة مبدأ عامّاً على مرّ الزَّمن ، ألا وهو المؤاخاة والتَّسامح والعيش مع الأديان الأُخرى ، مع الاحترام الكامل لعقائدها ، ولم يجعل ذلك شعاراً مرفوعاً ، بل منهجاً أثبتته الوقائع والأعمال .

 ⁽۱) الاكتفا : ۱۱۱/۱ ، الطبري : ٥٥٠/٢ ، عيون الأثر : ٤٨/٢ ، الكامل في التّاريخ : ١١٩/٢ ، ابن هشام :
 ١٠٨/٣ ، البداية والنّهاية : ٧٤/٤ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ١٠٨/٣

⁽٢) دون العشرة ، [السّيرة الحلبية : ٢٧٧/٢] .

الإسلام معتقد قوي ومتسامح أيضاً ، ولكنه ما جعل التَّسامح موقفاً مهتزاً يتلقَّى بسببه الضَّربات والمؤامرات من قريش واليهود ، بل جعل للتَّسامح قوَّة تحميه .

أرسل عَنْ عَلَيْ محمّد بن مسلمة إلى بني النّضير ، فبلّغهم أمر رسول الله ، أن اخرجوا من المدينة ، لأنّ حَيَّهم من أعمالها ، فلا تساكنوني بها ، فقد همتم بما همتم به من الغدر ، وأخبرهم بما همّوا به من صعود عمرو بن جحاش على ظهر البيت ليطرح الصّخرة ، فسكتوا ولم يقولوا حرفاً .

وقال محمَّد بن مسلمة ؛ ويقول لكم قد أجَّلتكم عشراً ، فمن رُئِيَ بعد ذلك ضَرِبَت عنقه ، فالرَّحة هنا لا محلَّ لها في موقفَيْن متباينيْن ، تناقضت فيها التَّصوُّرات ، طرف متسامح يطرح الحبَّة والإخاء والتَّعايش بأمان ، وطرف حاقد ماكر ناكث للعهد .

إنَّ تصرُّفات اليهود سيطرت عليها روح الحفاظ على الامتيازات الَّتي تَتَّعوا بها عندما كان العرب فِرَقاً وقبائل متنافسة ، ولكن هيهات أن تنجح هذه الرُّوح في ظلِّ الإسلام ، فما كان من عند الله يُمْضِهِ .

تهيّأ المسلمون لحربهم ، فلما اجتمعوا خرج رسول الله عَلَيْتُكُم بهم ، وحمل رايته علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وسار بالنّاس حتّى نزل ديار بني النّضير (١) ، وهم متحصّنون في الحصون يرمون المسلمين بالنّبُل والحجارة ، ساعدهم في موقفهم هذا :

⁽١) وكان بينهم وبين المدينة المنوَّرة نحو ميليِّن في عوالي المدينة من ناحية قباء .

١ ـ نتائج غزوة أُحُد العسكريَّة ، والَّتي جاءت لصالح قريش .

٢ _ ووعود المنافقين بزعامة عبد الله بن أبّى بن سلول .

٣ ـ وأملهم بإمدادهم من قبل بني قريظة وحلفائهم من غطفان .

ومن الملاحظ أن بني النّضير لم تنفّ خبر الغدر برسول الله عَلَيْكَ ، ولو لم يكن الأمرحقاً لكذّبوه ، وفي رأينا أنّ سبب عدم تكذيب اليهود لخبر غدرهم وإلقاء الصّخرة على رسول الله شيوع الخبر بينهم ، وبعضهم لم يكن على رأي الغدر والنّكث ، إمّا حفاظاً على ديارهم وممتلكاتهم ، وإما قناعة بنبوّته ولو لم يتّبعوه ، فهم يعرفونه كا يعرفون أبناءهم ، أما قال لهم سلام بن مِشْكم : لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما همتم به ؟

ولم يـزل عبـد الله بن أبي بن سلـول يبعث لبني النّضير أن اثبتـوا وبمّنّعـوا في حصونكم ، فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، فانتظروا ذلك ، ولكنه خذلهم ، ولزم المسلمون حصارهم ، فسألوا رسول الله عَيِّلِيَّم أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الْحَلْقة الله عَلَيِّيِّم ، فاحتملوا النّساء والصّبيان ، وحملوا من أموالهم ما استقلّت به الإبل ، وكانت ست مئة بعير ، وخرجوا مظهرين التّجلّد ، مع زهو وفخر ما رئي مثله من حيّ للنّاس في زمانهم ، فرجت النّساء على الهوادج وعليهن الـدّيباج والحرير المزركش ، وحلي الـدّهب خرجت النّساء على الهوادج وعليهن الـدّيباج والحرير المزركش ، وحلي الـدّهب والفضّة ، وخلفهم القيان بالـدّفوف والمزامير ، فجعلوا عرّون قافلة ، وسلام بن أبي الحتقيق رافع جلد جَمَل أو ثور مملوء حليّا وينادي بأعلى صوته : هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنّا تركنا نخلاً ففي خيبر النّخل ، وسار قسم منهم إلى خيبر ، فلما نزلوها دان لهم أهلها ، ومنهم من سار إلى جنوبي الشّام إلى أذرعات .

وقسَّم عَلِيْكُم فَي، بني النَّضير على المهاجرين خاصَّة ، على أن يخرجوا من دور الأنصار وأموالهم ، واستثنى الغنيَّ منهم ، وأعطى من الأنصار رجلَيْن محتاجَيْن هما :

⁽١) الْحَلْقة : بسكون اللَّام ، الدُّروع ، وهي هنا آلة الحرب والسَّلاح عامًّا .

سهل بن حنيف ، وأبو دجانة ، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق ، وكان سيفاً له ذكر عندهم ، لقد كان فيء بني النّضير لفقراء المجتمع الإسلامي ، الّذي كان محدداً بالمدينة المنوّرة آنذاك ، ومن الطّبيعي أن يعمّ العطاء الأكبر المهاجرين .

وأنزل سبحانه وتعالى في أمر بني النَّضير سورة الحشر ، لـذلـك كان يسمِّيهـا ابن عبَّاس سورة بني النَّضير ، كما جاء في البخاري .





الْخَنْدَقُ غزوةُ الأحزابِ شوّال ه هـ = شباط ٦٦٧ م

﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِنْ فَوْقِكُم وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمُ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُونَ بِاللهِ الظُنُونَا هُضَالِكَ ابتُلِيَ المؤمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ .

[الأحزاب : ١٠/٣٣ و ١١] .

ستبها:

أُجِليَ بنو النَّضير لأسباب تقدَّم ذكرها ، فسارع جمع من رجالاتهم ، منهم سيِّدهم حُينيُّ بن أُخُطَب ، وعظيهم سلام بن مشكم ، ورئيسهم كنانة بن أبي الْحُقَيْق ، وهُوذَة بن قيس الوائلي ، وأبو عامر الفاسق ، إلى أن قدموا مكَّة المكرَّمة على قريش ، يدعونهم ويحرِّضونهم على حرب رسول الله عَلَيْلَةٍ ، وقالوا : إنَّا سنكون عليه حتَّى نستأصله (۱) .

فقال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحبُّ النَّاس إلينا من أعاننا على عداوة محمَّد ، لكن لا نأمنكم إلاَّ إن سجدتم لآلهتنا حتَّى نطمئن إليكم ، ففعلوا ، فقالت قريش لأولئك اليهود : يا معشر يهود ، إنّكم أهل الكتاب الأوَّل والعِلْم ، أخبرونا عمَّا أصبحنا نختلف

⁽۱) أخبار (الخندق) في : الاكتفا : ١١٣/١ ، عيون الأثر : ٥٥/٢ ، ابن خلدون : ٢٩/٢ ، البداية والنّهاية : ٩٢/٤ ، ابن هشام : ١٢٧/٣ ، الرّوض الأنّف : ٢٧٦/٣ ، الطّبري : ١٩٤/٠ ، السّيرة الحلبيّة : ٢٨٨٣ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ١٨١/٣

فيه نحن ومحمَّد ، أفديننا خير أمْ دين محمَّد ؟ أنحن أهدى سبيلاً أمْ محمَّد ؟ فقالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحقِّ منه ، وأنتم أهدى سبيلاً ، لأنّكم تعظمون هذا البيت ، وتقومون على السِّقاية ، وتنحرون البُدُن ، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم ، فأنتم أولى بالحقِّ منه ، فأنزل الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يؤمِنُونَ بالجِبْتِ وَالطَّاعُوتِ (١) وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَروا هؤلاء أهدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبيلاً هُ أُولِيكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ ، [النساء : ١/١٥ و ٢٥] .

وقول اليهود هذا يخالف عقيدتهم ، ولكنه يوصلهم إلى هدفهم الذي يشغلهم ويفتت كبدهم ، ألا وهو محاربة المسلمين : « إنّا سنكون معم عليه حتّى نستأصله » ، وسُرّت قريش بما قال اليهود ، ونشّطهم لما دعوهم إليه من حرب رسول الله عَلَيْلَةً ، وعند ذلك خرج من بطون قريش خمسون رجلا ، وتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلّقين بأستارها ، أن لا يخذل بعضهم بعضا ، ويكونوا كلّهم يدا واحدة على عمّد ما بقى منهم رجل .

ثمَّ ســـار أُولئــك النَّفر من اليهـود إلى غَطَفــان ، ودعـوهم وحرَّضــوهم على حرب رسول الله عَلَيْلَيْم ، وقالوا لهم : إنَّا سنكون معكم ، وإنَّ قريشاً قــد بــايعوهم على ذلـك ، « وجعلت يهود لغطفان تحريضاً على الخروج نصف تمر خيبر كلَّ عام » (٢) .

و يمكن إجمال سياسة اليهود في الحجاز بثلاث نقاط:

١ ـ المهادنة ما دام رسول الله ظاهراً قويّاً .

٢ ـ الـدَّسُّ بـالسِّر ، والتَّحريض ضـد المسلمين بـالخفـاء ، للقضاء عليهم وعلى رسول الله عَلَيْتُهِ .

⁽١) الجِبْتُ : كلُّ مـاعَبِـدَ من دون الله ، وقيـل هي كلمـة تقـع على الصَّم والكاهن والسَّـاحر ، [اللَّســان : جبت] ، والطَّاغوت : الكهنة والشَّياطين ، [اللَّسان : طغي] .

⁽٢) وفي السّيرة الحلبيَّة : ٣٢٩/٢ : « وجعلوا لهم تمر خيبر سنـة إن هم نصروهم عليـه » ، ونصف تمر خيبر في الاكتفا : ١١٣/١

٣ ـ العداء الظَّاهر ، ودعم القوى المعادية لرسول الله على عندما تسمح الظُّروف بذلك ، وهي الظّروف الّتي يتراءى لهم من خلالها قوّة المشركين ، وقرب انهيار المسلمين .

وهدف ذلك كله ، الحفاظ على المكانة المتيزة لهم عندما كان العرب في فرقتهم وقبائليَّتهم ، وصار هدف اليهود كا قال أحد الكُتَّاب إبَّان الثَّورة الفرنسيَّة : « أُهدي إلى كلِّ من يطبّق من العال سياسة التَّخريب سلامي الأخوي ، وإعجابي القلبي »(١).

وتجهَّزت قريش وأتباعها من القبائل ، وقادها أبو سفيان بن حرب .

وتجهَّزت غطفان وأتباعها ، وقادها عُيَيْنَة بن حصن الفزاري .

وكان أبو سفيان القائد العام لهذه الجموع الَّتي بلغت العشرة آلاف ، وهو المدبّر لأمرها ، والقائم بشأنها ، وسار بهم متّجها نحو المدينة ليستأصل محمّداً وصحبه ودينه .

* * *

استعدادات المدينة المنوّرة:

أرسلت خُزَاعة ركباً قطع الطَّريق بين مكَّة والمدينة في أربع ليال (٢) ، يحمل الخبر إلى رسول الله عَلِيْتُهِ ، فلما سمع رسول الله بما أجمعوا عليه ، دعا النَّاس وأخبرهم خبر عدوِّهم ، وشاورهم في أمرهم ، هل نبرز من المدينة أو نكون فيها (٣) .

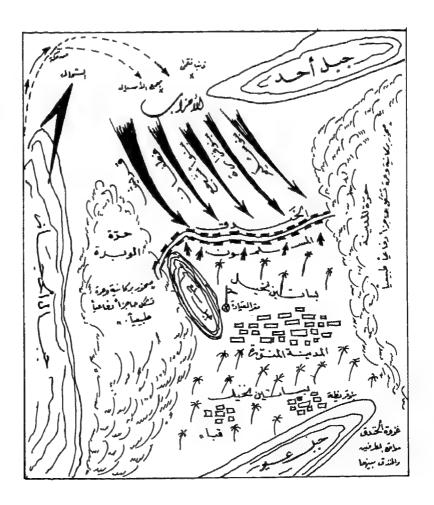
فقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : « يـا رسول الله ، إنَّـا كنَّـا بـأرض فــارس إذا تخوَّفنا الخيل ، وإذا حوصرنا خندقنا علينا »(٤) .

⁽۱) روح الثَّورات والثُّورة الفرنسيَّة ، غوستاف لوبون ، ص : ۳۰۰ ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، مطبعة الثَّرق بدمشق ـ ۱۹۲٤ م .

⁽٢) معنى ذلك أنَّ الموكب اجتاز المسافة بسرعة كبيرة ، فتوسِّط قطع الطُّريق بين مكَّة والمدينة ستة أيَّام .

⁽٣) البداية والنَّهاية : ٩٥/٤ ، السَّيرة الحلبيَّة : ٣٣٠/٢

⁽٤) وكانت غزوة الحندق أوَّل مشهد شهده سلمان مع رسول الله عَرَائِيُّةٍ ، [الطَّبري : ٥٦٦/٢] .



أُعجب الجميع بالفكرة ، لاسيا وأنها فكرة مجرَّبة تشلَّ حركة الخيل ، وهي قوَّة فعَّالة رئيسة عند قريش ، وعند ذلك ركب رسول الله على فرساً له ، ومعه عدد من المهاجرين والأنصار ، فارتاد واستطلع موضعاً يصلح لحفر الخندق (١) ، ويضن موقع الدفاع الحكم عن المدينة ، فاختار على موضعاً مناسباً ، لقد جعل جبل سلم خلف

⁽١) خندق : كلمة فارسيَّة الأصل ، وقد تكلُّمت به العرب ، [اللَّسان : خندق] .

ظهره ، وخط الخندق من أَجُم الشَّيخين (١) طرف بني حارثة ، حتَّى بلغ المذاد (٢) ، ثمَّ قطَّعه ، لكلِّ عشرة من النَّاس أربعون ذراعاً يعملون فيها ، وعمل عَلَيْكِ في حفر الخندق مع المسلمين (٦) ، وحمل التَّراب على ظهره الشَّريف ، وكان المسلم أثناء الحفر إذا نابته النَّائبة من الحاجة الَّتِي لابدً له منها ، يذكر ذلك لرسول الله عَلَيْكُم ، ويستأذنه في النَّحوق بها ، فإذا قضى حاجته ، رجع إلى ماكان عليه من عمله .

وقال عرو بن عوف : كنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليان والنّعان بن مُقرِّن المزني وستّة من الأنصار في أربعين ذراعاً ، فحفرنا تحت ذوباب حتَّى بلغنا النَّدى (٤) ، فأخرج الله عزَّ وجلٌ من بطن الخندق صخرة بيضاء مَرُوة (٥) فكسرت حديدنا ، وشقَّت علينا ، فقلنا : ياسلمان ، ارق إلى رسول الله علينا فأخبره خبر هذه الصَّخرة ، فإما أن نعدل عنها ، فإنَّ المعدل قريب ، وإمَّا أن يأمرنا فيها بأمره ، فإنَّا لانحب أن نجاوز خطه .

فرقى سلمان رضي الله عنه حتّى أتى رسول الله عَلَيْتُ ، فقال : يا رسول الله ، بأبينا أنت وأُمّنا ، خرجت صخرة بيضاء من الخندق مَرْوَة ، فكسرت حديدَنا ، وشقّت علينا حتّى ما نُحيك (١) فيها قليلاً ولا كثيراً ، فرنا فيها بأمرك ، فإنّا لانحب أن نجاوز

⁽١) الأُجّم: واحدة آجام المدينة ، بمعنى الأُطم ، وآجام المدينة أطامها وحصونها ، والشّيخان : موضع بالمدينة .

⁽٢) المذاد : موضع بالمدينة حيث حفر عَلِيَّةِ الخندق ، [معجم البلدان : ٨٨/٥] .

 ⁽٦) واستعار المسلمون من بني قريظة آلة كثيرة منها المساحي ، ومفردها : مِسْحاة : الْمِجْرَفَة من الحديد ،
 [اللّسان : سحا] .

⁽٤) ذو باب وهي ذباب وذُباب : جبل بالمدينة ، [معجم البلدان : ٣/٤] ، و « حتَّى بلغنا النَّـدى » ، أي بلغنا الغاية ، [اللَّسان : ندى] .

⁽٥) الْمَرْوُ: حجارة بيضاء برَّاقة تكون فيها النَّار ، وتقدح منها ، واحدة مَرْوَة ، [مختار الصّحاح : ٢٢٢] .

⁽٥) لا يحيك الفأس ولا القَدُوم في هذه الشَّجرة ، إذا لم يؤثِّر فيها ، ويقال : ضربته فما أحماك فيمه السَّيف ، إذا لم يعمل ، [اللّمان : حاك].

خطَّك : فهبط رسول الله عَلِياتُهُ مع سلمان في الخندق ، ورقينا نحن التَّسعة على شقّة الخندق .

وأخذ على المعول ، وقال : سم الله ، سم الله ، وضرب ضربة فكسرت ثلث الصّخرة ، وبرقت برقة فخرج نورٌ من قبل الين كالصباح في جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله على وقال : « أعطيت مفاتيح الين ، إنّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا » ، ثمّ ضرب الشّانية ، فقطع ثلثاً آخر ، فخرج نور من قبل الرّوم ، فكبر رسول الله على وقال : « أعطيت مفاتيح الشّام والمغرب ، والله إنّي لأبصر قصورها الحر » ، ثمّ ضرب الثّالثة فقطع بقيّة الصّخرة ، وبرقت برقة ، فكبر وقال : « أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنّي لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب في مفاتيح فارس ، والله إنّي لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب في مكاني هذا ، إنّي لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن » ، وجعل على يسلمان أماكن فارس ، ويقول سلمان : صدقت يا رسول الله هذه صفتها ، أشهد أنك رسول الله ، ثمّ قال رسول الله عليها ، فأبشروا يبلغهم النّصر ، فأبشروا يبلغهم النّصر ، وأبشروا يبلغهم النّصر ، وأبشروا يبلغهم النّصر ، والشروا يبلغهم النّصر ، وعدنا النّصر بعد الخصر » ، فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحد لله ، ووعد صادق بار ، وعدنا النّصر بعد الحصر () .

وقال جمع من المنافقين : ألا تعجبون من عمَّد ينيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنَّه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنَّا تحفرون الخندق من الخوف لا تستطيعون أن تبرزوا ، هيهات هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والرُّوم وهم أعز وأمنع من ذلك ، كان محمَّد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط (٢) .

⁽١) الطّبري : ٢٩/٢٥

⁽٢) الطّبري: ٢/٧٧٥ ، الاكتفا: ١١٥/١

لقد بشَّر عَلِيْكُ المسلمين وثبَّتهم ، وما قاله لهم : « ابشروا بعون الله ونصره ، إنِّي لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق ، وآخذ المفتاح ، وليهلكنَّ كسرى وقيصر ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والَّذي نفسي بيده لَتُنْفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله »(١) ، يقول عَلِيْكُم ذلك حين رأى ما بالمسلمين من الكرب .

* * *

إتمام حفر الخندق:

كم عدد المسلمين الَّذين اشتركوا في حفر الخندق ؟

وبكم من الأيَّام أُنجِز وتمَّ حفره ؟

تكاد المصادر تجمع على أنَّ عدد المسلمين في الخندق ثلاثة آلاف^(۱) ، وهذا الرَّمْ موضع تساؤل : كان المسلمون في أُحَد قرابة ألف رجل حملوا السِّلاح ، أفن المعقول أنَّهم ازدادوا ثلاثة أضعاف في مدَّة قصيرة ؟

يكننا أن نجد الإجابة في جملة وردت في السيّرة الحلبيّة ، وهي أنَّ الَّذين عملوا في الحندق ليس الرِّجال فقط: « وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون فيه » (٢) ، بذه العبارة يكننا تثبيت عدد المسلمين الَّذين عملوا في الخندق ثلاثة آلاف (٤) .

⁽١) السّيرة النّبويّة لابن كثير: ٢١٠/٣

 ⁽۲) ابن خلدون : ۲۹/۲ ، الاكتفا : ۱۱٤/۱ ، البداية والنّهاية : ۱۰۲/٤ ، ابن هشام : ۱۳۱/۳ ، السّيرة الحلبيّة : ۲۳۵/۲ ، الطّبري : ۷۰/۲ ، عيون الأثر : ۷/۷۰

⁽٢) السّيرة الحلبيّة: ٢٢٥/٢

⁽³⁾ ولكن رسول الله وَ الله وَ الله علي الله والله وال

وتجمع المصادر أنَّ كلَّ عشرة من المسلمين عملوا في حفر أربعين ذراعاً ، فكان نصيب الفرد الواحد وسطيّاً أربعة أذرع .

فثلاثة آلاف رجل ، نصيب الواحد منهم أربعة أذرع ، فيكون طول الخندق : ٣٠٠٠ × ٤ = ١٢٠٠٠ ذراع ، وقُدِّر عرض الخندق بتسعة أذرع إلى ما فوقها ، وليكن وسطياً عشرة أذرع ، وعمقه سبعة أذرع إلى عشرة .

والذّراع هنا هو الذّراع الشّرعي ، لقد أجمعت أقوال الفقهاء على أنَّ طول الذّراع ستّة قبضات معتدلات ، كلُّ قبضة أربعة أصابع ، وكلُّ إصبع بعرض ست حبات من الشّعير ، وكلُّ شعيرة بعرض ست شعرات من شعر البغل ، وطلول السنرّراع فقهساً : ١٩٦٤ سم ، أو : ١٩٤٠ م (١) .

لنحوِّل المقاييس السَّابقة إلى أمتار:

۱۲۰۰۰ ذراع × ۱۲۲۰ = 3300 م طول الخندق .

۱۰ ذراع × ۶۲۲ = ۶,۲۲ م متوسّط عرضه (۱۰ .

٧ ذراع × ٢٠٤٠ = ٣,٢٣٤ م متوسّط عقه .

والطُّول المطلوب من كلِّ فرد إنجازه:

٤ أذرع × ١,٨٤٨ = ١,٨٤٨ م .

أمًّا حجم العمل المطلوب من كلٌّ فرد ، فهو :

(۱) راجع (كُتَّابُ الإيضاح والتّبيان في معرفة المكيال والميزان) ، لأبي العبّاس نجم الدّين بن الرفعة الأنصاري ، تحقيق د . محمد أحمد إساعيل الخروف ، طبعة : ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م ، جامعة الملك عبد العزيز في مكّة المكرّمة .

(Y) إنَّ التَّراب الَّذي استَخرج من حفر الخندق ، أمر طبيعي أن يوضع في الجهة الجنوبيَّة للخندق حيث تركز المسلمين ، ليشكَّل عرض الخندق مع ارتفاع السَّاتر التَّرابي عائقاً كافياً يحول دون اجتياز الخيل للخندق .

و يمكن للعامل النَّشيط في أيَّامنا هذه أن ينجز ثلاثة أمتار مكعَّبة من الحفر في اليوم الواحد ، و يمكننا القول : إنَّ هذا الرَّق (٣ م م) مقبول أيضاً للعاملين بالخندق ، على الرَّغ من أنَّ أجسامهم كانت أقوى ، ولكن بما أنَّ الَّذين عملوا « من بلغ ومن لم يبلغ » ، يمكن وسطياً قبول ثلاثة أمتار مكعَّبة كيَّة العمل اليوميَّة .

كميَّة العمل : ٢٧,٦١١١٥ م ، والإنجاز اليومي ٣ م ، ومن هذين الرَّقين يمكننا معرفة عدد أيَّام العمل :

والمدينة الطبيعيّة لوصول المسافر من نجد إلى الحجاز هي على الأقل ثمانية أيّام ، ولما كان الخبر الطبيعيّة لوصول المسافر من نجد إلى الحجاز هي على الأقل ثمانية أيّام ، ولما كان الخبر وصل إلى رسول الله عَيْنِيّة بعد أربعة أيّام : « أرسلت خزاعة بموكب قطع الطّريق بين مكّة والمدينة في أربع ليال بالخبر إلى رسول الله عَيْنِيّة » ، يضاف إليها عشرة أيّام مدة حفر الخندق ، نقول على ضوء هذا : لم تصل الأحزاب إلى المدينة إلا بعد مرور أكثر من أربعة عشر يوما ، وهي المدّة المعقولة لذهاب وفد اليهود من مكّة إلى غطفان في نجد ، وسير غطفان إلى المدينة المنوّرة لتلتقي بقريش .

الأحزاب في شمالي المدينة المنوّرة:

ولما فرغ رسول الله على من حفر الخندق ، أقبلت قريش ومن معها ، لينزل الجميع شالي المدينة المنوَّرة ، وعسكر رسول الله على بالمسلمين في سفح جبل سلع المعالم الله على الله على النساء والأولاد في الأطام (٢) .

لقد حصَّن عَلِيلًا المدينة أحسن تحصين ، فأضحت منيعة من سائر جوانبها ،

⁽١) السُّلوع : شقوق في الجبال واحدها سَلْع وسِلْع ، وسَلْع جبل بسوق المدينة ، [معجم البلدان : ٢٣٦/٢] .

⁽٢) أطام وأُطُم : حصن مبني بحجارة ، [اللَّسان : أطم] .

واستكمل الخندق - شالي المدينة - إحكام التَّحصين ، وأعطى لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة (١) ، وبعث مسلمة بن أسلم في مئتي رجل ، وزيد بن حارثة في ثلاث مئة رجل يحرسون المدينة ، ويظهرون التَّكبير تخوُّفاً على الذَّراري من غدر بني قريظة ، فالدَّلائل تشير إلى قرب نقضهم العهد الَّذي بينهم وبين المسلمين ، وأنَّهم يريدون الإغارة على المدينة بتحريض من حُيَيًّ بن أخطب ، فَعَظُم البلاء ، وصار الخوف على الذَّراري أشد الخوف .

ولما نظر المشركون إلى الخندق قالوا: والله إنَّ هذه لمكيدة ، وما كانت العرب تكيدها .

واستطاع حُيي بن أخطب سيّد بني النّضير أن يقنع بني قريظة بزعامة كعب بن أسد ، أن ينقضوا العهد مع رسول الله عَيْسَةٍ ، وبذلك أصبح المسلمون غير مطمئنين على مصير ذراريهم الّذين هم في مؤخّرة الجيش في الآطام ، وعقاب بني قريظة وتأديبهم أمر أصبح في الحسبان :

﴿ إِذْ جَاؤُوكُم مِنْ فَوْقِكُم وَمِنْ أَشْفَلَ مِنْكُم وَإِذ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴿ هَنَالِكَ ٱبْتَلِيَ المؤمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ ، [الأحزاب: ١٠/٣٣ و ١١] .

وظهر نفاق المنافقين ، يبتُّون إرجافهم وتوهينهم للعزائم ، وإضعافهم للهمم .

أمام هذا الواقع ، أراد عَلَيْ أن يخرق صفّا الأحزاب ، بإعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة على أن ترجع عنه ، وأرسل إلى سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، فذكر لها ذلك ، واستشارهما ، فقالا : يارسول الله ، أمر تحبّه فتصنعه ، أمْ شيء أمرك الله به لابدً لنا من العمل به ؟ أمْ شيء تصنعه لنا ؟ إن كان أمراً من السّاء فامض له ، وإن

⁽١) عيون الأثر : ٥٨/٢ ، السّيرة الحلبيّة : ٣٣٥/٢

كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوى ، فسمعاً وطاعة ، وإن كان إنَّها هو الرَّأي فما لهم عندنا إلاَّ السَّيف ، فقال عَلَيْكَ : « لوأمرني الله ما شاورتكما ، والله ما أصنع ذلك إلاّ لأنّي رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم (١) من كلّ جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما » .

فقال سعد بن معاذ: يارسول الله ، كنا نحن وهؤلاء القوم - أي غطفان - على الشّرك بالله وعبادة الأوثان لانعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قررى (٢) أو بيعا ، وكانوا ليأكلون العِلْهِز (٣) في الجاهليّة من الجهد ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزّنا بك وبه نقطعهم أموالنا ، ونعطي الدّنيّة ؟ مالنا بهذا من حساجهة ، والله لا نعطيهم إلا السّيف حتّى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال رسول الله عَلَيْهُ : « فأنت وذاك » .

☆ ☆ ☆

عَلَيٌّ رضي الله غنه وعمرو بن عبد وَّدُّ العامري :

تقدُّم عمرو بن عبد وُدّ من الخندق ، وقال : من يبارز ؟

ويقول على رضى الله عنه : أنا له يانبيَّ الله .

ويقول رسول الله عَلِيُّةٍ : اجلس ، إنَّه عمرو بن عبد وُدّ .

وكرَّر عمرو النَّداء ، وقال مستهزئاً : جنَّتكم الَّتي تزعمون أنَّه من قُتِل منكم دخلها ، أفلا تُبْرزون لي رجلاً ، وأنشد قائلاً :

⁽١) كَالَبَ الرُّجلُ مكالبةً وكالاباً: ضايقه ، ويقال : هم يتكالبون على كنا ، أي يتواثبون عليه ، [اللَّسان : كلب] .

⁽٢) قَرَى الضِّيف يَقُريه قِرى وقَراءً : أضافه ، [اللَّسان : قرا] .

٣) العِلْهِزُ : وَبَرّ يخلط بدماء يابسة ، كانت العرب في الجاهليّة تأكله في الْجَدْب ، [اللّسان : علهز] .

ولق د بُحِحتُ مِنَ النَّ داء لجمهِم هَ لَ مِنْ مُبَارِزْ ؟ ووقفتُ إذ جَبُنَ المشجَّ عَ مسوقفَ القِرنِ الْمُنَساجِ زُ ؟ ووقفتُ إذ جَبُنَ المشجَّ عَ مسوقفَ القِرنِ الْمُنَساجِ زُ (١) وَلَا مُتَسَرِّع الله عَلَى الله عَنْ الفتى وَالجِ وَ مَن خَيْرِ الغرائِ نُ الله عنه فقال : أنا له يا رسول الله .

رسول الله عَلِيْلَةٍ : إنَّه عمرو .

على رضي الله عنه: وإن كان عمراً !؟! عندها أذِن له رسول الله عَلَيْتُهُ بعد أن تأكّد من عزيته في مواجهة هذا الخصم المعروف ببأسه الشّديد، وأعطاه عَلَيْتُهُ سيفه ذا الفقار، وألبسه درعه الحديد، وعمّمه بعامته، وقال: « اللّهم أعنه عليه، إلهي أخذت عبيدة منّي يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وهذا أخي وابن عمّي فلا تذرني فرداً، وأنت خير الوارثين »(٢)، فتقدّم عليّ رضي الله عنه وهو ينشد باعتزاز ويقين:

لاتَعْجَلَنَّ فقد د أتاكَ مُجِيبُ صَوْت كَ غيرُ عَاجِ زُ ذُو نِيَّ قَ مَا إِلَّ اللَّهِ وَالصَّدَةُ مَنجى كُلُّ فَ الْإِلَالِيَّ وَالصَّدَةُ مَنجى كُلُّ فَ الْإِلَانِ إِنِّي لاَرج و أَنْ أَقَيمَ علي كَ نَائِحَ قَ الْجَنَا الْإِلَانِ وَالْكَانِ وَالْكَانِ وَالْكَانِ وَالْكَانِ مِنْ ضَرْب قَ نَجْ لاءَ يبقى ذِكْرُها عند الله زائد وَ(")

عمرو: مَنْ أنت ؟ لأنَّ علياً رضي الله عنه كان مقنَّعاً بالحديد .

⁽١) الهزاهز : الدُّواهي والشَّدائد ، والهزهزة : تحريك البلايا والحروب للنَّاس ، والهزاهز : الفتن يهتز فيها النَّاس ، [اللَّسان : هزز] .

⁽٢) ابن هشام : ١٣٤/٣ ، السَّيرة النَّبويَّة والآثار المحمَّديَّة : ١٣٠/٢

 ⁽۲) للقصيدتَيْن وخبر قتل عمرو ، انظر : الاكتفا : ١١٥/١ ، السَّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٢٠٤/٢ ، الرُّوض الأُنف : ٢٧٩/٢ ، السَّيرة الحلبيَّة : ٣٤٠/٢ ، الكامل في التَّاريخ : ١٢٤/٢ ، عيون الأثر : ٦٢/٢ ، ابن هشام : ٢٣٤/٢ ، البداية والنَّهاية : ١٠٦/٤

على : أنا على بن أبي طالب .

عمرو : غيرك يابن أخي من أعمامك من هو أشدّ منك .

على : ياعمرو ! إنَّك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى واحدة من ثلاث إلاَّ قبلتها .

عمرو: أجل .

على : أدعوك أن تشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله ، وَتُسْلِم لربِّ العالمين .

عمرو: يابن أخي أخّر عنّي هذه .

على : وأُخرى ، ترجع إلى بلادك فإن يَكُ مُمَّد عَلِيلَةٍ صادقاً كنت أسعد النَّاس به ، وإن يَكُ كاذباً كان الَّذي تريد .

عرو: هذا ما لا تتحدّث به نساء قريش أبداً ، كيف وقد قدرت على استيفاء ما نذرت (١) ، فالثّالثة ما هي ؟

على : البراز .

عرو (ضاحكاً): إنَّ هذه لخصلة ماكنت أظن أحداً من العرب يروعني بها ، لِمَ يابن أخي ؟ ماأُحب أن أقتلك ، فإنَّ أباك كان لي صديقاً ، وكنت له نـديماً ، فإنِّي أكره أن أُسيل دمك .

علي : ولكنِّي والله أُحبُّ أن أقتلك ، وما أكره أن أهريق دمك .

فغضب عمرو وأخذته الحميَّة ، واستعدَّ للنَّزال .

⁽۱) قاتل عمرو يوم بدر حتَّى أثبتته الجراحة فلم يشهد أُحُداً ، فنـذر أن لا يمنَّ رأسه دهنـاً حتَّى يقتل عَمَّداً ، فلما كان يوم الخندق خرج معلًا بعلامة ليَعْرَف مكانه .

على : كيف أُقاتلك وأنت على فَرساك ؟ ولكن انزل معي ، فنزل عمرو عن فرسه ، وسلَّ سيفه كأنَّه شعلة نار ، فعقر فرسه وضرب وجهه ، وأقبل على على رضي الله عنه ، فاستقبله عليَّ بدرقته ، فضربه عمرو فيها فقدَّها وأثبت فيها السَّيف وأصاب رأسه فشجّه ، فضربه على رضي الله عنه على حبل عاتقه (۱) ، فسقط عمرو مضرَّجاً بدمه ، وكبَّر المسلمون ، فلما سمع رسول الله عَلَيْ التَّكبير ، عرف أن عليًا قتل عَمْراً .

وأقبل علي رضي الله عنه بعد قتله لعمرو بن عبد وُد على رسول الله عليه وهو متهلّل ، فقال عليه عليه وجدت نفسك معه ياعلي ؟ » ، قال رضي الله عنه : لو كان أهل المدينة كلّهم في جانب ، وأنا في جانب لقدرت عليهم .

وأقام المشركون على الخندق قريباً من شهر ، ولم يكن بين القوم حرب إلا الرَّمي بالنَّبْل والحصار .

ونـزل جبريـل عليــه السَّـلام فبشَّر رسـول الله عَلَيْكُم أنَّ الله يرســل عليهم ريحــاً وجنوداً ، وأعلم رسول الله عَلِيْكُم أصحابه بذلك ، وهـنـه طبعـاً نبوءة لهـا أهميَّتهـا في مثل ظروف الخندق ، وعَرف السَّرور في وجهه الكريم عَلَيْكُم .

☆ ☆ ☆

نُعَيْم بن مسعود الأشجعي : و « الحربُ خُدُعَةً » :

سار نُعيم بن مسعود الأشجعي مع قومه غطفان وهو على دينهم ، وخرج حتَّى أتى رسول الله عَلِينَةُ بين المغرب والعشاء ، فوجده يصلّي .

لقد انسل أنعيم تحت جنح اللّيل إلى المدينة ، وفي تقديرنا ما وصل إلى رسول الله عُرِيليّة إلا بعد التّعرّف إليه ، والتّيقُن مما يريد ، وبعد تجريده من سلاحه ،

⁽١) حبل عاتقه : موضع الرَّداء من العنق ، [مختار الصَّحاح : ٤١١] .

وسوقه تحت حراسة إلى مقرّ القيادة ، فدوريّات الجاهدين المتحرّكة ، والمسند إليها أعمال الحراسة ، تعمل بنشاط وتيقُظ من قبيل الغروب حتّى طلوع الفجر .

وجلس نُعيم في مقرِّ القيادة ، فقال له عَلِيُّ : ما جاء بك يا نُعيم ؟

نُعيم : جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق فأسلم ، ثمَّ قال : إنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي ، فرني بما شئت ، فقال رسول الله عَلَيْتُ : « إنَّما أنتَ رجل واحد فخذً ل عنا ما استطعت ، فإنَّ الحرب خُدْعَة "(١) .

جاء في كتاب (المجتبى) (٢) : يريد أنَّ الماكرة في الحرب أنفع من المكاثرة والإقدام من غير علم ، ومنه قول بعض الحكهاء : « نفاذ الرَّأي في الحرب ، أنفع من الطَّعن والضَّرب » ، وقال الإمام النَّووي : « اتَّفقوا على جواز خدع الكفَّار في الحرب كيفها أمكن ، إلاَّ أن يكون فيه نقض عهد أو أمان ، فلا يجوز » .

وفي عبارة « الحرب خُدْعة » ، إشارة لطيفة إلى مكر العدو ، وفيها تحذير من خداعه أيضاً ، وأنّه لا ينبغي التّهاون به ، فقد يلجأ إلى الخداع ، فإن لم يتيقّظ لذلك لم يأمن المسلم أن ينعكس الأمر عليه . وفي الحديث أيضاً إشارة إلى استعال الرّأي في الحرب ، بل استخدام الرّأي يسبق الشّجاعة ، فلذا قصر الحرب على الخدعة في قوله على الحرب خُدْعة » ، فهو كقوله على الحجّ عَرَفة » .

« الحرب خُدْعَة » : أي ينقضي أمرها بالخادعة ، نصَّت المادة ٢٤ من اتَّفاقيَّة الحرب البرِّيَّة لسنة ١٩٠٧ م على أنَّه يجوز للدُّول الحاربة أن تلجأ في الحرب إلى الخدع بشرط ألاً تصل إلى درجة الغدر والخيانة أو الإخلال بواجباتها (٢٠) .

⁽۱) الاكتفا: ۱۱٦/۱ ، عيون الأثر: ٦٤/٢ ، ابن هشام: ١٣٧/٣ ، الكامل في التَّاريخ: ١٢٥/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة: ٢٤٦٧، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير: ٢١٤/٣

⁽٢) لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي : ٢٣ ، دار الفكر بدمشق ، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م .

⁽٣) الحرب في القانون الدُّولي العام ، العميد بشير مراد ، ص : ١١٣ ، طبعة ١٩٧٣ م .

وخرج نُعيم حتّى أتى بني قريظة - وكان ندياً لهم - وقال لهم : لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع ، ولبني النّضير من جلائهم وأخذ أموالهم ، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لبني قينقاع ، ولبني النّضير من جلائهم وأخذ أموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة (٢) أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين بلدكم ، والرّجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتّى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، سبعين رجلاً ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمّداً حتّى يناجزوه (٢) .

فقالوا له : لقد أشرت بالرّأي والنّصح ، ودعوا له وشكروه ، وقالوا : نحن فاعلون .

نُعيم : ولكن اكتموا عنِّي ، فقالوا : نفعل .

ثم أتى نعيم قريشاً ، فقال لأبي سفيان ومن معه من أشراف قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقي لحمّد ، وأنّه قد بلغني أمرّ قد رأيت أن أبلّغكوه لكم فاكتموا ، قالوا : نفعل ، فقال : تعلمون أن معشر يهود _ يعني بني قريظة _ قد ندموا على ماصنعوا فيا بينهم وبين محمّد من نقض عهده ، وقد أرسلوا إليه وأنا عندهم إنّا قد ندمنا على مافعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم _ سبعين رجلاً _ فنعطيكهم فتضرب أعناقهم وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم _ يعنون بني النّضير _ ثمّ نكون معك على من بقي منهم حتّى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : نعم ؛ فإن بعثت إليكم يهود يطلبون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً ، واحذروهم على أسراركم ، ولكن اكتموا عنّي ولا تذكروا من هذا حرفاً ، قالوا : لانذك ه .

⁽١) ظاهرتم : أعنتم ، تظاهرون عليهم ، أي تتعاونون ، [اللَّسان : ظهر] .

⁽٢) نهزه نَهْزاً : دفعه وضربه ، والمراد هنا : فإن رأوا فرصة أصابوها ، [اللَّسان : نهز] .

 ⁽٣) المناجزة في القتال : المبارزة والمقاتلة ، [اللَّسان : نجز] .

ثمَّ خرج نُعيم حتَّى أتى غطفان ، فقال : يامعشر غطفان ، إنَّكم أهلي وعشيرتي ، وأحب النَّاس إليَّ ولا أراكم تتهموني ، قالوا : صدقت ، ماأنت عندنا بمتَّهم ، قال : فاكتموا عليَّ ، قالوا : نعم ، فقال لهم مثل ماقال لقريش وحذَّرهم .

اختلفت كلمة الأحزاب ، وجاء حُيّي بن أخطب لبني قريظة فلم يجد منهم موافقة له ، وقالوا : لانقاتل معهم حتّى يدفعوا إلينا سبعين رجلاً من قريش وغطفان رهنا عندنا .

وبعث الله ريحاً عاصفاً في ليلة شديدة البرد ، فقطعت أطناب (١) خيام الأحزاب ، واقتلعتها وقذفتها بعيداً ، وكفأت قدورهم على أفواهها ، وأطفأت نيرانهم ، وصارت الرّيح تلقي الرّجال على أمتعتهم .

جاء في كتاب (تاريخ العرب والإسلام) (٢): « وصادف أن هبّت في اللّيلة نفسها لل رياح شديدة باردة كفأت قدورهم ، ورمت بآنيتهم على الأرض ، فزاد تشتّت كلمة الأحزاب ، وقويت رغبتهم في الرّحيل عن المدينة » .

وبعد تجاوز ما في العبارة من تمييع لنصر الله ، نقول : عوامل الطبيعة ليست عاقلة مدركة حتَّى تتصرَّف هنا ولا تتصرَّف هناك ، فالرِّيح الَّتي هبَّت على الأحزاب « لم تتجاوز المشركين » (٢) !! فلم تخرِّب الرِّياح هنا ولا تخرِّب هناك ؟ لِمَ تقلع وتُطفئ وتُلقي في معسكر الأحزاب ، ولا تفعل ذلك في جانب المسلمين ؟ ولو عملت الرِّياح في المنطقة كلَّها آنذاك ، وشمل أثرها المسلمين والأحزاب لقبلنا عبارة الكتاب التي ذكرنا ، ولكنها لم تجاوز عسكر الأحزاب في شديّها وأذاها ، مع أن المسلمين بجوارهم ، وعلى بعد مئات الأمتار فقط ، يفصل بينها الخندق وضفتاه !!

⁽١) الطُّنْبُ والطُّنُبُ : حبل الخباء والرّواق ونحوهما ، [اللَّسان : طنب] .

⁽۲) د . نبیه عاقل ، ص : ۹۷

⁽٢) ابن خلدون : ٣١/٢ ، الطّبري : ٥٨١/٢ ، ابن هشام : ١٤٠/٣ ، الكامل في التّباريخ : ١٢٦/٢ ، السّيرة الحلبيّة : ٣٤٩/٢

انسيحابُ الأحزابِ:

وأرسل عَيْنَةٍ حذيفة بن اليان - صاحب سِرَّه عَيْنَةٍ - يستطلع خبر الأحزاب ، وقال له : « اذهب فادخل في القوم » ودعا له بخير : « اللَّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته » .

يقول حذيفة : فدخلت العسكر فإذا النّاس في عسكرهم يقولون : الرّحيل الرّحيل لا مقام لكم ، والرّيح تقلبهم على بعض أمتعتهم ، وتضربهم بالحجارة والرّيح لا تجاوز عسكرهم ، حتّى قال طليحة بن خويلد الأسدي : أما محمّد فقد بدأكم بالسّحر ، فالنّجا النّجا !!

قال حذيفة : ثمَّ أتيت رسول الله عَلِيلَةٍ فوجدته قائماً يصلِّي فأخبرته برحيل القوم وانسحابهم ، وبما صنعت الرِّيح الَّتي لا تجاوز عسكر المشركين ، فحمد عَلِيلَةٍ وأثنى على الله بما هو أهل ، نمَّ ضحك حتَّى بدت ثناياه في سواد اللَّيل .



غزوَةُ بني قُريظة :

غزوة بني قريظة قصاص عادل لخيانة علنيَّة ، مع نقض معاهدة موقَّعة تعهَّدوا بموجبها دعم المسلمين ، إذا داهمهم عدو^(۱) ، فانحازوا إلى جانب العدو ، ومتى ؟! عندما رأوا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة ، فظنُّوا أنَّ الأمر قد انتهى ، واستوصل المسلمون عن آخرهم .

انصرفت الأحزاب ليلاً عن الخندق ، وفي اليوم التَّالي أمر رسول الله عَلَيْتُم مؤذِّناً

⁽١) « وإنَّ بينهم النَّصر على من حارب أهل هذه الصَّحيفة ، وإنَّ بينهم النَّصح والنَّصيحة ، والبر دون الإثم ، وإنَّه لم يأثم أمرؤ بحليفه .. » ، [ابن هشام : ١٠٧/٢] .

فأذّن في النّاس: « من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصلّين العصر إلا في بني قريظة »(١) ، وحاصر رسول الله علي بكتائب المسلمين بني قريظة بضع عشرة ليلة ، وحُيّي بن أخطب داخل الحصن ، واشتد عليهم الحصار ، ولما أيقنوا أن رسول الله علي غير منصرف عنهم حتّى يناجزهم ، قال كعب بن أسد: يا معشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنّي عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا بما شئتم منها: قالوا: وما هُن ؟ قال: نتابع هذا الرّجل ونصدّقه ، فوالله لقد تبيّن لكم أنه لنبي مُرسل ، وأنّه للذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا: لانفارق حُكْمَ التّوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم عليَّ هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثمَّ نخرج إلى محمَّد وأصحابه رجالاً مُصَلِّتين السَّيوف لم نترك وراءنا ثَقَلاً حتَّى يحكم الله بيننا وبين محَّد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نَسْلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجدنَّ النَّساءَ والأبناء .

قالوا : أنقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟!

قال : فإن أبيتم على هذه ، فاللَّيلة ليلة السَّبت ، وإنَّه عسى أن يكون محمَّد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلَّنا نُصِب من محمَّد وأصحابه غرَّة .

قالوا : أنفسد سَبْتَنا ونُحدث فيه مالم يُحدث فيه من كان قبلنا ، إلا من قد علمت فأصابه مالم يخف عنك من المسخ .

فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمُّه ليلةً من الدَّهر حازماً .

ثمُّ قبلوا أن ينزلوا على حكم سعد ، فحمل من خيمة رُفيدة وهو جريح

⁽١) لأخبـــار غـزوة بني قريظـــة : الاكتفــا : ١١٧/١ ، فتــوح البلــدان : ٣٤ ، الطّبري : ٥٨١/٢ ، السّيرة الحلبيّة : ٢٥٣/٢ ، ابن هشام : ١٤١/٣

من سهم رماه به حبّان بن قيس بن العَرِقَة ، فقطع منه الأكحل (۱) ، فكان حكمه التّالي : « يُقتل الرّجال ، وتُقسم الأموال ، وتُسبى الذّراري والنّساء » ، ومن الملاحظ : أنّ اليهود لم يسألوا رسولَ الله والمسلمين : لماذا هذا الحصار ؟ ولماذا هذه الحرب ؟ وبالتّالي : لماذا هذا القصاص ، وهذا العقاب ؟!؟

والجواب عن هذا السؤال يتلخَّص في عبارة واحدة موجزة قصيرة : إنَّهم أدرى بما صنعوا !؟

ورحم الله سعداً الَّذي كانت وفاته بعد انصراف الأحزاب بنحو من خمس وعشرين ليلة ، فقد صاغ حُكْمة بما يجب أن يصاغ حُكْمة بعد الغدر والخيانة ، وبما يمليه العدل والمنطق ، فأسكت العدل ، وأخمد المنطق حجج النَّاكثين الغادرين .

☆ ☆ ☆

« الآن نغزُوهُم وَلا يغزُونَنا » :

وانسحبت قريش ومن معها ، وأرسل القائد العام لجموع الأحزاب _ أبو سفيان بن حرب _ كتاباً لرسول الله على فيه :

باسمك اللهم ، فإنّي أحلف باللآت والعزّى وأساف ونائلة وهبَل ، لقد سرتُ إليك في جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبداً حتّى أستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، واعتصت بالخندق ، لقد اعتصت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها ، وإنّا تعرف ظلّ رماحها وشبا(۱) سيوفها ، وما فعلتَ هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا ، ولك منّي يوم كيوم أحد .

⁽١) الأكحل : عرق في اليد وسط الذّراع على الفَصد ، وقيل الأكحل عرق الحياة يدعى نهر البدن ، [اللَّسان : كحل] .

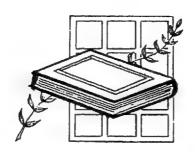
⁽٢) شبا السَّيف: حدُّ طرفها ، [اللَّسان: شبا] .

فأرسل له عَلَيْكُم جواباً فيه: « بسم الله الرَّحن الرَّحم ، أمَّا بعد: من محَّد رسول الله ، إلى صخر بن حرب ، فقد أتاني كتابك ، وقدياً غرَّك بالله الغرور (١) ، أمَّا ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتَّى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة ، وليأتيَّن عليك يوم أكسر فيه اللاَّت والعزَّى وأسافاً ونائلة وهبَل ، حتَّى أذكرك ذلك ياسفيه بني غالب » .

وحقَّق الله لرسوله ما أراده ، وحطَّم الأصنام عند فتح مكَّة .

لقد كان الجوَّ العام قبيل الخندق وأثناءها يختلف اختلافاً كلِّياً عن أجواء غزوة أحُد ، فهنا ـ في الخندق ـ التَّفاؤل والبشر والحديث عن النَّصر الأكيد رغم الخطر المحدق ، وأتبع عَلِيًّ تفاؤله بنبوءة حقَّقها الله عام ثمانية للهجرة عند فتح مكَّة : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم »(١).

وسيكون انتصار الخندق ، وغيره من انتصارات لاحقة سبباً لإقبال القبائل الحيطة بالمدينة المنورة على الإسلام ، لاسيا وأنها شعرت أنَّ المبادأة أضحت بيد المسلمين ، فسينتقل المسلمون من انتصار إلى آخر حتَّى يضمَّ الإسلامُ تحت جناحيه أرجاء الجزيرة العربيَّة ، ضمَّ توحيد وعدالة و إلفة .



⁽١) الغَرور: ماغرَّك من إنسان وشيطان وغيرهما ، والغُرور: الأباطيل ، [اللَّسان : غرر] .

⁽٢) الكامل في التَّاريخ : ١٢٦/٢ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٣٥١/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣٢١/٣

صُلْحُ الْحُدَيْبِية « الفَتْحُ الْمُبِينُ »

وُضُوحُ الرُّؤيا في الابتداء ، حقَّق الهدفَ في الانتهاء ، ففي جو الحروب ، حيث يشهر السلاح ، وتسقط الضحايا .. لا تبادل للرَّأي ، ولا عرض للأَفكار ، ولا لقاء هادئ للتَّحاور ، فلا تنتشر المبادئ .

جمعت قريش في غزوة الأحزاب جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل ، ولكنها فشلت في تحقيق حتى جزء يسير بما أرادته ، فضعفت ضعفاً ظاهراً بعد انسحابها وقد أسقط بيدها ، وأصابتها ضائقة اقتصادية ، لأن تجاربها باتت متوقّفة مع الشّام ، كا بدأت بعض القبائل تنظر إلى رسول الله عَلَيْتُم على أنّه قوة ناشئة محترمة ، فتقرّب بعضها إلى المسلمين بعد هزائم قريش المتكرّرة .

لقد تحوَّل الموقف في جزيرة العرب - بعد غزوة الأحزاب - لصالح رسول الله عَلَيْكُ الله عَلَيْكُ إلى تهيئة عَلَيْكُ المبادأة ، وصار سيد الموقف ، وأمام هذا الواقع ، سعى عَلِيْكُ إلى تهيئة الجو المناسب لنشر الإسلام ، فدَّ يده إلى قريش مظهراً منتهى الحنكة السياسيَّة ، والنَّظر البعيد ، مع منتهى المرونة والتَّسامح .

وكسب ﷺ الرَّأي العام ، عندما خرج باتِّجاه مكَّة ، وقد ساق الْهَدْي ليثبت للعرب كافَّة تعظيم للبيت الحرام ، مؤكِّداً لهم أنَّ مكَّة ستبقى على مكانتها الَّتي نالتها من وجود الكعبة المشرَّفة فيها .

لقد سار بالهُّدي يريد العمرة ، فالظروف مواتية ، والفرصة متاحة للعمرة بعد استتباب

الأمن في المدينة المنورة ، وتطهيرها من اليهود الذين وقفوا موقف العداء من الدّعوة أوّل لحظة بعد الهجرة ، وانكسار شوكة المنافقين بعد ذهاب أنصارهم ، والأعراب ذاقوا بأس المسلمين عند دفاعهم عن مدينتهم وأموالهم ، فتكّنت رهبة الإسلام في قلوبهم ، فزلزلت نفوسهم .

وقريش هنا أمام خيارَيْن لا ثالث لها : إمَّا أن تمنعهم ، وإمَّا أن تسمح لهم بدخول مكَّة .

فإن منعت قريشُ رسولَ الله عَلَيْكُ ومَنْ معه من دخول مكَّة ، كشف عَيْكُ موقفها العدائي ، مثبتاً أنَّ جوَّ الحرب ليس من صنعه عَلَيْكُ ، بل هو من صنع قريش ومن معها ، الَّذين أَرغوه عِلِيَّةٍ عليه إرغاماً .

وإن دخلها عَلَيْكُ فإنَّه سيلتقي بأهل مكَّة ، وسيُحادثهم المسلمون المعتمرون ، مَّا سيبدِّد جوَّ التَّوتُر ويزيله بين الفريقين ، وإذا التقى المهاجرون بأهليهم ، تتقارب الأرحام ، وتحقن الدِّماء ، وسيشعر أهل مكَّة بظلمهم الَّذي ألحقوه بالمسلمين ، وبخاصَّة أنَّ المستضعفين المسلمين في مكَّة ـ الَّذين لم يهاجروا ـ سيشكَّلون رفداً للمسلمين ، وسيجد المستضعفون ملاذاً عند المسلمين أيضاً .

هـذا .. ودخول رسول الله عَلِيْتُ مكّه ، يعني تحقيق انتصار سياسي كبير ، فدخوله عَلِيْتُ مكّه يعني عودته إلى حيث أُخْرِج على الرَّغ من قريش ! ففي كلا الحالين ، سيكسب رسول الله عَلِيْتُ الجولة على قريش ، فلا بدَّ من الحيلولة بينه وبين دخول مكّة بأيِّ ثمن ، ولو كانت الحرب في الأشهر الْحُرُم ، ولو تحرَّج موقفها أمام القبائل بصدّها عن البيت العتيق مَنْ جاءه معظمًا محترماً ، ومن أجل هذا ، أعدّت قريش جيشاً بلغ عدد فرسانه مئتين .

أخبر عليه أنه رأى ـ في نومـه ـ أنّه دخل مكّة ، وأصحابه آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين ، وأنّه دخل البيت وأخذ مفتاحه ، وطاف مع أصحابه واعتر ، (١) أي بعضهم مُعلّق ، وبعضهم مقصّر .

ففرحوا ، ثمَّ أعلمهم أنَّه يريد الخروج للعمرة ، فتجهَّز المسلمون للسَّفر ، وخرج عَيَّا فِي فَعَمُوا ذي القعدة سنة ستِّ للهجرة معتمراً ليأمن أهل مكَّة ومن حولهم من حربه ، وليعلموا أنَّه عَيِّا إِنَّا خرج زائراً للبيت ، ومعظماً له (١) .

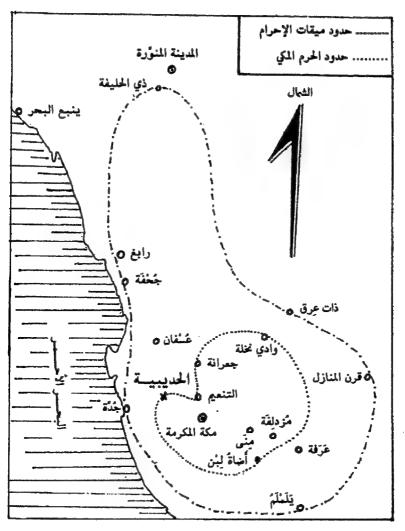
واستنفر على العرب ومن حوله من أهل البوادي من أسلم من الأعراب ، من أسلم وغفار ومُزَينة وجُهينة . وتخلّف بعض الأعراب المنافقين وتثاقلوا ، ظنّا منهم أنها مغامرة يقوم بها رسول الله على ومن معه ، ولا بدّ وأن قريشاً سوف تنتهزها فرصة للقضاء عليهم ، ولن يصدها عن ذلك الشهر الحرام - ذي القعدة - ولا البيت العتيق ، فقد لجّت في الخصومة ، وبلغت فيها إلى الشوط الأبعد ، الذي ليس بعده صلح ولا مسالمة ، وقالوا : أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ؟ واعتبروا أن هذه سفرة بلا عودة ، وعلى عادة الأعراب من الحذر ، أبطأوا فلم يستجيبوا لدعوة رسول الله على على السّوط الأبعد أن يَنْقلِبَ الرّسُولُ وَالمؤمنُونَ إلى أهليهم أبداً وزيّن ذلك في قُلوبكم وظنَنْتُم ظن السّوء وكنتُم قَوْماً بُوراً م وَمَنْ لَمْ يَوْمِنْ الله ورسولِه فَإنّا أعْتَدُنا للكافِرين سَعيراً ﴾ ، [الفتح : ١٢/٤١ و ١٢] .

غادر عَيَّ المدينة ، وخرج معه أمَّ سَلَمة ، وأمَّ عارة ، وأمَّ منيع ، وأمَّ عامر الأشهليَّة ، ومعه المهاجرون والأنصار ، ومن لحق بهم من العرب ، ألف وأربع مئة (١) ، ليس معهم سلاح إلاَّ السَّيوف في القِرَب ، ولا دروع عليهم ، مع مئتي فرس . وساقوا الْهَدْي سبعين بدنة ، أَشْعِرَ بعضها وقُلِّد بعضها الآخر (١) ليَعْلَم أنَّها هَدْي فيكِف النَّاس عنها .

⁽١) كان إحرامه علي بالعمرة من ذي الحليفة ، وأحرم معه معظم أصحابه ، وأحرم بعضهم بالجحفة .

 ⁽۲) الكامل في التَّاريخ: ١٣٥/٢ ، ابن هشام: ١٩٧/٢ ، البداية والنَّهاية: ١٦٥/٤ ، الطَّبري: ٦٢١/٣ ، البداية والنَّهاية: ١٩٥/٤ و ١٩٨/٢

⁽٣) ثمَّ دعا ﷺ بالبُدْن فجُلِّلت ثمَّ أَشْعَرها في الشَّق الأَين ثمَّ قلُدها ، وأشعر أصحابُه ، وهي سبعين بَدَنة فيها جَمَل لأَبِي سفيان غنه يوم بدر ، وأشعَرها : ضرب صفحة السَّنام اليني بحديدة فلطَّخها بالدم إشعاراً بأنَّه أهدي ، وقلَدها : علَّق في أعناقها شيئاً _ كقطعة من الجلد _ ليعلم أنها هدي ، وكانت هذه عادة العرب فيا يهدون إلى البيت الحرام من الذَّبائح ، [الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي : ٢٩٧٢] .



موقع الحديبية وحدود حرم مكة المكرمة

وأرسل عَلَيْ بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له إلى مكّة ، عاد بشر ورسول الله والمسلمون في عَسْفان ليقول : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بخروجك ، والمسلمون في عَسْفان ليقول : يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بخروجك ، واستنفروا مَنْ أطاعهم من الأحابيش ، وأجلبت ثقيف معهم ، خرجوا بنسائهم ومعهن

أولادهن ليكون أدعى لعدم الفرار ، ونزلوا بذي طَوَى (١) يعاهدون الله أن لاتدخلها عليهم عَنْوَةً أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كُراع الغَميم (٢) بمئتي فرس .

فأمر عَلِينَةٍ عبَّاد بن بشر فتقدَّم بخيله فأقام بإزائه (٢).

وجعلت قريش على الجبال عيوناً يراقبون تحرُّكات المسلمين (٤) .

ولما علم عَلَيْكُ أَنَّ قريشاً تريد منعه عن البيت الحرام حزن من موقفها ومبالغتها في الخصومة ، على الرَّغ مما بينها وبينه من لحمة دم والقرابة والرَّحم ، لقد كان خليقاً أن يجعلها تقاربه وتنتصر له ، بدل عنف الخصومة الَّتي أعمتها عن الحكمة ، وأبعدتها عن الحلم .

ثمَّ قال عَلِيْتُم : « هل من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم الَّتي هم بها ؟ » ، فقال رجل من أسلم (٥) : أنا يا رسول الله ، فسار عَلِيْتُم ومن معه ، حتَّى نزلوا الحديبية .

\$ \$ \$

ثلاث سفارات مهدت لعقد الصُّلح:

١ ـ بُدَيل بن وَرُقاء الْخُزاعي(٦) : أقبل بُدَيل على رسول الله عَلَيْنَ ، وأعلمه

- (١) ﴿ ذُو طُوَى : موضع عند مكَّة ، وقيل هو طَوى بالفتح ، [معجم البلدان : ٤٥/٤] .
- (٢) كُراع الغَميم : وادٍ أمام عَسْفان ، أو جبل أسود في طرف الحرّة ، والكراع : ماسال من أنف الجبل أو الحرّة ، [معجم البلدان : ٤٤٣/٤] .
 - (٣) السيرة النبويّة والآثار الحمديّة: ١٩٥/٢
 - (٤) الطّبقات الكبرى لابن سعد : ١٥/٢
 - (٥) وهو: ناجية بن جندب الأسلمي ، [الرَّوض الأنَّف: ٣٤/٤] .
- (٦) سيد قومه خزاعة ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها لا يخفون على رسول الله شيئاً ، أسلم يوم الفتح . السّيرة الحلبيّة : ١٤/٣ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٣١٥/٣

باستنفار قريش ومن أطاعها ، يقسمون بالله لا يخلُّون بينك وبين البيت حتَّى تبيد خضراؤهم (١) ، ما الَّذي جاء بك ؟

فقال عَيْظِ لبديل: « إِنَّا لَم نأتِ لقتال أحد ، ولكنَّا جئنا معترين ، وإنَّ قريشاً قد نهكتُهم الحرب وأضرَّت بهم ، فإن شاؤوا ماددناهم مَدَّة ويُخلُّوا بيني وبين النَّاس ، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيا دخل فيه النَّاس فعلوا ، وإلاَّ فقد جَمُّوا (٢) ، وإن هم أبوا فوالَّذي نفسي بيده لأُقاتلنَّهم على أمري هذا حتَّى تنفرد سالفتي ، أو ليُنفِّذنَّ الله أمره » .

عاد بُدَيل إلى قريش ، وقال : يا معشر قريش ، إِنَّكم تعجلون على مُمَّد ، وإِنَّ محمداً لم يأت لقتال ، وإنَّا جاء زائراً لهذا البيت .

فقالت قريش: إن كان جاء ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا في جنوده معتمراً ، تسمع العرب أنَّه دخل علينا عَنْوَةً ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبداً ومنّا عين تطرف (٢) .

٢ ـ مِكْرَز بن حفص بن الأَخْيَف : ثمَّ أُرسلت قريش سفارتها الثَّانية لرسول الله عَيْلَةُ : مِكْرَز بن حفص بن الأَخْيَف ، فلما رآه رسول الله مقبلاً ، قال : « هذا الرَّجل غادر فاجر » (٤) ، ثمَّ قال له عَيْلَةً مثل ماقال لبديل بن ورقاء ، فرجع إلى قريش وأخبرهم بما قاله عَيْلِيّةٍ .

⁽۱) الطبقات الكبرى: ۹٦/٢

⁽Y) الْجَمَّ والْجَمَّم: الكثير من كلَّ شيء ، والْجَمَّ : الكثير المجتمع ، والْجُمَّة : مجتمع شعر الرَّأس ، وجاء فلان في جَمَّة عظيمة : أي في جماعة .. وأجَمَّ الفرس : تُرِك فلم يُركب ، فغفا من تعبه ، وذهب إعياؤه ، وهذا هو المعنى المراد هنا ، [اللَّسان : جم] .

⁽٣) البداية والنَّهاية : ١٦٦/٤ ، الاكتفا : ١٢٨/١

٤) ابن هشام : ١٩٩/٣ ، عيون الأثر : ١١٥/٢ ، السَّيرة الحلبيَّة : ١٥/٣

" الْحُلَيس بن علقمة « سيّد الأحابيش » : ثمّ أرسلت قريش إلى رسول الله على على الله على الله على الله على الله على الأحابيش الْحُلَيس بن علقمة مع عدد من حلفائه ، وإرسال الحليس عمل ذي قامت به قريش ، فإنّ محمّداً قد يسيء إلى الحليس ومن معه _ حسب ظنها _ لأنّهم كانوا مع قريش في أحد والحندق ، مما يثير الأحابيش ، وتضن بذلك وقوفهم إلى جانبها أثناء قتال قريب متوقّع ، ولكن رسول الله عَيِّلَةٍ أحسن مقابلتهم ، وأقنعهم عمليناً وبالحجّة الدّامغة بنيّته السّميّة ، وبذلك كسب رسول الله عَيِّلَةٍ سيد الأحابيش ومن معه إلى جانبه ، وألزمها بأن تدخل معه في مفاوضات ، وإلا انقلبوا عليها ، وأظهروها بمظهر المعتدي أمام حلفائها خاصة ، وأمام العرب كافّة .

أقبل الحليس ومن معه ، فلما رأى رسول الله عَلَيْكُم الحليس قال : « إنَّ هذا من قوم يتألّهون (١) ، ويعظّمون البُدْن والْهَدْي ، ابعثوا الْهَدْي في وجهه حتَّى يراه »(١) ، فلما رأى الهدي يسيل عليه بقلائده من عرض الوادي قد أشعر ، واستقبله النّاس يلبّون قد شعثوا ، صاح قائلاً : سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت ، أبى الله أن يحج لخم وجذام ونهد وحِمْيَر ، ويُمنع ابن عبد المطّلب !؟! هلكت قريش ورب يحج لخم وجذام ونهد وحِمْيَر ، ويُمنع ابن عبد المطّلب !؟! هلكت قريش ورب الكعبة ، إنّا القوم أتوا عاراً ، فقال عَلِينَة : « أجل يا أخا بني كنانة » .

وعاد الحليس إلى قريش وقال: إنّي رأيت مالا يحل منعه ، رأيت الهمدي في قلائده قد أكل أوباره ، والرّجال قد شعثوا ، فقالوا له: اجلس ، فإنّا أنت أعرابي ، ولا علم لك ، إنّا رأيت من محمّد مكيدة ، فغضب الحليس عند ذلك ، وقال: يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، يُصَدّ عن بيت الله من جاء معظمًا ، والّذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمّد وما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

لقد كانوا يعظِّمون حرمات الإحرام والحرم ، وينكرون على من يصدُّ عن ذلك ،

⁽١) يتألُّهون : يتعبَّدون ويعظِّمون أمر الله .

⁽٢) الكامل في التَّاريخ : ١٣٧/٢ ، الطَّبقات الكبرى لابن سعد : ٩٦/٢

تمسّكاً منهم ببقايا دين إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ، فقالوا له : صَهُ (١) يا حليس ، حتّى نأخذ لأنفسنا مانرضي به (٢) .

☆ ☆ ☆

عروة بن مسعود الثَّقفي « المفاوضُ العاقلُ »:

ثمَّ أرسلت قريش لرسول الله عَلَيْ عروة بن مسعود الثَّقفي ، فجلس بين يديه عَلِي ، ثمَّ قال : يا محمَّد ، جمعت أوباشاً (٢) ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضَّها (٤) بهم ، إنّها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل (٥) قد لبسوا جلود النَّمر يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عَنْوَة أبداً ، أي محمَّد ، أرأيت إن استأصلت قومك ، فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى (٢) ؟ إنّي والله لاأرى وجوها ، وإني لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ويَدَعوك .

قال عروة هذا ، لأنَّ العادة جرت أن الجيوش المجتمعة من قبائل عدَّة ، لا يؤمن عليها الفرار ، بخلاف من كان من قبيلة واحدة ، فإنَّهم يأنفون الفرار عادة ، وما درى عروة أن مودَّة الإسلام أعظم من مودَّة القرابة ، لذلك ، شتم أبو بكر رضي الله عنه عروة وقال : أنحن ننكشف عنه ؟!

⁽١) صَةَ القومَ وصَهْصَة بهم : زجرهم ، وصه كلمة زجر للسَّكوت ، وصه كلمة بُنيت على السُّكون ، وهي اسم سُمِّى به الفعل ومعناه اسكت ، [اللَّسان : صهصه] .

⁽٢) الطِّبري : ٦٢٨/٢ ، الاكتفا : ١٢٨/١ ، السَّيرة الحلبيَّة : ١٥/٣

⁽٣) الأوباش من النَّاس : الأخلاط مثل الأوشاب ، وأوباش النَّاس الضَّروب المتفرّقين ، واحدهم وَبْشَ ووَبَشّ ، [اللَّمان : وبش] ، ويوضّح المعنى عبارة جاءت في السّيرة الحلبيّة : « والله لاأرى وجوها _ أي عظهاء _ وإنّى أرى أمراباً من النّاس خليقاً أن يفرّوا ويَدَعُوكَ » .

⁽٤) بيضتك : أصلك وعشيرتك ، لتفضّها : لتكسرها .

إ٥) العوذ جمع عائذ وهي النّاقة الّتي معها ولـدها ، والعوذ المطافيل كنـايـة عن النّسـاء معهن أطفالهن ،
 الطّبري : ٦٢٢/٢ ، الرّوض الأنف : ٣٣/٤

⁽٦) أي وإن تكن الغلبة لقريش ؟

وأخبر عَلِينَ عروة أنّه ماجاء لحرب ، فعاد عروة إلى قريش بعد أن رأى ما يصنع أصحابه به - عَلِينَ من الإجلال والإكرام ، والتّعظيم والإكبار ، والتّقدير والاحترام والتّأدّب في حضرته ، إذا تكلّم أحدهم عنده خفض صوته ، ولا يحدُّون النّظر إليه ، لا يتوضّأ إلاّ ابتدروا وضوءه يتبرّكون به ..

قال عروة : يا معشر قريش ، إنّي جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والله ماراً يت والنّجاشي في ملكه ، والله ماراً يت ملكاً في قومه قط مثل محمّد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يُسلِمونَه لشيء أبداً ، فروا رأيكم فإنّه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ماعرض عليكم ، فهذا كان على جودة عقله فإنّي لكم ناصح ، مع أنّي أخاف أن لا تُنْصَروا عليه (١) ، وهذا دليل على جودة عقله وتفطّنه لما كان عليه الصّحابة من المبالغة في تعظيه وتوقيره ومراعاة أموره .

فقالت قریش : لاتتكلَّم بهذا یا أبا یعفور (۲) ، ولكن نردُّه عامنا هذا ویرجع إلی قابل ($^{(7)}$.

ودعا رسول الله عَلَيْكُم عَمَانَ بن عفان رضي الله عنه ، فبعثه إلى أشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب ، وأنّه لم يأت إلاّ زائراً لهذا البيت ، ومعظّماً لحرمته ، وأمره أن يأتي رجالاً بحكّة ونساء مسلمات ، ويدخل عليهم ويبشّر بالفتح ، ويخبرهم أنّ الله وشيك يظهر دينه بمكّة ، حتَّى لا يستخفى فيها بالإيمان .

☆ ☆ ☆

⁽۱) عيون الأثر: ١١٧/٢، الطّبري: ٦٢٧/٢، البداية والنّهاية: ١٧٤/٤، ابن هشام: ٢٠١/٣، السّيرة الحلبيّة: ١٨٤٠، السّيرة النّبويّة لابن كثير: ٣١٧/٣

 ⁽٢) اليَعفور واليُعفور: الظّبي الذي لونه كلون العَفر وهو التّراب ، وقيل : هو الظّبي عامة ، [اللّسان : عفر] .

⁽٣) ثمَّ انصرف عروة إلى الطَّائف مع قومه ، أسلم عام الفتح ، فعاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، فرموه بالنَّبْل فقيل ، فقال رجل : ماترى في ذلك ؟ فقال عروة : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله لي ، وفيه قال بَرِكِيْنَ : « إن مثله في قومه كشل صاحب يس » ، وشبَّه عَيْنَ عروة بعيسى بن مريم عليه السَّلام ، [أسد الغابة : ٣٢/٣] .

بَيعَةُ الرِّضُوان :

وقال بعض المسلمين : قد خلص عثان إلى البيت فطاف به دوننا ، فقال على الله وقد خلص « مأظنه طاف بالبيت ونحن محصورون » ، قالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه ؟ قال على الله على الله على الله وقد مكث سنة ماطاف به حتّى أطوف » (٢) .

وكانت قريش قد احتبست عثان عندها ثلاثة أيّام ، فبلغ رسول الله أنّ عثان قد قتيل ومن معه ، فقال عليّي : « لانبرح حتّى نناجز (٢) القوم » ، ودعا النّاس إلى البيعة ، فبايعوا ، وبايع على عثان ، وضع يده اليني على يده اليسرى وقال : « اللّهم إنّ هذه عن عثان ، فإنّه في حاجتك وحاجة رسولك ، فأنا أبايع عنه »(٤) ، وهذا يدل على علم رسول الله على عدم صحّة القول بأنّ عثان قُتِل .

⁽١) أسلم قبل غزوة خيبر .

⁽٢) ولما رجع عثمان قالوا له في ذلك : هل طفت بالبيت ؟ فقال رضي الله عنه : بئسما ظننتم بي ، دعتني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت ، والذي نفسي بيده لو مكثت بها معتمراً سنة ، ورسول الله عليه ورسول الله ورسول ا

⁽٣) أي لانغادر الحديبية حتَّى نقاتل قريشاً .

⁽٤) ابن خلدون : ٣٤/٦ ، ابن هشام : ٢٠٢/٣ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣١٩/٣

فلماذا البيعة ورسول الله على يبايع عن عنان ، وما بايع عنه إلا لأنَّه علم بعدم صحَّة القول بأنَّ عنان قد قُتل ؟!

البيعة امتحان للمسلمين ، ومثل موقف البيعة موقف يزيد من ارتباط المسلمين ، ومن تماسكهم ، وملاًت البيعة قلوب القرشيّين رعباً وفزعاً ، لقد علمت قريش أنّ الصّحابة تزاحموا للبيعة ، مع أنّهم لم يكن عليهم الدّروع لتقيهم ضربات السيّوف ليبايعوا على الموت ، فهزّت البيعة قريشاً وزلزلتها ، فبدا لها أنّ الصّلح خير لحفظ ماء الوجه ، وسعت إليه .

وكانت البيعة تحت شجرة من أشجار السَّمُرِ ، سُمِّيت بيعة الرِّضوان ، لأَنَّه عَلَيْتُهُ قَال : « لا يدخل النَّار أحد بايع تحت الشَّجرة » ، وكانوا أَلفاً وأربع مئة ، ولا يدخل النَّار أحد بايع تحت الشَّجرة بيعة مؤمن صادق ، بيعة لسان وقلب ، بيعة يد وبيعة روح .

وكانت البيعة على التَّالي _ كا قال أوَّل من بايع : سنان بن سنان الأسدي _ : أضرب بسيفي بين يديك حتَّى يظهرك الله أو أُقْتَل (١) .

وبعثت قريش أربعين أو خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص (٢) ، ليطوفوا بعسكر المسلمين ليلاً رجاء أن يصيبوا منهم أحداً ، فأخذهم محمد بن مسلمة (٢) الذي كان

⁽١) الرُّوض الأُنف : ٣٨/٤ ، البداية والنَّهاية : ١٧٢/٤ ، وفي طبقات ابن سعد : أوَّل من بايع سلمة بن الأُكوع .

⁽٢) السّيرة الحلبيّة: ٢١/٣، البداية والنّهاية: ١٦٧/٤، الطّبرى: ٦٣١/٢، عيون الأثر: ١١٧/٢

⁽٣) عمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري : شخصيَّة رائعة في تاريخنا الإسلامي ، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلُها مع رسول الله يَلِيُّتُم إلاَّ تبوك ، وهو أحد الَّذين قتلوا كعب بن الأشرف ، واستخلفه رسول الله في بعض غزواته ، ثمُّ صار صاحب العمال أيَّام عمر رضي الله عنه ، وكان إذا شُكِي إلى عمر عاملٌ أرسل محمد بن مسلمة يكشف الحال ، اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان ، واتَّخذ سيفاً من خشب ، وقال : بذلك أمرني رسول الله ، [أسد الغابة : ١١٢/٥] .

على حرس المسلمين ، إلا مكرز فإنه أفلت ، وبلغ قريش أمر أصحابها ، فجاء جمع منها حتّى رموا المسلمين بالنّبل والحجارة ، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلا ، وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله عَلِيليّة جمعاً منهم سهيل بن عمرو ، وقالت له : ائت محدا وصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامة هذا ، فوالله لاتتحدّث العرب أنّه دخلها عَنْوَةً أبداً .

ولما رأى رسول الله عَيْقَة سهيل بن عمرو ، قال لأصحابه : « سَهَيْلٌ أَمْرُكُم » ، « سَهَّل الله لكم من أمركم ، القوم ماتُّون إليكم بأرحامكم ، وسائلوكم الصَّلح ، فابعثوا الْهَدْيَ وأظهروا التَّلبية ، لعلَّ ذلك يُليِّنُ قلوبهم » ، فلبُّوا من نواحي المعسكر حتَّى ارتجَّت الأرض بصوت تلبيتهم .

ومن الملاحظ ، أن أبا سفيان لم يرد له ذكرٌ في أحداث الحديبية ، لقد كان غائباً في بعض تجاراته ، والأرجح في الين ، لتعطُّل طريق تجارة قريش إلى الشَّام .

المفاوضات: « بَعْتُ نظر رسول الله عَلَيْةِ ، وعِنادُ سُهَيل » : أرسلت قريش سهيل بن عمرو رئيساً لوفدها المفاوض ، وكان الخطُّ العام الَّذي كلِّف بتحقيقه : أن يرجع رسول الله عَلَيْتَةٍ ومن معه هذا العام ، ويعود من قابِلٍ فيقيم ثلاثاً ، معه سلاح الرَّاكب ، السَّيوف في القرب .

أُقبل سهيل ، وقال : يا محمَّد ، إنَّ الَّذي كان من حَبْسِ أَصحابك ـ عثان والعشرة رجال ـ وما كان من قتال من قاتلك ، لم يكن من رأي ذوي رأينا ، بل كنا كارهين له حين بلغنا ، ولم نعلم به ، وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الَّذين أسرت أوَّلاً وثانياً .

وأمام مطلب سهيل قال عَلِيلَةٍ : « إنّي غير مرسلهم حتّى ترسلوا أصحابي » ، فقال سهيل : نفعل ، فبعث إلى قريش بذلك ، فبعثوا بمن كان عندهم ، عثان والعشرة رجال ، فأطلق عَلِيلَةٍ أسرى قريش ، وجثا سهيل على ركبتيه بين يدي

رسول الله على ، وتكلَّم وأطال (۱) ، ورسول الله على يقول : « خلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به » ، ويجيب سهيل : والله لا تتحدَّث العرب بنا أنَّا أُخذنا ضُغطة (٢) ، ولكن ذلك من العام القابل .

لقد امتاز رسول الله عَيِّلِيَّةِ ببُعْد النَّظر ، ودقَّة التَّقدير ، وكان يهمه من المسألة جوهرها ولبابها ، فلم يحفل بالقشور والشَّكليات ، فقدَّم التَّسهيلات لسهيل ليضن الموقف فيا بعد الحديبية ، ولن يعير أذنا لحماسة المسلمين ، لأنَّه عَيِّلِيَّةٍ أدرى بما يخطِّط ويهيِّئ له ، وأثبتت الأيَّام بُعْدَ نظر رسول الله ، ودقَّة تقديراته .

ولما التأم الأمر على الصّلح ، ولم يبق إلاَّ الكتاب بذلك ، أصرَّ سهيل على أن يكتب العقد كا يراه ويتصوَّره ، لا كا يراه رسول الله ، فتساهل عَلَيْكُ ليحقِّق هدفاً مرسوماً واضحاً في ذهنه ، فهو - عَلَيْكُ - السّياسي الحاذق ، والمحنَّك البارع ، مع النّظر بنور الله عزَّ وجل .

عند ذلك وثب عمر بن الخطّاب فأتى أبا بكر رضي الله عنها ، وقال : يا أبا بكر ، أليس هو برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى ، عمر : أولسنا بالمسلمين ؟ أبو بكر : بلى ، عمر : فعلام نعطي السدّنيّة (٢) في بلى ، عمر : أوليسوا بالمشركين ؟ أبو بكر : بلى ، عمر : فعلام نعطي السدّنيّة و٢) في ديننا ؟ ويجيبه أبو بكر : يا عمر ، إلزم غرزه (٤) ، إنّه رسول الله ، وليس يعصي ربّه ، وهو ناصره ، استملك بغرزه حتّى تموت ، فإنّي أشهد أنّه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنّه رسول الله ، قال عمر : وأنا

ثُمَّ أَتَى عمر رسول الله عَلِيْكُمُ فقال لـه مثـل مـاقــال لأبي بكر ، فقــال لـه رسول الله عَلِيْكُمُ : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالِف أمره ولن يضيعني » .

⁽١) الاكتفا : ١/٨٢٨ ، عيون الأثر : ١١٩/٢ ، السّيرة الحلبيّة : ٢٢/٣ ، ابن هشام : ٢٠٢/٣

⁽٢) ضُغطة (بالضَّم) : أي بالشَّدَّة والإكراه .

⁽٣) الدُنيَّة : النقيصة والخصلة المذمومة .

⁽٤) أي الزم ركبه ومسيرته ، والغرز : ركاب من جلد توضع فيه الرّجل ، والمراد : اتبع أمره ولا تخالفه .

كِتَابَةُ الصُّلَح : ثمَّ دعا رسول الله عَلَيْكُ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يكتب (١) ، فقال : « اكتب : بسم الله الرَّحن الرَّحيم » ، فقال سهيل بن عمرو : لاأعرف هذا ، أي : الرَّحن الرَّحيم ، ولكن اكتب : بأسمك اللهم ، فكتبها ، لأنَّ قريشاً كانت تقولها(٢) ، فضج المسلمون ، وهذا هو التَّعديل الأوَّل لسهيل بن عمرو .

ثم قال على الله سهيل به اكتب به هذا ماصالح عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو» ، فقال سهيل ب لو شهدت أنّك رسول الله لم أقاتلك ، ولم أصدّك عن البيت ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، لو علمت أنّك رسول الله ماخالفتك ولتبعتك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمّد بن عبد الله ، فقال رسول الله عليّ رضي الله عنه به الحه ، الحم رسول الله » ، فقال علي رضي الله عنه به ماأنا بالّذي أمْحُوه ، والله لا أمحوك أبداً ، فقال علي رضي الله عنه ، مأراه إياه ، فحاه رسول الله عليّ بيده الشّريفة (١) ، وقال به فقال علي الله عليه محمّد بن عبد الله سهيل بن عمرو » ، وهذا هو التّعديل الثّاني لسهيل بن عمرو » ، وهذا هو التّعديل الثّاني لسهيل بن عمرو » ، وهذا هو التّعديل الثّاني لسهيل بن عمرو .

وقال عندها عَلِيْهِ : « أنا والله رسول الله وإن كندَّبتموني (٤) ، أنا محمد بن عبد الله » ، فجعل عليّ يتلكَّأ ويأبي أن يكتب إلاَّ محمد رسول الله ، فقال له رسول الله عَلَيْهِ : « اكتب فإنَّ لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد مقهور » (٥) .

وذكر أن أسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة رضي الله عنها أخذا بيد عليّ رضي الله عنه منعاه أن يكتب إلاَّ محمَّد رسول الله ، وإلاَّ فالسَّيف بيننا وبينهم ، وضجَّ المسلمون ، وارتفعت الأصوات ، وجعلوا يقولون : لِمَ نَعْطِ هذه الدَّنيَّة في ديننا ؟ فجعل

⁽١) أمر يَرَاكُ أوس بن خولة أن يكتب ، فقال سهيل : لا يكتب إلا ابن عمُّك على أو عثان بن عفَّان .

⁽٢) « باسمك اللَّهم » أوَّل من كتبها أُميَّة بن أبي الصَّلت ، ومنه تعلموها .

⁽۲) صحیح مسلم : ۱٤١٠/۳

⁽٤) البداية والنَّهاية : ١٧٥/٤ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣٣٣/٣

 ⁽٥) إشارة لما وقع بين علي ومعاوية في صفين .

رسول الله ﷺ يخفِّضهم ويومئ بيده إليهم أن اسكتوا .

ثمَّ اتَّفَق على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين تأمن فيه النَّاس ، ويكفّ بعضهم عن بعض ، على أنَّه من أتى محمَّداً من قريش مَّن هو على دين محمَّد بغير إذن وليَّه رُدَّ إليه ذكراً كان أو أُنثى لم تردَّه ذكراً كان أو أُنثى لم تردَّه إليه .

وشرطوا أنّه من أحبّ أن يدخل في عقد محمّد وعهده دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهده دخل فيه ، وأنّ بيننا وبينكم عَيْبَة مَكْفوفة (١) ، صدوراً منطوية على مافيها ، لاتبدي عداوة » ، وقيل : صدوراً نقيّة من الغلّ والخداع ، منطوية على الوفاء بالصّلح ، وأنّه لا إسلال ولا إغلال (١) .

وقال سهيل : وإنَّك ترجع عامك هذا فلا تدخل مكَّة ، وإنَّه إذا كان عام قابل ، خرجت منها قريش ، فتدخلها بأصحابك فأقمت بها ثلاثة أيَّام ، معك سلاح الرَّاكب ، السَّيوف في القُرُب والقوس لاتدخلها بغيرها (٢) .

جاء في الطَّبقات الكبرى: على أن يدخلها من قابل ، فيقيم بها ثلاثة أيَّام ، ولا يدخلها إلا مجَلُبًان (٤) السَّلاح ، السَّيف والقوس ونحوه (٥) .

وكتب رسول الله على في أسفل الكتاب : « ولنا عليكم مثل الَّذي لكم علينا » .

⁽١) الطّبري : ٣٢١/٢ ، ابن هشام : ٢٠٣/٣ ، الرُّوض الأنّف : ٣٦/٤

⁽٢) الإسلال: السُرقة، والإغلال: الخيانة، انظر: عيون الأثر: ١١٩/١ و ١٢٧، الوف بأحوال المصطفى: ١٩٨٧، الطَّبقات الكبرى لابن سعد: ٩٧/١، الطَّبري: ٦٣٥/٢، السَّيرة النَّبويَّة والآثار الحمَّديَّة: ٢٦٣/٢

⁽٣) ابن هشام : ٢٠٣/٣ ، السّيرة الحلبيّة : ٢٤/٣ ، والقُرَبُ مفردها : القِرابُ : غِصْد السّيف ، [اللّسان : قرب] .

⁽٤) الْجُلُبَّان : القربان وما فيه ، السَّيف والقوس .

⁽٥) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١٠١/٢

كتب الكتاب على رضي الله عنه ، ونسخ مثله محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه لسهيل بن عمرو ، لأنَّ سهيلاً قال : يكون هذا الكتاب عندي ، وقال عليه : « بل عندي » ، فأخذه رسول الله عليه ممَّ كتب محمَّد بن مسلمة نسخة لسهيل (١) .

أترضى بهذا ؟! : وعند كتابة بنود الصّلح ، اشترط سهيل بن عمرو أن يَرُدَّ رسول الله عَلَيْكَ إلى قريش من جاءه مسلماً بغير إذن وليّه ، ولا تردّ قريش إلى المسلمين من ارتدً وجاءها من عند رسول الله عَلِيْكَ ، وهذا هو التّعديل الثّالث الّذي أملاه سهيل ، وقبل به رسول الله عَلِيْكَ ، وهنا قال المسلمون : سبحان الله ، كيف نَرد للمشركين من جاء مسلماً ؟ وعسر عليهم شرط ذلك ، وكان ممن قال ذلك عمر بن الخطّاب ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، وسهيل بن حنيف رضي الله عنهم .

قال عمر : أترضى بهذا ؟! فتبسّم رسول الله عَلَيْكَ وقال : « نعم ، إنّه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله لمه فَرَجاً ومخرجاً ، ومن أعرض عنّا ، وذهب إليهم ، فلسنا منه في شيء وليس منا ، بل هو أولى بهم » .

وبينا رسول الله عَلَيْكَ ، وسهيل بن عمرو يكتبان الكتاب بالشَّروط المذكورة ، إذ جاء أبو جندل (العاصي بن سهيل بن عمرو) إلى المسلمين يَرْسُف في الحديد ، فقال سهيل : يا محمَّد هذا أوَّل ماأُقاضيك عليه ، أن تردَّه إليَّ ، لقد جُت (٢) القضيَّة بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا .

قال عَلِيْتُهُ : صدقت ، فجعل سهيل يجرُّ ابنـه أبـا جنـدل ليردَّه إلى قريش ، وجعل أبو جنـدل يصرخ : يـا معشر المسلمين ، أرَدُّ إلى المشركين يفتنوني عن ديني ؟ ألا ترون مالقيت ؟ فزاد ذلك النَّاس إلى مابهم ، فإنَّهم كانوا لا يشكُّون في دخولهم مكَّـة وطوافهم

⁽١) جاء في الوفا بأحوال المصطفى : ٦٩٩/٢ : «كتاب الصُّلح عنىد رسول الله عَلِيْكُم ، ونُسْخَتُه عنىد سهيل بن عمرو » .

⁽٢) أي تمَّت القضيَّة ووجبت.

بالبيت ، لرؤيا رسول الله ، فلما رأوا الصُّلح وما تساهل عليه عَلَيْتُهُ ، دخلهم من ذلك أمر عظيم .

ورُدَّ أَبو جندل إلى قريش ، وقال له عَلَيْكَ : « اصبر واحتسب ، فإنَّ الله جاعل لكَ ولمن معك من المستضعفين فَرَجاً ومخرجاً .. »(١) .

القبائل تُحدّ مواقفها: « ويسري على المتحالفين ما يسري على المتعاقدين " ن ولم النتهى تحرير الصّلح ، دخلت خزاعة في عقد رسول الله على السلمين ، وهم : أبو بكر وعمر عقد قريش وعهدهم . وأشهد على الصّلح رجالاً من المسلمين ، وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرّحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وأبو عبيدة بن الجرّاح ومحمّد بن مسلمة ، ورجالاً من قريش : حويطب ومكرز . ثمّ أمر على السلمين بالنّحر والحلق (٢) ، قال ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم منهم أحدّ ، فدخل على المسلمين بالنّحم والحلق (١) ، قال ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم منهم أحد ، فدخل على أمّ سلمة فقالت رضي الله عنها : مالك يا رسول الله ؟ فذكر لها مالقي من النّاس ، وقال : «هلك المسلمون ، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا ، عجباً يا أمّ سلمة ، ألا ترين إلى النّاس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه ! قلت لهم احلقوا وانحروا وحلوا مراراً ، فلم يجبني أحد من النّاس إلى ذلك ، وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي » .

فقالت أم سلمة : يا رسول الله لاتلمهم فإنّهم قد دخلهم أمرّ عظيم ممّا أدخلت على نفسك من المشقّة في أمر الصّلح ، ورجوعهم بغير فتح ، وأشارت أن يخرج ولا يكلّم أحداً منهم ، وينحر بُدْنَه ويحلق رأسه .

وخرج رسول الله عَلَيْنَةٍ ، فأخذ حربة وقصد هَدْيَةُ وأهوى بالحربة إلى البُدُن رافعاً

⁽١) السّيرة الحلبيّة : ٢٥/٣ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٣٢٢/٣

⁽۲) ابن هشام : ۲۰۳/۳ ، الطّبقات الكبرى لابن سعد : ۹۸/۲

⁽٣) الطُّبرى : ٦٣٧/٢ ، ابن خلدون : ٣٥/٢ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣٣٥/٣ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٧/٣

صوته: بسم الله ، الله أكبر (١) ، ثمَّ دعا خراش بن أُميَّة الخزاعي فحلق رأسه الشَّريف (٢) ، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فنحروا وحلقوا ، وقصَّر بعضهم ، فدعا عَيْسَةُ للمحلِّقين ثلاثاً ، وللمقصِّرين مرَّة واحدة .

نُزولُ سُورة الفَتْح : أقام عَلِينَ بالحديبية بضعة عشر يوماً ، وقيل : عشرين يوماً ، ونزلت سورة الفتح (٤) عندما انصرف المسلمون قافلين إلى المدينة المنورة ، ومن آياتها الكرية :

﴿ إِنَّا فَتَحُنَا لَكَ فَتُحاً مُبِيناً ﴾ ، [الفتح : ١/٤٨] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبِايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّا يَبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّا يَبَايِعُونَ اللهَ يَدُ الله فَسَيُ وَتِيلهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ ، ينكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عَاهَد عَلَيْهُ الله فَسَيُ وَتِيلهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ ، [الفتح : ١٠/٤٨] .

﴿ لَقَـدُ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُم فَتُحاً قَرِيباً ﴾ ، [الفتح: ١٨/٤٨] .

ولما نزلت سورة الفتح قال بعض الصَّحابة : ماهذا بفتح ، لقد صدُّونا عن البيت !

فقال عَيْنَا لَهُ لَمَا بِلغه ذلك : « بئس الكلام ، بل هو أعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرَّواح (٥) عن بلادهم ، وسأَلوكم القضيَّة ، ويربحوا إليكم في

⁽١) جاء في السّيرة الحلبيّة : ٢٧/٢ : وفرّق عَلِيّاتٌ لحم الْهَدْي على الفقراء الّذين حضروا الحديبية ، وبعث إلى مكّة عشرين بَدّنَة مع ناجية حتى نُحرت بالمروة ، وقسّموا لحها على فقراء مكّة .

⁽٢) الطَّبري : ٦٣٧/٢ ، عيون الأثر : ١٢١/٢ ، ابن خلدون : ٣٥/٢ ، الرُّوض الأُنف : ٣٧/٤

⁽٣) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٩٨/٢

⁽٤) نزلت سورة الفتح بكراع الغميم ـ سبق تعريفها ، وهي وادٍ أمام عُسْفان ـ وهي تسع وعشرون آية .

⁽٥) الرُّواحُ : نقيض الصَّباح ، وتقول : راحَ القوم إذا ساروا وغَدَواْ .. [اللَّسان : روح] .

الأمان ، وقد رأوا منكم ماكرهوا وأظفركم الله عليهم ، وردَّكم الله تعالى سالمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح ، أنسيتم يوم أُحد إذ تصعدون ولا تلوون على أَحَد وأنا أدعوكم في أُخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتظنُّون بالله الظُّنونا ؟ »(١) .

فقال المسلمون : صدق الله ورسوله ، فهو أعظم الفتوح ، والله يا نبي الله ما فكّرنا فيا فكّرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا . لقد علم عَلَيْكَمْ أنَّ هذا الصّلح سبب لأمن النّاس ، وظهور الإسلام ، وأنَّ الله جعل فيه فَرَجاً للمسلمين ، لذلك اطمأنت القلوب عند الأفول من الحديبية ، وتهيّأت لفتح مبين قريب سيكون .

ويسأل عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ، أَلَمْ تقل إِنَّك تدخل مكَّة آمناً ؟

ويجيب عَلَيْكُ بيقين : « بلى ، فهو كا قال جبريل عليه السَّلام ، فإنَّم تأتونه وتطوفون فيه » (١) ، وأنزل الله عزَّ وجل : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمنينَ مُحَلِّقِينَ رُؤوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ ، [الفتح : ٢٧/٤٨].

نَظَراتٌ في صُلْحِ الْحُدَيْبِيَة : « وضوح الرُّؤيا في الابتداء ، حقَّق الهدف في الانتهاء » :

الموقف عمر في الحديبية: «يا عمر، إنّي رضيتُ وتابى ؟! »: موقف عمر رضي الله عنه في الحديبية ، هو موقف كلّ مسلم شهد الحديبية ، ولم يكن في الجيش أحد راض بكلّ ما جرى ، إلا أنّ عمر كان جريئاً فأفصح عَمّا في نفسه ، فظاهر الشّروط ، وللوهلة الأولى ، جاءت ضدّ عزّة المسلمين وثقتهم بأنفسهم ، وإيمانهم الكامل بأنّ النّصر لهم حمّا ، وأنهم لاشكّ سيدخلون مكّة ، ويطوفون بالبيت الحرام .

⁽١) الاكتفا: ١٣٠/١ ، السّيرة الحلبيّة : ١٨/٣ ، ابن سعد : ١٨/٧ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٣٣٧/٣

٢) الدَّر المنثور في التَّفسير بالمأثور (السُّيوطي) : ٦٨/٦ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٣٣٧/٣

وموقف الصّديق رضي الله عنه ، موقف « إن قالها فقد صدق » ، التّسليم الكامل ، والتّصديق التّام المطلق ، والنّقاش الّذي جرى « فعلام نعطي الدّنيّة في ديننا » ، سببه أنّ رسول الله عَلَيْتُ ماقال إنّ الّذي جرى ، جرى بوحي ، والصّحابة كانوا في مواقف كثيرة يقولون : أوحي يا رسول الله ؟ كا هي الحال في بدر عندما أبدى الْحباب بن المنذر رأيه ، وفي الخندق عندما أراد رسول الله أن يعطي غطفان ثلث ثمار المدينة ، فإن كان وحياً سكتوا وقبلوا وسلّموا تسلياً ، وإن لم يكن وحياً ناقشوا وأبدوا آراءهم ، وفي الحديبية إبداء رأي لعدم وجود وحي إلهي في الموضوع ، والأمر بعد نظر سياسي كبير عظيم من قبل رسول الله عَيْنِينَة ، عرف نتائجه مسبقاً ، فكانت ظاهر بنود الصّلح كبير عظيم من قبل رسول الله عَرف نتائجه مسبقاً ، فكانت ظاهر بنود الصّلح كبير عظيم من قبل رسول الله عَرف الصالح المسلمين ، ودع لمسيرتهم ودعوتهم .

وبما أثر في نفوس المسلمين أيضاً أنَّ سهيل بن عمرو ، هو الَّذي أملى بنود الصُّلح كا أراد وشاء ، ولم يدع لرسول الله عَلِيَّةٍ فرصة تعديل أو تغيير أو تشاور في إنشاء البنود وصيغتها ، وكان رسول الله عَلِيَّةٍ يقبل النَّصَّ الَّذي يمليه سهيل ، ليضمن كتابة وثيقة رسميَّة موقَّعة ممهورة ، فيها اعتراف خطّي من قريش _ زعية العرب _ بقوَّة جديدة في الجزيرة العربيَّة ، هي القوَّة المنافسة الَّي وقفت قريش والأُحزاب في وجهها ، بل أرادت استئصالها قبل زمن ليس بعيداً .

في الحديبية ، جعل على أمام ناظريه هدفاً واضحاً يريد تحقيقه ، ألا وهو إيقاف الحرب ، وحقن الدّماء ، للتّفرّغ للدّعوة ، وتبليغ الإسلام ، ونشر التّوحيد بين القبائل بالحكمة والموعظة الحسنة ، مع الاعتراف الرّسمي الخطّي من قريش بهذا الحق ، وحقّق عَرَاق الله عَرف أملاها سهيل بن عمرو ، وحقّق عَرَاق الله عَرف على خلال مضونها ولبابها الهدف الدّي أراد ، فالهدنة مع قريش تفسح له المجال لتحقيق هذا الغرض داخل الجزيرة العربيّة وخارجها ، وجاءت الوقائع مؤيّدة ، والنّتائج محقّقة صحة وجهة نظره عَرفية .

وأثرها كبيرحتًى على قريش ذاتها ، لأنّه دخل مكّة في عمرة القضاء ، ممّا جعل أفراداً كُثُراً من قريش يعيدون حساباتهم ، كخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، ولا سيّا وأنّ المسلمين دخلوا مكّة مضطبعين في طوافهم ، مظهرين زنودهم وجزءاً من صدورهم ، لتعلم قريش أنّ دعاواها الّتي أشاعتها بين أبنائها غير صحيحة ، وأنّ حُمّى يثرب لم توهن قواهم ، ولم تضعف أجسامهم ، فها هم في صحة وبُنية سلية ، وأجسامهم قويّة ، ودحض هذه الفرية ، يعني الشّك في افتراءات أخرى ، جعلت شباب مكّة يحكّمون العقل في الإسلام وبالمسلمين ، ويشكّون فيا سمعوا من قريش ، وبما تخطّط له .

لقد رأى مَرَّالِيَّ أُموراً وأهدافاً غابت عن عمر رضي الله عنه ، وعن بقيَّة المسلمين ، إنَّه يريد مابعد الحديبية ، وما يحققه هذا الصَّلح من هدنة وطهأنينة بين المسلمين وقريش ، ومنها :

تطهير الصّف الدَّاخلي ، والتَّفرُّغ إلى اليهود الَّذين كانوا وراء المؤامرات الَّتي تحاك ضدَّ المسلمين ، مع التَّفرُّغ لنشر الإسلام بين القبائل في جزيرة العرب ، وتبليغ الدَّعوة إلى الملوك والأُمراء خارج الجزيرة العربيَّة ، وكسر عداوة قريش لينفذ الإسلام إلى قلوب أبنائها في جوِّ من حقن الدِّماء والمدنة والاعتراف المتبادل ، وأن يشعر العرب جميعاً بندَّيَة المسلمين لقريش صاحبة المكانة الرَّفيعة بين العرب .

وسؤال عمر وكلامه وموقفه لم يكن شكّا في الدّين ، أو في رسول الله عَلَيْكَم ، حاشاه رضي الله عنه ، فلَمّا قال له أبو بكر الصّدّيق : الزم غرزه فإنّه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنّه رسول الله ، فسؤاله طلباً لكشف ماخفي عليه من المصلحة وحثّاً على إذلال المشركين ، وحبّاً في ظهور الإسلام كا عرف في خُلقه وقوّته في نصرة الدّين ، وإذلال المبطلين ، وفي ذلك دليل على جواز البحث في العِلْم حتّى يظهر المعنى .

وسلَّم عمر تسليماً عندما قال له رسول الله عَلَيْتَةٍ : « يا عمر ، إنِّي رضيت وتأبي ؟! » .

إنَّ كلَّ الَّــذي أَراده عمر ـ وهــو المسلم الحـقُّ ـ ظهــور الحكــة ، وتكشَّف المراد من الصَّلح وهو بهذه الصَّيغة ، وبهذه الشُّروط .

٢ - وهل رفض النّحر والحلق مخالفة جماعيّة ؟ : نعم ، إنّها مخالفة جماعيّة ، ولكن فيها أدب واحترام لعدم النّطق بها ، ولعدم اللّجوء أو القيام بعمل إيجابي ضدّ تنفيذ الأمر ، ويدلّ هذا الموقف على أنّ جميع المسلمين كانوا برأي عمر ، ولكن عمر كان أجراً القوم على النّطق عما جال في النّفوس أمام رسول الله عَيْنِيّة ، فكانت مشورة المرأة الفاضلة أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها ، فعاد الجميع إلى التزام أمر رسول الله عَيْنِيّة .

والخالفة لم تكن شكّاً بدينهم وبرسولهم ، بـل كانت لرجـوعهم بغير فتـح ، وهم الّذين لم يشكُّوا منذ انطلاقهم من المدينة المنوّرة بدخول مكّة معترين .

٣ - وفُتِحَ بابُ المودَّة على مصراعَيْه: وبعث رسول الله عَلَيْكَ إلى مكَّة من الحديبية عشرين بَدَنة مع ناجية بن جندب الأسلمي ، حيث نحرها بالمروة ، وقسَّم لحمها على فقراء مكَّة ، ففتح بذلك باب مودّة ، وكسب شعور الفقراء الكيِّين ، لقد قطعت العلاقات بين المسلمين وقريش أُثناء الحرب ، أمَّا في الهدنة والصُّلح ، فقد رعى رسول الله عَلِيَّة فقراء قريش وحلفاءها ، ففتح باباً من المودَّة معهم ، فكسر بذلك الحواجز النَّفسيَّة الَّتِي أُوجدتها الزَّعامة القرشيَّة ، وهيًا النَّفوس لقبول الحوار ، وبالتَّالي اعتناق الإسلام ، والإيمان بالرِّسالة الَّتِي أُنزلها الله على محمَّد بن عبد الله عَلَيَّة .

٤ ـ قريش تستشف الأمر: وأمام الواقع الّذي رآه المفاوضون، قال حويطب: لانأخذ من محمّد نَصَفاً أَبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها ـ يدخل مكّة ـ عَنْوة، فقال مكرز مجيباً: وأنا أرى ذلك.

وبذلك تيقَّن وجهاء قريش ، وأصحاب الرَّأي فيها منذ الحديبية ، أن زمام الأمر أُفلت من بين أيديهم ، وسيدخل المسلمون بقيادة رسول الله عَلِيَّةٍ مكَّة فاتحين ، ولا قِبَل لهم بهم بعد موقفهم هذا .

٥ - الّذين أَمْلُوا الصَّلَح بعناد ، يطالبونَ بتغيير بنوده : هرب من مكّة أبو بصير (عبيد بن أُسيد بن عتبة الثَّقفي) ، وكان مَّن حُبِسَ بمكَّة ، ونزل العيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر الأَحر ، بطريق عير قريش وتجارتها الَّتي كانوا يرون عليها إلى الشَّام ، واجتم إليه جمع من المسلمين الَّذين كانوا احتُبِسوا بمكَّة ، ومنهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، فلم يزل أصحابه يكثرون حتَّى بلغوا ثلاث مئة (١) .

أرسلت قريش أمام هذا الواقع بكتاب إلى رسول الله عَلَيْكُم جاء فيه : إنَّا أسقطنا هذا الشَّرط من الشُّروط ، ومن جاء منهم إليك فأمسكه في غير حَرَج ، من أتاه فهو آمن ، فإنّا أسقطنا هذا الشَّرط ، فإنّ هؤلاء الرَّكب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره (٢).

فكتب عَيِّكَ إِلَى أَبِي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه ومن معهم من المسلمين ، وألا يتعرَّضوا لأحد مرَّ بهم من قريش ولا لعيرهم . فقدم كتاب رسول الله عَيْكَ عليها ، وأبو بصير يحتضر ، فات رضي الله عنه وكتاب رسول الله في يده ، يقرؤه ويُسَرُّ به ، فدفنه أبو جندل مكانه ، وقدم أبو جندل على رسول الله عَيْكَ .



وَمِنْ نَتائجِ الْحُدَيبية:

قال أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه: ماكان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن النّاس قصر رأيهم عمّا كان بين محمّد على وربّه ، والعباد يعجلون ،

- 179 -

⁽١) الاكتفا : ١٣٠/١ ، ابن هشام : ٢٠٧/٣ ، البداية والنَّهاية : ١٧٦/٤ ، الكامل في التَّـاريخ : ١٤٠/٢ ، الطّبري : ٦٣٨/٢ ، الرَّوض الأَنْفُ : ٦٣٨/٢ .

⁽٢) يقول بروكلمان في (تاريخ الشَّعوب الإسلاميَّة ، ص: ٥٦) عن أبي بصير ومن معه: «اجتمعوا تحت قيادته وطفقوا يهاجمون القوافل المَكيَّة ، فلم يجد المكيُّون بُدتاً من أن يطلبوا هم إلى النَّبِيَّ يَزْكُنَّةٍ أن يلغي تلك المادَّة الخطرة من المعاهدة ، وأن يتولَّى أمر هؤلاء العصاة بنفسه ».

والله لا يعجل لعجلة العباد حتَّى تبلغ الأمور ماأراد ، لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قامًا عند المنحر يقرِّب لرسول الله عَلَيْكَ بُدُنَه ، ورسول الله عَلَيْكَ ينحرها بيده ، ودعا الحلاَق لحلق رأسه ، فأنظر إلى سهيل بن عمرو كلَّما يلفظ من شعره عَلَيْكَ بيده يضعه على عينه ، وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرَّحن الرَّحيم ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فحمدت الله وشكرته الذي هداه للإسلام .

وقال الزَّهري (محمد بن سعد) في صلح الحديبية : « فما فُتِحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنَّا كان القتال حيث التقى النَّاس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن النَّاس بعضهم بعضا ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكلَّم أَحَدُ بالإسلام يعقل شيئاً إلاَّ دخل فيه ، ولقد دخل تينك السَّنتين مثل ماكان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر » (١) .

قال ابن هشام: والدَّليل على قول الزَّهري أنَّ رسول الله خرج إلى الحديبية في أَلفٍ وأربع مئة في قول جابر بن عبد الله ، ثمَّ خرج عام فتح مكَّة بعد ذلك بسنتَيْن في عشرة آلاف .

فصلح الحديبية اعتراف رسمي مُوقعٌ من قريش ، بأن رسول الله عَلِينيةٍ ومن معه ، قوّة مستقلّة متيزة ، وصِنْو قريش زعية القبائل ، أتاح للمسلمين الاختلاط بغيره ، فأعلموهم الإسلام ، قولاً وعملاً ، خلُقاً وسلوكاً ، وجاء المشركون إلى المدينة المنورة ، وذهب المسلمون إلى مكّة المكرّمة ، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم عن يثقون بهم ، وسمعوا منهم أحوال رسول الله عَلِينية ومعجزاته الظّاهرة ، ودلائل نبوّته العقليّة ، وحسن سيرته ، وجميل طريقته بين أصحابه ، وبين النّاس جميعاً ، وعاينوا بأنفسهم وحسن سيرته ، فمالت أنفسهم إلى الإيمان ، فبادر قسم منهم إلى الإسلام قبل فتح كثيراً من ذلك ، فمالت أنفسهم إلى الإيمان ، فبادر قسم منهم إلى الإسلام ، فلما كان يوم الفتح ، أسلموا فيا بين صلح الحديبية وفتح مكّة ، ومال آخرون إلى الإسلام ، فلما كان يوم الفتح ، أسلموا جيعاً .

⁽١) الطّبري : ٧٩/٣ ، البداية والنّهاية : ١٧٠/٤ ، ابن هشام : ٢٠٦/٣ ، الاكتفا : ١٢٩/١

وبعد صلح الحديبية ، وبعد هذا الاحتكاك ، أيقن العرب جميعاً ـ من أسلم ومن لم يسلم بعد ـ أنَّ قوَّة جديدة ، بفكر جديد ، وتنظيم اجتاعي جديد ، ورابطة جديدة خلَّفت وراءها العصبيَّة القبليَّة ، قد أثبتت وجودها في جزيرة العرب ، يتحتَّم على كلِّ العرب التَّفكير جدِّياً بها كأمر واقع من ناحية ، وكفكر منطقي سليم من ناحية ثانية .

كأمر واقع : أثبت وجوده ، وبالتَّالي لقد غيَّر ميزان القوى لصالحه بعد الحديبية .

وكفكر منطقي سليم : سفَّه الأصنام والأوثان والشَّرك .. وركَّز على التَّوحيد الطلق الله عزَّ وجلَّ ، خالِقاً مبدعاً ، قيوم السَّموات والأرض .

ومهّد صلح الحديبية لاتّصال المسلمين ببلاد العرب الجنوبيّة الغربيّة ، وجعل ذلك أمراً ميسوراً ، فجاء وفد من قبيلة دوس ، من تلك الجبال الّتي تتاخم بلاد الين الشّماليّة ، وانضّوا إلى رسول الله مِرْفِياتٍ في المدينة المنوّرة .

وأدركت قريش بعد الحديبية أنَّ الأمر قد استبان ، وأنَّ الإسلام ظاهر منتصر لا محالة ، وبخاصة بعد أن حشدت أضخم جَمْع في تاريخها ، وذلك في غزوة الأحزاب ، وأخفقت ، وبعد أن تكرَّرت انتصارات المسلمين أيقنت قريش أيضا أنَّ أمر رسول الله عَلَيْ قد عَظَمَ في جميع أنحاء الجزيرة العربيَّة ، وأنَّ العاقبة المحتومة ظفر الإسلام وظهوره ، وفتح مكة ذاتها قريباً .

قال خالد بن الوليد لقريش بعد الحديبية : لقد استبان لكلّ ذي عقل أنّ محمّداً ليس بساحِرٍ ولا شاعر ، وأنّ كلامه من كلام ربّ العالمين ، فحقّ على كلّ ذي لُبّ أن يتبعه .

وقال عمرو بن العاص : كم أُوضِع (١) ! والله ليَظهرنَّ محمدٌ على قريش .. عرف هـذا الحقَّ العربُ والعجم .

⁽١) أُوضِعُ : أُغبن وأُخسر ، [اللَّسان : وضع] .

ويُسُلُم خالد ، ويُسُلُم عمرو ، يقول خالد : فأسرعنا المشي ، فاطَّلعت عليه عَلِيْكُم فَا زال يتبسَّم إليَّ حتَّى وقفت عليه ، فسلَّمت عليه بالنَّبوَّة ، فردَّ عليَّ السَّلام بوجه طَلْق ، فقلت : إنِّي أَشهد أَن لا إله إلا الله وأنَّك رسول الله ، فقال : تعالَ ، ثمَّ قال عَلَيْكُم : « الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لكَ عقلاً رجوت ألاً يسلمك إلاَّ إلى خير » .

خالد: يا رسول الله ، إنّي قد رأيت ماكنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق ، فادع الله أن يغفرها لي ، فقال رسول الله عَيْسَةُ : « الإسلام يَجُبُّ ماكان قبله » .

وبند الصَّلح الَّذي نصَّ على عدم إرجاع قريش من يأتيها من عند محمَّد ، فيه يقين رسول الله عَلَيْلَةٍ وثقته بأصحابه ، فهو على يقين من حبِّهم ، ومن إخلاصهم لدينهم ، مع شدَّة تمسُّكهم بعقيدتهم ، فلن ينضم واحد منهم إلى قريش ، وهذا ماكان .

وسيتَّجه عَلِيْكُ بناظريه إلى خارج الجزيرة العربيَّة برسائل إلى الملوك والأُمراء ، بعد إنجازه العمل في تنظيم شؤون المدينة المنوَّرة الدَّاخليَّة .

ودخل عَلَيْتُهُ ومن معه من المسلمين مكَّة لعمرة القضاء ، وبقوا ثلاثـة أيَّـام فيهـا ، محقِّقًا نصرًا إعلاميًّا رائعًا .

وعَزَلَ صلح الحديبية قريشاً عن حلفائها اليهود الدين سعوا بكل طاقاتهم وإمكاناتهم إلى استئصال المسلمين .

وبعد هذا كله ، يكن القول : إن صلح الحديبية أغر بأسرع ممّا كان متوقّعاً ، وبأعجب ممّا كان يتصوّره إنسان ، لقد أزاح عَيْنِكُم من طريقه ، ومن حساباته ، كلّ تفكير بقريش ، ليركّز جهده إلى العدوّ الشّمالي ، إلى يهود خيبر ، فهو العدو الأكبر بعد قريش ، فبعد أن أوقف رسول الله عَيْنِكُم قريشاً على الحياد ، كان لابدً من استثمار الصّلح ، فسار إلى خيبر ، إلى المتربّصين بالإسلام والمسلمين .

غَزْوَةٌ خَيْبَر « الفَتْحُ القَريبُ »

بعد مهادنة قريش في صلح الحديبية ، كان لا بُدّ من توحيد شبه جزيرة العرب تحت راية الإسلام ، ومن الصّعب تحقيق ذلك والخطر مازال جاثماً في شمالي المدينة تترأسه خيبر ، للقضاء على الإسلام والمسلمين .

خَيْبَرُ والمستشرِقُونَ :

يقول كارل بروكامان : « حاول النّبيُّ أن يعوّض عن فشله الظّاهري في الحديبية ، فقاد المسلمين على المستعمرة اليهوديّة الغنيّة في خيبر »(١) .

ويقول يوليوس فلهاوزن في معرض حديثه عن اليهود : « حاول محمَّد أن يظهرهم عظهر المعتدين النَّاكثين للعهد »(٢) .

ويقول جان باجوث غلوب : « إنَّ سبب غزو الرَّسول لخيبر ، هو إزالة ما لحق بالمسلمين من خيبة أمل في صلح الحديبية »(٢) .

ويقول داڤيد صوئيل مرجليوث: «عاش عمَّد هذه السّنين السّت بعد هجرته إلى المدينة على التَّلصُّص والسَّلب والنَّهب، ولكن نهب أهل مكَّة قد يبرِّره طرده من بلده، ومسقط رأسه، وضياع أملاكه، وكذلك بالنّسبة إلى القبائل اليهوديَّة في المدينة، فقد كان هناكَ على أيَّة حال سبب ما حقيقيّاً كان أو مصطنعاً عدعو إلى

⁽١) أتاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة : ص ٥٦

⁽٢) تاريخ الدُّولة العربيَّة : ص ١٥

⁽٣) الفتوحات العربيّة الكبرى: ص ١٣٨

انتقامه منهم ، إلا أن خيبر التي تبعد عن المدينة هذا البعد كله ، لم يرتكب أهلها في حقّ ، ولا في حق أتباعه خطأ يعتبر تعدّياً منهم جميعاً ، لأن قتل أحدهم لرسول رسول الله محمّد لا يصح أن يكون سبباً يتذرّع به للانتقام »(١) .

ثمَّ ينتهي مرجليوث من ذلك كلِّه إلى أنَّ المسلمين إنَّا غزوا خيبر للحصول على مافيها من الغنائم، ويقول: «إنَّ رسول الله قد غيَّر سياسته مع اليهود ومع المشركين، وهذا يبيِّن لنا ذلك التَّطوُّر العظيم الَّذي طرأً على سياسة الرَّسول منذ أيَّامه الأولى في المدينة، عندما أعلن مساواة اليهود بالمسلمين، أمَّا الآن فإنَّ مجرَّد القول بأنَّ جماعة ما مشركة أو يهوديَّة أو غير مُسلِمة يعتبر كافياً لشنِّ الغارة عليها، وهذا يفسّر لنا تلك الشَّهوة الَّتي سيطرت على نفس محمَّد، والَّتي دفعته إلى شنِّ غارات متتابعة كا سيطرت على نفس الإسكندر من قبله، ونابليون من بعده».

ثمَّ يقول مرجليوث : « إنَّ استيلاء مُمَّد على خيبر يبيِّن لنا إلى أيِّ حَدِّ أصبح الإسلام خطراً يهدّد العالم » .

و يمكن تلخيص ماسبق في ستة بنود:

- ١ ـ تغيُّر سياسة رسول الله عَلِيُّكُم الَّتِي أُعلنها عند الهجرة .
- ٢ ـ فشل المسلمين في صلح الحديبية ، « خيبة أمل في صلح الحديبية » .
 - ٣ _ حاول عَلَيْتُم أن يظهر اليهود عظهر النَّاكثين للعهد .
 - ٤ ـ لم يرتكب أهل خيبر خطأ بحقّ المسلمين .
 - ٥ ـ غزوة خيبر « للحصول على مافيها من الغنائم » .
 - ٦ أصبح الإسلام خطراً يهدّد العالم .

وقبل مناقشة هذه البنود السّتة ، نذكر : إن اليهود في جزيرة العرب عرب تهوّدوا ، لا يهود مهاجرون ، اعتنقوا اليهوديّة عن طريق التّبشير ، ويؤكّد اليعقوبي أنّ

[.] Muhammed and the Rise of Islam, p. 392 - 393 (1)

القبائل اليهوديَّة في الجزيرة العربيَّة كانت من أصل عربي ، لذلك كانت اليهوديَّة في بلاد العرب لها صبغة خاصَّة ، كانت يهوديَّة في أساسها ، ولكنها غير خاضعة لكلِّ ما يُعرف بالقانون التَّلمودي (١) .

☆ ☆ ☆

١ - تغيُّر سياسة رسول الله عَلَيْهُ الَّتِي أَعلنها عند الهجرة :

وقَّع رسول الله عَلَيْكَ عند وصوله إلى المدينة المنوَّرة حلفاً وموادعة ومسالمة مع يهود المدينة ، أُقرَّم فيه على دينهم وأموالهم ، وضمن لهم المساواة مع المسلمين في المصلحة العامَّة ، وكفل لهم التَّمتُّع بما للمسلمين من حقوق (٢) .

ولكن بعد غزوة بدر الكبرى ، قال يهود بني قينقاع : « يا محمَّد لا يغرنَّك أَنَّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب _ يعنون قريشاً _ فأصبت منهم فرصة » (٦) ، ويقول ابن كثير : « فكانوا أوَّل يهود نقضوا مابينهم وبينه » ، ثمَّ يذكر قصَّة المرأة المسلمة الَّتي تعرَّض لها اليهود في سوق بني قينقاع (١) .

وبعد أُحُد ، خرج عَلَيْكُم إلى بني النَّضير يستعينهم في ديَّة قتيلين للجوار الَّذي كان عقد بينها ، فقرَّروا قتله ، فأجَّلهم عشراً ، ثمَّ غادروا إلى خيبر .

⁽۱) انظر : تــاريخ العرب قبل الإسلام : ۲۱/۱ ، د . جواد علي ، وملامح من تــاريــخ اليهــود في العراق ، ص : ۲٤٠ ، د . أحمد سوسة .

⁽٢) ابن هشام : ١٠٦/٢ ، تحت عنوان : (الرَّسول يوادع اليهود) .

⁽٣) الطّبري : ٤٨١/٢ ، البداية والنّهاية : ٣/٤ ، الاكتفا : ٩٩/١

 ⁽٤) الكامل في التّاريخ : ٩٦/٢

فهل غيَّر رسول الله عَلَيْتِ سياسته أم نَقْضُ العهود والمؤامرات سبَّبت قصاصاً عـادلاً لهم ؟

٢ - فشل المسلمين في صلح الحديبية ، (خيبة أمل في صلح الحديبية) :

وكيف يكون ذلك وقد حقَّق الصَّلح اعترافاً رسميّاً بالمسلمين ، وأضحى المسلمون فيه طرفاً مساوياً لقريش صاحبة الزَّعامة والنَّفوذ في جزيرة العرب ؟ مع الحقِّ الكامل في نشر دينهم ، وهذا غاية ما يبتغون .

أيَّة خيبة أمل هذه ، وقد دخل الإسلام في سنتين من صلح الحديبية ما دخل فيه · قبلاً ؟

٣ ـ حاول رسول الله عَلِي أن يظهر اليهود بمظهر النَّاكثين للعهد :

كيف ذلك ؟ هل رسول الله ﷺ ، هو الله عَلَيْكَ ، هو الله عَلَيْكَ ، هو الله عَلَيْكَ على مكَّة يحرّضون قريشاً عليه ؟ أما قالوا لقريش : إنَّا سنكون معكم عليه حتَّى نستأصله ؟

وهل هو الَّذي أرسلهم إلى غطفان يحرِّضهم عليه ؟

وهل رسول الله عليه وهم أهل حلقة وافرة ، وهم سبع مئة مقاتل وخمسون مقاتلا ؟ وقل : إنَّ قومي مَعَكُم ، وهم أهل حلقة وافرة ، وهم سبع مئة مقاتل وخمسون مقاتلا ؟ فقال أبو سفيان : ائت قومك حتَّى ينقضوا العهد الَّذي بينهم وبين عمَّد ، فخرج حُييً حتَّى أتى كعب بن أسد القرظي سيَّد بني قريظة ، وولي عهدهم الَّذي عاهدهم عليه رسول الله عليه ، فنقض العهد ، ومزَّق الكتاب الَّذي كتبه مع رسول الله عليه .

كلَّ هــذا ويقول مستشرق متحيِّز : حـاول رسول الله أن يظهر اليهـود بمظهر النَّاكثين للعهد ؟

وإذا تحدَّث التَّاريخ عن وفاء رسول الله عَلِيَّةِ لعهوده ، حتَّى دفع ديات من قُتِلَ منهم خطأ ، وعفوه عن كلِّ معتد مسيء منهم جاءه تائباً ، وأنَّـه عَلِيَّةٍ كان يشيِّع

جنازاتهم ، ويحضر ولائمهم ، ويعود مرضاهم .. وكان يفعل ذلك إرشاداً وتعلياً للمسلمين ، إذا تحدَّث التّاريخ بذلك ، أصمَّ مرجليوث _ ومن على رأيه _ آذانهم ، فالتّاريخ هنا يقوِّض ماقال ، وينقض ادّعاءه .

٤ ـ لم يرتكب أهل خيبر خطأ بحق المسلمين :

عجيب غريب !! أما جعل وفد اليهود برئاسة حُتي بن أخطب لغطفان _ تحريضاً على الخروج _ نصف تمر خيبر كل عام (١) ؟

وإن قرَّر التَّاريخ أنَّ تحالفاً يهودياً برئاسة خيبر ضمَّ يهود تياء وفَدَك ووادي القرى مع غطفان ، تحت زعامة سلام بن مشكم ، هدفه غزو المدينة ، وضع مرجليوث أصابعه في أُذنيه .

وإن تساءل إنسان : هل كان من المكن بدل غزوهم ، عقد صلح معهم كصلح الحديبية المعقود مع قريش ؟ نجيب : لا ، لقد جرَّبهم وحالفهم مرَّات ومرَّات ، فلم يلقَ عَلِيلًا منهم غير الغدر والخيانة والتَّامر ونقض العهود .

فهل صحيح لم يرتكب أهل خيبر خطأ بحق المسلمين ، على الرَّغ من تحريضهم قريشاً وغطفان ، وعلى الرَّغ من الحلف الَّذي تزعموه لغزو المدينة ؟

لقد عذر مرجليوث رسولَ الله ﷺ في حربه لقريش وليهود المدينة ، ولم يعذره في غزوه خيبر ، فجمع بين إعذاره الأول ، والحمل عليه في الأمر الثّاني ، ليظهر بمظهر الموضوعي المنصف ، فلم يفلح .

ه - غزوة خيبر « للحصول على مافيها من الغنائم » :

كيف ذلك ؟ وقد قال رسول الله عَلِياتُهُ للأعراب الّذين خرجوا معه رجاء الغنية:

⁽١) في السّيرة الحلبيَّــة : ٣٢٩/٢ : وجعلــوا لهم تمر خيبر سنـــة إن هم نصروهم عليـــه ، ونصف تمر خيبر في الاكتفا : ١١٣/١

« لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد ، فأمَّا الغنية فلا » ، فالجهاد خالص في سبيل الله عزَّ وجلَّ ، والغنية تحصيل حاصل ، ومعاملة بالمثل .

٦ ـ أصبح الإسلام خطراً يهدّدُ العَالَم:

عمَّ الرَّفاه البلاد الني فتحت لاستتباب الأمن فيها ، وعَّت نهضة علميَّة وطبيَّة ، وكَثُرَت (البيارستانات) ، والتَّرجمات ، وإحياء الكتب القديمة على يد المسلمين ، ويد سكان البلاد المفتوحة ، فقد كان العلم للجميع ، حتَّى عَنَّى لوبون انتصار العرب في بلاط الشَّهداء (بواتييه) (۱) ، لماذا ؟ لكي يصيب أوربة النَّصرانيَّة الهمجيَّة ، مثل مأصاب إسبانية من الحضارة الزَّاهرة تحت راية الرَّسول العربي ، ولأضحت باريس مثل قرطبة في إسبانية ، مركزاً للحضارة والعلم ، حيث كان رجل الشَّارع فيها يكتب ويقرض الشَّعر أحياناً ، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوربة لا يعرفون كتابة أسائهم ، ويبصون بأختامهم .

وقال المبشّر (لينون هاديس) في كتابه (الإسلام في إفريقية الشَّرقيَّة): « المسلمون الَّذين انتقلوا إلى السَّواحل ، فإنَّهم نقلوا إليها الكتابة والعارة وأدوات الحضارة ، وطبعوها بطابعهم في كثير من أحوال المعيشة ».

و إذا كان الإسلام خطراً يهدّد العالم ، فلماذا تعتنقه اليوم جماعات وجماعات في كلّ دول العالم ، من اليابان شرقاً ، وحتَّى أمريكة غرباً ؟

هذا .. « والاعتداء أمر ممقوت لا الحرب ، وليست كلُّ حرب اعتداء » ، إنَّ حبُّ القتل للقتل ذاته خُلُق رفضه الإسلام ، حارب سفك الدِّماء ، وجعله غريزة مزجورة ، لكن الحرب ليست مبادة للحاجة إليها في أوقات مناسبة ، أُولاها الدِّفاع عن النَّفس في الحرب الوقائيَّة .

الإقلاع عن الحروب أمر حسن لا شك فيه ، ولكن هل الذُّلُّمة وقبول التُّمامر

⁽١) حضارة العرب: ص ٣١٧

والاعتداء أمر حسن ؟! فلو عاش اليهود في خيبر واحترموا حقوق المسلمين ، وأزالوا من نفوسهم التَّآمر والاعتداء والتَّعالي ، فلا حرب ، أمَّا أن يقبل المسلمون الظُّم والتَّآمر والجور بحجة أنَّ الحرب أمر ممقوت فلا ، وبخاصَّة أن موقف الإسلام من الدِّينَيْن السَّماويَّيْن معروف جلي ، وواضح ثابت ، وتسامحه معروف ، وسعة صدره حقيقة واقعة .

☆ ☆ ☆

أسباب غزوة خيبر:

سيطرت على تصرُّفات اليهود _ قبل خيبر وبعدها _ روح الحفاظ على الامتيازات التي تَتَّعوا بها عندما كان العرب فِرَقاً وقبائل متنافسة ، ولكن هيهات أن تنجح هذه الرُّوح في ظلِّ الإسلام ، فما كان من عند الله يضه .

ذُهلوا من انتصارات رسول الله عَلَيْتُ ، ويئسوا من معاونة قريش ـ زعية العرب ـ بعد صلح الحديبية ، فظلُّوا حيارى لا يدرون ماذا يفعلون ؟ فالمال وافر موجود ، والرِّجال كثيرون ، وعددهم كبير ، والمؤامرات عديدة ومُحْكَمة ، ومع ذلك ، النَّصر إلى جانب رسول الله عَلَيْتُ ، والهزائم تحيط بأعدائه .

لقد جعل اليهود كنزاً عظيماً لحرب المسلمين ، أما رفع سلام بن أبي الْحُقَيق عند جلاء بني النَّضير جلد جمل _ أو جلد ثور _ مملوءاً حليّاً وذهباً وجواهر ، وصار ينادي بأعلى صوته : هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنَّا تركنا نخلاً ففي خيبر النَّخل ؟ ونزلوا خيبر ودان لهم أهلها(١) .

« عداوته والله ما بقيت » ، عبارة قالها حَيّي بن أخطب منذ هجرة رسول الله عِلَيْ إلى المدينة المنوّرة ، وأصبحت مبدأ استسك اليهود به ، لذلك قال

⁽١) ابن هشام : ١١٠/٣ ، الطُّبري : ٥٥٥/٢ ، الاكتفا : ١١٢/١ ، السِّيرة الحلبيَّة : ٢٨٢/٢

سلام بن مشكم - زعيم خيبر بعد أسير بن رزام - بأنَّ خطراً يتهدَّد كيان اليهود في الحجاز ، ومن الواجب فوراً تشكيل حلف برئاسة خيبر ، يضمُّ يهود وادي القرى وتياء وفَدَك للزَّحف على يثرب ، دون الاعتاد على القبائل العربيَّة (١) ، فأخذ يتهيَّأ لقتالهم (٢) .

و يمكننا أن نجمل أسباب غزوة خيبر بما يلي :

- ١ _ العداوة المسترّة الَّتي أعلنها حُيّي بن أخطب ، وتبنّاها سلاَّم بن مشكم .
- ٢ ـ رجوع رسول الله عَلِيْ من الحديبية دون عمرة ، فظن اليهود أن ضعفاً حل السلمين .
 - ٣ _ اتِّصال اليهود بغطفان يحرِّضونهم على المسلمين مقابل بعض ثمار خيبر وتمرها .
 - ٤ _ الحلف المعقود برئاسة خيبر ، والَّذي أراد مداهمة المدينة المنوَّرة .
- ٥ ـ ولا يفوتنا أنَّ يهود بني النَّضير الَّذين نزلوا خيبر هم الَّذين هَيَّؤوا وحرَّضوا لغزوة الخندق ، فحييُّ بن أخطب النَّضري ، وسلاَّم بن مشكم ، وكنانة بن أبي الْحُقيق ، وهَوُذَة بن قيس الوائلي .. هم الَّذين قدموا مكَّة على قريش ، يدعونهم ويحرِّضونهم على حرب رسول الله عَيِّلَةٍ ، « إنَّا سنكون معكم عليه حتَّى نستأصله » ، فقال لهم أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحبُّ النَّاس إلينا من أعاننا على عداوة محمَّد .

والَّذين قالوا هذا لقريش ، هم سادة اليهود ، وزعماء خيبر وعلماؤها ، فهم يَثَّلُون قومهم كافة ، فالعقاب العادل آن أوانه .

ولن ينتظر عَلَيْهُ والمسلمون حتَّى يفاجئه اليهود (بزعامة خيبر) في المدينة ، فالهدف من غزوة خيبر إذن : القضاء على تآمر اليهود وحلفهم المبرم ضدّ المسلمين ، وإنهاء تأليبهم القبائل ضدّ رسول الله عَلِيْهُ .

⁽١) باستثناء غطفان ، الَّتي كانت تمثُّل (الجنود المرتزقة) في عصرنا الحالي .

⁽٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ، لولفنسون .

من المدينة إلى خيبر: وعند خروج رسول الله عَلَيْكَةٍ إلى خيبر (١) ، جاءه الأعراب الخلّفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنية ، فأمر منادياً ينادي: « لا تخرجوا معى إلاَّ راغبين في الجهاد ، فأمًا الغنية فلا »(٢) .

ونزل رسول الله ﷺ بواد يقال له (الرَّجيع) (٢) ، بين خيبر وموطن غَطَفان ، فحال بذلك بين غطفان وبين أن يمدُّوا أهل خيبر الَّذين كانوا لهم مظاهرين .

واستطاع المسلمون فتح حصون خيبر : ناع (٤) ، فالصُّعب ، فقلة .

مُّ أُبَي والبريء ، فالقَمُوص ، والوَطيح ، والسُّلالِم .

فتحت حصون خيبر كلَّها عَنْوة ، إلاَّ الوطيح والسَّلام فتحا صلحاً ، فكانا فيئاً لرسول الله عَلَيْكُم ، إنَّ مالم يَقْسَم من خيبر وبقي تحت تصرُّف رسول الله عَلَيْكُم ، يعني بقاؤه في خرينة الدَّولة ، يُصْرَف في المصالح العامَّة ، ودليل ذلك ما ورد عند ابن كثير : « فكانت هذه الأموال لرسول الله عَلَيْكُم خاصَّة ، وكان يَعْزل منها نفقة أهله لسنة ، ثمَّ يجعل ما بقي مُجْمل ما الله يصرفه في الكُرَاع والسِّلاح ومصالح المسلمين » (٥) .

ولما فَتِحَت حصون خيبر ، أرسل يهود فَدَك وفداً صالح رسول الله عَلِيلَةٍ ، جاء في

⁽۱) والخيبر بلسان اليهود الحصن ، وقيل لها خيابر لاشتالها على عدّة حصون ، بينها وبين المدينة (شَمَالاً) : ١٨٠ كم .

⁽٢) الطّبري : ٩/٣ ، ابن سعد : ١٠٦/٢ ، ابن خلدون : ٣٨/٢ ، فتوح البلدان : ٣٦ ، البداية والنّهاية : ١٤٧/٢ ، ابن هشام : ٢١١/٣ ، الكامل في التّاريخ : ١٤٧/٢

⁽٣) الرَّجيع هنا قرب خيبر ، وليست رجيع الطَّائف ، [معجم البلدان : ٢٩/٣] ، نزل عَيِّكَ بالرَّجيع ومعه المدان : ٢٩/٣] ، نزل عَيِّكَ بالرَّجيع ومعه المدان : ٢٩/٣]

⁽٤) فتحه علي رضي الله عنه ، وعنده حمل باباً تترَّس به ، [الطَّبري : ١٣/٣ ، ابن هشام : ٢١٦/٣ ، البدايـة والنَّهاية : ١٨٩/٤ ، الاكتفا : ١٣٢/١] .

⁽٥) السّيرة النّبويّة لابن كثير: ٣٨٥/٣ و ٣٨٦ ، والكُرَاع: اسم يجمع الخيل ، والكُراع: السّلاح أيضاً ، [اللّسان : كرع] .

معجم البلدان (١): « صالحهم على النّصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك » ولم يزل أهلها بها حتّى أجلى عمر رضي الله عنه اليهود ، فقوّم لهم النّصف بقية عدل ، فدفعها إلى السّام .

ثمَّ عند منصرف عَلَيْكُم من خيبر ، فتح وادي القرى عَنوة ، فصالحه أهل تياء لما بلغهم ما فعل رسول الله عَلِيْكُم بأهل خيبر وفَدَك ووادي القرى .

ولما اطهأن النّاس بعد فتح خيبر ، جعلت زينب بنت الحرث (٢) أخي مرحب ، وهي امرأة سلام بن مشكم تسأل : أي الشّاة أحب إلى محمّد ؟ فيقولون : السذّراع ، فعمدت إلى عَنْز لها فذبحتها وسلختها وطبختها ، ثمّ عمدت إلى سمّ لا يلبث أن يقتل من ساعته ، فسمّت الشّاة ، وأكثرت في النّراعَيْن والكتف ، وقدّمتها لرسول الله عَيْنِينِ والكتف ، وقالت : ياأبا القاسم ، هديّة أهديتها لك ، وتناول عَيْنِينٍ الذّراع - أو الكتف -، فانتهش منه ، فقال : ارفعوا أيديكم إنّها مسمومة ، وقال عَيْنِينٍ في مرضه الأخير : «مازلت أجد من الأكلة الّتي أكلت من الشّاة يوم خيبر عَداداً - معاودة الألم - حتّى كان هذا أوان انقطاع أبهري »(٢) .

☆ ☆ ☆

عُمْرَةُ القَضِاء « عُمْرَةُ القصاص ، عُمْرةُ القضيَّة »:

أمر رسول الله عَلَيْكُ النَّاسَ أن يتجَهَّزوا للعمرة ، فتجهَّزوا وخرجوا إلى مكَّة في شهر ذي القعدة من سنة ٧ هـ ، وخرج معه عَلِيْكُ مَّن كان صدَّ في عمرة ذي القعدة سنة ٢ هـ ، ولم يتخلَّف أحد ممَّن شهد الحديبية إلاَّ من استُشهد في خيبر ، أو مات في السَّنة

⁽١) معجم البلدان : ٢٣٩/٤

⁽٢) لأخبار الشَّاة المسبومة : ابن خلدون : ٣٩/٢ ، الطَّبري : ١٥/٣ ، البداية والنَّهاية : ٢٠٨/٤ ، الكامل في التَّاريخ : ١٥٠/٢ ، الرَّوض الأُنَف : ٦٢/٤

⁽٣) الأبهر : عرق مستبطن القلب ، في [اللَّسان : بهر] : عِرْقٌ إذا انقطع مات صاحبه .

المنصرمة ، وخرج معه من لم يشهد الحديبية ، فبلغ من خرج معتمراً أَلْفَيْن ، ومعهم مئة فَرَس ، وسار معه عِلَيْكُ ستون بَدَنة .

وخرج رسول الله ﷺ ومن معه بكامل السّلاح ، سلاح المحارب الكامل ، خشية غدر قريش .

ولما سمعت قريش بقدوم عراضي بعثت مكرز بن حفص بن الأحنف في نفر من رجالاتها ، حتى لقوه عراضي ببطن يأجج (١) ، معه أصحابه والسلاح والهَدْي ، فقالوا : ياعمّد ما عُرِفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر ، السيوف في القُرُب ؟ فقال عليهم السلاح ، ولكن يكون قريباً منّا فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منّا » ، فقال مكرز : هذا الّذي تُعْرف به البِر والوفاء ، ثمّ عاد مسرعاً بأصحابه إلى مكة ، وأعلم قريشاً بما جرى ، فخرج قسم من قريش من مكّة إلى رؤوس الجبال ، وخلوا مكّة وقالوا : لاننظر إليه ولا إلى أصحابه .

وأشاعت قريش قائلة: إنّه يَقْدُم عليكم وَفْدَ وهنتهم حُمَّى يثرب ، إنَّ عَمَّداً في عَسْرة وجهد وشدَّة ، فأمر رسول الله عَلَيْتُ بِ (الاضطباع)(٢) ، فكشف المسلمون عن مناكبهم ، وقال عَلَيْتُ : « رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوَّة » ، وقال عَلَيْتُ : « لا يرى القوم فيكم غَمِيزَة »(٢) ، وجعل عَلِيْتُ السِّلاح في بطن يَأْجِح ، وتخلف عنده جمع من المسلمين نحو مئتين عليهم أوس بن خولي ، ومعه مئة فَرَس ، ودخل عَلَيْتُ والمسلمون مكَّة ، في قمَّة العزَّة ، فهذه العمرة بعد طرد وهجرة وملاحقة ، وبعد قتال

⁽١) موضع قريب من الحرم .

 ⁽٢) الاضطباع الذي يؤمر به الطائف بالبيت أن تدخل الرّداء من تحت إبطك الأين ، وتغطّي به الأيسر كالرّجل الذي يريد أن يعالج أمراً فيتهيّأ له ، يقال : قد اضطبعت بثوبي ، وهو مأخوذ من الضّبع وهو العضد ، [اللّسان : ضبع] .

⁽٣) الغَميز والغَميزَةُ : الضَّعف في العمل ، والغَميزَةُ : العيب ، [اللَّسان : غز] .

وحرب في بدر وأُحُد والخندق ، وهذه العمرة بعد نصر خيبر ، الّذي هزّ وفاجاً القبائل العربيَّة كلُّها بلا استثناء .

وحول الكعبة المشرّفة أخذ المسلمون يرملون الأشواط الثّلاثة ، ويمشون مابين الرّكنين ، ليرى المشركون جَلدتم وقويّهم ، ثمَّ استلم عَيَّلِيَّ الرَّكن ، ثمَّ خرج يهرول ، ويهرول أصحابه معه حتّى إذا واراه البيت منهم واستلموا الرُّكن الياني ، مشى حتّى يستلم الرُّكن الأسود ، ثمَّ هرول كذلك ثلاثة أطراف ومشى سائرها ، فقالت قريش لما رأت هذا الموقف الذي يشعُ قوَّة وعزَّة وفخراً وكرامة : ما يرضون بالمشي ، أما إنّهم لينفرون نفر الظّباء .

ولما قضى عَلَيْكُم في عمرة القضاء ، دخل البيت ، فلم يزل فيه حتَّى أذَّن بلال فوق ظهر الكعبة ، فقال عكرمة بن أبي جهل : لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسبع هذا العبد يقول ما يقول ، وقال صفوان بن أُميَّة : الحمد لله الَّذي أَذهب أبي قبل أن يرى هذا ، أما سهيل بن عمرو ورجال معه ، لما سمعوا بذلك غطّوا وجوههم .

وفي اليوم الرَّابع أمر رسول الله عَلِيتُهُ أَن ينادى بالرَّحيل.

☆ ☆ ☆

نَظَراتٌ وَنَتائِجُ « في غزوة خيبر ، وعمرة القضاء » :

هيًّأ انتصار المسلمين في خيبر ، كا هيًّات عمرة القضاء القلوب عند فتح مكَّة لاعتناق الإسلام ، بما أثاره الإعجاب بنظام المسلمين والتفافهم حول رسول الله يَوْلِيَّة ، ودقة تنظيم حياتهم في صلاتهم ومناسك عمرتهم .. مع تراحمهم وتآلفهم ، ويقينهم في إتمام تبليغ الرِّسالة .

دور المرأة المسلمة في غزوة خيبر: شارك في غزوة خيبر عشرون امرأة ، فيهن صفيّة عمّة رسول الله عليّة ، وأمّ سليم ، وأمّ عطيّة الأنصاريّة ، لماذا شاركن ؟ وماذا عملن وحقّقن ؟

قلن : يا رسول الله ، قد أردنا الخروج معك ، نُعين المسلمين مااستطعنا ، نناول السّهام ، ونسقي السّويق (١) ، ومعنا دواء للجرحى ، ونغبزل الشّعر فنعين به في سبيل الله ، فقال عَلِيّلهُ : « على بركة الله » .

قالت أُمَّ عَطِيَّة الأَنصاريَّة (٢) : كنَّا نغزو مع رسول الله عَلِيَّةِ فنـداوي الجرحى ، وغرِّض المرضى (٢) .

لقد شاركت المرأةُ المسلمة الرَّجلَ المسلم في جهاده أيَّام رسول الله ﷺ ، وتحمَّلت المسؤوليَّة الَّتي تناسب أُنوثتها ، كلُّ ذلك بجوِّ ملائكي من الطُّهر والعفاف من الطَّرفَيْن .

معنويات قريش بعد خيبر: صدم انتصار المسلمين في خيبر قريشاً، وجعلها مذهولة حائرة، ماذا عساها تصنع مع محمّد وصحبه ؟! لقد أيقنت، وأيقن العرب معها، أن لا حيلة لهم في مقاومة هذا الدّين، فسيستسلمون لواقع الأمر، ولم يعد هناك من يفكّر في مناوأة الإسلام من أهل الجزيرة غير شرذمة قليلة من أعراب البوادي، وجعلوا يتعرّضون له كا يتعرّض الغُثاء في طريق السّيل، فيكتسحه السّيل أمامه ثمّ يُلقي به على جوانبه، وكان لا بُدّ لمؤلاء أن تنالهم عصا التّأديب، فكان رسول الله عربي يبعث إلى هنا وهناك سراياه في فرق كفرق الشرطة لتوطيد الأمن، وتمكين الدّعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرّسالة، دون أن ينالهم غدر أو خيانة (٤).

تسامُحُه عَلَيْ بعد تمام الفتح: راهنت قريش والقبائل العربيَّة على انتصار المهود ، وظنُّوا أنَّ اليهود ستنعهم أعدادهم وقلاعهم ، فرهبت ـ بعد انتصار المسلمين في خيبر ـ جانب المسلمين ، فالمسلمون قوَّة يحسب لها حسابها في كلَّ جزيرة العرب .

١) السُّويق : طعام يتَّخذ من الحنطة والشُّعير ، [اللَّسان : سوق] .

⁽٢) اسمها نسيبة بنت الحارث ، كانت من كبار نساء الصّحابة ، وتغزو مع رسول الله عَلَيْكُم ، [أُسد الغابة : ٢ /٣٦٨٧] .

 ⁽٣) الروض الأنف : ٦٦/٤

⁽٤) صور من حياة الرُّسول (بتصرُّف) ، ص : ٤٩٥

وعلى الرَّغ من القضاء على نفوذ اليهود الأدبي والطَّبقي في شبه جزيرة العرب ، تسامح عَلِيْكُ معهم ، فلم يرق دماءهم بعد انتصاره الحاسم ، على الرَّغ من مؤامراتهم وتالفهم وتارعهم بعض العرب ضدَّ المسلمين ، لم يجلهم عَلَيْكُ ، بل ترك لهم الأرض يفلحونها بأنفسهم على أن يُؤدُّوا نصيباً مَّا يُزرع ، وردَّ لهم صحائف التَّوراة الَّتي غنها المسلمون أثناء القتال ، وتزوَّج بنت أحد أشرافهم ، صفيَّة بنت حُييًّ بن أخطب ، وذلك لإزالة البغضاء والحقد بالمصاهرة ، كا زاولوا شعائرهم وطقوسهم بكلِّ حرِّيَة .

ومما يذكر هنا ، على الرَّغ من التَّباين الواضح في القوى المادِّيَّة الظاهرة ، والفارق الملموس من حيث الأَسباب ، انتصر المسلمون ، مما حطَّم معنويات يهود فَدَك ووادي القرى وتياء ، فعاملهم رسول الله عَلَيْلًا بالمبادئ ذاتها الَّتي عامل بها يهود خيبر .

وأدهش عَيْنَ عَطفان واليهود في خيبر في آن واحد ، عندما أوهم عطفان أنّه يريده يريدها ، فعادوا إلى أرضهم وأموالهم وأبنائهم ، وفي الوقت ذاته أوهم خيبر أنّه يريد عظفان ولا يريدهم ، مما أمّن عنصر المفاجأة ، وبخاصّة أنّه عَيْنَ وصل بالمسلمين إلى خيبر ليلاً ، فاستيقظ أهلها والحصار حول حصونهم .

ومما يذكر أيضاً ، لقد أولى عَلَيْكُم الخيلَ عنايته بعد بدر ، فبعد أن كنّا نرى فَرَسَيْن أو أكثر قليلاً في بدر وأحد والخندق ، نرى في غزوة خيبر مئتين من الخيل ، مما يدل على إعطاء الخيل أهيّة من قبل رسول الله عَلَيْكُم ، إما تربية وتكاثراً ، وإما شراءً وتجارة .

وعانى المسلمون من شِدَّة نقص المواد التَّموينيَّة أَثناء حصار حصون خيبر ، حتَّى ذبحوا الْحَمُر الأَهليَّة لأَكلها ، في هذه الحال قَدِم يسار العبد الأسود الرَّاعي وأَسلم ، ثم قال : يا نبي الله إنَّ هذا الغنم عندي أمانة ، فقال له عَلَيْكَةُ : « أُخرجها من عسكرنا وارمها بالحصا ، فإنَّ الله سيؤدِّي عنك أَمانتك » ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى صاحبها

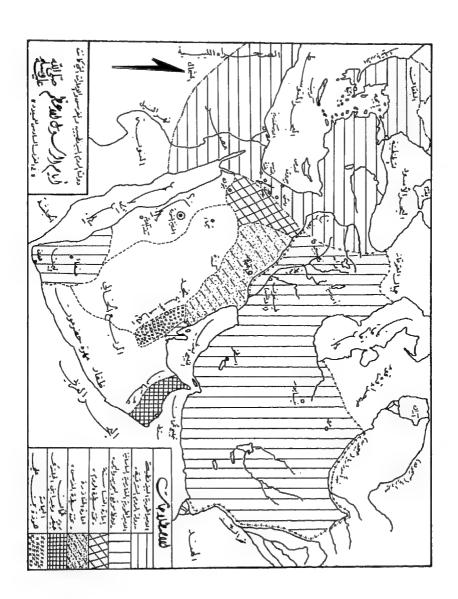
بجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتَّى دخلت الحصن . هذه الأمانة النَّادرة في هذه الظُّروف القاسية ، تجعلنا نقف وقفة إعجاب واحترام أمام الوفاء والأمانة .

وفي عمرة القضاء: دخل على مكنة بعد نصره في خيبر، أي بعد أن دوَّى هذا النَّصر في كلِّ أَرجاء الجزيرة العربية، وفي خارجها، دخل على المحرامة العائد العزيز، بعد أن كان المطلوب المطارد عند الهجرة.

ووقف بلال رضي الله عنه ـ العبد الرَّقيق قبل الإسلام ـ فوق الكعبة ، يعلن أذان الظهر ، فدهشت قريش ورجالاتها ، بلال العبد فوق الكعبة ؟! وكيف يقع هذا ؟ إنَّ الإسلام رفعه ، ليعلن من فوق الكعبة المشرَّفة أمام أعين قريش وعلى مسامعها : الله أكبر ، لاإله إلاَّ الله ، محمَّد رسول الله . وهذا الموقف أحرج قريشاً أمام عبيدها وأحابيشها ، فكان نصراً آخر في مجال تحرير العبيد ، وخطوة فعَّالة لدخولهم في الإسلام .

لقد انتصر رسول الله عَيَّالَةُ بالتَّخطيط والحكمة ، وبربط الحوادث بأسبابها ، وقرب بعد خيبر وعرة القضاء اليومُ الَّذي سيوحَّد جزيرة العرب فيه ، وحدة أمن ومحبَّة وإخاء ، فلا عصبيَّة إلاَّ للحقِّ ، ولا تحيَّز إلاَّ للخير ، ولا تضامن إلاَّ مع العدالة والمساواة ، وعندها نُقِلت الأُمَّة العربية من التَّبعيَّة إلى التَّحرير ، ومن هامش حياة الشُّعوب إلى جوهر حياتها ولبابه ، ومن ذلَّ إلى عزَّة ، ومن عذاب إلى نعيم ، ومن هاوية إلى فَّة ، ومن الحق والأوثان إلى الحكمة والإيمان ، ومن اللاَّمبالاة إلى كامل المسؤوليَّة .

4 4 4



كُتُبُ رسول الله ﷺ وغزوة مؤتّة

الكُتُبُ :

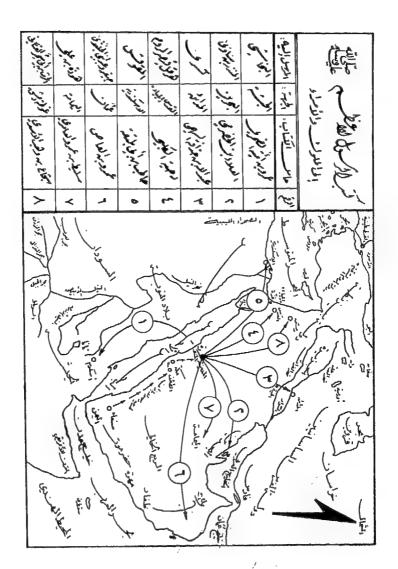
قام عَلَيْ ذات يوم على المنبر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه وتشهّد ثمّ قال : « أمّا بعد ، إنّ الله بعثني رحمة وكافة ، فأدّوا عنّي يرحم الله ، فإنّي أريد أن أبعث بعضم إلى ملوك الأعاجم .. » (() . فقيل : « يا رسول الله ، إنّهم لا يقرؤون كتاباً إلاّ إذا كان مختوماً » ، أي ليكون في ذلك إشعار بأنّ الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن يكون ممّا لا يطلع عليها غيرهم ، ويكون الغرض من ذلك أيضاً أمن التّزوير ، لعدم إمكان وقوعه مع الختم ، فاتّخذ عَرَا في خاماً من فضة ، عليه ثلاثة أسطر : محمّد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر ، والله فوق ، وكانت الكتابة مقلوبة لتكون على الاستواء إذا ختم ورسول في الوسط ، والله فوق ، وكانت الكتابة مقلوبة لتكون على الاستواء إذا ختم بها ، فكان ذلك الخاتم في يده عَرَا في يد أي بكر ، ثمّ في يد عمر ، ثم في عمان ، فلم يجدوه .

أرسل عليه الكتب التالية:

١ ـ إلى النّجاشي ملك الحبشة ، وحمل الكتاب عمرو بن أميّة الكناني الضّري .
 وكان ردّ الفعل إسلام النّجاشي ، وردّ ردّاً حسناً .

⁽١) ابن هشام : ١٨٨/٤ ، السّيرة الحلبيّة : ٢٧٠/٣ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٥٠٧/٣ ، البداية والنّهاية :

⁽٢) بئر أريس : هي بئر معروفة ، قرب مسجد قُباء ، [معجم البلدان : ٢٩٨/١] .



٢ ـ إلى المنذر بن ساوَى أمير البحرين ، وحمل الكتاب العلاء بن الحضرمي ، فأسلم المنذر وحسن إسلامه .

٣ ـ إلى كسرى (أبرويـز بن هرمـز) ، وحـامـل الكتـاب عبـد الله بن حـذافـة

السَّهمي ، مزَّق كسرى الكتاب وقال : يكتب إليَّ وهو عبدي (١) ؟! فلما بلغ ذلك رسول الله عَيِّلِيَّةٍ قال : « مزَّق اللهُ ملكه » .

٤ - إلى قيصر (هرقل) ملك الرَّوم ، وحامل الكتاب : دَحْيَة بن خليفة الكلبي ، قال هرقل لدحية : والله إنِّي لاَّعلم أنَّ صاحبك نبيًّ مُرْسَل ، وإنَّه الَّـذي كنَّـا ننتظر ، ونجده في كتابنا ، ولكني أخاف الرَّوم على نفسي ، ولولا ذلك لاتَّبعته .

ه ـ إلى المقوقس حاكم مصر ، وحمل الكتاب حاطب بن أبي بَلْتَعَـة ، فرد ردّاً جميلاً وبعث بعض الهدايا (٢) .

٦ - إلى جَيْفَر وعَبْدِ ابنَيْ الْجَلَندَى ملكَيْ عُهان ، حمل الكتاب عمرو بن العاص ،
 فأجابا إلى الإسلام .

٧ - إلى هَوْذَة بن علي الحنفي صاحب اليامة ، حمل الكتاب سليط بن عرو العامري ، فرد هوذة ردّاً لطيفاً : « ماأحسن ماتدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر أتّبعك » .

٨ ـ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني ، وحمل الرِّسالة شُجاع بن أبي وهب الأسدي ،
 قال الحارث : « من ينتزع منّى ملكي أنا سائر إليه ، ولو كان بالين جئته » .

وهذه الرَّسائل من الأَّدلة الكثيرة الَّتي تثبت (عالميَّة الإسلام) .

\$ \$ \$

غزوة مؤتة « غزوة جيش الأمراء » :

أُسبابها: بعث رسولُ الله عَلِيلَةِ الحارثَ بن عُمَير الأزدي إلى ملك بُصْرى (٢)

⁽١) السُّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٥٠٨/٣

 ⁽٢) بعث جاريتَيْن : مارية وشيرين ، وكسوة ، والبغلة دُلْدُل الَّتِي بقيت إلى زمن معاوية .

⁽٢) بُصْرى : بلدة بالشَّام من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران ، [معجم البلدان : ٢١/١] .

بكتاب ، فلما نزل مؤتة (١) ، عرض له شُرَحبيل بن عمرو الغسّاني ، وهو من أمراء قيصر على الشّام ، فقال : أين تريد ؟ لعلّك من رسل محمد ؟ قال الحارث : نعم ، فأوثقه ، ثمّ قدّم شُرحبيل الحارث فضرب عنقه ، ولم يُقْتَل لرسول الله عَيْنِيَةٍ رسولٌ غيره ، فلما بلغ رسول الله عَيْنِيَةٍ ذلك اشتدّ الأمر عليه ، فجهّز جيشاً لِيُسَيِّره إلى مؤتة ، وهدفه :

١ ـ تأديب عامل هرقل على بُصْرى ، الّذي قتل رسولَ رسولِ الله .

٢ _ وقتل رسول رسول الله تحدّ صريح واعتداء مباشر على الإسلام ، عندما كان يركّز دعائمه في أرجاء الجزيرة العربيّة ، وهذا الاعتداء الصّريح قلّل هيبة الإسلام في نفوس الأعراب الّذين أذعنوا له بسبب قوّته وهيبته ، والإسلام حريص على بقاء هذه الهيبة ، والسّكوت عن قتل الحارث يُزعزع الأعراب ، ويهدّ لتجرّئهم على المسلمين وسراياهم ، فإرسال سريّة مؤتة ، يحفظ للإسلام هيبته في نفوس الأعراب .

" - وكان على رسول الله عَلَيْتُ وقد أسمع صوته إلى أمّته العربيّة أن يُشمع صوته إلى كلّ أمم الأرض ، وكان من الطّبيعي أن يبدأ بمن حوله من المالك ، فقد كانت هذه البلاد تربطها بالعرب صلات ، وكانت لها مدنيّات جديرة بأن يهذبها الإسلام ، ويصلح مافيها من فساد ، حتّى تكتمل حضارتها ، وليستقيم عوجها (١) .

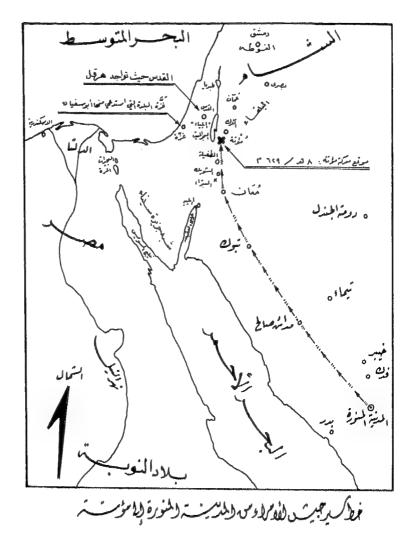
من دستور الحرب في الإسلام: سيَّر عَلِيَّة جيشه إلى مؤتة في جمادى الأولى من سنة ثان (٢) ، واستعمل عليه وهو ثلاثة آلاف مجاهد زيد بن حارثة ، وقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على النَّاس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على النَّاس »(٤) .

⁽١) مؤتة : من قرى البلقاء ، [معجم البلدان : ٢٢٠/٥] ، وهي اليوم بلدة فيها جامعة باسمها ، وتقع شرق البحر الميت ، جنوبي الكرك .

⁽٢) صور من حياة الرَّسول (بتصرُّف) ، ص : ٤٩٧

⁽٣) الموافق أيلول (سبتبر) ٦٢٩ م ، الاكتفا: ١٣٥/١ ، السيّرة الحلبية: ٧٦/٣ ، ابن خلدون: ٤٠/٢ ، السيّرة ابن سعد: ١٠٨/٢ ، ابن هشام: ٧/٤ ، عيون الأثر: ١٥٣/٢ ، الكامل في التّاريخ: ١٥٨/٢ ، السيّرة النّبوية لابن كثير: ٣٥٥/٣

⁽٤) الطّبري : ٣٦/٣ ، ابن خلدون : ٤٠/٢



فتجهّز النّاس ، ثمّ تهيّاً واللخروج . وبالْجُرُف (١) حيث عسكروا وتجمّعوا ، عقد لهم رسول الله عَيْنِينَ لواءً أبيض ، ودفعه إلى زيد بن حارثة ، وأمرهم أن ياتوا مقتل الحارث بن عَمَير ، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلاّ استعانوا عليهم

⁽١) الْجُرُّفُ : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشَّام ، [معجم البلدان : ١٢٨/٢] ، والميل الشَّرعي : ١٨٤٨ م طول .

بالله وقاتلوهم ، ولما خرج الجيش وانطلق شالاً ، خرج عَلَيْكُ مشيّعاً حتّى بلغ ثنية الوداع (١) ، فقال : « زيد بن حارثة أمير النّاس ، فإن قُتِل زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن قُتِل عبد الله بن رواحة أبي طالب ، فإن قُتِل عبد الله بن رواحة فليَرْتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم »(١) .

وعند ثنية الوداع قال عَلَيْكُم للجيش: «أُوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشّام ، وستجدون فيها رجالاً في الصّوامع معتزلين فلا تتعرّضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تهدموا بناءً »(٢).

وصيَّة تضَّنت قمَّ الإنسانيَّة والرُّحة ، بحقِّ المدنيِّين وبمتلكاتهم ، فلا غدر ، ولا قتل أطفال ، ولا هدم بيوت ، مع احترام للنساء والشَّيوخ ، وحفاظ على البيئة : « ولا تقطعوا شجرة » .

ولما غادر جيش الأمراء المدينة المنورة ، سمع الرَّوم والعرب بمسيره فجمع شرَحبيل بن عمرو عدداً كبيراً من العرب ، وقدَّم الطَّلائع أمامه تجاه معان وقد نزلها المسلمون ، وبلغ هرقل خبر جيش المسلمين ، فأرسل جيشه (٥) الَّذي جاء معه قاصداً القدس للحج .

وهكذا .. سار الرُّوم وعليهم ابن أبي شِبْرَة (٦) الغسَّاني ، وسار معهم من انضمَّ إليهم

⁽١) ثنيّة الوَداع: وهي ثنية مشرفة على المدينة .. ، [معجم البلدان: ٨٦/٢] .

⁽٢) الطّبقات الكبرى لابن سعد : ١٢٨/٢ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٥٥٥/٣

 ⁽٣) السّيرة الحلبيّة : ٧٧/٣ ، السّيرة النّبويّة والأثار المحمّديّة : ٢٧٠/٢

⁽٤) قدّرت المصادر العربيّة عدد العرب بئة ألف مقاتل ، وهذا رقم على الأرجح مبالغ فيه .

⁽٥) كا قدّرت المصادر العربيّة عدد الرُّوم بمئة ألف أيضاً ، ويمكن القول : لاشك أنْ عدد العرب والرُوم كان أضعاف عدد جند المسلمين .

⁽٦) الشَّبْرَةُ: العطيَّة ، [اللَّسان : شبر] .

من العرب ، وعليهم مالك زافلة (١) ، وسار الرَّوم والعرب بحشد كبير عظيم نزل مُعان . ولكن لماذا هذا الْجَمْع كلَّه ؟

أهو الفزع من قوّة المسلمين الخارقة ، والّتي ارتجت لها أرجاء جزيرة العرب ؟ والّتي لم تستطع قوّة جيش الأحزاب مجتمعة أن تنال منها .

أم هي سمعة المسلمين المنتصرة على حصون اليهود على مناعتها وقوَّتها ؟ تلك الحصون الّتي لم تثبت أمامهم على الرّغ من قلّة المسلمين وكثرة اليهود وعُدَدِهم ومؤونتهم واستعداداتهم .

أم هي دعوة رسول الله ﷺ هرقل _ وملوك عصره وأمرائه _ إلى اتباعه ، وهرقل في أوج انتصاره على الفُرْس ، فتصوَّروا أنَّ قوَّة لا قبل لهم بها قد جاءت إليهم ؟

والجواب المعقول: إنَّ التَّساؤلات الثَّلاثة مجتمعة هي السَّبب في هذا الحشد الضَّخم الَّذي سيواجهه ثلاثة آلاف من المسلمين فقط.

بلغ المسلمين جمع الرَّوم والعرب ، فأقاموا على مُعان ليلتَيْن اثنتين ينظرون في أمرهم ، فقال بعضهم : نكتب إلى رسول الله عَلَيْ نخبره بِعَدَد عدوِّنا ، فإمَّا أَن يَمُدَّنا بالرِّجال ، وإمَّا أَن يأمرنا بأمره فنضى له .

وشجَّع النَّاسَ عبدُ الله بن رواحة وقال : يا قوم ، والله إنَّ الَّتي تكرهون للَّتي خرجتم تطلبون ، الشَّهادة ، وما نقاتل النَّاس بعدد ولا قوَّة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلاَّ بهذا الدِّين الَّذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنَّا هي إحدى الْحَسْنَيَيْن ، إما ظهورٌ وإما شهادة ، فقال النَّاس : قد والله صدق ابن رواحة ، فمضى النَّاس (٢).

⁽١) الزُّفل والأزفلة : الجماعة من النَّاس ، [اللَّسان : زفل] .

⁽٢) ابن هشام : ٩/٤ ، ابن خلدون : ٤١/٢ ، الاكتفا : ١٣٥/١ ، طبقات ابن سعد : ١٢٩/٢ ، السّيرة الحلبيّة : ٢٧/٢ ، عيون الأثر : ١٥٤/٢ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٢٥٩/٣ ، الطّبري : ٣٧/٣

تقدّم المسلمون ، حتّى إذا كانوا بتخوم البَلْقاء ، لقيهم الرَّوم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها : مَشارف ، ثمَّ دنا العدوُ ، فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة ، فالتقى الجمعان عندها .

رسول الله عَلِيلًا يَصِفُ المعركة: « الآن حَمِيَ الوَطيسُ »: صعد عَلَيلًا المنبر في المدينة المنورة، وأمر فنودي « الصّلاة جامعة »، ونظر المسلمون إليه فإذا بعينيه تذرفان، فعلموا أنَّ أمراً عظياً وقع أحزن رسول الله عَلِيلًا .

قال عَلِيْتُهُ ، بعد أن كشف الله له مابينه وبين الشّام ، فهو ينظر إلى ميدان المعركة ، وهذا ما يُسَمَّى في علم الرُّوح الجلاء البَصَري ، فقال : « أُخبر مَ عن جيشكم هذا ، إنهم انطلقوا فلقوا العدوَّ ، أُخذ الرَّاية زيد بن حارثة فقاتل بها حتَّى قُتِل شهيداً ، ثمَّ أُخذها جعفر فقاتل بها حتَّى قُتِل شهيداً ، استغفروا لأخيكم فإنَّه شهيد دخل الجنَّة ، وهو يطير في الجنَّة بجناحين من ياقوت حيث شاء من الجنَّة » ، ثم صمت رسول الله عَلَيْتُهُ برهة حتَّى تغيَّرت وجوه الأنصار ، وظنُّوا أنَّه قد كان في عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون .

ثمَّ قال عَلِيْكَ : « أُخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتَّى قُتِل شهيداً » (١) ، فكبَّر الأُنصار حتَّى ارتجَّت جنبات المسجد النَّبوي الشَّريف طرباً وسروراً بهذا الفوز الكبير ، وبهذا الشَّرف العظيم .

ثمَّ قال عَلَيْهُ : « أَخذ الرَّاية سيف من سيوف الله حتَّى فتح الله عليهم ، اللَّهم إنَّه سيف من سيوفك ، أَنت تنصره ، بابُ خيْرٍ ، بابُ خير ، الآن حَمِيَ الوطيس »(٢) ، فن يومئذ سُمِّي خالد (سيف الله) .

⁽۱) الطّبري : ۲۱/۳ ، عيون الأثر : ۱۵۰/۲ ، السّيرة النّبويّــة لابن كثير : ۲۲۳/۳ ، ابن هشـــام : ۱٤/٤ ، الكامل في التّاريخ : ۲۰۲۲

⁽٢) أي حميت الحرب واشتدّت ، والوطيس : التّنور ، [اللّسان : وطس] .

ارتداد خالد رضي الله عنه: استشهد ابن رواحة مساء (۱) ، فأخذ الرَّاية خالد بن الوليد ، فبات يحكم خطِّته لتدارك الموقف غير المتوازن ، فقام بالأَعمال التَّالية ، ليضن ارتداداً مأموناً لا خسائر فيه:

١ ـ جعل الخيل طيلة اللَّيل بحركة دائمة تجري بحركة دائريَّة ، مُصْدِرة أصواتاً ، ومثيرة غباراً كثيفاً .

٢ ـ وجعل مقدّمة الجيش ساقته ، وساقته مقدّمته ، ومينته ميسرة ، وميسرته مينة ، فأنكر الرَّوم في صباح اليوم التَّالي ماكانوا يعرفون من رايات المسلمين وهيئتهم ، وقالوا : قد جاءهم مَدَدٌ ، فهبطت معنوياتهم ، ورعبوا رعباً شديداً .

٣ - كما جعل ـ رضي الله عنه ـ طائفة من الجيش يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة
 عند طلوع النّهار ، ونشر الجند على طول جبهة عريضة ، فكادت تملأ الأفق .

٤ ـ وشكِّل مؤخَّرة قويَّة لحماية الانسحاب ، ولتثبيط مطاردة العدو إن حصل .

٥ ـ وجعل هدفه ـ منذ الصّباح ـ ارتداداً مأمون العواقب ، فبداً بتراجعه شيئاً فشيئاً ، فظن الرّوم والعرب أنّه يستدرجهم إلى الصّحراء .

لقد استطاع خالد بن الوليد رضي الله عنه تحقيق انسحاب مدروس منظم ، مع حماية دقيقة لمؤخرة الجيش ، وإلا لانقلب الانسحاب إلى هزية منكرة ، وخسائر كبيرة ، وكارثة محتلة ، فالارتداد المأمون « أصعب من النّصر في بعض المآزق ، لأنّ النّصر ميسور مع اجتاع العدّة ، واحتال الشّدة فيه ، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكلّ من يريده وهو في أضعف الموقفين ، إلا أن تكون له _ للقائد _ خبرة القيادة

⁽۱) وفي تردّد ابن رواحة نظر ، لم يذكر البيهقي ، ولا موسى بن عقبة ، ولا المقريزي في إمتاع الأساع ، ولا ابن سمد في الطّبقات الكبرى هذا التردّد . وضعّفه ابن كثير وقال : إنّ ابن إسحاق ذكره منقطع السّند .

تكافئ الرجحان في قوَّة العدوِّ الَّذي يرتد بين يديه »(١)

☆ ☆ ☆

ملاحظات:

إن استشهاد الأمراء الثّلاثة شرف كبير لهم أوّلاً ، وإرسال جيش مؤتة أمرّ لابدً منه ثانياً ، لابدً منه لإعلام الأعراب والرّوم على حدّ سواء ، أن الإسلام حريص على ألا تُنتقص هيبته في أيّة ناحية ، فالسّكوت عن قتل رسول رسول الله الحارث بن عُمير الأزدي على يد شُرَحبيل بن عمرو الغسّاني قبول بتطاول ستكون أصداؤه سيئة بسمعة المسلمين ، وقبول بانتهاك حرمة الإسلام بشخص سفيره الحارث ، ستكون عواقبه حرجة حسّاسة ، فسيشعر من خلال ذلك _ الأعراب والرّوم _ أنّ الإسلام يكن النّيل منه بسهولة دون عقاب .

إنَّ قرار رسول الله عَيْسَةُ بإرسال جيش الأُمراء إلى مؤتة حيث قُتِلَ الحارث بن عُمَير الأَرْدي ، إرسال جيش لتأديب مُعْتَد ، وغسل لما لحق بالسلمين من مهانة في شخص سفيرها ، وأَمام هذا الواقع لابُدَّ من التَّضحية ، ولا تنهض أُمَّة ولا تَسُود ، ولا ينتشر مبدأ ولا يُعْتَنَق إلاَّ بتضحيات ، وبخاصة وأَنَّ النتائج المحققة أعظم من التَّضحية ، فن استشهد أكرمه الله بمجد الشَّهادة وعزَّها ، وبكرامة قربه مع الأنبياء والصدِّيقين ، ومن عاش ، عاد بعزَّة وكرامة وهيبة الجانب ، لذلك اعتبر المؤرِّخون مؤتة نصراً للمسلمين واضحاً ، لإحاطة العدو بهم ، وتكاثر الأعراب والرُّوم عليهم ، فكان مقتضى العادة والحال هذه ، أن يُقْتَلُوا بالكلِّية .

☆ ☆ ☆

⁽١) صور من حياة الرَّسول ، ص : ٢٠٥

فَتْحُ مكَّة « الفتح الأَعْظَم »

فتح مكّة في العشرين من رمضان سنة ثمان للهجرة ، يعني انتقال العرب من القبائليّة والعشائريّة ، إلى الأمّة الواحدة العالميّة المُحَرَّرة والمُحَرَّرة ، ومن الجاهليّة والوثنيّة والأصنام ، إلى التوحيد المطلق لله عزّ وجل وحده ، ومن حجاز ونجد وعسير ، إلى إفريقية وأندلس وصن ..

أسباب الفتح:

كان من بنود صلح الحديبية أنَّه من شاء أن يدخل في عَقْد مُمَّد ـ عُرَاعة : نحن دخل ، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل ، فقالت قبيلة خزاعة : نحن ندخل في عقد مَمَّد وعهده ، « خزاعة في عقده ـ عُرَاعة في عقده ـ عُرَاعة في عقد عَمَّد وعهده : نحن ندخل في عقد قريش وعهدها .

وظنَّت قريش وحلفاؤها من اللهبائل ، أنَّ قدرة المسلمين العسكريَّة الَّتي اكتسبوها

⁽١) ابن خلدون : ٢٠/١ ، وهذا الاختيار من قبل خزاعة وبني بكر له أسبابه التّاريخيّة ، لقد كانت خزاعة حلفاء عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله عَلَيْتُ ، وذكر ابن إسحاق : خرج ابن عبّاد من بني الحضرمي حلفاء الأسود بن رِزْن تاجراً ، فلما توسّط أرض خزاعة ، عَدَوْا عليه فقتلوه _ في الجاهلية قبيل الإسلام _ وأخذوا ماله ، فَعَدَت بنو بكر على رجل من بني خزاعة فقتلوه ، فَعَدَت خزاعة على بني الأسود بن رِزْن ، وهم مفخر بني كنانة وأشرافهم ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الْحَرَم . فبينا بنو بكر وخزاعة على ذلك ، إذ حجز بينهم الإسلام ، فلمّا كان يوم الحديبية ، دخل بنو بكر في عقد قريش ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله عليه .

بعد الخندق ، وهيبتهم الّتي حقّقوها بعد خيبر قد انهارتا بعد مؤتة ، فما الّذي يمنع أن تعود الأُمور إلى ماكانت عليه قبل الحديبية ؟! ومن يقف دون ذلك ، وها هي قدرة المسلمين العسكريّة القتاليّة تفشل - برأيهم - في مؤتة ؟! فإلى حرب جديدة دون خشية قصاص رادع ، لقد خُيّل للفرسان الشّباب من قريش ، أن فرصة جديدة سنحت لاستئصال رسول الله عَلِيليّة والمسلمين ، فحرّضوا حلفاءهم من بني بكر ليصيبوا ثاراً قديماً من خزاعة حلفاء رسول الله عَلِيليّة ، وأمدّوهم بالسّلاح والرّجال .

لقد خرقوا بنود الحديبية ، لكنهم لم يقدّروا الموقف تقديراً سليماً ، وظنُّوا أنَّ كلُّ شيء ممكن بعد مُؤتة .

خرج نوفل بن معاوية مع قومه من بني بكر ، وأرادوا أن يصيبوا ثاراً من خزاعة ، فوثبوا عليها ليلاً عند ماء يقال له الوتير (۱) ، وقالت قريش مؤيّدة راضية : ما يعلم بنا محمّد ، وهذا اللّيل ، وما يرانا من أحد ، وأعان صفوان بن أميّة ، وشيبة بن عثمان ، وسهيل بن عرو ، وحويطب بن عبد العزّى ، وعكرمة بن أبي جهل بني بكر بالرّجال والسّلاح ، وقاتلوا معهم ، حتّى ساقوا خزاعة إلى الحرم ، ولجأت خزاعة إلى دار بّديل بن ورقاء الخزاعي بمكّة (۱) .

وبعد هذا الخرق الواضح لبنود صلح الحديبية ، ركب عمرو بن سالم الخزاعي ، في أربعين راكباً من خزاعة ، وأعلم رسول الله عليه على عمرو بن سالم » ، ودمعت عينا رسول الله ، وقال : « لا نُصِرت أن لم أنصر بني كعب ـ يعني خزاعة ـ عما أنصر به نفسي وأهل بيتي ، ولأمنعنهم مما أمنع منه نفسي ، خزاعة مني وأنا منهم » .

⁽١) الوّتير : اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة ، [معجم البلدان : ٣٦٠/٥] .

⁽٢) لأسباب فتح مكة ، انظر : البداية والنّهاية : ٢٧٨٤ ، ابن خلدون : ٢١/١ ، الطّبري : ٢٢/٣ ، عيون الأثر : ١٦٣/٢ ، الكامل في التّاريخ : ١٦١/٢ ، طبقات ابن سعد : ١٣٤/٢ ، الرّوض الأنّف : ١٧٤٠ ، ابن هشام : ٢٢/٤ ، السّبرة النّبويّة لابن كثير : ٢٦/٣

وقدم إلى المدينة المنوَّرة أيضاً بديل بن ورقاء الخزاعي - وكان مشركاً - على رأس كوكبة من خزاعة ، وأخبر رسول الله على أصيب منهم ، ومظاهرة قريش بني بكر عليهم ، فقال عليهم : « ارجعوا فتفرَّقوا في الأودية » ، ليخفي على جميئهم إليه ، وأمر النَّاسَ بالجهاز ، وكتمهم جهة خروجه وقصده ، وسأل الله أن يعمي على قريش خبره ، حتَّى يفاجئهم في بلادهم (١) .

أبو سفيان أدرى بما جَرى: وجاء الحارث بن هشام إلى أبي سفيان ، وأخبره بما فعل القوم ، فقال أبو سفيان : هذا أمر لم أشهده ، ولم أغب عنه ، وإنّه لشرّ والله ، ليغزونا محمّد .

وقيل: لا يغزوكم محمَّد حتَّى يخيركم في خصال كلها أهون من غزوه ، يرسل إليكم أن أدُّوا قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً ، أو تبرَّؤوا من حلف بني بكر ، أو ننبذ إليكم على سواء ، فقال سهيل بن عمرو: نبراً من حلفهم أسهل ، وقال شيبة بن عثان: ندي القتلى أهون ، ثمَّ قالوا لأبي سفيان: ما لها سواك ، اخرج إلى محمَّد فكلَّمه في تجديد العهد، وزيادة المدَّة.

والملاحظ أنَّ مدَّة الهدنة لم تنقض بعد ، ولم يقترب أجلها ، لقد وُقعت في ذي القعدة ٦ هد ، واعتداء بني بكر وقريش على خزاعة كان أواخر شعبان من سنة ٨ هد ، لقد انقضى حوالي عشرون شهراً عليها فقط ، ومدَّتها د كا مرَّ في صلح الحديبية د عشر سنوات ، فالصَّلح واقع ، وبنوده نافذة ، فلماذا إذن إرسال أبي سفيان لتمديد الصَّلح ؟ إنَّه أدرى بما فعله قومه .

⁽١) وفي القانون الدُّولي العام اليوم: « ومفاجأة العدو بالهجوم ليلاً ، أو في أنواء صعبة ، أو في مواقع لا يتوقّع الهجوم منها ، من الخدع الحربية المشروعة في قانون الحرب الدَّولي العام » ، « ومشروع أيضاً التَّخفي والاستتار عن أنظار العدو ، وأخذه على حين غرّة » ، [الحرب في القانون الدُّولي العام ، ص : ١١٣ و ١١٤] .

أبو سفيان في المدينة: وقدم أبو سفيان إلى المدينة المنوّرة، ودخل على ابنته أمّ حبيبة زوج رسول الله على الله على أراد أن يجلس على فراش بيتها، وهو فراش رسول الله على الفراش، فقال على الفراش، أو رغبت به عنى ؟!

فقالت أمَّ حبيبة الَّتِي قارب الإيان بينها وبين رسول الله عَلِيْ والمسلمين ، وباعد الشَّرك بينها وبين أبيها : هو فراش رسول الله عَلِيْ ، وأنت مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراشه ، فقال أبو سفيان : يا بنيَّة ، والله لقد أصابك بعدي شَرَّ ، فقالت : بل هداني الله تعالى للإسلام ، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يُبثور ، واعجباً منك با أبت وأنت سيد قريش وكبيرها ! فقال : أنا أترك ماكان يعبد آبائي وأتبع دين عمَّد ؟!

ثمَّ خرج أبو سفيان حتَّى أتى رسول الله عَلَيْكُ وقال : يا محمَّد ، إنِّي كنت غائباً في صلح الحديبية ، فاشدد العقد ، وامدد العهد ، وزدنا في المدَّة ، فقال عَلَيْكُ : « ولذلك قدمت ؟ هل كان من حدث قِبَلكم ؟ » ، فقال أبو سفيان : معاذ الله ! نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية ، لا نغير ولا نبدًل ، فقال عَلَيْكُمْ : « فنحن على مُدَّتِنا وصلحنا » .

ثمَّ ذهب أبو سفيان إلى أبي بكر الصِّدِيق رضي الله عنه ، فكلَّمه رجاء التَّوسَّط عند رسول الله عَيِّسَةِ ، وقال له : جَدِّ العقد ، وزدنا في المدَّة ، فقال أبو بكر : ماأنا بفاعل ، جواري في جوار رسول الله عَيِّسَةٍ ، والله لو وجدت الذَّر تقاتلكم ، لأعنتها عليكم (٢) ، وهذا الجواب منطلق من عزم رسول الله عَيِّسَةٍ نصر خزاعة بعد الغدر بها وانتهاك بنود الصَّلح .

⁽١) خطبها عَلِيَّةِ وهي مهاجرة في الحبشة ، وأمر النجاشي أن يزوجه منها ويرسلها ومن عنده من المسلمين على سفينتيْن ، ففعل ، ووصلوا جميعاً ورسول الله يفتح خيبر ، ولما عَلِمَ أبو سفيان بزواجه عَلِيَّةِ من ابنته أمَّ حبيبة ، قال في حسرة : هذا الفحل لا يُجْدَعُ أَنْفُهُ .

⁽٢) الذَّرُّ : النَّمل ، وهنا مبالغة ، لأنَّ الذَّرُّ لا يُقاتل .

وذهب أبو سفيان إلى عمر ، وعثان ، وعلي ، وسعد بن عبادة ، وكل يقول : جواري في جوار رسول الله عليه ، ما يجير أحد عليه ، فركب بعيره وانطلق إلى مكة ، وقال عليه : « اللّهم خذ على أساعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ، ولا يسمعوا بنا إلا فجأة » (١) .

«الرّاجِع بسخطه»: وانطلق أبو سفيان حتّى قدم على قريش وقد طالت غيبته، واتّهمته قريش أنّه صَبّاً واتّبع محمّداً سِرّاً وكم إسلامه، وسألته قريش: ماوراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمّد أو عهد ؟ قال : لا والله ، لقد أبى عليّ ، وقد تتبّعت أصحابه فما رأيت قوماً لملك عليهم أطوع منهم له ، جئت محمّداً فكلّمته ، فوالله ماردً عليّ شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة فوالله ما وجدت فيه خيراً ، ثم جئت عر فوجدته أين القوم ، وقد أشار عليّ بأمر صنعته ، فوالله ما أدري هل يغني عنّا شيئاً أمْ لا ؟ قالوا : بماذا أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين فوالله ما أدري هل يغني عنّا شيئاً أمْ لا ؟ قالوا : بماذا أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين النّاس ، ففعلت ، قالوا : هل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا والله ما وجدت غير ذلك ، الرّجل على أن لعب بك ، فما يغني عنّا ما قلت ؟ فقال : لا والله ما وجدت غير ذلك ، فقالوا : رضيت بغير رضى ، وجئتنا بما لا يغني عنّا ولا عنك شيئا ، وإنّا لعب بك عليّ لعمر الله ! ما جوارك بجائز ، وإنّ إخفارك عليهم لهيّن (٢) .

وقالوا : ماجئتنا بحرب فنحذر ، ولا صلح فنأمن .

ثمَّ دخل على امرأته هند بنت عتبة فحدَّثها بما جرى ، فقالت : قُبِّحتَ من رسول قوم ، فما جئت بخير ، فلما أصبح حَلَقَ رأسه عند أساف ونائلة ، وذبح عندهما البُدُن ، ومسح رأسيها بالدَّم ، ليدفع عنه التَّهمة ، أنَّه قد صبأ .

⁽١) السّيرة النّبويّة لابن كثير: ٥٣٤/٣ ، السّيرة الحلبيّة: ٨٥/٣

 ⁽۲) ابن هشام : ٤٧/٤ ، الاكتفا : ١٣٨/١ ، الطبري : ٤٧/٣ ، البداية والنّهاية : ٢٨١/٤ ، ابن خلدون :
 ٤٢/٢ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٥٣١/٣

حاطِب بن أبي بلتَعة :

وعندما قرَّر عَلَيْكُ المسير ، أخبر صحابته أنَّ غايته مكَّة ، وقال : « اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتَّى نبغتها في بلادها ، اللّهم خذ على أساعهم وأبصارهم فلا يرونا إلاَّ بغتة ، ولا يسمعون بنا إلاَّ فجأة » ، ثمَّ أمر عَلِيْكُ بالطَّرق فحبست فعمَّى على أهل مكَّة لا يأتيهم خبر .

ولكن حاطب بن أبي بلتعة (١) ، كتب كتاباً إلى ثلاثة من قريش ، وه : سهيل بن عمرو ، وصفوان بن أُميَّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله عليه من الأمر في السير إليهم ، ثمَّ أعطاه لامرأة مشركة اسمها سارة (١) ، جاءت المدينة تسترفد ، وجعل لها جُعُلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ، ثمَّ خرجت به ، وقال لها موصياً : اخفيه ما استطعت ، ولا عَرِّي على الطَّريق ، فإنَّ عليه حُرَّاساً .

وأطلع الله رسوله على ذلك ، استجابة لدعائه على يألي ، وإمضاء لقدره في فتح مكّة ، فبعث على بن أبي طالب ، والزّبير بن العوّام ، والمقداد بن الأسود ، وقال : « أدركوا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذّرهم ماقد أجمعنا له من أمرهم .. انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ (٢) ، فإنّ بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها » . وعادوا بالكتاب لرسول الله على أهدعا حاطباً وقال : « أتعرف هذا الكتاب ؟ » قال : نعم ، فقال على الله على على حاطب ، ماحملك على

⁽١) حاطب بن أبي بلتعة ، شهد بدراً والحديبية ، أرسله ﷺ إلى المقوقس ، توفي سنة ثلاثين عن خمس وستين سنة ، [أسد الغابة : ٢٦١/١] .

⁽٢) سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ، كانت مغنية بمكّة ، ولما جاءت المدينة تسترف دادّعت الإسلام ، ثمّ ارتدت ، فهي بمن أهدر دمه عند فتح مكّة ، وعلى هامش الاكتفا : ١٣٨١ : وجعل لها عشرة دنانير على ذلك ، وقيل : ديناراً واحداً .

⁽٣) روضة خاخ : موضع قرب حراء الأسد بالمدينة ، [معجم البلدان : ٣٣٥/٢] .

هذا؟ »، فقال حاطب: لا تعجل علي يا رسول الله ، إنّي كنت امراً ملصقاً من قريش ، ولم أكن من أنْفَسها ، وكان مَنْ معك مِن المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكّة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النّسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني ، أما والله ماارتبت منذ أسلمت في الله عز وجل ، أما والله إنّي لمؤمن بالله وبرسوله ، وما كفرت منذ أسلمت ، ولا شككت منذ استيقنت ، أما إنّي لم أفعله غشّا لرسول الله عربيلية ، ولا نفاقاً ، قد علمت أنّ الله مُظهر رسوله ومتم له أمره ، غير أني كنت غريباً بين ظهرانيهم ، وكانت والدتي معهم ، فأردت أن أتّخذ يداً عندهم ، فقال عربيلة : « أما إنّه قد صدقكم »(١) .

جاء في [الظّلال : ٥٥/٨] تعليق حول حادثة حاطب ، نقتطف منه التّالي : إنّ حاطب بن أبي بلتعة أحد المهاجرين الّذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم في سبيل عقيدتهم ، ما تزال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلّفوا هناك من ذريّة وأزواج وذوي قربى ، وعلى الرّغم من كلّ ما ذاقوا من العنت والأذى في قريش ، فقد ظلّت بعض النّفوس تودّ لو وقعت بينهم وبين أهل مكّة المحاسنة والمودّة ، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية الّتي تكلّفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم ، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات .

وكان الله عزّ وجلّ يريد استصفاء هذه النّفوس واستخلاصها من كلّ هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه ، وهو سبحانه يعلم ثقل الضّغط الواقع عليها من الميول الطّبيعيّة ورواسب الجاهليَّة جيعاً ، وكان العرب بطبيعتهم أشد النّاس احتفالاً بعصبيّة القبيلة والعشيرة والبيت ، فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه النّاجع البالغ ، بالأحداث وبالتّعقيب على الأحداث ، ليكون العلاج على مسرح الحوادث ، وليكون الطّرْق والحديد ساخن .

⁽١) السّيرة النّبويّة لابن كثير: ٣٨/٥

حاطب مسلم مهاجر ، وأحد الله يَوْلَيْكُ على سرّ تحرّكه ، ولكنها لحظة ضعف بشري لنفس مؤمنة ، وهذا يدلّ على أنّه لا عاصم إلا الله في هذه اللّحظات .

ومن عظمة رسول الله عَلَيْتُ أَنَّه لم يعجل على حاطب ، وسأله : ما حملك على ما صنعت ؟ في سعة صدر وعطف على لحظة الضَّعف الطَّارئة العارضة ، وأدرك عَلَيْتُ أَنَّ الرَّجل قد صدق ، وكف الصَّحابة عنه ليعينه وينهض به من عثرته ، فلا يطارده بها ، ولا يدع أحداً يطارده .

ونظرة رسول الله عَلَيْتَةٍ تقويم لماض عريق طيّب ، مع نظرة العطف الَّتِي نظرت إلى القضيَّة نظرة كُلِّيَّة ، فهو موقف المربِّي الكريم العطوف المتأنِّي ، النَّاظر إلى جميع الملابسات والظَّروف .

لقد أطلع رسولُ الله عَلَيْتُ القلّة الّتي يعهد إليها بسرّ الحملة ، ولكن تدرك حاطباً لحظة ضعف بشري ، وهو من القلّة المختارة ، ثم يجري قدر الله بكف ضرر هذه اللّحظة عن المسلمين ، كأنّا القصد هو كشفها فقط وعلاجها . ومن روائع هذه الحادثة أنّ الّذين لم يستودَعُوا هذا السّرّ ماقالوا : ها هو ذا أحد من استودعوا السّرّ خانه ، ولو أودعناه نحن ما بحنا به ! فلم يُرْوَ من هذا شيءٌ ، مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم وتواضعهم في الظّنّ بأنفسهم ، واعتبارهم بما حدث لأخيهم .

وكان القرآن الكريم أبعد مدى في هذه الحادثة من معالجة شخص بذاته فقط ، فعالج مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيّات الصّغيرة ، وحرص النّفوس على مألوفاتها الموروثة ليخرج بها من هذا الضّيق الحلّي إلى الأفق العالمي الإنساني ، وهدف أن ينشئ في هذه النّفوس صورة جديدة ، وقياً جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ، ووظيفة المؤمنين في الأرض ، وغاية الوجود الإنساني ، وكأنّه يجمع هذه النّبتات الصّغيرة الجديدة في كنف الله ، ليعلمهم الله ويبصّرهم بحقيقة وجودهم

وغايته ، وليكونوا خالصين له ، منقطعين لولايته ، متجرِّدين من كلِّ وشيجة غير وشيجته في عالم الشُّعور ، وعالم السُّلوك .

وبنداء ودود موحى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتّخِذُوا عَدُوّي وَعَدُوّكُمُ أُولِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ ، [المتحنة : ١/٦٠] ، وفي منتهى المودّة يجعل سبحانه وتعالى عدوّه عدوّه ، وعدوّه عدوّه ، ثمّ يذكّر بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم ، وعدوانهم على هنا كلّه في تجنّ وظلم : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِها جاءَكُمْ مِنَ الْحَقّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وإيّاكم أَن تُؤمِنُوا بِالله رَبّكُم إِنْ كُنْتُم خَرَجْتُم جِهاداً في سَبيلي وَابْتِغاءَ مَرْضاتي تُسِرُّونَ إلَيْهِم بالموَدَّةِ وَأَنا أَعْلَمُ بِها أَحْفَيْتُم وَما أَعْلَنْتُم وَمَن يَفْعَلُهُ مِنْكُم فَقَدْ ضَلَّ مَوْاءَ السَّبِيلِ ﴾ ، إنّه يهيج في قلوب المؤمنين هذه الذّكريات المرتبطة بعقيدتهم ، وهي سواء السبيل ﴾ ، إنّه يهيج في قلوب المؤمنين هذه الذّكريات المرتبطة بعقيدتهم ، وهي التي حاربهم المشركون من أجلها ، لا من أجل أي سبب آخر ، فالقضيّة قضيّة عقيدة دون سواها ، قضيّة الحق الذي كفروا به ، والرّسول الذي أخرجوه ، والإيمان الّذي من أجله أخرجوهم ، ها يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، مع مودّة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله ، وهو عدو الله ، وعدو رسول الله .

هَل عُمِّيَتِ الأَخْبارُ عن قريشِ تماماً ؟ : ولما انتهى عَلَيْ إلى مرّ الظّهران ، نزل ، جيش الفتح فيه فأقام ، وهو عشرة آلاف مجاهد ، دون أن تستعد قريش للقائه ، فهل عُمِّيت الأخبار عن قريش تماماً ، فهي غافلة عمَّا يجري مجقها بعد خرقها لصلح الحديبية ؟ أمْ أنّها ظنّت أنّ العقاب سيكون لبني بكر دون غيرهم ؟ أمْ أنّ الإسلام دخل كلّ بيت في المجتمع الكّي _ سِرّاً وعلانية _ فما عاد تحت قيادة موحّدة ، هي قيادة وزعامة أبي سفيان ، فتشتّت قواه ، وإنهارت روحه المعنويّة ؟

إنَّ الغزو أمرَّ متوقَّع عند قريش ، ولكن المجتمع المكِّي ماعاد كا كان أيَّام بـدر ، أو أُحُد ، أو الخندق ، أو الحديبية ، لقـد انهارت روحه المعنويَّة عنـدمـا تشتَّت قواه ، ولكن الغزو متوقَّع لاشك فيـه ، والَّـذي عُمِّي عن قريش : متى ، وكيف ؟ متى يكون

الغزو ؟ سريعاً فوريّاً ، أمْ بعد زمن ولا سيا وأن المسلمين في شهر رمضان ، فهم صائمون في شهر عبادة ؟

وكيف سيكون الغزو؟ هل هو حشد لفرض شروط صلح جديدة؟ أم فتح لمكّة كا فُتِحَت خيبر؟ أم أن نظرة المسلمين للكعبة المشرَّفة، واحترامهم العظيم لها سيحل الموقف بالمفاوضات؟

إِنَّ أُمراً متوقَّعاً لا بُدَّ من وقوعه ، ولكن متى ، وكيف ؟ هذا ما عُمِّي عن قريش .

استطلاع قريش: وعرَّ الظهران أمر رسول الله عَيْنَةُ جيش الفتح أن يـوقـدوا نـاراً، فأوقدوا عشرة آلاف نار (١)، وجعل عَيْنَةٍ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الحرس (٢).

وعُمِّيت الأَخبار على قريش ـ كا قلنا ـ متى وكيف ؟ ، فلا ياتيهم خبر عن رسول الله عَلَيْلَةٍ ، ولا يدرون ماهو فاعل ، وجيش الفتح برِّ الظَّهران . وخرج في تلك اللَّيالي أبو سفيان ، وحكم بن حِزام ، وبُدَيل بن ورقاء الخزاعي يستطلعون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به .

ورد في إمتاع الأسماع (٢): « بعثت _ قريش _ أبا سفيان يتحسَّس الأخبار ، وإن لقي محمّداً يأخذ لهم منه جواراً ، فإن رأى رقة _ ضعفاً _ من أصحابه آذن بالحرب » ، فإرسال أبي سفيان ، إرسال زعم صاحب قرار ، ومطلق التَّصرف لتحديد موقف حسب قوى المسلمن (٤) .

أمًّا حكيم بن حزام ، فهو رجل معروف بتعاطفه مع المسلمين ، فهو الَّـذي أمـدَّ بني

⁽۱) الطَّبقات الكبرى لابن سعد : ١٣٥/٢

⁽٢) السّيرة الحلبيَّة : ٩٠/٣

⁽٣) إمتاع الأسماع للمقريزي: ٣٦٨/١

⁽٤) الاكتفا: ١٣٩/١ ، الكامل في التّاريخ: ١٦٥/٢ ، ابن هشام: ٣٢/٤ ، ابن خلدون: ٤٣/٢ ، عيون الأثر: ١٦٧/٢ ، الطبري: ٥٢/٣ ، البداية والنّهاية: ٢٨٩/٤ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير: ٥٢/٣

هاشم بالطَّعام عندما حوصروا في شعاب مكَّة ، وهو الَّذي نقض الصَّعيفة وأَزالها من الكعبة المشرَّفة ، وكان على خلاف مع أبي جهل بشأن بدر ، وأراد حقن الدِّماء ، فكأنه شفيع دفعت به ورقة رابحة في وجه جيش الفتح ، فمواقفه الماضية تشفع له عند رسول الله عَنِيليَّة ، وتحفظ لهم ماء وجههم عند الحاجة .

وبُدَيل بن ورقاء الخزاعي مِمَّن وفد على رسول الله عَلِيلَةٍ إلى المدينة المنوَّرة في كوكبة من خزاعة يطلب نصرته ، رغ شركه ، فقال لهم عَلَيلَةٍ : « ارجعوا فتفرَّقوا في الأُودية » ليخفي مجيئهم إليه عَلِيلَةٍ ، فبديل طالب نصرة رسول الله !!

وفي مرّ الظهران فوجئ أبو سفيان ، وحكيم بن حِزام ، وبُدَيل بن ورقاء الخزاعي بنيران كأنّها نيران عَرَفة ، فقال أبو سفيان : ماهذه ؟ كأنّها نيران عرفة !؟! فقال بديل : نيران بني عمرو ، فقال أبو سفيان : عمرو أقال من ذلك ، فرآهم حرس رسول الله عَرِيلِيَّةٍ فأدركوهم فأخذوهم .

وعندما خرج العباس ـ الّذي ختم الله به الهجرة (١) ـ يلتمس رجلاً يرسله إلى قريش ليستأمنوا محمداً عَلَيْ قبل أن يدخلها عليهم عَنُوة ، رأى أبا سفيان ومن معه أسرى ، فسار بهم إلى رسول الله ، ودخل عمر معهم وقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عَقْد ولا عهد ، فدعني فلأضرب عنقه ، فأجاره العبّاس ، وأخذه إلى رحله ، فبات عنده ، فلما أصبح رأى النّاس يتهيّؤون للصّلاة ، وينتشرون هنا وهناك للوضوء ، فقال للعبّاس : يا أبا الفضل ماللنّاس ، أأمروا فِيّ بشيء ؟ فقال العبّاس : لا ، ولكنهم سمعوا النّداء ، فهم ينتشرون للصّلاة ، فلما حضرت الصّلاة ورآهم يركعون ويسجدون بسجوده عَنَهم له عنهم من ههنا وههنا ، ولا فارس الأكارم ، ولا الرّوم ذات مارأيت كاليوم طاعة قوم بحبهم من ههنا وههنا ، ولا فارس الأكارم ، ولا الرّوم ذات القرون بأطوع منهم له ، قال العباس : نعم والله ، لو أمر هم بترك الطّعام والشّراب لأطاعوه .

⁽١) هاجر العباس فوافاه ﷺ في أثناء الطُّريق ، وهو ذاهب إلى فتح مكَّة .

وفي الصَّباح قال رَبِي : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يَأْن لك أن تعلم أنّه لاإله إلا الله ؟ » ؟ ، فقال : بأبي أنت وأمّي ! ماأحلمك وأكرمك وأوْصلَك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنّي شيئاً بعد ، قال رَبِي الله على عنه الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد ، قال أبي أنت وأمّي ماأحلمك وأكرمك ألم يَأْن لك أن تعلم أنّي رسول الله ؟ » ، قال : بأبي أنت وأمّي ماأحلمك وأكرمك وأوصلك ، أمّا هذه والله فإنّ في النّفس منها حتّى الآن شيئاً (۱) .

فقال له العبّاس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق وأسلم ، فقال العبّاس: يا رسول الله ، إنّ أبا سفيان رجل يحب هذا الفَخْر فاجعل له شيئاً ، وذلك تثبيتاً لإسلامه كيلا يدخل عليه حظ النّفس من حيث أنّه كان متبوعاً فأصبح تابعاً ليس له من الأمر شيء ، وقال أبو بكر: يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب السّماع - أي الشّرف - فاجعل له شيئاً ، فقال مُناتِية : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : وما تسع داري ؟ فقال مَناتِية : « ومن دخل الكعبة فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : وما يسع الكعبة ؟ فقال مَناتِية : « ومن دخل السجد فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : وما يسع المسجد ؟ فقال مَناتِية : « ومن دخل دار حكيم بن حزام (٢) فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » ، فقال أبو سفيان : هذه واسعة .

وعقد على الله وعد الله ويعد الله وين بالله ، وأمره أن ينادي : من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن .

وعند مضيق الوادي ، أمر عَلِي العباس أن يُوقِفَ أبا سفيان ، حيث مرَّ جيش الفتح كتيبة كتيبة ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا

⁽١) ابن خلدون : ٤٣/٢ ، الطّبري : ٥٥/٣ ، البداية والنّهاية : ٢٩٠/٤ ، السّيرة الحلبيّة : ٩٢/٣

⁽٢) أسلم بُديل وحكيم بن حِزام .

⁽٣) أَبُو رويحة الفَزَعي ، آخى ﷺ بينه وبين بلال بن رباح ، ويقال اسمه : عبد الله بن عبد الرحمن الختعمي ، [أُسد الغابة : ١١٥/١] .

أبا الفضل لقد أصبح مُلْك ابن أخيك اليوم عظياً ، فقال : يا أبا سفيان ، إنَّها النُّبوَّة ، فقال أبو سفيان : فنعم إذن .

Δ Δ Δ

خطّة الفتح الأعظم:

وعلى الرَّغ من كلِّ ماجرى ، إسلام أبي سفيان ، و « من أغلق عليه بابه فهو آمن » ، دخل رسول الله عليه مكَّة ، وكأنَّ القتال متوقَّع محتمل ، لقد كان جيش الفتح متحسِّباً لكلِّ مفاجأة ، فلا عشوائيَّة ولا تواكليَّة ، لقد طُوِّقت مكَّة من كل جهاتها بجيش الفتح ، وذلك على النحو التَّالي :

دخلت الميسرة بقيادة الزُّبير بن العوَّام من شَمالي مكَّة .

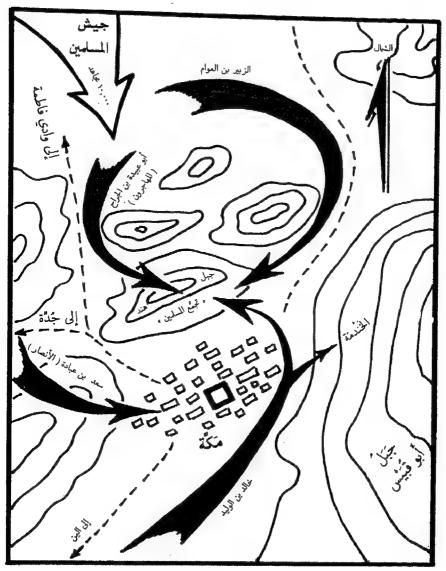
ودخلت المينة بقيادة خالد بن الوليد من جنوبي مكَّة .

ودخلت كتيبة سعد بن عبادة من غربي مكَّة .

ودخلت كتيبة أبي عبيدة بن الجرّاح من الشَّمال الغربي قُبالة جبل هند ، الّذي كان منطقة تجمُّع بعد تمام الفتح .

ودخل أبو سفيان الكعبة وهو يصيح بأعلى صوته: يا معشر قريش ، هذا عمّد قد جاء كم فيا لا قِبَل لكم به (۱) ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .. فتفرّق النّاس إلى دورهم وإلى المسجد ، ومن الملاحظ أن قريشاً لم تسأل عن سبب مجيء جيش الفتح ، لم يتساءل امرؤ عن سبب الفتح ، ومردٌ ذلك معرفتهم بما جَرى ، واطلاعهم بما عملوه بخزاعة خارقين بنود الصّلح ، وبخاصة عندما التجأت خزاعة إلى الكعبة ، فقتل عدد منها في المسجد الحرام ، دون أن تأخذ قريشاً بهم رحمة أو شفقة .

⁽۱) البداية والنّهاية : ۲۹۰/۶ ، الاكتفا : ۱۳۹/۱ ، السّيرة النّبويّـة لابن كثير : ۲۸۰۵ ، السّيرة الحلبيّـة : ۹۶/۳ ، الرّوض الأنّف : ۹۹/۶



فتح مكة « الفتح الأعظم »

۲۰ رمضان ۸ هـ / ۱۳۰ م

وجمع صفوان بن أُميَّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو أُناساً بالْخَنْدَمة (١) ليُقاتِلُوا ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد ناوَشُوهم ، فقتل خالد أربعة وعشرين من قريش ، وأربعة من هذيل ، واستشهد من المسلمين اثنان . وخالد قُوتل وبُدِئَ بالقتال ، فلم يكن له بُدُّ من أن يُقاتِل من يُقاتله .

ودخل رسول الله عَلَيْهُ مكّة ، وعلى رأسه المِغْفَر (٢) ، ولم يكن مَحْرِماً (٢) ، دخل عَلَيْهُ على ناقته القصواء ، مردفاً أسامة بن زيد ، وهو يقرأ سورة الفتح ، قال أنس : دخل رسول الله مكّة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشّعاً .

وعن ابن مسعود أن رجلاً كلَم رسولَ الله عَلَيْهُ يـوم الفتح فأخذته الرَّعْدة ، فقال عَلَيْهُ ؛ « هَوِّن عليك ، فإنَّا أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » (٤) ، وهذا التواضع في هذا الموطن ، ورسول الله في مثل جيش الفتح ، وبعد أن هُجِّر ولوحق ، وبعد أُحد والأحزاب ، لا مثيل له في تاريخ الفاتحين .

وعند باب الكعبة ، وعلى درجها ، وقف على وقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مَ أثَرَة أو دم أو مال يُدّعى فهو موضوع تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ، فإنها أمضيتها لأهلها على ما كانا ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مُغَلَّظة ، مئة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وتعظمها بالآباء ، النّاس من آدم وآدم من تراب » (٥) :

⁽١) الخندمة : جبل بمكّة ، [معجم البلدان : ٢٩٢/٢] .

 ⁽٢) كلُّ شيء سترتـه فقـد غَفَرتـه ، ومنـه قيـل للّـذي تحت بيضـة الحـديـد ـ الحـوذة ـ على الرأس : مغفر ،
 [اللّسان : غفر] .

⁽٣) الاكتفا: ١٣٩/١ ، الكامل في التَّاريخ: ١٦٣/٢ ، البداية والنَّهاية: ٢٩٢/٤ ، ابن سعد: ١٣٩/٢ ، عيون الأثر: ١٧٦/٢

 ⁽٤) القديد : اللَّحم الْمَقَدُّد ، اللَّحم الملوح المجفَّف في الشَّمس ، [اللَّسان : قدد] .

⁽٥) الطّبري : ٦٠/٣ ، ابن هشام : ٤٠/٤ ، الكامل في التّاريخ : ١٧٠/٢ ، ابن خلدون : ٢٥/٢ ، البداية والنّهاية : ٣٠١/٤ ، عيون الأثر : ١٧٨/٢

﴿ يِاأَيُّهِا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقبائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤١] .

ثمَّ حطَّم عَلِيْتُ الأصنام وهو يتلو: ﴿ جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ إِنَّ الباطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ ، [الإسراء ١٠/١٧] ، ونادى مناديه عَلِيْتُ بمكة: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صماً إلاَّ كسره » (١) .

الطُّلَقاءُ: وعند باب الكعبة ، قال عَلَيْكَ : « يا معشر قريش ، ويا أهل مكّة ، ما ترون أنّي فاعلَّ بكم ؟ » .

فأجـاب سهيـل بن عمرو: نقـول خيراً ، ونظنٌ خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم وقد قَدرت .

فقال عليه اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الرَّاحين ، اذهبوا فأنتم الطَّلقاء » .

« اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » ، لِمَن ؟

لن قال شاعر كذّاب ، ولن قال ساحر مجنون ، ولمن حاصره في شعب أبي طالب ، ولمن ذهب إلى الحبشة لإرجاع المسلمين المهاجرين ليتابع تعذيبهم ، ولمن أخرجه من مكّة مطارداً مطلوباً لقتله ، ولمن استحل أملاك المسلمين فصادرها وباعها ، ولمن قتل الحزة وشوّه جثّته ، ولمن جمع الأحزاب وحاصر المدينة المنوّرة بعشرة آلاف مقاتل لاستئصال المسلمين ، ولمن صَدّه عن البيت الحرام عندما جاءه معظماً يريد العمرة ، ثمّ فرض نَصّ الحديبية متعالياً عنيداً ، ولمن حرّض ، وشارك ، بني بكر على خزاعة ، واستحلّوا دماء أبنائها في الحرم .

⁽١) الطَّبقات الكبرى لابن سعد : ١٣٧/١ ، السّيرة الحلبيّة : ١١٨/٣

⁽٢) التَّثْريب كالتَّانيب والتَّعيير والاستقصاء في اللَّوم ، وتَرَّب عليه : لامه وعيَّره بذنبه ، وذكَّره به ، [اللَّسان : ثرب] .

« اذهبوا فأنم الطُّلقاء » بعد الفتح ، ومن ثمَّ بعد غزوة هوازن : الغنائم لأعداء الأمس ، للطُّلقاء ، لاستكال الفتح الرُّوحي القلبي ، ولامتلاك الأرواح والقلوب ، فجبِلت القلوب على حُبِّ من أحسن إليها ، وهذا موقف فريد على مرِّ التَّاريخ ، فيه سمو ، ورفعة لاتدانيها رفعة ، وعظمة لاتشبه بها عظمة . إنَّه موقف ليس له ما عائله مطلقاً ، ولا يقفه مَلِك ، أو زعم ، أو قائد .. لا يقفه إلاَّ نبيَّ مرسل ، رحمته من رحمة الله ، وحكمته من حكمة الله ، وعفوه من عفو الله .

لقد أحيا على الله بعبارة رحية حكيمة ، فيها عفو وحِلْم ، قريشا ، وجعل السيوف المسلطة على الإسلام وأهله ، تحميه بالمال والولد ، وتذود عنه بالأنفس والمُهَج .

وعندما فرغ عَلَيْكُ من طوافه ، أَتَى الصَّفا ، فَعَلا عليه ، ورأى بيوت مكَّة ، ونظر إلى البيت ، فرفع يديه وجعل يحمد الله عز وجل ، ويدعو بما شاء أَن يدعو ، وقد أحدقت به الأنصار ، فقالوا فيا بينهم : أترون رسول الله عَلَيْكُ إِذْ فتح الله عليه أَرضَه وبلده يقيم بها ؟ فقال عَلَيْكُ : « يا أَبا هريرة ، اهتف لي بالأنصار ، ولا يأتيني إلا أنصاري » ، فهتف أبو هريرة ، فجاء الأنصار ، وأحاطوا برسول الله عَلَيْكُ ! .

وقال عَلَيْ للأنصار: « يا معشر الأنصار ، ماذا قلتم ؟ أقلتم أمَّا الرَّجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته ؟ » ، قالوا: لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتّى أخبروه ، فقال عَلِيْتُم : « معاذ الله ! كلا ، إنّي عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالحيا محياكم ، والمات مماتكم »(٢) .

⁽١) البداية والنّهاية : ٣٠٧/٤

ابن خلدون : ٢٠/٢ ، ابن هشام : ٤٣/٤ ، البداية والنّهاية : ٣٠٦ و ٣٠٧ ، عيون الأثر : ١٨٠/٢ ،
 السّيرة الحلبيّة : ١٠٤/٣

فأقبل الأنصار إليه عَلِيهِ يبكون ويقولون : واللهِ ماقلنا الذي قلنا إلا الضَّنَّ (١) بالله ورسوله ، فقال عَلِيهِ : « إنَّ الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم » .

\$ \$ \$

نتائج وملاحظات:

لقد بدأت الخطوة الأولى نحو الفتح الأعظم ، عندما فشلت قريش ومن معها في غزوة الأحزاب سنة خمس للهجرة ، حيث ألقت قريش وحلفاؤها بالطّاقات المكنة كلّها ، فباؤوا بالفشل ، وقال عَلِيْكُ يومئذ : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » .

واقترب يوم الفتح الأعظم خطوة أُخرى بعد الحديبية ، حيث أقرَّت قريش بعقد مُوَقَّع ، بأن رسول الله ومن معه قوَّة مستقلّة متيّزة ، نِدٌ لقريش زعية القبائل العربيَّة ، وهذا يعني أنَّ قريشاً قد اعترفت رسميّاً بمن كانت تريد استئصاله ، عندما حشدت أضخم جمع في تاريخها أيَّام غرُوة الأحزاب ، وأدركت قريش أنَّ العاقبة المحتومة ظفر الإسلام وظهوره ، وفتح مكَّة ذاتها قريب ، أما قال خالد بن الوليد بعد الحديبية : لقد استبان لكلِّ ذي عقل أنَّ محمداً ليس بساحر ، ولا شاعر ، وأنَّ كلامه من كلام ربِّ العالمين ، فحقً على كلِّ ذي لُبٍّ أن يتبعه ، وقال عمرو بن العاص : والله ليظهرنَّ محمد على قريش . عرف هذا الحق العرب والعجم .

وفي عرة القضاء كانت الخطوة الثّالثة ، قال عَيْقَ للمسلمين المعتمرين : « رحم الله المرءًا أراهم اليوم من نفسه قوّة » ، ثمّ أمرهم بالاضطباع : « اكشفوا عن المناكب ، واسعوا في الطّواف » ، ليرى المشركون جَلَدهم وقوّتهم ، فقال القرشيّون فيا بينهم : هـؤلاء الّدين زعمتم أنّ الحمّى وهنتهم ، إنّهم لينفرون نفر الظّبي ، إن هـذا الاحتكاك

⁽١) الضَّنُّ : البخل ، أي لا نسمح أن يكون بَيْكِيُّ في غير بلدتنا ، يعنون المدينة المنوَّرة .

المباشر ، الَّذي تمَّ من خلال عمرة القضاء ، خطوة أُخرى نحو الفتح الأعظم ، وما جرى في عمرة القضاء ، وما جرى في عمرة القضاء ، وما جرى بعدها ، يظهر براعة رسول الله عَلَيْكُمْ في الحرب النَّفسيَّة :

وبعد فتح حصون خيبر ، تحطَّم حليف قريش القوي ، فحسدت قريش المسامين ، وأغاظها النَّصر القريب ، وشعرت بوحدتها تجاه رسول الله عَيِّلَةُ ومن معه ، فهي لم تستطع قهره وهزيته واليهود بطاقاتهم البشريَّة والمادِّيَّة معها ، فكيف بها اليوم وقد فتح المسلمون خيبر ؟! لقد كان فتح خيبر خطوة هامَّة تجاه الفتح الأعظم .

وكانت اللَّفتة الدَّوليَّة الَّتي حقَّقها رسول الله عَلَيْكَ قهراً معنويّاً حقيقيّاً لقريش ، لقد شعرت قريش عندما وجَّه رسول الله عَلَيْكَ رسائله إلى الملوك والأمراء بهيبته ، وبقوَّته ، وبعالميته ، وهي أعجز من أن تفعل جزءاً يسيراً مما فعله رسول الله .

إنَّ رسائله عَيْلِيَّةٍ إلى الملوك والأُمراء في جزيرة العرب وفي خارجها ، خطوة أُخرى نحو الفتح الأعظم ، عندما حطَّمت هذه اللَّفتة التَّولية معنويات القرشيِّين ، فَمَنْ قريش أمام هرقل ودولته ، وتجاه كسرى وإيوانه ، وحيال النَّجاشي وملكه ؟!

وكان في إسلام بعض أبناء قريش وفرسانها خطوة جديدة نحو الفتح الأعظم ، كإسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة ، لقد أسلم بعض أبنائها ، وتهيّأ الآخرون قلبياً ونفسيّاً ، وحتَّى فكريّاً لقبول الإسلام ، والقتال تحت راية رسول الله المظفَّرة ، فما عاد يخطر على قلب معظمهم أنَّ المبادئ الَّتي دعا إليها الإسلام ، لا تقوم على أساس عقلي ، وفكر صحيح سليم .

وشعرت قريش بقوّة المسلمين المتنامية عندما رفض رسول الله عَلَيْكُم تمديد سريان مفعول الصّلح بعد نقضه ، فرجع أبو سفيان إلى قريش خائباً فاشلاً ، فقالت قريش : قبّحك الله من وافد قوم : فما جئت بخير ، ما جئتنا بحرب فنحذر ، ولا صلح فنامن ، هذا وبعد الأمان المنوح لأهل مكّة ، قال أبو سفيان بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمّد قد جاءكم فيا لاقبَل لكم به ، فتفرّق النّاس إلى دورهم ، وإلى المسجد ، بعدها دخل في التاريخ الإسلامي (١٢)

جيش الفتح الأعظم مكَّة من كلِّ جهاتها ، مَّا جعل المقاومة مستحيلة ، فكان الفتح الأعظم .

متى توحدت الرَّغباتُ والأهدافُ تحققت الوَحْدةُ : وفتح مكَّة يعني انتقال أُمَّة العرب من القبائليَّة والعشائريَّة ، إلى الأُمَّة الواحدة المتحرِّرة الحرَّرة . ومن الجاهليَّة والوثنيَّة ، إلى الإسلام والتَّوحيد المطلق لله ، ومن التَّمزُّق والتَّفرُّق ، إلى الألفة والحبَّة والتَّعاون والتَّراحم . ومن الخرافات والمعارف المحدودة البسيطة ، إلى البحث العلمي ، والحضارة المعطاءة .

وبعد الفتح جعل عَيْنِ للعروبة معناها ، بثّ فيها روحاً ، فالعروبة اسم القوم ، ولا يفيد الاسم بلا مضون وعقيدة ، مأفائدة اسم عليم لأمني ؟ أو سريع لمقعد ؟ أو قدوي لضعيف ؟ أو صحيح لمريض ؟ أو شريف لموضيع ؟ أو بصير لأعمى ؟ ماألغى عَيْنِ عووبتهم ، بل جعل لسانها لغة مقدّسة في كلّ بلدان المسلمين ، على اختلاف قومياتهم ، حتّى قيام السّاعة ، ولكنه جعل لهم عقيدة سليمة ، ونهجا قويماً ، وفكراً صحيحاً ، ومبدأ حكيماً ، لقد صاغ عَيْن أمّة العرب صوغاً جديداً بمبادئ الإيمان ، فأفلحت ولم تخفق ، وربحت ولم تخسر ، وانتصرت ولم تنهزم .

فَتْحُ الْحُصُونِ أمرٌ عظيمٌ ، ولكن فَتْح القُلوبِ أعظم : وفي غزوة الفتح الأعظم ، تجلَّت جوانب من عظمة رسول الله منها :

١ _ تحرُّكُه بسرِّيَّة ، فباتت قريش في حيرة ، فهي لاتدري أين ومتى سيكون القصاص !

٢ ـ وروعته عَلَيْتُم في الحرب النَّفسيَّة ، عندما أمر جند الفتح الأعظم بإيقاد النَّار ليلاً ، فبهرت هذه النَّيران أعين قريش وأدهشتها ، وحطَّمت معنوياتها .

٣ ـ كا انهار أبو سفيان عند خطم الجبل عندما استعرض كتاب جيش الفتح الأعظم ، حتَّى قال : ومن له بهؤلاء طاقة ؟!

٤ ـ وتجلّت براعته السيّاسيّة عندما قال : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ،
 لقد جعل له شيئاً يرضي به حبّه للفخر والظّهور ، ولا سيا أن أبا سفيان كان متبوعاً
 فأصبح تابعاً .

٥ ـ يقظة الجيش واستعداداته المدروسة ، سِرِّيَّة عند انطلاقه من المدينة المنوَّرة ، وأخذ بالطُرق : « لا تدعوا أحداً عِرُّ بكم تنكرونه إلاَّ رددتموه » ، مع حراسة دقيقة ، وكلمة سِرِّ يتعارفون بها ليلاً ، فلا عشوائيَّة ، ولا فوضى ، ولا تواكل .

٦ - ودخول مكّة من جهاتها الأربع ، خطّة تحسّبت لكلّ طارئ ، مع توقّع للقتال
 قد يكون احتاله واحد إلى مئة ، مع أنّه على الله على المراء الله على الله ع

٧ ـ عفوه عَلَيْكُ عندما قَدر ، وهذا سُمُّ لا يضاهيه سمو ، لقد كان من حقَّه قتل أبي سفيان ، فهو زعيم الكفر ، زعيم قريش الَّتي آذت أصحابه وقتلتهم ، وهو قائد أُحُد والخندق ، ولكن رسول الله عَلِيْكُ أراد قتل كفره ، وقتل شِرْكِه وعناده ، وفي مكَّة ، حيث : « اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » كان الفتح الأكبر للنَّفوس والقلوب .

٨ ـ وكان حريصاً ﷺ على تأليف القلوب ، فما جاءه مشرك قد أهدر دمه معتذراً إلا قبل عذره ، وما جاءه مسلم يستأمن لمشرك قد أهدر دمه إلا قبل استئانه .

٩ ـ والتَّواضع دليل النَّبوَّة ، فن العظمة ـ لاشك ـ فتح الحصون ، ولكن الأعظم فتح القلوب ، وإضافة قوَّة الْخَصْم إلى قوَّته ، بلا دماء ، ودون قتل أو تدمير .

١٠ ـ وفي تحطيم أصنام قريش أمام ناظريها ، من غير أن ينال مسلم واحد من جرّاء ذلك أدْنى أذَى ، دليلٌ عمليٌّ يقيني على صدق النَّبوَّة في نظر قريش .

وبفتح مكّة تحقّقت نبوءات قالها عَلَيْ : أثناء حفر الخندق ، وفي وقت شدّة وحصار ، قال عَلَيْ : « والّذي نفسي بيده ، ليُفرَّجنَّ عنكم ما ترون من الشَّدَّة ، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً ، وأن يدفع الله إليَّ مفاتيح الكعبة » ، وقبل

الهجرة ، لما أراد عَلَيْتُ أن يدخل الكعبة ، أغلظ عليه عثان بن طلحة ، ونال منه ، ولكن رسول الله عَلِيْتُ حَلِمَ وقال لعثمان : « ياعثان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت » ، فقال عثان بن طلحة : قد هلكت قريش يومئذ وذلّت ، فقال عَرْت وعُزّت يومئذ » .

وقال عَلَيْ لَأَبِي سفيان في رسالته الَّتِي أرسلها إليه بعد الخندق : « وليأتينَّ عليك يوم أكسر فيه اللاَّت والعُزَّى وأسافاً ونائلة وهُبَل حتَّى أُذكِّرك ذلك ياسفيه بني غالب » ، فطهَّر عَلِيَّةٍ مكَّة من الأوثان كا قال قبلاً .

وقبل الفتح ، وأيَّام الحديبية ، بشَّر عَيِّلَةٍ بفتح مكَّة ، وأنَّه سيدخل البيت ويأخذ مفتاحه ، وقال بعد توقيع الصُّلح : « فإنَّكم تأتونه وتطوفون فيه » ، وتحقّقت أيضاً بشرى الفتح .

وكان عَلَيْتُهُ يقول لعمّه العبّاس عندما يستأذنه بالهجرة : « ياع ، أقم مكانك الّذي أنت فيه ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يختم بك الهجرة ، كا ختم بي النّبوَّة » ، وكان كا قال عَلَيْتُهُ ، فقد كان العبّاس آخر المهاجرين ، لأنَّه استقبل رسولَ الله بالأبواء ، ولا علم له بخروج رسول الله لفتح مكّة ، فرجع معه .

وَفُتِحَتُ آفاق جديدة لأُمَّةِ العرب: وبعد فتح مكَّة ، سقط لواء المعارضة من قريش ، وليس في جزيرة العرب كلها قوّة تستطيع تناوله لرفعه بعدها ، فلا وثنيَّة بعد أن كسب عَلِي أعظم معاركه مع الشِّرك ، فانتهى عهد الوثنيَّة بعد تحطيم ثلاث مئة وستين صناً ، وأسلت قريش الزَّعية المتبوعة ، فما بال القبائل التَّابعة ، الَّتي وقفت حيرى تنتظر مصير المعركة ؟

ورفض الإسلامُ الوثنيَّةَ من أي عربي ، ولن يُقْبَلَ منه إلاَّ الإسلام ، وذلك دليل على الوحدة العربيَّة بوحدة العقيدة ، هذه العقيدة الَّتي جعلت المهاجرين الَّذين ساروا إلى الفتح الأعظم ، في موقف يقاتلون فيه إخوانهم وأبناءهم وآباءهم ، فلا مكان

لعصبيَّة ، ولا مكان لقبائليَّة أو عشائريَّة ، حياتهم عقيدتهم ، فلا شحّ بالنَّفس ولا في المال ، ولا الولد ولا العشيرة .

وستحاول ثقيف وهوازن ـ اللّتان فهمتا أنّ الضّربة القادمة لها إن لم تدخلا في دين الله ـ تجريب حظّها ، دون اتّعاظ بما جرى في مكّة ، ودون أن تتذكّرا أنّ عناد قريش راعية الكعبة حيث السّدانة والسّقاية والرّفادة ، صاحبة الرّأي الأوّل والأخير ، والّتي شكّلت سدّاً منيعاً قد انهار دون أن تُذل ، فما أحوجهم إلى اعتناق الإسلام حيث العزّة والمنعة ، حيث انتقال العرب إلى آفاق رحبة جديدة ، حيث الانتقال من نطاق الدّولة العالميّة العظية .





حُنَيْنُ وَالطَّائِفُ

﴿ لَقَ لَ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرةٍ وَ يَوْمَ
حُنَيْنِ إِذْ أَعْجَبَتُكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغُنِ عَنْكُمْ
شَيئاً وَضَاقَتُ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتُ ثُمَّ
وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها
وَعَدَّبَ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ *
ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءً وَاللهُ
عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

[التَّوبة : ٢٥/٩ و ٢٦ و ٢٧] .

غزوة هَوَازن (يوم حُنَيْن) :

سَبَبُها: اهتزَّ مركز قبيلة هوازن ، وقبيلة ثقيف (۱) ، بعد فتح مكَّة وإنهاء الشِّرك والوثنيَّة فيها ، وأدركت القبيلتان أنَّها مستهدفتان بعد قريش ، وقال أهل الرَّأيَ فيها : لاناهية لمحمَّد دوننا ، وعزموا على أن يغزوه قبل أن يغزوهم ، فجمع أمير هوازن مالك بن عوف النَّصْري قبيلته ، وثقيف كلَّها ، الَّتِي قادها كنانة بن عبد ياليل .

وأحضر مالك بن عوف النَّصْري مع الجند أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل بأوطاس (٢) ، اجتمع إليه النَّاس وفيهم دِرَيْد بن الصَّهة ، شيخ كبير بلغ المئة والعشرين من عمره ، يُقَاد في شِجَار (٢) له ، وقد ذهب بصره ، وصار لا يُنْتَفَعُ إلاَّ برأيه ، ومعرفته

⁽١) هوازن قبيلة من قيس سكنت شالي شرق مكّة ، وثقيف حيٌّ من قيس أيضاً سكنت مدينة الطَّائف .

⁽٢) أوطاس : واد في ديار هوازن ، [معجم البلدان : ٢٨١/١] ، لذلك سُمِّيت الغزوة أيضاً : غزوة أوطاس .

⁽٢) الشِّجار : الهودج الصُّغير الَّذي يكفي واحداً ، [اللَّسان : شجر] .

بالحرب وخبرته في أمورها ، فلما نزل قال : بأيّ واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال دريد : نِعْمَ مَجالُ الخيل لاحَزْن ضَرِس (١) ، ولا سَهْلَ دَهِس (٢) ، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، وبكاء الصَّغير ، ويُعَار الشَّاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع النَّاس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، قال : أين مالك ؟ قالوا : هذا مالك ، ودُعي له ، قال : يا مالك ، إنَّك قد أصبحت رئيس قومك ، وإنَّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيَّام ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصَّغير ، ويُعَار الشَّاء ؟

قال مالك : سُقْتُ مع النَّاسِ أبناءهم وأموالهم .

دريد: وَلِمَ ؟

مالك : أردتُ أن أجعل خلف كلِّ رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

دريد (وقد انقض به (۲) زاجراً مؤنّباً) : راعي ضأن والله ، مالك وللحرب ؟ هل يَرُدُّ المنهزمَ شيء ؟ إنّها إن كانت لك لم ينفعك إلاَّ رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحْت في أهلك ومالك ، إنّك تقاتل رجلاً كريماً قد أوطاً العرب ، وخافته العجم ، وأجلى اليهود .. يا مالك ، إنّك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نُحُور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى مُتَمنَّع بلادهم (٤) ، وعُلياء قومهم ، ثمَّ الق الصَّبَاء (٥) على مُتُون الخيل ، فإن كانت لك لحِق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك .

⁽١) الحزن : المرتفع من الأرض ، ما غلظ من الأرض ، والضَّرس : الَّذي فيه حجارة محدودة ، والضَّرس : الخشن أيضاً .

⁽٢) الدُّهس: اللَّيِّن الكثير التُّراب.

⁽٣) فانقض به : أي صوَّت بلسانه في فمه ، من النقيض ، وهو الصَّوت ، وقيل الإنقباض بالإصبع الوسطى والإبهام ، كأنَّه يدفع بها شيئاً .

⁽٤) في الطُّبري: ٧٢/٣: ارفعهم إلى أعلى بلادهم، وعُليا قومهم.

⁽٥) الصُّباء: يعني بهم المسلمين.

سمع مالك بن عوف رأي دريد بن الصَّهَ الخبير الجرَّب ، فقال : والله لاأفعل إنّك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لَتَطيعُنني يامعشر هوازن ، أو لأتكئنَ على هذا السَّيف حتَّى يخرج من ظهري ، فقالوا : أطعناك ، فجعل مالك النّساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً ، وجعل وراء صفوف الإبل البقر والغنم لئلا يفرّو (١) .

علم عَلَيْتُ عِمَا حشده مالك بن عوف ، فقرَّر السَّير إليه وإلى ماجمع ، وذكر له أنَّ عند صفوان بن أُميَّة أدراعاً وسلاحاً (٢) ، فأرسل إليه وهو يومئذ مُشْرك ، فقال عَلَيْتُ : « يا أبا أُميَّة ، أعرْنا سلاحك هذا نَلْقَ فيه عدوَّنا غداً » . فقال صفوان : أغَصْباً . يا محمَّد ؟! قال عَلَيْتُ : « بل عارية مضونة حتَّى نؤدِّها إليك » ، فقال صفوان : ليس يا محمَّد ؟! قال عَلَيْتُ : « بل عارية مضونة حتَّى نؤدِّها إليك » ، فقال صفوان : ليس هذا بأس ، فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السَّلاح .

وفي السَّادس من شوَّال سنة ثمان للهجرة ، سار عَلَيْكَةٍ إلى حُنَيْن ، فوصلها في العاشر من شوَّال ، ومعه اثنا عشر ألفاً ، عشرة آلاف من أصحابه جند الفتح الأعظم ، وألفان من أهل مكَّة الطَّلقاء .

وقال فارس من فرسان المسلمين : يارسول الله ، إنّي انطلقت بين أيديكم حتّى طلعت الجبل ، فإذا أنا بهوازن عن بَكْرة أبيهم بظُعُنهم وبنعمهم وشائهم ، اجتمعوا إلى حُنّين . فتبسّم صلى ، وقال : « تلك غنية المسلمين غداً إن شاء الله » .

لن نغلبَ اليوم من قلّة: ولما نظم عَلَيْكُ الجند ، ورأى بعض الطّلقاء كثافة جيش السلمين ، قالوا : لن نغلب اليوم من قلّة (٢) .

⁽۱) لما سبق من أحداث : ابن سعد : ۱٤٩/٢ ، عيون الأثر : ١٨٧/٢ ، ابن خلدون : ٤٥/٢ و ٤٦ ، ابن هشام : ٢٠/٤ و ٦١ ، البداية والنّهاية : ٣٢٢/٤ ، الكامل في التّاريخ : ١٧٧/٢ ، الطّبري : ٧٠/٣ و ٧١ ، الاكتفا : ١٤٣/١ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير : ٦١١/٣ و ٦١٢

 ⁽٢) السّيرة النّبويّـة لابن كثير: ٦١٥/٣، وذكر بعض المؤرّخين أنَّ قـائـل هـذه العبـارة أبو بكر الصّـدّيق،
 ونسبها بعضهم إلى رسول الله، وهذا مرفوض، لأنَّـه ورد في مغـازي الواقـدي، وهو غير ثقـة، ولأنّها عبارة لاتصدر إلاَّ من حديث عهد بالإسلام.

ووصل مالك بن عوف ومن معه (۱) إلى مضايق وادي حنين ، وكمن للمسلمين في شعاب الوادي ومضايقه ، وذلك بإشارة دريد بن الصَّة ، فإنَّه قال لمالك : اجعل كميناً لك عوناً ، إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم وكررت أنت بمن معك ، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد .

وأقبر رسول الله على معه ، حتى نول بهم في وادي حنين في (عماية الصّبح) ، في (غباشة الصّبح) ، ولما صار المسلمون في بطن الوادي ، ثارت في وجوههم خَيْل المشركين فشدَّت عليهم ، وأمطر رماة هوازن وثقيف وكانوا رماة مهرة - وجوه خيل المسلمين بوابل من النَّبْلِ والسّهام ، فانكفأ النَّاس منهزمين لا يُقبِل أحد على أحد . ولكن رسول الله على أحد على أحد . ولكن رسول الله على الله ، أبشر نحن معك ، يالبَّيكاه .. وثبت السّمرة »(١) ، فقال الأنصار : لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ، يالبَّيكاه .. وثبت معه على نبي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصّديق ، وعمر بن الخطّاب ، وأسامة بن زيد ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب ، والفضل بن العبّاس ، وأين بن عبيد المطّلب ، والعبّاس آخذ بحكمة (٥) بغلته البيضاء ، وهو عليها عليّا قد شَجَرَها (١) .

واجتلد النَّاس ، وقال عَلِيَّة : « الآن حمي الوطيس »(١) ، وقال لبغلته دُلْدُل :

- (١) قُدَّر من مع مالك بن عوف بعشرين ألف مقاتل وأكثر .
- (۲) عماية الصبّح : ظلامه قبل أن يتبيّن ، عيون الأثر : ١٨٩/٢ ، ابن هشام : ٦٥/٤ ، ابن سعد : ١٥١/٢ ،
 الطّبري : ٧٤/٣ ، ابن خلدون : ٢/٢٤
- (٣) أصحاب السّمرة هم أصحاب بيعة الرُّضوان الّذين بايعوا تحت الشَّجرة ، وكانت الشَّجرة سمرة ، [الرّوض الأُنْف : ١٤٤/٤] .
- (٤) أين بن أُم أين : أين بن عبيد ، [الطّبري : ٧٤/٣] ، وأُمُّ أين هي حاضة رسول الله ﷺ ، وهو أخو أسامة بن زيد بن حارثة لأمّه ، استشهد يوم حنين ، [أُسد الغابة : ١٨٩/١] .
 - (٥) حَكَمَةُ اللَّجام: ما أحاط بحنكي الفرس، وسُمِّيت حَكَمَة لأنَّها تَرُدُّ الدَّابة، [اللَّسان: حكم].
 - (٦) شَجَرَها : أي ضربها بلجامها ، ردِّها وكَفُّها حتَّى فتحت فاها ، [اللَّسان : شجر] .
 - (V) الوطيس : المعركة ، لأنَّ الخيل تطيسها بحوافرها ، أي تدقّها ، والوطيس : التَّنور ، [اللَّسان : وطس] .

« آربضي دلدل » ، وفي رواية : « البُدي »(۱) ، فوضعت بطنها على الأرض ، فأخذ على الأرض ، وفي رواية : « لا يُنْصَرون » ، فأخذ على الله عند من تراب ، فرمى بها في وجوهم ، وقال : « حم لا يُنْصَرون » ، « شاهت الوجوه » ، فما بقي من المشركين رجل إلاً مَلاً عينيه وهمه تراباً من تلك القبضة ، فولوا مدبرين (۲) .

وقال عليه :

« أنَــا النَّبِيُّ لا كَــنِبْ أَنَا ابْنُ عَبْـدِ الْمُطَّلِبْ » وقال : « أنا ابن العواتك من سُلَم »(٢) .

وأمر عَلَيْكُ بالغنائم فجمعت ، وهي كبيرة جداً ، وسيقت إلى الجِعْرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري^(٤) .

ومرَّ رسولُ الله عَيِّلِيَّةٍ يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد ، والنَّاس مجتمعون عليها ، مَّا يدلُّ على أنَّ هذا الحادث مرفوض ومستغرب ، ومستهجن نادر ، وعلم عَيْلِيَّةٍ بذلك ، فقال لبعض الصَّحابة : « أدرك خالداً فقل له : إنَّ رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عَسِيفاً » (٥) . وقال عَيْلِيَّةٍ لما وقف عليها : « ماكانت هذه لتقاتل » ، ونهى عن قتل الذَّرِّيَة (١) .

⁽١) لَبَدَ بالمكان يَلْبُدُ لُبُوداً ولَبِدَ لَبَداً ، أقام به ولزق ، [اللَّسان : لبد] .

⁽٢) الطّبري : ٧٦/٣ ، عيون الأثر : ١٩٠/٢ ، البداية والنّهاية : ٣٢٦/٤ ، ابن هشام : ٦٦/٤ ، الكامل في التّاريخ : ١٧٩/٢ ، ابن سعد : ١٥١/٢

⁽٢) العواتك : جمع عاتكة ، المرأة المحمَّرة من الطَّيب ، والعواتك من سلم ثلاث ، يعني جدَّاته وَ اللَّهُ ، وهنّ : عاتكة بنت مرَّة أم عبد مناف بن قصيّ جد هاشم ، وعاتكة بنت مرَّة أم هاشم بن عبد مناف ، وعاتكة بنت الأوْقَص أم وهب بن عبد مناف بن زهرة جد أبي أمَّه أمنة بنت وهب .

⁽٤) البداية والنَّهاية : ٣٣٧/٤ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦٣٨/٣

⁽٥) العسيف: الأجير، الكامل في التَّاريخ: ١٨٠/٢، الرُّوض الأنَّف: ١٤٣/٤

⁽٦) ابن سعد : ١٥١/٢ ، السَّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ١٢٨/٣ ، ابن هشام : ٧٥/٤

ولما انهزمت هوازن ، ذهبت فرقة منهم فيهم قائدهم وأميرهم مالك بن عوف ، فلجؤوا إلى الطَّائف فتحصَّنوا بها ، وسارت فرقة منهم فعسكروا بكان يقال له أوطاس ، فبعث إليهم رسول الله عليه سريَّة من أصحابه عليهم أبو عامر الأشعري عبيد بن وهب ـ قتل خلالها ربيعة بن رفيع بن أهبان السَّلمي دريد بن الصَّة .

☆ ☆ ☆

حِصَالُ الطَّائِف :

وبعدما فرغ رسول الله عَلَيْتَةٍ من حنين ، سار إلى الطَّائف ، حيث قَدِمَ فَلُّ ثقيف إليها ، وأُخلقوا عليهم أبوابَ المدينة ، وتهيَّؤوا للقتال سلاحاً ومؤونة .

وأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه ونادى من يبارز ، فلم يخرج إليه أحد ، ثمَّ كرَّر ذلك ، فلم يخرج إليه أحد ، وناداه عبد ياليل : لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم في حصننا ، فإنَّ به من الطَّعام ما يكفينا سنتين ، فإن أقمت حتَّى يذهب هذا الطَّعام ، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتَّى نموت عن آخرنا . فحاصروها بضعاً وعشرين ليلة (۱) . بعث رسول الله عليه خلالها مناديا ينادي : « من خرج إلينا من العبيد فهو حرَّ »(۱) ، فاقتحم سور الحصن نفر منهم فاعتقهم عليه ودفع كلَّ رجل منهم إلى رجل من السلمين يَعُوله ويحمله .

ونصب ﷺ خلال الحصار على أهل الطّائف المنجنيق ، وكان سلمان الفارسي هو الّذي أشار به ، وعمله بيده .

⁽١) الاكتفا: ١٤٧١ ، السّيرة النّبويّة لابن كثير: ٢٥٦٧٣ ، تاريخ خليفة بن خيّاط ، ص: ٨٩ . وفي الوفا بأحوال المصطفى: ٢٠٧٧ والسّيرة الحلبيّة : ٢٣٣٧ « ثمانية عشر يوماً غير يومي الدُّخول والحروج » ، وفي ابن هشام : ١٤٤٤ : سبع عشرة ليلة .

⁽٢) الكامل في التّاريخ: ١٨١/٢، ابن سعد: ١٥٨/٢، ابن هشام: ٩٥/٤، فتسوح البلدان، ص: ٦٦، عيون الأثر: ٢٠١/٢، البداية والنّهاية: ٣٤٧/٤

ثمَّ أذن عَلَيْكُ بالرَّحيل ، وقيل له : أدع على ثقيف ، فقال حين ركب قافلاً : « اللَّهم اهدهم واكفنا مؤنتهم ، اللَّهم اهد ثقيفاً وائت بهم »(١) .

4 4 4

نتائج وملاحظات:

يتصرَّف القائد العسكري حسما تمليه الظُّروف المحيطة بجوِّ المعركة ، وبالتَّالي قد يُعدِّل من خطَّته حسب مقتضيات الأُمور الَّتي تواجهه ، وعندما نتعرَّف هذه الأُمور الحيطة ، يسهل علينا تفهُم الموجبات والمقتضيات الَّتي رافقت وأملت المواقف ، ومن الأُمور الَّتي يكننا طرحها والتَّوقُف عندها ، للوصول إلى جوابِ مناسب ، ما يلي :

الاستطلاعُ في حُنين : من البدهي أن يكون قائد كلِّ معركة على علم مسبق بخطَّة عدوِّه وتحرُّكاته المنتظرة المتوقَّعة ، ليمَكَّن من رسم خطَّته العسكريَّة وتعديلها بشكل يفسد على العدو خطَّته ، وليستطيع السَّيطرة على ما يحيط به من أحداث بما لا يفسد خطَّته ، وليضن بقاء (المبادأة) بيده ، ولا يمكن لقائد ما أن يحقِّق ما سبق إلاَّ بجهاز استطلاع حيوي موثوق .

لقد كان الإعجاب بكثرة العدد سبباً لهزيمة المسلمين في بدء معركة هوازن ، فأنزل الله سكينت ونصر نبيه ، وقد يكون من الأسباب التي ترتبت على (الإعجاب بالكثرة) تهاون عناصر الاستطلاع بتحرّكات هوازن وثقيف ، ففاجأ الكمين المسلمين ، وكان ما كان ، لذلك حقّق رسول الله عَيْنَاتُهُ استطلاعاً رائعاً للطّائف ، نقدمه من خلال الفقرة التّالية :

تحريرُ العبيد: الإسلام هو الدِّين الوحيد الَّذي شرَّع للأرقَّاء شرعة كاملة مدروسة لم يسبقه إليها أحد، لقد كان العتق شرعته، فالقرآن الكريم ليس فيه آية واحدة تحثُّ

⁽١) أبن سعد : ١٥٩/٢ ، السَّيرة النَّبويَّة لابن كثير : ٦٦٣/٣

أو تحضُّ على الرَّق ، وكذلك الحديث النَّبوي الشَّريف ، بل فيها ما يحثُّ ويحضُّ على العتق ، فلما قال رسول الله عَلِيَّةِ أثناء حصار الطَّائف : « من خرج إلينا من العبيد فهو حرَّ » ، حقَّق هدفَيْن اثنين :

١ ـ تحرير الأرقَّاء المضطهدين ، وهذه دعوة مُلِحَّة في برنامج الإسلام .

٢ ـ وحقَّ عَلَيْتُ استطلاعاً لأحوال ثقيف داخل أسوارها ، واستناداً لما قدَّموه من معلومات تبيَّن لرسول الله عَلَيْتُ أنّ المؤونة والعتاد تكفي ثقيفاً لمدَّة طويلة ، وبناء على ذلك عدًل عَلَيْتٍ خطَّة الحصار .

صناعة الجانيق : وردت عبارة ـ في معظم مصادرنا (١) ـ يمكننا الوقوف عندها ، وهي : « ولم يشهد حنيناً ، ولا حصار الطَّائف عروة بن مسعود ، ولا غَيْلان بن سلمة ، كانا بجُرَش (٢) يتعلَّان صنعة الدَّبابات والجانيق والضَّبُور »(١) .

الطَّائف ركن مهم في الجزيرة العربيَّة ، ومدينة قريبة من مركز الشِّرك مكَّة ، وأهلها ـ ثقيف ـ يعلمون أن مدينتهم ذات حصون مهيّأة للحصار ، فأمر طبيعي الاعتناء بوسائل الحصار ، وهم أهل حرب وقتال . وهم أدرى بما جرى بخيبر وحصونها . فذهب عروة بن مسعود ، وغَيْلان بن سلمة ، وهما من أعلام ثقيف ، إلى جُرَش يتعلَّان صنعة الدَّبابات والمجانيق والضَّبُور ، ذهبا إلى الين حيث صناعة الأسلحة متقدِّمة ، بعد أن أدركوا أنَّهم ليسوا بمعزل عن هذا الزَّحف الكبير ، وانتشار الإسلام السَّريع ، لذلك

⁽۱) البداية والنّهاية: ٣٤٥/٤، ابن هشام: ٩٠/٤، السّيرة الحلبيّة: ١٣٤/٣، الاكتفا: ١٤٧/١، ابن خلدون: ٢٠١٤، السّيرة النّبويّة لابن كثير: ٢٥٢/٣، ابن سعد: ١٥٨٧، الكامل في التّاريخ: ١٨١/٢، الرّوض الأُنَف: ١٦٣/٤، الطّبري: ٨٤/٣، عيون الأثر: ٢٠١/٢، فتوح البلدان، ص: ٦٧، الوفا بأحوال المصطفى: ٧٠٢/٢، إمتاع الأسماع: ١٨/١٤

⁽٢) جُرَش : من مخاليف الين من جهة مكّة ، مدينة عظية بالين ، [معجم البلدان : ١٢٦/٢] .

الضّبْرُ: جلد يَغَشّى خشباً فيها رجال تُقرّب إلى الحصون لقتال أهلها ، والجمع ضبور ، [اللّسان : ضبر] ، والدّبابة : تصنع من الخشب المغطى بالجلد أيضاً ، يكن المهاجمون فيها ويقرّبونها للحصن لقتال أهله ، وهم فيها ، لذلك عرف العرب الجاهليون الدّبابة تحت اسم الضّبْر .

أرادوا تهيئة أنفسهم بتعلم صناعة الجانيق والدَّبابات والضُّبُور لينصبوها دفاعاً عن حصنهم .

ومًا لاشك فيه ، أن ضعف أدوات الحصار وقلّتها لدى المسلمين ، كانا من عوامل انسحاب المسلمين ، وفك الحصار عن الطّائف ، وهذا ما جعلهم يلتفتون وبعناية عبر تاريخهم إلى تصنيع أسلحتهم بأيديهم ، وتطويرها وتحسينها .

غنائم هوازن بالجغرانة: ونزل رسول الله عَلَيْكَ بعد قفوله من الطَّائف الجِعْرانة فين معه من المسلمين ، وأرسل عَلَيْكَ رجلاً إلى مكَّة ليشتري للسَّبي ثياباً . وبالجعرانة أتاه وفد هوازن وقد أسلموا ، فقالوا : يارسول الله ، إنَّا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك ، فامنن علينا مَنَّ الله عليك .

فقال عَلَيْكُ : « أحبُّ الحديث إليَّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطَّائفتَيْن ، إمَّا السَّي وإمَّا المال .. نساؤكم وأبناؤكم أحبُّ إليكم أمْ أموالكم ؟ وقد كنت استأنيت لكم "(١) فقالوا : يارسول الله ، خيَّرتنا بين أحسابنا وأموالنا ، ما كنّا نعدل بالأحساب شيئًا ، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهم أحبُّ إلينا(١) ، فقال عَيْنِكُ : « أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطّلب فهو لكم ، وإذا صلّيتُ بالنّاس فقوموا فقولوا : إنّا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فإنّي سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

فلمّا صلّى عَلَيْ بالنّاس الظّهر ، قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله عَلَيْ ، فقام عَلِيّة في المسلمين ، وأثنى على الله بما هو أهله ، ثمّ قال : « أمّا بعد ، فإنّ إخوانكم هؤلاء قد جاؤوا تائبين ، وإنّي قد رأيت أن أردّ إليهم سَبْيَهم ، فهن أحبّ أن يطيّب

⁽١) انتظرهم بَيْكَ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطَّائف.

⁽٢) السّيرة النَّبويَّة لابن كثير: ٦٧٠/٣

ذلك فليفعل ، ومن أحبّ منكم أن يكون على حَظّه حتّى نعطيه إيّاه من أوّل مال يفيء الله علينا به فليفعل » .

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله عَلَيْتُم .

وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله عليالية .

أمَّا الأقرع بن حابس فقال : أمَّا أنا وبنو تميم فلا .

وقال عيينة بن حصن : أمَّا أنا وبنو فَزَارة فلا .

وقال العبَّاس بن مِرْداس السُّلمي : أمَّا أنا وبنو سُلَم فلا .

وقال عَلَيْنَةُ : « من أمسك منكم بحقّه فله بكلّ إنسان ستّة فرائض من أوّل في، نُصيبُه » ، فَرَدُّوا إلى النّاس نساءهم وأبناءهم (١) .

المؤلَّفةُ قلوبُهُم : وهم ثلاثة أصناف :

ا ـ صنف أعطاهم عَرِيْكَ من الغنائم يتألَّفهم ليسلموا ، كصفوان بن أُميَّة ، وبإسلام هؤلاء خير كبير للإسلام وأهله .

٢ ـ وصنف أعطاهم ليثبّت إسلامهم ، كأبي سفيان بن حرب ، « إنّي الأعطي الرَّجُلّ ، وغيره أحبّ إلى منه ، خشية أن يكبّ في النّار على وجهه » .

٣ ـ وصنف لدفع شَرِّهم كعيينة بن حصن ، وعبَّاس بن مرداس ، والأقرع بن حابس ، وهؤلاء أعطاهم عَلَيْكِ كي يوفِّر عامل الزَّمن عليه وعلى المسلمين ، وعدم إضاعته في معارك جانبيَّة معهم ، والالتفات إلى أمور أبعد مدى ، وأكبر أثراً في جزيرة العرب وخارجها ، مع التَّاكُد أن سيل الإسلام يطوِّقهم ويضيِّق عليهم بإسلام أتباعهم ورجالهم

⁽١) الاكتفا: ١٤٨١ ، الطبري: ٨٧/٣ ، البداية والنّهاية: ٣٥٤/٤ ، السّيرة الحلبيّة: ٣١٤٥/٣ ، عيون الأثر: ١٩٦/٢ ، ابن هشام: ١٣٨٤

وقبائلهم ، وسيجدون أنفسهم بعد زمن قصير أنّهم وحدهم ، وقد كسب الإسلامُ مَنْ حولهم جميعاً . وعطاء هؤلاء جميعاً _ وقد بلغ عددهم ثلاثين رجلاً _ كان من الْخُمْس ، وهو أثبت الأقوال .

إذا انحبس المطر تموت النَّباتات ذات الجذور السَّطحيَّة ، كالحشائش ، أمَّا الأشجار الباسقة ، ذات الجذور العميقة ، فتبقى حَيَّة مخضوضرة مثرة ، والمؤلَّفة قلوبهم من الصِّنف الأوَّل ، وجعيل والمسلمون الأوَّل من الصِّنف الثَّاني .

إن عطاء المؤلَّفة قلوبهم ، عطاءً كيلا تزل أقدام بعد ثبوتها .

ولكيلا تتزعزع قلوب بعد دخولها في الإسلام .

ولكيلا تميل نفوس عن الحق ، وهي حديثة بشرك وجاهليّة .

إسلام مالك بن عوف النَّصْري : « انقطع نِظَامُ عقد ثقيف وهوازن فتبعثرت حبَّاتُه » : وسأل رسول الله عَنْ وفد ثقيف : « ما فعل مالك بن عوف ؟ » ، فقالوا : هو بالطَّائف مع ثقيف ، فقال عَنْ اللَّهُ اللَّهُ عَنْ عَنْ اللَّهُ عَنْ عَنْ اللَّهُ عَنْ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ عَنْ اللَّهُ عَنْ عَنْ اللَّهُ عَلْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَلَا اللَّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَلَا اللّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللّهُ عَاللّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَّا الل

⁽۱) جعيل بن سراقسة الغفاري الضّري : من أهل الصّفّة وفقراء المسلمين ، أسلم قدياً ، شهد مع رسول الله عَلَيْتُ أُحداً ، وأصيبت عينه يوم قريظة ، أثنى عليه رسول الله عَلَيْتُ ووكله إلى إيمانه ، [أسد الغابة : ٢٨/١] .

⁽٢) أي : خير بما يملؤها حتَّى يطلع عنها ويسيل .

 ⁽٣) الطبري: ٩١/٣، ابن هشام: ١٠٤/٤، البداية والنهاية: ٣٦٠/٤، الروض الأنف: ١٦٩/٤، السيرة الحلبية: ١٣٧/٣ و ١٣٨

أهله وماله ، وأعطيته مئةً من الإبل » ، فلما بلغ ذلك مالكاً ، انسلَّ من الطَّائف ولحق برسول الله عَلَيْتِ فأدركه بالجعرانة - وفي رأي بمكَّة - فأسلم ، وحسن إسلامه ، واستعمله عَلَيْتِ على مَنْ أسلم من قومه ، وعلى من أسلم من القبائل حول الطَّائف ، فكان مالك يقاتل بهم ثقيفاً ، لا يخرج لهم سَرْحٌ إلاَّ أغار عليه ، حتَّى ضيَّق عليهم .

وعندما انصرف رسول الله عَلَيْتُ عن أهل الطَّائف ، عاد عروة بن مسعود الثَّقفي من جُرَش بالين ، وعلم بما جرى ، فاتَبع أثرَ رسول الله عَلِيْتُ حتَّى أدركه قبل أن يصل المدينة المنوَّرة ، فأسلم ، وسأل رسول الله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله عَلَيْتُ : « إنَّهم قاتلوك » ، فقال عروة : يا رسول الله ، أنا أحبُّ إليهم من أبكارهم (۱) .

فعاد عروة إلى الطّائف ، ودعا قومه إلى الإسلام ، ورجا ألاَّ يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلم أشرف لهم على عُلِيَّة له ، وأظهر لهم إسلامه ، رَمَوْه بالنَّبْل من كلِّ وجه ، فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة : ما ترى في دمك ؟ قال : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إليَّ ، فليس فِيَّ إلاَّ ما في الشَّهداء الَّدين قُتِلوا في سبيل الله مع رسول الله عَلَيْ قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم ، فدفنوه معهم .

قال عَلِيْكُ فيه : « إنَّ مَثَلَه في قومه كمثل صاحب يس في قومه » ، نصح قومه حيّاً .

ثمَّ أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثمَّ إنهم ائتروا بينهم ألاَّ طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا ، وبعد أن ضيَّق مالك بن عوف على ثقيف ، وأثبت الحصار الاقتصادي نجاعته ، أجمع وجهاء ثقيف أن يبعثوا وفداً إلى المدينة المنوَّرة برئاسة عبدياليل بن عمرو ، وكان ذلك في رمضان من السَّنة التَّاسعة للهجرة .

⁽١) وفي ابن هشام وأسد الغابة : « أنا أحبُّ إليهم من أبصارهم » .

أسلم الوفد كلُّه وبايع ، وهُدِمت اللاَّت .

☆ ☆ ☆

تُقْرَن غزوة بدر بغزوة حنين ، حيث كسر الله بها ثورة الكفر ، وأطفأت الجرة الشّرك والوثنيّة .

لقد افتتح الله غزو العرب ببدر ، واختته بحنين ، وهما من أعظم غزواته عَلَيْكُمْ ، ولهذا يُجْمَعُ بينهما في الذّكر ، فيُقال : بدر وحنين .

ولم يفلح مالك بن عوف إلا بتنظيم الكين في وادي حنين ، حيث فاجاً به المسلمون قبيل الفجر ، ولكن عندما طلع النهار ، وعرفت الوجوه بعضها ، مع صود رسول الله عليه وثباته ونفر من أصحابه ، انقلب الثبات تقدما ، والصود هجوما ، عندها فقد مالك سيطرته على هوازن وثقيف ، وانقلب انسحابه الفوضوي إلى هزيمة مع خسائر كبيرة في الأرواح .

وفك الحصار عن الطّائف لحلول الأشهر الْحُرّم، ولعدم استعدادات المسلمين من حيث آلات الحصار، جعلهم يلتفتون عبر تاريخهم بجد وعناية فائقة إلى صناعة أسلحتهم الثّقيلة، وبخاصّة أدوات الحصار في حروبهم البرّيّسة، والسّفن لحروبهم البرّيّسة، والسّفن لحروبهم البريّسة،

لقد انهزم المسلمون في بدء غزوة حنين ، بسبب خلل أصاب النّفوس ، ألا وهو الإعجاب بالكثرة ، ونسيان الله عزّ وجلّ ، لقد تناست القلوب في حنين مسبب الأسباب ، مسبب النّصر ، وأعجبت بالكثرة ، وأخذت بها ، فكان الدّرس القيّم ، لتبلغ أمّننا قمّة التّجرّد لله عزّ وجلّ وحده ، وتصل غاية الإخلاص لدينه .



تَبُوكُ « غَزْوَةُ العُسْرَةِ »

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِاللهِ وَ لِاللهِ وَ لا اللهُ وَرَسُولُ اللهُ وَرَسُولُ اللهُ وَرَسُولُ اللهُ وَرَسُولُ اللهُ وَرَسُولُ اللهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَق مِنَ اللّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرونَ ﴾ . وَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرونَ ﴾ . [التّوبة : ٢٠٧]

أسبابها:

⁽۱) البَلْقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشَّام ووادي القرى ، قصبتها عَمَّان ، فيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، [معجم البلدان : ٤٨٩/١] .

⁽٢) السّيرة الحلبيّة: ٣/٧٤١

ومؤتة .. كانت أوَّل عمل قام به الرُّوم لطمس الدَّعوة الجديدة .

ونظر الرَّوم إلى الإسلام نظرة الجدِّ والاهتام ، فتابعوا أخباره ، وأدهشهم اتساع عيطه وحلقاته .

و (السجد الضّرار) دليل على صلة الرَّوم بالمنافقين من أهل المدينة ، فأبو عامر الرَّاهب لم يطق البقاء في المدينة المنوَّرة ، بعد أن ظهر فيها أمر رسول الله عَيَّلَة ، فذهب إلى قيصر الرَّوم يستنصره على الإسلام وأهله ، فوعده ومنَّاه وأقامه عنده ، فكتب أبو عامر الرَّاهب إلى جماعته من أهل النَّفاق والرَّيب يعدهم وينيهم بأنَّه سيقدم بجيش يقاتل به محمَّدا ، وأمرهم أن يتَّخذوا معقلاً ، فشرعوا في بناء مسجد الضّرار ، مسجد الشّقاق والتَّفرقة .

وفروة بن عمرو بن النّافرة ، من بني نفاشة من جذام ، كان أميراً قبيل الإسلام ، وفي عهد النّبوّة عاملاً للرّوم على قومه ، بين خليج العقبة ومدينة ينبع ، وعلى من كان حوالي مدينة معان من العرب ، ولما ظهر الإسلام بحكّة والمدينة ، بعث إلى رسول الله عَيّلة بإسلامه ، وأهدى إليه بغلة بيضاء ، وعلمت حكومة القيصر باتصاله هذا ، فسلّطت عليه الحارث بن أبي شَمِر الغسّاني ، فقبض عليه - بأمر من هرقل بتهمة الخيانة ، وحاول هرقل أن يردّه إلى المسيحيّة ، ولكن فروة أصرّ على إسلامه ، فقتله هرقل صلباً بفلسطين (١) .

لقد أيقن الرُّوم أنَّ دولة الإسلام توشك أن تشملهم ، فكيف بعدم المبالاة ، وهي الدَّولة الَّتي تمتع بقوَّم وعزَّم وعنفوانها بعد انتصارها على الفُرُس ، وهي الَّتي تملك _ كا تعتقد _ مقوِّمات النَّصر كاملة على دولة وليدة ؟!

اجتمع الرَّوم ومعهم قبائل لخم وجذام وعامِلَة وغسَّان في البَلْقاء ، يريدون دولة الإسلام ، إمَّا خشية من انتقام المسلمين (لمؤتة) ، أو لعلَّ هرقل اندهش من قوَّة هؤلاء المؤمنين المجاهدين ، فقرَّر سحق دولتهم في مهدها .

ولردِّ هذه الجموع طريقتان : إمَّا تركهم يداهمون الإسلامَ في عقر داره ، وإمَّا أن يفاجئ الإسلامُ أعداءَه الَّذين أعدُّوا العُدَّة على أرضهم ، وذلك في (حرب وقائية) ، واختار عَلَيْتُهُ الطَّريقة الثَّانية ، لما فيها من معاني القوَّة والعزَّة .

☆ ☆ ☆

النَّفيرُ العام: (ومبدأ الحرب الشَّاملة):

أمر عَيْكَ المسلمين بالتَّهيُّؤ لغزو الرُّوم في نفير عام ، وتعبئة كاملة ، وذلك في : زمن عُسْرة من النَّاس ، وشدَّة من الحرِّ ، وجَدْب من البلاد ، وحين طابت الثَّار ومالت النَّفوس إلى الظَّلال ، فالنَّاس يحبُّون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشُّخوص عنها على الحال من الزَّمان الَّذي هم فيه .

وكان رسول الله عَلَيْتُ قلّما يخرج في غزوة إلاَّ كنَّى عنها ، وأخبر أنَّه يريد غير الَّذي يقصده ، إلاَّ ماكان من غزوة تبوك ، فإنَّه بيَّنها للنَّاس ، لبَعْدِ الشُّقَّة ، وشدَّة الزَّمان ، وكثرة العدوِّ الَّذي يقصده ، وليتأهَّب النَّاس لذلك أُهبته .

أمر عَيِّكَ النَّاسَ جميعاً بالجهاز ، وأخبرهم أنَّه يريد الرُّوم ، فأعلن بذلك عن مكان مسيره ، كيلا يؤدِّي نقصان المواد التَّموينيَّة إلى إخفاق الغزوة ، فتجهَّز المسلمون على ما بأنفسهم من الكُرْه لذلك الوجه ، لما فيه من بعد الشُّقَّة ، وشدَّة الحرِّ ، مع ما عظموا من ذكر الرُّوم وغزوهم (۱) .

⁽۱) لغزوة تبوك ، انظر : الاكتفا : ١٥١/١ ، ابن سعد : ١٦٥/٢ ، عيون الأثر : ٢١٦/٢ ، الطّبري : ٢١٠/٣ ، البداية والنّهاية : ٢/١٠ ، الكامل في التّاريخ : ١٨٩/٢ ، ابن خلدون : ٢٠/٢ ، السّيرة الحلبيّة : ١٤٧/٢ ، ابن هشام : ١١٨/٤ . وكتب الحديث الشّريف الصّحاح .

وحضَّ رسولُ الله عَلِيَّةِ أَهلَ الغني على النَّفقة وحمل المجاهدين في سبيل الله ، ورغَّبهم في ذلك ، فحمل المسلمون من أهل الغني فقراء المسلمين محتسبين ذلك عند الله عزَّ وجلَّ .

وكان أوَّل من جاء باذلاً أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، جاء بماله كلّه ، أربعة آلاف درهم ، فقال عليه الله يُقلِيَّةِ : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » ، ويجيب أبو بكر جواب المسلم الصَّادق الَّذي يعيش بكلِّ كيانه للإسلام ، مع محبَّة صادقة لرسول الله ، يجيب رضي الله عنه : « أبقيت لهم الله ورسوله » .

وجاء عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بنصف ماله ، فسأله على الله على المقيت الصّديق لأهلك شيئاً ؟ » ، ويجيب عمر رضي الله عنه : « نعم ، نصف مالي » ، فما بين الصّديق وعمر كا بين كامتيهما ، وعرف عمر أنّه لا يستطيع مسابقة أبي بكر (١) .

وجاء عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه بمئتي أُوقية لرسول الله عَلَيْتُهُ ، قسم ماله نصفَيْن ، ويدعو رسول الله عَلَيْتُهُ له : « بارك الله لك فيما أُنفقت وفيما أُبقيت » .

وقدًّم عاصم بن عدي سبعين وسقاً من تمر^(۲).

وبات أبو عقيل الأنصاري يجرَّ بالْجَرير (٢) على ظهره على صاعَيْن من تمر ، فترك أحدهما في أهله ، وجماء بمالآخر يتقرَّب به إلى الله عنز وجمل ، فأخبر به رسول الله عَلَيْكُم ، فقال : « اجعله في تمر الصَّدقة » .

وجهَّز عثان بن عفَّان رضى الله عنه ثلث الجيش ، قال ابن إسحاق : أنفق عثان

 ⁽۱) أسد الغابة : ٣/٣٢٦ و ٣٢٧

⁽٢) النَّسْق والوسْق : حمل بعير ، أو مِكْتِلَة معلومة ، [اللَّسان : وسقي] .

⁽٣) الجرير: الحبل ، أراد أنَّه كان يستقي الماء بالحبل ، وقيل اسم أبي عقيل : حَبحاب ، [أسد الغابة : ٢٠/٦

رضي الله عنه في ذلك نفقة لم ينفق أحد مثلها ، وروي عن قتادة : حمل عثان رضي الله عنه في جيش العسرة على ألف بعير ، وسبعين فَرَسا ، وروى الإمام أحمد والبيهقي عن عبد الرَّحن بن سمرة رضي الله عنه قال : جاء عثان رضي الله عنه بألف دينار في كُمِّه حين جهَّز جيش العسرة ، فنثرها في حِجْره عَلَيْكَم ، فرأيت رسول الله عَلَيْكَم يُقلِّبها في حجره ويقوله : « اللهم ارض عن عثان ف إنّي عنه راض ، غفر الله له كيان يا عثان ماأسرت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ماضَرَّ عثان ماعمل بعد اليوم » (١)

وجاء العباس بمال كثير ، وكذا طلحة بن عبيد الله (٢) ..

وبعثت النِّساء بكلِّ ما يقدرن ، وبعثن بحليِّهن ..

وإنفاق الصَّحابة هذا _ في تبوك وغيرها _ يجعلنا نقول : للإسلام فلسفته الرَّائعة في المال والغنى ، فالغنى يتمُّ أُوَّلاً من مصدر طيِّب حلال ، لينفق في سبل خيِّرة حلال ، المال كله لله ، ينفق في سبيله ، كا أنَّ الإسلام يحارب ثروة البخلاء ، وغنى الأُشحَّاء ، وأموال الجهلاء السَّفهاء ، وينبِّي أموال الفضلاء الكرماء الأسخياء ، لينفقوا حسب حاجات المجتمع الإسلامي .

البَكَاؤُون : وهم سبعة طلبوا من رسول الله عليه ما يحملهم عليه ، وكانوا أهل حاجة ، فقال عليه ، وكانوا أهل حاجة ، فقال عليه ي « لا أُجِدُ ما أحملكم عليه » (الله عنه عنه عنه وجل الله عنه وجل الله عنه و ولا على الدين إذا ما أتوك لِتَحْمِلُهُمْ قُلْتَ لا أُجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلُّوا وَأَعْيَنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلا يَجِدُوا ما يَنْفِقُونَ ﴾ ، [التوبة: ١٢/٩].

⁽١) البداية والنّهاية : ٥/٥

⁽٢) طلحة بن عبيد الله القرشي التميي : من السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنّة ، وأحد أصحاب الشّورى ، سمَّاه ﷺ يوم أحد طلحة الخير ، ويوم حنين طلحة الجود ، ويوم العسرة طلحة الفيّاض ، [أسد الغابة : ٨٥/٣] .

⁽٣) الاكتفا: ١٥٢/١ ، السّيرة الحلبيّة: ٣/١٤٩ ، الطّبري: ١٠٢/٣ ، الكامل في التّاريخ: ١٩٠/٢

وتذكر المصادر أن العبَّاس حمل اثنين منهم ، وحمل عثمان ثلاثة منهم .

وهؤلاء البكّاؤون ، فئة أظهرت من الإيمان عميقه ، لم يجدوا ما يحملوا أنفسهم عليه إلى تبوك بسبب فقره ، ولم يجدوا ما يعينهم على الجهاد في سبيل الله ، طلبوا من رسول الله عليه ما يحملهم عليه ، ويجيب عليه الأجد .. فخرجوا يبكون من خوف ألا ينالوا شرف الجهاد ، وعذرهم عليه ، فما رضوا بالعذر ، يريدون أن يكونوا في كلّ خطوة مع مسيرة الإسلام ، في بنائه ، في توطيد أركانه ، في مجابهة أعدائه ..

البكَّاؤون : بسبب أشواقهم أن يكونوا مع رسول الله .

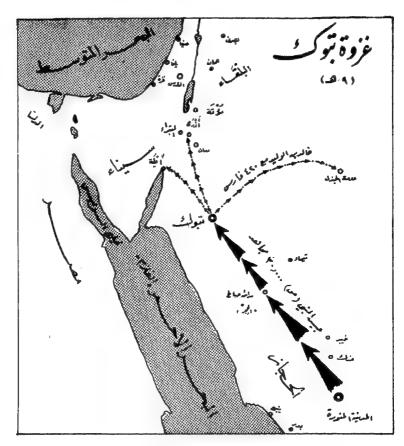
أمًّا من له عذر ، كرض ، أو عرج ، أو هرم ، أو عمى .. هذا أيضاً بأشواقه وإيانه مع رسول الله عَلَيْتُهُ ، مع جيش تبوك ، مع أنَّه بقي في المدينة المنوَّرة ، فالّذين تأخَّروا بسبب : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَا وَلا نَصَبّ وَلا مَخْمَصَةٌ في سَبيلِ الله وَلا يَطَوُّونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكَفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَل صَالح إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنينَ ﴿ وَلا يَنفقُونَ نَفقة قَ صَغِيرة وَلا كَبِيرة وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُم لِيَجْزيَهُمُ اللهُ أَحْسَن ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، [التوبة : ١٢٠/١ و ١٢١] .

قال عَلَيْ في طريق عودته من تبوك: « إنَّ بالمدينة أقواماً ماسرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلاَّ كانوا معكم » ، قالوا: يا رسول الله ، وهم بالمدينة ؟ قال: « نعم حبسهم العذر »(١) .

المعند رون : وجماء قسم من الأعراب ، فاعتمد روا إليه على عدرهم الله عن وجل ، وهم اثنان وثمانون رجلاً من بني غفار : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لا تَبْعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتُ عَلَيْهم الشُّقَّةُ وَسَيَحُلفُونَ بِاللهِ لَو آسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُم يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُم وَالله يَعْلَم إِنَّهُم لكاذِبُونَ ﴿ عَفَا الله عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الله يَنفُهُم وَالله يَعْلَم إِنَّهُم لكاذِبُونَ ﴿ عَفَا الله عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الله لله عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الله ين

⁽١) وفي رواية : « إنَّ بالمدينة أقواماً ماسرتم من مسير ولا قطعتم وإديباً إلاَّ كانوا معكم حبسهم المرض » ، ابن سعد : ١٦٨/٢

صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكاذبينَ ﴿ لا يستَأْذِنُكَ اللَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليومِ الآخِرِ أَن يُجاهِدُوا بِأَمُوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ ﴾ ، [التوبة: ٢٠/١-٤٤] .



﴿ وَجِمَاءَ الْمُعَدِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيَسُؤَذِنَ لَهُم وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَـهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابٌ إِلِيمٌ ﴾ ، [النَّوبة : ٩٠/٩] .

الّذين خُلّفوا : ولما أجمع رسول الله عَلِيْكُم السّير ، أبطأت النّيّة في نفرٍ من المسلمين ، حتّى تخلّفوا عن رسول الله من غير شك ولا ارتياب ، منهم :

كعب بن مالك بن أبي كِعب أخو بني سلمة .

هلال بن أُميَّة أخو بني واقف . مرارة بن الرَّبيع أخو بني عمرو بن عوف . أبو خيثة مالك بن قيس أخو بني سالم بن عوف^(۱) . وكانوا نفر صدق لا يُتَهمون في إسلامهم .

المنافقون : وقف المنافقون برئاسة كبيرهم عبد الله بن أبي بن سلول موقفاً سلبياً من الإسلام منذ اللَّحظة الأولى الَّتي وصل بها رسول الله عَلَيْكَةً إلى المدينة المنوَّرة .

ظهر المنافقون في المدينة المنوَّرة بعد الهجرة بسبب وجود دولة للإسلام قويَّة ، مع سيف يحميها ، فتظاهروا بالإسلام رياء وتقيَّة ، ولكن الله فضحهم ، وألبسهم رداء سرائر نفوسهم : ﴿ وَيَحُلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَما هُم مِنكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ ، [التَّوبة : ٥٦/٥] .

المنافقون .. أرادوا السّلامة فأحنوا رؤوسهم لقوّة الإسلام ، وكادوا له داخل صفوفه ، وتبوك ليست مأمونة العواقب ، شقة بعيدة ، تقاصرت دونها همهم وعزائهم الضّعيفة ، وجزعت أرواحهم الهزيلة ، وقلوبهم الخربة ، وهؤلاء ، منهم من رافق الجيش إلى تبوك ، ومنهم من تخلّف في المدينة المنوّرة (٢) ، وهم لا يحسبون على الإسلام ، ولا على تربية رسول الله عُرِيّ ، لأنّهم لم يؤمنوا أصلاً ، بل نافقوا خوفاً من قوّة الإسلام .

قال قائل من المنافقين لبعض: لاتنفروا في الحرِّ، زهادةً في الجهاد، وشكّاً في الحق ، وإرجافاً برسول الله ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلُ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبُكُوا كَثِيراً جَزاءً بِا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، [التّوبة: ٨١/٨ و ٨٢].

⁽١) ثُمَّ لحق أَبو خيثمة برسول الله عَلِكَ ِ.

 ⁽۱) مع حق ابو حيمه برسون الله عليه عليه .
 (۲) وعددهم سبعون منافقا ، منهم أبن أبي بن سلول ، وعبد الله بن بَنْتَل ، ورفاعة بن زيد .

إلى تبوك:

غادر عَيِّلِيَّةُ المدينة المنوَّرة في شهر رجب من سنة تسع للهجرة ، ومعه ثلاثون ألف مجاهد ، وخلَّف محمد بن مسلمة الأنصاري على المدينة المنوَّرة ، وخلَّف عليّاً على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم .

فلما انتهى رسول الله عَلَيْهِ إلى تبوك ، أتاه يُحَنَّة بن رُؤبة صاحب أَيْلَة (١) ، فصالح رسول الله عَلَيْهِ ، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح (١) وأعطوه الجزية ، فكتب عَلِينَةٍ لهم عهود أمان .

ثمَّ أُرسل عَلَيْكَ خالد بن الوليد ، فبعثه إلى أُكَيْدِر بن عبد الملك ، وهو في دُومة الجندل (٢) ، فجاء خالد به ، فحقن عَلِيْكَ دمه ، وصالحه على الجزية ، ثمَّ خلَّى سبيله ، فرجع إلى بلدته .

أقام رسول الله عَلَيْ بضع عشرة ليلة بتبوك (١) ، ولم يجاوزها ، واستشار أصحابه في أن يجاوزها إلى ما وراءها من ديار الشّام ، بعد أن تحصّن الرّوم في قلاعهم حين بلغهم أمر هذا الجيش وقوّته ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ، إن كنت أمرت بالسّير نبر ، فقال عَلَيْ : « لو كنتُ أمرت بالسّير لم أستشر فيه » ، فقال : يا رسول الله ، إنّ للرّوم جموعاً كثيرة ، وليس بالشّام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت

⁽١) أَيْلَة : مدينة على ساحل بحر القُلْزُم (البحر الأَحمر) ، وهي آخر الحجاز وأوَّل الشَّام (وهي في أعلى خليج العقبة) ، [معجم البلدان : ٢٩٢/١] .

⁽Y) جرباء: من أعمال البلقاء من أرض الشّام قرب جبال السراة من ناحية الحجاز، وهي قرية من أذرّح، [معجم البلدان: ١١٨/٢]، وأذْرَحَ: اسم بلد في أطراف الشّام، من نواحي البلقاء، [معجم البلدان: ١٢٩/١].

⁽٣) دُومَة الجندل : حصن وقرى بين الشَّام والمدينة ، قرب جبكي طيِّئ ، [معجم البلدان : ٤٨٧/٢] .

⁽٤) في طبقات ابن سعد : ١٦٨/٢ : غزا رسول الله ﷺ تبوكاً ، فأقام بها عشرين ليلة يُصَلِّي بها صلاة المسافر .

منهم ، وقد أفزعهم دُنُوُك ، فلو رجعت هذه السَّنة حتَّى ترى ، أو يحدث الله أمراً ، فتبع رسول الله عَلَيْلِةٍ مشورة عمر ، وأمر بالقفول .

وعندما وصل عَلِيْكَ - وهو في طريق عودته من تبوك - إلى ذي أوان (١) أرسل من يهدم ويحرِّق مسجد الضَّرار ، فَهَدِم وحُرِّق .

☆ ☆ ☆

الثَّلاثةُ الَّذينَ خُلِّفوا:

عاد رسول الله عَلَيْ من تبوك ، وكان قد تخلّف عنه رهط من المنافقين ، فأتوه فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، فصفح عنهم عَلَيْ حكماً بالظّاهر ، ولكن الله أنزل : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيكُمْ إِذَا رَجَعْتُم إِلَيهِمْ قُل لاتَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُم قَدْ نَبّانا الله مِنْ أخباركُم وَسَيَرى الله عَملَكُم وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِم الغَيْبِ والشّهادَةِ فَيُنَبّئكُم بِها كُنْتُمْ بَعْملُونَ ﴿ مَنْ مَلَكُم وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِم الغَيْبِ والشّهادَةِ فَيُنَبّئكُم بِها كُنْتُمْ بَعْملُونَ ثُم سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُم إِذَا ٱنْقلَبْتُم إِلَيْهِم لِتَعْرِضُوا عَنْهُم فَأَعْرِضُوا عَنْهُم إِنَّهُمْ رَجْسٌ وَمَأُواهُم جَهَنَّمُ جَزاءً بِها كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُم لِتَرْضَوْا عَنْهُم فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُم فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُم فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُم فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُم فَإِن اللهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفاسِقِينَ ﴾ ، [التَّوبة : ١٤/٩ - ١٤] .

وتخلّف ثلاثة من المسلمين اعترفوا بذنبهم ، وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الرّبيع ، وهلال بن أُميَّة ، لم يتخلّفوا عن نفاق ، بل خفتت جذوة الإيمان في قلوبهم إلى حين ، ثمَّ أضاءت بشكل صحيح سليم ، فالخير في نفوسهم كامن ، ودليله اعترافهم بذنبهم عند عودة رسول الله عَلَيْتُهُ .

تخلّف ثلاثة جنود عن المعركة ، فأصدر القضاء الإسلامي حكمه بحقهم ، حكم لم ينص على عقوبة جسديّة ، ولا سجن ، ولا مصادرة مال ، ولا إهانة .. حكم لطيف ، ألا يكلّمهم أحد ، فانقلبوا من التّقصير إلى التّوبة وصدق العزيمة ، يبكون تخلّفهم ،

⁽١) ذو أوان : بلد بينه وبين المدينة المنوّرة ساعة من نهار .

فَقُبِلَت توبتهم بعد أن غسلوا ذنوبهم بدموعهم واستغفارهم ، بعد أن أقلعوا عن الذُّنب بالنَّدم .

وجاءت رسالة ملك غسّان إغراء لكعب ولزميليه: أما بعد فإنّه قد بلغني أنّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نُواسِك . وكانت النتيجة إحراق الرّسالة في تنور ، فهي أتفه من أن تحرّك اتّجاها يعادي الإسلام عند الثّلاثة ، فالتّوبة الصّادقة هي الدّواء الصّحيح لذنب التّخلّف ، ولن يعالج الخطأ بخطأ ، ولن يحى ذنب بذنب آخر .. فكانت توبتهم درساً في ميدان السّلوك والعمل .

وبعد خمسين ليلة نزل قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمِ الأَرْضُ بِهَا رَحُبَتْ وَضَاقَت عَلَيْهِم أَنْفُسُهُم وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأً مِنَ اللهِ إِلاَّ إليهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ، [التوبة : ١١٨٧٩] .



نَتائجُ وملاحظات:

إنَّ الَّذِينِ نفروا في الحرِّ ، وساروا مع رسول الله على الله عليهم ، فالجهاد بجد ، عادوا كراماً مع المجد والتَّواب ، والَّذين لم ينفروا سخط الله عليهم ، فالجهاد بجد ، والمنافقون ليسوا أهلاً لهذا المجد ، ليس هذا فحسب ، بل : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَد مِنْهُم ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُم كَفَروا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُم فاسِقُونَ ﴾ ، مات أبداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُم كَفَروا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُم فاسِقُونَ ﴾ ، [التُوبة : ١٨٤٨] ، هذا حكم الله عزَّ وجلَّ فيهم ، لأنَّهم يُظهرون الإيمان ويبطنون كفراً . يُظهرون الالتزام ، ويبطنون النَّفاق والشَّقاق ، لذلك سَمِّيت سورة التَّوبة الَّتي حَوَّت وشملت وسجَّلت أحداث تبوك : الفاضحة ، المنفرة ، المعبِّرة ، المبعثرة ، المحدمة ، الخزية ، المنكلة ، المشرِّدة .. لأنَّها رفعت الأستار والحجب عن فئات من النَّاس كانوا يظهرون إسلاماً ، ويخطِّطون لتخريب المجتمع الإسلامي ، حتَّى كانت تبوك ، فكانت يطهرون إمتحاناً وتحدياً وكشفاً لخفانا المدَّعن .

وفي المقابل .. أظهرت تبوك روعة التَّربية الإسلاميَّة ، وتشوَّق الجيل الَّذي ربَّاه عَمَّد رسول الله ، لتحمُّل المشاق في سبيل العقيدة ، تحمُّل الصَّعاب في سبيل الله ، وستبقى صورة (البكَّاؤون) ماثلة حيَّة تشهد بعظمة تربية رسول الله عَلِيَّةُ .

تبوك .. آخر غزوة لرسول الله عَلَيْتُهُ ، تعني الامتحان العام لكلِّ الشَّعب ، بعد تربيته وتعليم ، فجاءت النَّتائج تفوق الخيال ، ثلاثون أَلفاً تخلَّف منهم ثلاثة اعترفوا بذنبهم ، وثمانون منافقاً لا عذر لهم ، وهؤلاء لا يحسبون على الإسلام ، لأنهم لم يُسلموا قلباً وعقيدة من قبل .

وتبوك حرب وقائيّة تعلن الأوّل مرّة في تاريخ الجزيرة العربيّة النّفير العام، ومبدأ الحرب الشّاملة، مع سرعة الحركة في أصعب الظّروف.

وفي تبوك ، أظهر عَلِيكَ قدرة عظيمة في التَّنظيم ، والخبرة الأَعظم في فَنِّ قيادة الرَّجال .

وفي تبوك ، بعد انسحاب الرُّوم شمالاً عندما علموا بضخامة جيش المسلمين ، وما يتمتَّع به من روح معنويَّة عالية فريدة ، أصبح للمسلمين حلفاء على حدودهم الشَّماليَّة ، بين المسلمين وبينهم معاهدات ، فكانت بلادهم مراكز انطلاق قادمة في حروب المسلمين مع الرُّوم ، والَّتي ستكون (اليرموك) أوجها وحدَّها الفاصل .

وبعد تبوك ، انتهى تردَّد المتخلِّفين من القبائل العربيَّة عن الالتحاق في الدِّين الجديد ، فجاء وفد ثقيف مسلماً مبايعاً ، قال ابن هشام : حدَّثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع ، وأنَّها تسمَّى (سَنَة الوفود) ، لقد عرفت قريش والعرب كلَّهم معها بعد تبوك ، أنَّهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله عَلَيْتُهُ ، ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله أفواجاً ، يضربون إليه من كلِّ وجه ، وبخاصة بعد أن قالت العرب : « اتركوه وقومه ، فإنَّه إن ظهر عليهم فهو نبيًّ صادق » .

وتبوك ، خطوة معنويَّة كبيرة عظية ، أظهرت المسلمين قوَّة عالميَّة ، خشيها هرقل قيصر الرُّوم ، وآثرت قوَّاته الانسحاب أمامها ، فن القبائل العربية تجاهه ؟ فآثرت الانضواء تحت راية الإسلام .

ويكون الرَّسول الأعظم عَلَيْكِم قد قدَّم شهادة الإسلام الحقِّ بعد تبوك ، للجيل الذي ربَّاه نفساً ، وإرادة ، وعزية ، وقلباً ، وروحاً ، وأعطاه لأبي بكر الصّديق رضي الله عنه جيشاً ناجحاً مدرَّباً ليتم المسيرة ، ولينقل الشَّعوب إلى ساحة الإسلام ، وعدله ، وإنسانيته ، وإخائه ..

☆ ☆ ☆



الْخُلَفاءُ الرَّاشِدُونَ

سقيفة بني ساعدة منبر حرّ ، تحققت فيه الشّورى بسأوضح صورها ، عندما أدلي بالحجج ، ومن لم يقدم رأيا أو نصاً ، فلا حجّة له ، وتدل الأحاديث الّتي دارت بين الصّحابة عند بيعة أبي بكر وبعدها ، على أنّهم بايعوه لسابقته في الإسلام وفضله وسنّه أيضاً .

تهيد:

« إِنَّ غاية التَّاريخ هي إدراك الماضي كا كان ، لا كا نتوهَّم أَنَّه كان ، وكذلك ليس هو تصوير الماضي كا يجب أن يكون ، أو كا نريده أن يكون »(١) .

توفي رسول الله عَلِي يوم الاثنين ١٢ ربيع الأوَّل سنة ١١ هـ ، الموافق ٧ حزيران (يونيو) سنة ١٣٦ م ، وبما لاشكُ فيه أنَّ وفاته عَلِي كانت في ساعة هي من أدق السَّاعات الحاسمة في تاريخ أمتنا ، فخارجيا الفُرْس والرَّوم على صلة وثيقة بأحداث شبه جزيرة العرب ، خصوصاً بعد رسائله عَلِي إلى اللوك والأمراء ، وبعد مؤتة وتبوك ، وداخليًا فئة مسلمة صادقة ، نهلتِ الإسلام صافياً من معينه ، تربَّت في كنف رسول الله عَلَي الله عَلَي نشر الإسلام وحمايته ، ولو بذلت الأرواح دونه .

وفئة أسلمت (طاعة) سَنَة الوفود ، لم تتشرّب أرواحها العقيدة ، ولم تحظ بنصيب كاف في التّربية والصّحبة ، منها من ارتد وتبع المتنبّئين ، ومنها من امتنع عن دفع الزّكاة .

⁽١) نحن والتَّاريخ: قسطنطين زريق.

إِنَّ التَّغلُّب على هذه السَّاعة الحرجة الدَّقيقة ، والمصيريَّة ، يتُّ باختيار خليفة يمتاز بخلالٍ تمكّنه من تأمين الدِّين من التَّحريف ، والأُمَّةِ من الانحراف .

شُروط خلافة رسول الله عَلَيْةِ ومتطلّباتُها (١):

إِنَّ الَّذِي سيخلف رسول الله عَلِيَّةِ بجب أَن تتوافر فيه أُمور هي :

ا ـ يتاز بأنّه ظلّ طوال حياته بعد الإسلام متمتّعاً بثقة رسول الله عَلَيْة ، مع شهادته له ، واستخلافه إيّاه في القيام ببعض أركان الدّين الأساسيّة ، مع الصّحبة في مناسبات خطرة دقيقة ، لا يستصحب فيها الإنسان إلاّ من يثق به كل الثّقة ، ويعتمد عليه كل الاعتاد .

٢ ـ و يمتاز بالتَّاسك والصَّود في وجه الأَعاصير والعواصف الَّتي تكاد تعصف بجوهر الدِّين ولُبِّه ، وتحبط مساعي رسول الله عَلَيْكُ ، ثابت ثبوت الجبال الرَّاسيات ، ويمثَّل دور خلفاء الأَنبياء الصَّادقين الرَّاسخين .

٣ ـ و يتاز في فهمه الدَّقيق للإسلام ، ومعايشته له في حياة رسول الله على اختلاف أطواره وألوانه ، من سِلْم وحرب ، وخوف وأمن ، ووحدة واجتاع ، وشدَّة ورخاء .

٥ ـ ويكون دقيقاً كلَّ الدَّقة ، وحريصاً أشد الحرص في تنفيذ رغبات رسول الله ويلاية ، الَّذي يخلفه في أُمَّته بعد وفاته ، لا يحيد عن ذلك قيد شعرة ، ولا يساوم فيه أحداً ، ولا يخاف لومة لائم .

⁽١) انظر لهـذا المـوضـوع : المرتضى ، لأبي الحسن علي الحسني النَّــدُوي ، دار القلم بــدمشــق ، ص : ٦١ وما بعدها .

٦ ـ و يمتاز بالزُّهد في متاع الدُّنيا ، ولا يخطر بباله تأسيس الْمُلْك والدَّولِة وتوسيعها لصالح عشيرته وورثته ، كا اعتادت ذلك الأُسر الملوكيَّة الحاكيَّة في أقرب الدُّول والحكومات من جزيرة العرب ، كبيزنطة ، وفارس ، والحبشة .

هل اجتمعت هذه الشُّروط في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ؟ :

١ - ثقة رسول الله عَلَيْتُهِ : إِنَّ أَبِه بَكِيْتُهِ : إِنَّ أَبِه بَكِيْتُهِ : إِنَّ أَبِه بَكِيْتُهِ مِن يثق به كل الثَّقة : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُما في الغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحبِهِ لاتَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا ﴾ ، [التَّوبة : ٢٠/١] .

واستخلفه عَلَيْتُهُ في القيام ببعض أركان الدِّين الأساسيَّة ، والاستخلاف في الصَّلاة وفي الحجِّ لا يكون ، إنَّها فريضتان شخصيَّتان يقوم بها الفرد نفسه ، استخلفه في الإمامة في الصَّلاة وفي الحجِّ : « مُرُوا أَبا بكر فليصلِّ بالنَّاس »(١) ، واستخلفه في إمارة الحجِّ سنة تسع للهجرة ، وهو منصب كبير ، ومسؤولية كبيرة .

٢ ـ وتجلّى تماسك أبي بكر وصوده في أكبر محنة ، وفاة رسول الله عَلَيْهِ ، فكان رجل السّاعة المطلوب ، والجبل الرَّاسي : « أَيُّها النَّاس ، إنَّه مَنْ كان يعبد محمَّداً فإنَّ محداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيِّ لا يوت » (١) : ﴿ وما محمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُم عَلَى أَعْقابِكُم وَمَنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضَرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، [ال عران: ١٤٤/٣] .

٣ ـ وظهر الفهم السَّلم والدَّقيق للإسلام عند أبي بكر ، عندما عالج مسألة مانعي الزَّكاة : « والله لو منعوني عَناقاً ـ أو عِقالاً (٢) ـ كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله لأَقاتلنَهم على منعها ، إنَّ الزَّكاة حقَّ المال ، والله لأَقاتلن من فرَّق بين الصَّلاة والزَّكاة »(١) .

⁽١) ابن سعد : ١٧٨/٣ ، أسد الغابة : ٢٢١/٣

⁽٢) الطّبري : ٢١١/٣

⁽٣) العَناق: الأنثى من المعز،

 ⁽٤) البداية والنّهاية : ٢١١/٦

فلو تهاون ولم يسدّ هذه الثُّغرة ، لفتحت ثغرات أُخرى :

في الصَّلاة : لا لزوم للجمعة والجاعة ، وحسبنا أن نصلِّي فرادى في بيوتنا . وفي الصَّوم : لا لزوم لتوقيته برمضان إن حلَّ في الصَّيف .

والحجُّ : فليكن في الرَّبيع أو في الخريف .

لذلك .. لا هوادة مع المرتدين ولا لين ، ولا مساومة ولا تنازل .

٤ ـ أمَّا غيرته رضي الله عنه عن أصالة الدّين ، « فقد أقرّ الجميع ، وشهد التّاريخ بأنّ أبا بكر قد وقف في مواجهة الرّدّة الطّاغية ، ومحاولة نقض عُرَى الإسلام عروة عروة ، موقف الأنبياء والرّسل في عصورهم ، وهذه خلافة النّبوّة الّتي أدّى أبو بكر حقّها ، واستحقّ بها ثناء المسلمين ودعاءهم إلى أن يرث الله الأرض وأهلها »(١).

إِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالَ ، والله لأُقاتلن من فرَّق بين الصَّلاة والزَّكَاة ، قال عمر عندها : فا هو إِلاَّ أَن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنَّه الحقُّ ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ تَابُوا وأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبيلَهُم ﴾ ، [التَّوبة : ٥/٩] .

٥ ـ أمّا حرصه على تنفيذ رغبات رسول الله على الله على الله عنه على الله عنه الله عنه الله عنه أسامة ، كا « والّذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أنّ السّباع تخطّفني لأنفذت بعث أسامة ، كا أمر به رسول الله على الله على على على على انفذته »(١) . وخرج يشيّعه ماشياً ، فهابته الأعراب والرّوم ، وفاز رضي الله عنه بوسام الطّاعة المطلقة عندما سيّر جيش أسامة في ساعة عصيبة دقيقة ، في حين لم يَرَ أحدٌ من المصلحة خروجه من المدينة خوفاً من غارات الأعراب المرتدين على المدينة .

قال ابن كثير : « ردّ شارد الدّين بعد ذهابه ، ورجّع الحقّ إلى نصابه ، وتهدت

⁽١) المرتضى ، ص : ٦٧

⁽٢) الطّبري: ٢٢٥/٢

جزيرة العرب ، وصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى »

7 - أمَّا الزّهد في متاع الدُّنيا والتّمتّع به ، والورع في الانتفاع ببيت مال المسلمين ، فقد ورد عنه رضي الله عنه ، لما احتضر قال : « يا عائشة ، انظري اللّفحة (٢) الّتي كنَّا نشرب من لبنها ، والْجَفْنَة الّتي كنَّا نصطبغ أن فيها ، والقطيفة (٤) الّتي كنّا نلبسها ، وإنّا كنَّا ننتفع بذلك حين كنَّا نلي أمر المسلمين ، فإذا مِتُ فاردديه إلى عمر » ، فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر ، فقال عمر : رحمك الله يا أبا بكر ، لقد أتعبت من جاء بعدك (٥) .

* * *

الأمر شُورى في الإسلام:

مبدأ الشُّورى ظاهرة سليمة ، تجعل المسلم إيجابيّاً وفعَّالاً ومساهماً بدور بارز في إدارة مؤسَّسات الدَّولة ، فالإسلام ترك الأمر إلى المسلمين ، وإلى أهل الشُّورى ، وأهل العلم والإخلاص في اختيار الخليفة .

جاء في صحيح البخاري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عبّاس رضي الله عنها ، قال : يوم حضر رسول الله عليه وفي البيت رجال ، فقال عليه « هَلُمُّوا أَكْتَب لَمُ كَتَاباً لا تضلّوا بعده » ، فقال بعضهم أن ابن رسول الله عليه قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصوا ، فنهم من

⁽١) البداية والنّهاية : ٣٣٢/٦

 ⁽٢) اللَّقْحَة واللَّقْحَة : النَّاقة من حين يسمن سنام ولدها ، ولا يزال ذلك اسمها حتَّى يمضي لها سبعة أشهر
 و يُفْصَل ولدها ، والجمع لِقَح ولِقاح ، [اللَّسان : لقح] .

⁽٣) نصطبغ : نغمس ، صبغتِ النَّاقةُ مشافرها في الماء إذا غستها .

⁽٤) القطيفة : فرش أو دثار مُخْمل .

⁽٥) تاريخ الخلفاء: ص: ٨٧

 ⁽٦) ولعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

يقول قرّبوا يكتب لكم كتاباً لاتضلُّوا بعده ، ومنهم مَنْ يقول غير ذلك ، فلما أكثروا اللَّغو والاختلاف ، قال رسول الله عَلِيلَةٍ : « قوموا »(١) .

وقد عاش عَيِّكَ بعدما طلب القرطاس ثلاثة أيَّام ، ولم يعد إلى ماطلبه ، ولم يصرِّح بشيء في أمر الخلافة ، ووصَّى في نفس ذلك اليوم وبعده بوصايا ، ولم يصرِّح فيها بشيء في أمر الخلافة (٢) .

يقول الأستاذ العقّاد معلّقاً على حديث القرطاس: « أمَّا القول بأنّ عمر هو الّذي حال بين النّبيّ عليه السّلام والتّوصية باختيار علي للخلافة بعده ، فهو قول من السّخف بحيث يسيء إلى كلّ ذي شأن في هذه المسألة ، ولا تقتصر مساءته على عمر ، ومَنْ رأى في المسألة مثل رأيه .

فالنَّبيُّ عليه السَّلام لم يَدْعُ بالكتاب الَّذي طلبه ليوسي بخلافة على ، أو خلافة غيره ، لأَنَّ الوصيَّة بالخلافة لاتحتاج إلى أكثر من كلمة تقال ، أو إشارة كالإشارة الَّتي فهم المسلمون منها إيثار أبي بكر بالتَّقديم ، وهي إشارته إليه أن يصلِّي بالنَّاس .

وقد عاش النَّبيُّ بعد طلب الكتاب فلم يكرِّر طلبه ، ولم يكن بين علي وبين لقائمه حائل ، وكانت السَّيِّدة فاطمة زوج علي عنده إلى أن فاضت نفسه الشَّريفة ، فلو شاء لدعا به ، وعَهد إليه .

وفضلاً عن هذا السُّكوت الَّذي لا إكراه فيه ، نرجع إلى كلِّ سابق من سنن النَّبيِّ في تولية الولاة ، فنرى أَنَّه كان يجنِّب آله الولاية ، ويمنع وراثة الأنبياء ، وهذه السُّنَّة مع هذا السُّكوت لا يدلاَّن على أن محمَّداً صلوات الله عليه أراد خلافة علي ، فحيل بينه وبين الجهر بما أراد »(٢) .

الجامع الصّحيح للبخاري ، كتاب المغازي ، باب مرض النّبيّ ووفاته .

⁽٢) المرتضى ، ص : ٧٤

⁽٣) العبقريات الإسلاميَّة ، ص : ٦١٩ ، دار الفتوح ـ القاهرة .

وقال عن الوراثة في خلافة رسول الله عَلَيْهِ : « ولو أنّها كانت ضرورة من ضرورات الدّين أو ضرورات القضاء ، لنفذت في السدّنيا كا ينفذ القضاء المبرم ، وحبطت كلٌّ خلافة تنازعها ، كا تُحْبَط كلٌّ بدعة تناقض السّنن الكونيَّة »(١) .

وأمر طبيعي أن يرى الأنصار أن لهم حقاً في خلافة رسول الله (المكبي) المهاجر مع أصحابه وعشيرته ، فهم أهل الدار ، وتفطن عمر بألميته التي امتاز بها في أقرانه ، وعرف أن الأمر لا يحتل التاخير ولا ليوم ، فاستعجل الأمر ، لأن العرب لن تخضع إلا لقريش بما لها من ركائز وخلفيات دينية واجتاعية .

وفي سقيفة بني ساعدة قالت الأنصار للمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير (٢) ، فأتاهم عمر فقال : يا معشر الأنصار ، ألستم تعلمون أنَّ رسول الله عَلِيلَةٍ أمر أبا بكر أن يوُمَّ النَّاس ؟ فأيَّكم تطيب نفسه أن يتقدَّم أبا بكر ؟ فقالوا : نعوذ بالله أن نتقدَّم أبا بكر ؟ .

وجاء في الطّبري: قال عرو بن حريث لسعيد بن زيد: أشهدت وفاة رسول الله عليه ؟ قال: نعم، قال: فتى بويع لأبي بكر؟ قال سعيد: يوم مات رسول الله عليه ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة، قال: فخالف عليه أحد؟ قال سعيد: لا، إلا مرتد أو مَنْ قد كاد أن يرتد، لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار، قال: فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال سعيد: لا، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم، [٢٠٧/٢].

⁽١) العبقريات الإسلاميّة ، ص : ٩٣٦ ، دار الفتوح ـ القاهرة .

⁽Y) وكان مرشحهم سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي (أبو ثابت) ، كان يلقّب في الجاهليّة بالكامل ، لمرفته الكتابة والرّمي والسّباحة . شهد العقبة الشّانية ، وشهد أحداً والخندق وغيرهما ، توفي سنة ١٤ هـ ، وقبره في بلدة المليحة في غوطة دمشق الشّرقيّة .

⁽٣) عندها قبال عمر: إنَّ الله قيد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله عَلِيْتُم ، وشاني اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايموه .

وقال حبيب بن أبي ثابت : كان عليًّ في بيته إذ أُتِيَ فقيل له : قد جلس أبو بكر للبيعة ، فخرج في قميص ماعليه إزار ولا رداء ، عَجِلاً كراهية أن يُبطئ عنها ، حتَّى بايَعَهُ ، ثمَّ جلس إليه ، وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلَّله ولزم مجلسه (١) .

بايع النَّاس أبا بكر بيعة خاصَّة في سقيفة بني ساعدة ، وفي اليوم التَّالي بايع النَّاس في المسجد البيعة العامَّة (٢) .

ومما سبق يمكن القول: إنَّه ليس في القرآن الكريم ، ولا في الحديث الشَّريف نصَّ على خلافة رجل ما ، ولو وجد هذا النَّصُّ لاتَّبع ، ولما استطاع أحد من المسلمين أن يخالفه ، فاجتاع السَّقيفة أفضل محكً لمعرفة قيمة النَّصوص في تخصيص الخلافة برجل أو بأسرة .

إنَّ سقيفة بني ساعدة منبر حرَّ ، تحقَّقت فيه الشُّورى بأوضح صورها ، عندما أُدلي بالحجج ، ومن لم يقدَّم رأياً أو نصًا ، فلا حجة له ، وتدل الأحاديث الَّتي دارت بين الصَّحابة عند بيعة أبي بكر وبعدها ، على أنَّهم إنَّا بايعوه لسابقته في الإسلام ، وفضله وسنِّه أيضاً ، إذ كان للسِّن شأنها الكبير ، مع أمر رسول الله عَلَيْ أبا بكر أن يؤمَّ النَّاس .

☆ ☆ ☆

أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه خليفة :

أبو بكر الصِّدّيق : عبد الله بن عثان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن

⁽١) الطّبري : ٢٠٧/٣

⁽٢) وبذلك تكون البيعة قد أُخذت من الحاضرين في المدينة المنوّرة لأنَّ فيها معظم الصَّحابة ، أصحاب الحلّ والعقد ، وبذلك عرف المسلمون أيضاً المهاجرين من قريش فضلهم على سائر المسلمين ، وأنَّ العرب لا تنقاد إلاَّ إليهم ،

تيم بن مرَّة بن كعب بن لؤي القرشي التَّيمي (١) ، أبو بكر الصِّدِّيق بن أبي قحافة (٢) ، وهي وأُمَّه : أُم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة ، وهي ابنة عم أبي قحافة ، وقيل : اسمها ليلى بنت صخر بن عامر .

ولد بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر $^{(7)}$.

إِنَّه (العتيق) ، لحسن وجهه وجماله ، ولأنَّه لم يكن في نسبه شيء يعاب به ، ولأَن رسول الله ﷺ قال له : « أَنت عتيق الله من النَّار »(٤)

وإنّه (الصّدّيق) ، فلما أسري برسول الله عَلَيْتُم إلى المسجد الأقصى أصبح يُحَدِّث النّاس بذلك ، فارتدَّ ناس ممن كان آمن به ، وصدّق وفُتنوا ، فقال أبو بكر: إنّي لأصدّقه فيا هو أبعد من ذلك ، أصدّقه بخبر السّماء غَدُوة أو رَوْحَة ، فلذلك سُمّي أبو بكر الصّدّيق (٥) .

كان رضي الله عنه من رؤساء قريش في الجاهليَّة ، مُحَبَّباً فيهم ، كان تاجراً ذا خُلُق ومعروف ، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته ، فلما جاء الإسلام سبق إليه ، فكان أوَّل من أسلم من الرِّجال (١) ، وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له ، حتَّى إنَّه أسلم على يده خمسة من العشرة المبشرين بالجنَّة ، وهم : عثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرَّحن بن عوف .

قال عَلِيَّةٍ : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاَّ كانت لـه عنـه كبوة وتردُّد ونظر ، إلاَّ

⁽١) يلتقي نسبه ونسب رسول الله عند مرَّة بن كعب بعد ستَّة آباء .

⁽٢) اسم أبي قحافة : عثان ، عاش حتَّى رأى أبا بكر خليفة ، ومات أبو بكر قبله ، أسلم عام الفتح .

⁽٢) أُسد الغابة : ٣٠٩/٣ ، الإصابة : ٣٤١/٢ ، الطّبقات الكبرى لابن سعد : ١٦٩/٣ ، ابن هشام : ٢٣١/١

⁽٤) الإصابة : ٢٤٣/٢ ، الاستيعاب : ٢٤٣/٢ ، ابن سعد : ١٧٠/٣ ، أسد الغابة : ٣١٠/٣

⁽٥) الصِّدّيق : الْمُصَدِّق ، والصِّدّيق : المبالغ في الصِّدْق ، [اللَّسان : صدق] .

٦) أُسد الغابة : ٣٣٣/٣ ، طبقات ابن سعد : ١٧١/٣ ، الإصابة : ٣٤٤/٢ ، الاستيعاب : ٣٤٣/٢

أبا بكر ماعَتَّم (١) حين ذكرته له ، ماتردَّد فيه » .

هاجر رضي الله عنه مع رسول الله وسي وصحبه في الغار ، وآنسه فيه ، ووقاه بنفسه ، قال لرسول الله والله وا

وشهد رضي الله عنه بدراً وأحداً والخندق والحديبية والمشاهد كلها مع رسول الله عليه ، وكان فين ثبت مع رسول الله عليه عليه وحنين حين ولى النّاس (٢) .

قال عنه رسول الله على الله على الله على الله على الله عنه رسول الله عنه وقال : وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله (٤) ! .

وفي حياة رسول الله على الله على الله عنه أمير الحج سنة تسع للهجرة (٥)، وقال على عند مرضه : « لِيُصَلِّ أَبُو بكر بالنّاس » قالوا : لو أمرت غيره ؟ ـ لرقّته وضعف صوته ـ قال عَلَيْكَ عند الله عنه لأمّتي أن يَؤُمّهم إمام وفيهم أبو بكر (١) » .

بيانة الحكومي : « مجتم الطَّأنينة والمساواة ، النَّاس سواء »:

قام رضي الله عنه بعد بيعته ، ليحدّ سياسته في الحكم ، وليوضِّح نهجه التَّبع فيا

⁽١) عَتَم الرَّجل عن الشَّيء يَعْتِم وعَتَّم : كَفُّ عنه بعد المضيِّ فيه ، وعَتَّم وأعتم : أَبطأ (وهو المراد هنا) ، [اللَّسان : عتم] .

⁽٢) ابن سعد : ١٧٤/٣ ، أسد الغابة : ٢١٥/٣ ، المسند : ٣٤٤/٤ ، فتح الباري : ١١/٧

⁽٣) أسد الغابة : ٣١٨/٣ ، الإصابة : ٣٤١/٢

⁽٤) أُسد الغابة : ٣٢٦/٣ ، الإصابة : ٣٤٣/٢ ، وفي منتخب كنز العمال : ٣٤٣/٤ : « ماأحد أعظم عندي يـدأ من أبي بكر ، واساني بنفسه وماله وأنكحني ابنته » .

⁽٥) الطّبري : ۱۲۲/۳ ، ابن سعد : ۱۷۷/۲ .

⁽٦) أسد الغابة : ٣٢٠/٣ ، منتخب كنز العال : ٣٤٣/٤ .

سيأتي من أيام خلال خلافته ، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهل ، ثم قال : « أمّا بعد ، أيّها النّاس ، فإنّي قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم » (١) ، وهنا تواضع منه رضي الله عنه مع رفيع منزلته ، وسمو مكانته بين المهاجرين والأنصار ، « فإن أحسنت فأعينوني » ، أمل في الإخلاص والخير لكلّ المجتع ، « وإن أسأت فقوّموني »، قبول للنّصح والتّوجيه والنّقد لما فيه صلاح أمور الأمّة ، « الصّدق أمانة ، والكذب خيانة » مفتان من أسس التّعامل السّليم في كلّ أمور الحياة ، « الضّعيف فيكم قويًّ عندي حتّى أربح عليه (٢) حقّه إن شاء الله ، والقويًّ منكم الضّعيف عندي حتّى آخذ الحقّ منه إن شاء الله »، العدالة والأمن والأمان للضّعيف ، والقويًّ مقيّدة قوّته بشرع الله وعدل الحاكم ، فلا تجبّر ولا عتو ولا فساد ، « لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله ، فإنّه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل »، الجهاد لرفع كلمة الله عزّ وجلّ ، ومن تركه فقد ذل بسطوة الكفر والوثنيّة والشّرك ، « ولاتشيع الفاحشة في قوم إلاّ عَمّهم الله بالبلاء »، الطمأنينة والأمن والرّاحة النّفسيّة ، « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الطمأنينة والأمن والرّاحة النّفسيّة ، « أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله »، سلطة محدّدة مقيّدة بشرع الله ونهجه ، وفي حال خرقها وتجاوزها فلا طاعة إلاّ فيا أمر الله عز وجل .

هذه هي سياسة الصّدِّيق رضي الله عنه الّتي اختطها لنفسه خلال خلافته ، والّتي دامت سنتين وأربعة أشهر إلا أربع ليال ، حيث توفي رضي الله عنه في المدينة وهو ابن ثلاث وستين ، يوم الجمعة لسبع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة .

ولتنفيذ هذه السيّاسة ، جعل رضي الله عنه (وزير الماليّة) أمين هذه الأمّة : أبا عبيدة بن الجرّاح الّذي تولّى شؤون بيت المال ، وتولّى عمر بن الخطاب القضاء (وزارة العدل)، وتولّى زيد بن ثابت الكتابة (وزارة البريد والمواصلات).

⁽١) مابين قوسين نصُّ خطبته رضي الله عنه ، الطّبري : ٢١٠/٣ .

⁽٢) أَرْخُتُ على الرَّجِل خَقَّه إذا ردَّته عليه ، أرح حقّه أي رُدَّه ، [اللَّسان : زوح] .

أوّل أعماله: «طاعة رسول الله في إنفاذ جيش أسامة »: لقد سيّر رضي الله عنه جيش أسامة بن زيد ، وهذه طاعة مطلقة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم بعد وفاته ، وهي أساس سياسة الصّديق: « والّذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أنّ السّباع تخطّفني لأنفذت بعث أسامة كا أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ولو لم يبق في القرى غيري أنفذته »(١).

لقد أنفذ جيش أسامة وأمره أن يصنع ما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج يشيّع الجيش ماشياً، واستأذن أسامة أن يبقي له عمر بن الخطاب بأدب ولطف.

إنَّ إنفاذ هذا الجيش إلى مشارف الشَّام ، حقَّق ما أُريد من إنفاذه تماماً ، حتَّى قالت القبائل : لولم يكن المسلمون على قوَّة لما خرج من عندهم هؤلاء ، وهابهم الرُّوم أيضاً فلم يتجرَّأوا على مهاجمتهم ، لأنَّ الرُّوم ليسوا بمعزل عما يحدث في جزيرة العرب .

☆ ☆ ☆

المرتَدُّونَ

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلّم ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب (٢) ، منهم من انحاز إلى المتنبئين ، ومنهم من أقرّ بالصّلاة ومنع الزّكاة .

لقد انحاز إلى مسيلمة الكذَّاب بنو حنيفة ، وخلق كثير من أهل اليامة . والتفَّ حول طليحة بن خويلد الأسدي بنو أسد وطيِّء وغطفان .

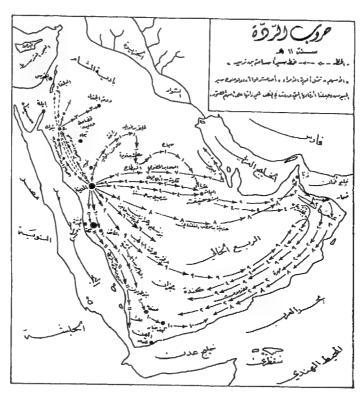
وتنبّأت سجاح وتبعها بنو تميم .

وتنبّأ مالك بن نويرة .

⁽١) الطبّري: ٢٢٥/٣.

⁽٢) البداية والنَّهاية : ٢١١/٦ ، الطّبري : ٢٤١/٣ . وفي الكامل في النّاريخ : ٢٣١/٢ : ارتدت كلُّ قبيلة عامّة أو خاصّة ، إلاّ قريشاً وثقيفاً لم يكن بها ارتداد حتّى ولو جزئياً .

وارتدت سُلَم مع الفجاءة إياس بن عبد الله بن عبد ياليل (١) . وارتدت كِنْدَة وعليها الأشعث بن قيس الكندي . وارتدت ربيعة مع المغرور المنذر بن النَّعان بن المنذر (١) . ومازالت الين تعاني من أتباع الأسود العنسي ، فَعَظَم الخطب ، واشتدت الحال .



لاحظ عظمة الصِّدَّيق رضي الله عنه ، تمقن المصوَّر والجيوش
 ووجهة كل منها
 إنّها تفطية سليمة رائعة لجميع أرجاء الجزيرة العربيَّة

⁽١) وهو في بعض المراجع : أنس بن عبد ياليل .

⁽٢) وهو في البداية والنَّهاية : ٣١٢/٦ : المعرور .

وبعث المرتدون وفوداً إلى المدينة المنوَّرة ، فنزلوا على وجوه النَّاس ، وجيء بهم إلى أبي بكر ، على أن يقيوا الصَّلاة ، ولا يؤتوا الزَّكاة ، فعزم الله لأبي بكر على الحق ، وقال : لو منعوني عقالاً لجاهدتهم .

رجعت وفود الأعراب إلى عشائرهم ، فأخبروهم بقلة أهل المدينة ، وطمّعوهم فيها ، لأنَّ جيش أسامة سار إلى مشارف الشّام ، ووعى أبو بكر رضي الله عنه خطورة الموقف ، فجعل على أنقاب المدينة حُرَّاساً يبيتون بالجيوش حولها ، وكان من أمراء الحرس : علي ، والزبير ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم . واستطاع المسلمون في المدينة ردَّ غارات المرتدين اللَّيليَّة (١) .

عودة جيش أسامة : ثمَّ قدم أسامة بن زيد ومن معه بعد ذلك بليال ، فاستخلفه أبو بكر على المدينة ، وأمر الجند أن يريحوا الخيل والإبل ، ثمَّ ركب أبو بكر في الله النوا معه قبل مجيء أسامة إلى ذي القصة ، فقال المسلمون : لو رجعت إلى المدينة وأرسلت رجلاً ، فقال رضي الله عنه : والله لا أفعل ، ولأواسيّنكم بنفسي .

وجعل عر وعلي رضي الله عنها يكلّمان أبا بكر في الرَّجوع إلى المدينة لمّا رأيا عزمه على المسير بنفسه ، وقال عمر : ارجع ياخليفة رسول الله تكن للمسلمين فِئَةً وردءاً فإنّك إن تَقْتَل يرتد النّاس ، ويَعْلُ الباطل ، وأبو بكر مظهر المسير بنفسه ، وسألهم بمن نبدأ من أهل الرِّدة ؟ فاختلفوا عليه ، فقال أبو بكر : نصد لهذا الكذاب على الله وعلى كتابه طليحة .

وسار أبو بكر بمن معه إلى ذي حسى وذي القصة (٢) ، والنعان وعبد الله وسويد بنو مُقرِّن المزني على ماكانوا عليه من حيث التَّعبئة ، ثمَّ نزل على أهل الرَّبَذة :

⁽١) ابن خلدون : ٢٦/٢ و ٦٧ ، الكامل في التاريخ : ٢٣٣/٢ .

 ⁽٢) ذو القَصّة : موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً ، (الميل الشّرعي : ١٨٤٨ م) ، [معجم البلدان : ٣٦٦/٤] .

بالأبرق (١) ، وهناك جماعة من بني عبس وذبيان ، وطائفة من بني كنانة ، فاقتتلوا ، فهزم الله المرتدين .

☆ ☆ ☆

أَبْرَعُ قَادَةٍ فِي التاريخ : (ألوية الأُمراء : أحدَ عشر لواء):

أراح أسامة بن زيد جنده في المدينة المنوّرة ، بعد غياب عنها دام حوالي ستّين يوماً (٢) ، وبعد استجام الجند وراحتهم ، ركب الصّدّيق متقدّماً الجند شاهراً سيفه من المدينة إلى ذي القصة ، وعلي بن أبي طالب يقود براحلة الصّدّيق رضي الله عنها ، فسأله الصّحابة وألحوا عليه أن يرجع إلى المدينة ، وأن يبعث لقتال الأعراب غيره ممّن يؤمّره من الشّجعان والأبطال ، فأجابهم إلى ذلك ، وعقد لهم الألوية لأحد عشر أميراً .

١ ـ سيف الله خالد بن الوليد : ووجهته إلى بزاخة حيث طليحة بن خويلد الأسدي ، ثمَّ إلى البطاح حيث مالك بن نويرة ، ثمَّ إلى اليامة حيث أخطر المتنبئين مسيلمة الكذَّاب .

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل : إلى اليامة حيث مسياسة الكنَّاب ، إنَّه ومن معه قوَّة احتياطيَّة لأكبر معركة منتظّرة ـ معركة اليامة ـ إنَّه وقواته قوة رادفة لخالد بن الوليد (٤) ، ثم إلى عُمَان (٥) ، ثم إلى مهرة ، فحضرموت ، فالين .

⁽١) أَبْرَقُ الرَّبَذَة : موضع كانت به وقعة بين أهل الرِّدَّة وأبي بكر ، كان من منازل بني ذُبيان ، فغلبهم عليه أبو بكر ، [معجم البلدان : ٦٨/١] .

⁽٢) وفي الكامل في التَّاريخ : ٢٣٣/٢ : وقيل كانت غزوته وعودته في أربعين يوماً .

⁽٢) البداية والنهاية : ٢١٥/٦ ، الطُّبري : ٢٤٩/٣ ، الكامل في التَّاريخ : ٢٣٤/٢ ، [انظر المصوَّر] .

⁽٤) في الاكتفاء: ١٩/٢: « كان مع عكرمة (٢٠٠٠) رجل »، وهدف قوَّات عكرمة إبقاء مسيلمة في الياسة يتوقَّع هجوم المسلمين ، وعدم تمكينه من ترك قواعده ، وتجميده في مواقعه حتَّى يفرغ خالد من حروبه في شمال وأواسط الجزيرة العربيَّة .

⁽٥) حيث ذو التَّاج: لقيط بن مالك الأزدي.

- ٣ ـ عمرو بن العاص : إلى تبوك ، ودُومة الجندل حيث قضاعة ووديعة والحارث .
- ٤ ـ شرحبيل بن حسنة : إلى اليامة في إثر عكرمة بن أبي جهل ، وهو أيضاً قوّة احتياطيّة لمعركة اليامة الفاصلة ، إنّه ومن معه قوّة رادفة لخالد ، ثمّ وجهته حضرموت .
 - ٥ ـ خالد بن سعيد بن العاص : إلى الْحَمْقَتَيْن (مشارف الشَّام)(١) .
 - ٦ ـ طريفة بن حاجز (٢) : إلى شرقي المدينة ومكّة ، حيث هوازن وبنو سُلَيْم .
 - ٧ ـ العلاء بن الحضرمي : إلى البحرين حيث المنذر بن النعان بن المنذر .
- ٨ ـ حـذيفة بن محصن الغلفاني (١٥) : إلى عُمان (إلى أهـل دبـا) حيث ذو التَّـاج لقيط بن مالك الأزدي ، ثمَّ إلى مهرة ، فحضرموت ، فالين .
 - ٩ ـ عرفجة بن هرثمة البارقي : إلى عُهان ، ثمَّ مهرة ، فحضرموت ، فالين .
- ١٠ ـ المهاجر بن أبي أميّة : إلى الين حيث الأسود العنسي ، ولمعونة الأبناء على قيس بن مكشوح ، ثمّ إلى كندة ، فحضرموت .
- ١١ ـ سُوَيد بن مُقَرِّن المزني : إلى تهامة الين ، سواحل البحر الأحمر وحتى باب الْمَنْدَب .

أُسُسُ قِتال المرتدين : « كتاب الصّديق إلى النّاس كافّة » :

وكتب أبو بكر الصّدِّيق رضي الله عنه لكلِّ أمير كتاباً وسيَّره مع جنده من ذي القَصَّة ، ورجع الصّدِّيق إلى المدينة المنوَّرة ، ونصُّ الكتاب الَّذي سيعمل بمضونه كلُّ الأُمراء ، التَّالي : « بسم الله الرحمن الرحم ، من أبي بكر خليفة رسول الله عَلِيَّةِ إلى من

⁽١) الحقتان : من مشارف الشَّام ، [معجم البلدان : ٢٠٥/٢] .

⁽٢) طرفة بن حاجب في البداية والنَّهاية ، وهو معن بن حاجز في الكامل في التَّاريخ .

⁽٣) حذيفة بن محصن الغطفاني في بعض المراجع .

بلغه كتابي هذا ، من عامَّة وخاصَّة ، أقام على إسلامه أو رجع عنــه ، سلام على من اتَّبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضَّلالة والهوى ، فإنِّي أحمد الله إليكم الَّـذي لا إلـه إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، نقرُّ بما جاء به ، ونكفِّر من أبي ذلك ونجاهده ، أما بعد ، فإنَّ الله أرسل بـالحقِّ من عنـده إلى خلقه بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، لينـذر من كان حيّاً ، ويحق القول على الكافرين ، فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله عليه من أُدبر عنه ، حتَّى صار إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً ، ثم توفَّى اللهُ رسولَهُ ، وقــد نفَّـذ لأمر الله ، ونصح لأُمَّته ، وقضى الَّذي عليه ، وكان الله قد بيَّن لـه ذلك ، ولأَهل الإسلام في الكتاب الَّدي أُنزل: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، [الزَّمر: ٣٠/٢٩] ، وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخالِدونَ ﴾ ، [الأنبياء : ٢٤/٢١] ، وقال للمؤمنين : ﴿ وَمَا مُحمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَو قُتِلَ انْقَلَبْتُم عَلَى أَعْقِ ابْكُم وَمَنْ يَنْقَلَبْ عَلَى عَقِبَيْ مِ فَلَنْ يَضَّرَّ اللَّهَ شَيْئُ أَ وَسَيَجُ زِي اللَّهُ الشَّاكرينَ ﴾ ، [آل عران : ١٤٤/٣] ، فمن كان إنَّها يعبد محمَّداً فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومن كان إنَّما يعبد الله فإنَّ الله حَيٌّ لا يموت ، ولا تأخذه سِنَـة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوّه ، وإنّي أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم وما جاءكم به نبيكم عَلَيْكُم ، وأن تهتدوا بهداه ، وأن تعتصوا بدين الله ، فإن كلَّ من لم يهده الله ضال ، وكلَّ من لم يعنه الله مخذول ، ومن هداه غير الله كان ضالاً ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ ، [الكهف: ١٧/١٨] ، ولم يقبل منه في الدُّنيا عمل حتَّى يقرَّ به ، ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل ، وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرَّ بالإسلام وعمل به ، اغتراراً بالله وجهلاً بأمره ، وإجابة للشَّيطان ، قـال الله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمُلائِكَةِ اسْجُـدُوا لاَدَمَ فَسَجَـدُوا إِلاًّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَـهُ وَذُرِّيَّتَـهُ أَوْلِيـاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئُسَ للظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ ، [الكهف: ١٨/٥٥] ، وقال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُّوهُ عَدُوّاً إِنَّا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ ﴾ ، [فاطر: ٧٣٠] .

وإني بعثت إليكم في جيش من المهاجرين والأنصار والتّابعين بإحسان ، وأمرته أن لا يقبل من أحد إلاّ الإيمان بالله ، ولا يقتله حتّى يدعوه إلى الله عزَّ وجلّ ، فإن أجاب وأقر وعمل صالحاً قبل منه ، وأعانه عليه ، وإن أبى حاربه عليه حتَّى يفيءَ إلى أمر الله ، ثمَّ لا يبقي على أحد منهم قدر عليه ، وأن يحرِّقهم بالنّار(١) ، وأن يقتلهم كل قتلة ، وأن يسبي النّساء والذّراري ، ولا يقبل من أحد غير الإسلام ، فن اتّبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابه في كلّ مجمع لكم ، والدّاعية الأذان ، فإن أذّن المسلمون فكفّوا عنهم ، وإن لم يُؤذّنوا فسلوهم ماعليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقرّوا حمل منهم على ما ينبغي لهم »(١) .

وحين انطلق خالد لوجهته لقتال أهل الرِّدَة _ وكان عليه أن يقاتل أقوى قوات المرتدين : طليحة ، ومالك ، ومسيلمة _ أمره الصِّدِّيق أن يقاتلهم على خمس خصال ، فن ترك واحدة من الخمس قاتله : شهادة أن لاإله إلاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، وعهد إليه أن لا يقاتل حتَّى يُعْذِر إليهم ، ويدعوهم إلى الإسلام ، ويبين لهم الَّذي لهم في الإسلام ، والذي عليهم فيه ، ويحرص على هداهم ، فن أجابه إلى مادعاه إليه من النَّاس كلِّهم أحرهم وأسودهم قبل منه ، وليَعْذر إلى من دعاه بالمعروف (٢) .

وكانت استجابة القبيلة لأذان المسلمين تعبيراً عن إسلامها وبُعْدِها عن الارتداد .

نتائج وملاحظات: تمكن الصّدّيق رضي الله عنه من جمع شمل جزيرة العرب من جديد ، بعد القضاء على كلّ المتنبّئين وكلّ مانعي الزّكاة ، وهذا النّجاح الرّائع خطّط له رضى الله عنه بدقّة وحكمة متناهيتَيْن .

⁽١) وهنا : قتل المرتدين بالطُّريقة نفسها الَّتي قتلوا بها المسلمين .

⁽٢) ابن خلدون : ٢٩/٦ ، البداية والنّهاية : ٢١٦/٦ ، الاكتفا : ٤/٢

⁽٣) الاكتفا: ٢/٤

أبو بكر الَّذي كانت صورته في الأذهان قبل حروب الرِّدَّة : طاعة وتقوى ، إيمان وذكر ، خشية ودموع ، قيام وتهجد ، رقَّة ونعومة ، حتَّى سُمِّي : (نحيف بن تَيْم) (١) ؛ هو اليوم : والله لومنعوني عَنَاقاً كانوا يؤدُّونه لرسول الله عَلَيْكَ لأَقاتلنَهم على منعها ، إنَّ الزَّكاة حقَّ المال ، والله لأَقاتلن مَنْ فرَّق بين الصَّلاة والزَّكاة ، فتَّل العزيمة والصِّدق والإخلاص .

وهذه الصُّورة لم تكن غائبة أيَّام رسول الله عَنِيلَة ، بل كانت في طور التَّلقي والأخذ ، لقد كان رضي الله عنه أيَّام رسول الله عَنِيلة ينهل بصت وعق من ينابيع النَّبوَّة ، نهل ورشف : حكمة وإياناً ، يقيناً وعزية ، تقوى وإخلاصاً ، فإذا هذه الصُّورة تثر : صلاحاً وصِدِّيقيَّة ، ذكراً ويقظة ، حُبّاً وصفاء ، عزية وتصياً ، إخلاصاً وفهاً ، فأصلح مافسَد ، وبنى ما هُدِم ، وجمع ما تفرَّق ، وقوَّم ما انحرف ، وانتصار المسلمين على المرتدين ، انتصار الإخلاص والعقيدة الرَّبًانيَّة على الرَّعونة والعصبيَّة ، فنقل الصَّدِيق العرب بالإسلام من جعيم مستعر أراده المرتدون ، إلى فردوس مزدهر أراده محد رسول الله عَلَيْنَة .

وأبو بكر جغرافي دقيق ، خبير بالتّضاريس والتّجمّعات البشريّة ، ومواصلات جزيرة العرب ، فكأن مصوّر الجزيرة مجسّم واضح نصب عينيه في غرفة عمليّات مجهّزة بأحدث وسائل التّقنية ، فمن يتعّن المصوّر وتسيير الجيوش ووجهة كلّ منها ، واجتاعها بعد تفرّقها ، وتفرّقها لتجتمع ثانية ، يرى تغطية سلية رائعة صحيحة مثاليّة لجيع أرجاء الجزيرة ، مع دقّة في الاتّصال مع هذه الجيوش ، فأبو بكر في كلّ ساعة يعلم أين مواقع هذه الجيوش ، ويعلم دقائق أمورها وتحرّكاتها ، وما حققت ، وما عليها في غير من واجبات .

⁽١) قال هذه العبارة أبو عقيل المليلي ، [أُسد الغـابـة : ٢٢١/٦] ، وقيل عنـه أيضـاً : (أَخْيَفُ بني تَيْم) ، والْخَيْف في الرَّجل أن تكون إحدى عينيه زرقاء والأُخرى سوداء ، [اللَّسان : خيف] .

والمراسلات دقيقة وسريعة ، تنقل إلى مقرّ القيادة في المدينة حيث الصّدّيق أخبار الجبهات ، باتّصال دائم ومستمر مع جيوشه كلّها ، وبرز من المراسلين العسكريّين ما بين الجبهات وبين مقرّ القيادة : أبو خيثة النّجّاري^(۱) ، وسلمة بن سلامة ، وأبو برزة الأسلمي^(۱) ، وسلمة بن وقش .

ويتساءل بعضهم: هل جاء طليحة وسجاح ومسيامة بمعجزة أسمى ، أو خارق عادة أقوى من ذلك اللّذي جاءهم به محمّد على الله متى يتخلّى المرتدّون عن الإسلام ويلتحقوا بهؤلاء المتنبّئين ؟ وهل جاءهم طليحة أو مسيامة .. بكلام أبلغ من القرآن ، وأكثر منه بهاء وروعة وطلاء وجمالاً ، فيحملهم على الارتداد واستبدال شيء مكان شيء ؟ وهل تردّى الذّوق العربي وقد كان في قمّة البلاغة إذ خاطبه الله تعالى بمعجزة البيان البليغ ، حتّى استقرّ في مثل هذا الحضيض ؟

من عرف عمق آشار العصبيّة القبليّة عند العرب ، لا يتساءل مشل هذه التساؤلات ، فضلاً عن كون الإسلام بالنّسبة للمرتدّين من الأمور الجديدة التي لامست أساعهم دون أن تدخل إلى الأعماق ، فهم ليسوا في حالة رفض دين سابق أبداً ، وخير ما نستشهد به عن هذا الواقع عنده ، ما ورد بوصفهم في قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأعْرابُ آمنّا قَلْ لَمْ تَوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُم ﴾ ، آمنّا قَلْ لَمْ تومِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُم ﴾ ، [المجرات : ١٤/٤١] ، ولشدّة العصبيّة القبليّة عند الأعراب في تلك الفترة ، كانوا يقعون بالكفر والنّفاق والابتعاد عن الحقّ ، فهم كا وصفهم ربّ العزّة : ﴿ الأعْرابُ أَشَدُّ كُفُراً وَنفاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيّ حَكيمٌ ﴾ ، ويفسّر لنا حركة الارتداد ؟ فهل بعد هذا القول يكن أن تساءل عن البرهان والدّليل والإعجاز ؟

⁽١) أبو خيثمة : عبد الله بن خيثة الأنصاري ، [أُسد الغابة : ٢٢٥/٣] .

⁽٢) أبو برزة : نضلة بن عبيد ، [أسد الغابة : ٢١١/٥] .

والأعراب لم يفقدوا الفهم والمعرفة وقوّة التّمييز، لكنهم يسلكون في طرق الفهم والمعرفة والتّمييز قنوات قبليّة ، فالعصبيّة تّعمي وتّصِم ، وتجعل صاحبها ينحرف عن جادّة الفهم والمعرفة والتّمييز، وحين كانت هذه العصبيّة ترفع رأسها لدى أحد الصّحابة ، سرعان ماكان رسول الله عَيْلِيَّةٍ يرشد إلى الخطأ في سلوك طريقها ، ويقول لصاحبها : أنت امرؤ فيك جاهليّة .

وبلاغة القرآن الكريم ماأفادت ، وهي تنطلق نَديَّة بنورانيَّة خاصَّة من فم رسول الله عَلَيْكُ أبا لهب وأبا جهل وعتبة وشيبة وأمثالهم !! ولم تنفع بلاغة القرآن الكريم وحكمه ومعجزاته المنافقين في المدينة المنوَّرة برئاسة عبد الله بن أبي بن سلول .

ومعظم من ارتدً ما وفد على رسول الله عَلَيْتُ مطلقاً ، لينال قسطاً من التّربية والتَّعليم .

والحقيقة التّاريخيّة تقول: لقد وطّدت انتصارات المسلمين في حروب الرّدّة كلّ ماحقّقته غزوات رسول الله عَلَيْكُم ، فلولا عزيمة الصّدّيق رضي الله عنه وصدقه وإخلاصه ، لكان ما تحقّق في حياة الرّسول في مهبّ الرّيح .

الارتداد (ثورة مضادة) تتعلَّق بمير دولة ناشئة وليدة ، وخروج عن طاعة الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ، فهيَّا الله لهذه الأُمَّة رجالاً صادقين ، على رأسهم خليفة رسول الله أبو بكر الصَّدِّيق ، فتمكَّنوا من إخماد هذه الثَّورة المضادّة ، وإرجاع العرب إلى الطَّاعة ، وإلى وحدة الكلمة ، وإلى العقيدة الإلهية التي بلَّغها رسول الله عَلِيْتَة .



الفَارُوقُ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه

« ابن مسعود : ماكنّا نقدر أن نُصَلّي عند الكعبة حتّى أسلم عمر ، وقال عكرمة : لم يزل الإسلام في اختفاء حتّى أسلَم عمر » .

أبو حفص ، عمر بن الخطَّاب بن نُفَيل بن عبد العزَّى بن رياح بن عبد الله بن قُرُط بن رَزاح بن عَدِي بن كعب بن لؤي القرشي العدوي .

وأُمُّه حَنْتَمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم .

ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة ، (٤٠ قبل الهجرة) .

كان في الجاهليَّة من أبطال قريش وأشرافهم ، وله السَّفارة فيهم (١) ، وهو أحد العُمَرَيُن اللَّذَيْن كان رسول الله عَلَيِّة يدعو ربَّه أن يعزَّ الإسلام بأحدها ، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين ، وشهد الوقائع ، قال ابن مسعود : ما كنَّا نقدر أن نُصَلِّي عند الكعبة حتَّى أسلم عمر ، وقال عكرمة : لم يزل الإسلام في اختفاء حتَّى أسلم عمر ، وقال عكرمة : لم يزل الإسلام في اختفاء حتَّى أسلم عمر (١) .

كان رضي الله عنه مع رسول الله على مثال التّاميذ الجريء القوي ، والأديب المطيع ، وكان يثّل جانب الصّرامة في إقامة الحقّ والحزم في تدبير الأمور .

وكان مع أبي بكر وزيرَ العدل ، وعنـد مرض أبي بكر مرض وفـاتـه ، جمع النَّـاس

⁽١) أسد الغابة : ١٤٦/٤

⁽٢) الأعلام: ٥/٥٤

وقال : إنّه قد نزل بي ما ترون ، ولا أظنني إلاّ ميتاً لما بي من مرض ، وقد أطلق الله أيانكم من بيعتي ، وحلّ عنكم عقدتي ، وردّ عليكم أمركم فأمّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمّرتم في حياةٍ منّي ، كان أجدرَ ألاّ تختلفوا بعدي .

فلئن كانت بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة فجأة ودون تدبير مسبق ، نرى أبا بكر يستشير كبار الصّحابة أصحاب الرَّأي واحداً بعد واحد ، ثمَّ قال لعبد الرَّحن بن عوف : أخبرني عن عمر بن الخطَّاب ؟! فقال له : ما تسألني عن أمر إلاَّ وأنتَ أعلم به منِّي ، فقال له : وإنْ ! فقال عبد الرَّحن : هو والله أفضل من رأيك فيه ، كما استشار عثمان ، وسعيد بن زيد ، وأسيد بن حضير ..

وخشي بعض الصّحابة من غلظة عمر ، وقالوا : ماأنت قائل لربّك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته ؟ فأجاب أبو بكر : أبالله تخوّفونني ؟ خاف من تزوّد من أمركم بظلم ، أقول : إنّي قد استخلفت على أهلك خير أهلك ، ثمّ أملى : «بسم الله الرّحن الرّحيم ، هذا ماعهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدّنيا خارجاً منها ، وأوّل عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدّق الكاذب ، إنّي استخلفت عليكم بعدي .. » ، وأخذته غشية فذُهِب به قبل أن يسمّي أحداً ، فكتب عثان : «عمر بن الخطّاب » ، ثمّ أفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ عليّ يسمّي أحداً ، فكتب عثان : «عمر بن الخطّاب » ، ثمّ أفاق أبو بكر ، فقال : اقرأ عليّ ما كتبت ، فقرأ عليه ذكر عمر ، فكبّر أبو بكر وقال : أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف النّاس ، فجزاك الله عن الإسلام خيراً ، والله إن كنت لها لأهلاً ، ونفسي وإيّاكم خيراً ، فإن عدل ، فذلك ظنّي به وعلي فيه ، وإن بدّل فلكل أمرئ ما ونفسي وإيّاكم خيراً ، فإن عدل ، فذلك ظنّي به وعلي فيه ، وإن بدّل فلكل أمرئ ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، ﴿ وَسَيَعُلَمُ السّذينَ ظَلَمُ واليّام عليكم ورحمة الله »(١) .

البيان الحكومي « سياسة الدولة » : صعد عمر رضي الله عنه المنبر ، وقال :

⁽١) الطُّبري : ٤٢٩/٢ ، و « كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلاَّ أربع ليال » ، [الطُّبري : ٢٠/٢] .

« ما كان الله ليراني أنّي أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر » ، فنزل درجة ، ثم قال ثلاث دعوات وطلب من النّاس : « أمّنوا » :

١ ـ « اللَّهم إنِّي ضعيف فقوِّني ، اللَّهم إنِّي غليظ فليِّني ، اللَّهم إنِّي مخيل فسخِّني .

٢ ـ لا يحضرني شيء من أمركم فَيَليه أحد دوني ، ولا يتغيّب عنّي فآلوا فيه عن أهل
 الصّدق والأمانة ، فمن يحسن نَزدُه ، ومن يسئ نعاقبُه .

٣ ـ اقرؤوا القرآن تُعرَفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزَنوا ، وتزيّنوا للعرض الأكبر ، يـوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية ، إنّـه لم يبلغ حقّ ذي حقّ أن يطاع في معصية الله .

٤ ـ ألا وإنّي أنـزلت نفسي من مــال الله بمنزلــة ولي اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف .

٥ - إنّي قد وَّلِيت أُموركم أيُّها النَّاس ، فاعلموا أن تلك الشَّدَّة قد أُضْعِفَت ، ولكنها إنَّا تكون على أهل الظَّلم والتَّعدِّي على المسلمين ، فأمَّا أهل السَّلامة والدِّين والقصد ، فأنا ألين لهم من بعضهم بعضاً .

٦ ـ ولكم علي أيّها النّاسَ خصال أذكرها لكم فخذوني بها : لكم علي أن لا أجتبي شيئًا من خَرَاجكم ، ولا منًا أفاء الله عليكم إلاّ من وجهه ، ولكم علي ألا ألقيكم في المهالك ، ولا أجركم في ثغوركم (١) ، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتّى ترجعوا إليهم .

فاتَّقوا الله عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم بكفِّها عنِّي ، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، وإحضاري النَّصيحة فيا ولاَّنيّ الله من أمركم ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »(٢) .

⁽١) التَّجمير : إبقاء الجنود في الجبهة مدَّة طويلة .

⁽٢) الخراج ، ص: ١٤٠

ليست هذه خطبة تُلقى ، ولا كلاماً يُرصف ، بل كانت منهجاً سار عليه حياته كلُّها ، وخطَّة اتَّبعها رضى الله عنه .

عمر يفتح جبهات القتال: فهو القائد الأعلى ، يدير المعارك في الجبهات الثّلاث: في العراق ، وبلاد الشّام ، ومصر ، وهو الّذي كان يرسم الخطط ، ويبعث بأوامره وتعلياته إلى القادة ، ببصيرة نفّاذة ، كأنّه يشهد ببصره حركاتهم وقتالهم ، حتّى وصف لسعد بن أبي وقّاص طبيعة أرض العراق ، وطبيعة أرض فارس .

كتب إلى النُّعان بن مُقرِّن المزني وهو في نهاوند : ولا تدخلنَّهم غيضة فإنَّ رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مئة ألف دينار ، والسَّلام عليك (١) .

وكتب إلى عمرو بن العاص : أمَّا بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر .

وكتب بعد اليرموك إلى أبي عبيدة بن الجرَّاح : سَيِّر هاشم بن عتبة بن أبي وقَّاص وعلى مقدِّمته القعقاع بن عمرو إلى العراق .

وهو الذي يختار القادة ، وكانت له في اختيارهم حاسّة عجيبة يَعْرِف بها حقائق الرِّجال وأقدارهم وكفاءاتهم ومعادنهم - كا في (أخبار عمر) - فيعمد إلى الرَّجل العادي فيولِّيه القيادة لما يدركه من استعداده وقدرته حتَّى يُخْرِج منه قائداً من أكابر قادة التَّاريخ ، وعبقريّاً من عباقرة الحرب ، لا يدري أحد أين كان مخبوءاً كسعد ، وأبي عبيدة ، والنَّعان بن مقرِّن المزني ، ويحفظ للقادة كرامتهم ، بمنشور يداع في الأمصار والبلدان : « لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن النَّاس فَتِنُوا به ، وأحبُّ أن يعلموا أنَّ الله هو النَّاص » .

خَمْسٌ مشكلات : وعرضت لعمر رضي الله عنه خمس مشكلات خلال خلافته ،

هي :

⁽۱) الطّبري : ۲۳۲/٤

١ - إن من المسلمين من يقتل قائداً من القادة ، ثيابه وجواهره ثمنها عشرات الآلاف ، فهل يأخذ كل سلبه ، على القاعدة القائلة : من قتل قتيلاً فله سلبه ؟

٢ ـ إنَّ بعض ذوي القربي طالبوا بما كان لرسول الله عَلَيْتُم في فَدَك وخيبر ، فهل يردُّه عليهم ؟

٣ ـ إن من الغنائم ماله قية فنية وتاريخية كتاج كسرى وبساطه ، فماذا يصنع
 بها ؟ يقسمها أم يحتفظ بها ؟

٤ ـ الأراضي الزِّراعيَّة العظية (كأرض السَّواد (١) مثلاً) ، أيقسمها أمْ يتركها أملاكاً عامَّة ، ينتفع بها كلُّ من يأتي من بعدهم ؟

٥ ـ والمال الفائض مال عظيم ، يفيض عن نفقات الدَّولة ، فهل يخزنه أمْ يوزِّعه ؟ وإذا وزَّعه ، فهل يوزِّعه على النَّاس بالتَّساوي ، أمْ يفضَّل فيه بعضهم على بعض ؟ وإذا فاضل فيهم ، فما هي القاعدة في التَّفضيل ؟

فكيف تغلُّب على هذه المشكلات ؟

ا ـ قتل زُهَرةُ بن حَوِيَّة التَّميي (٢) القائدَ الفارسي (الجالينوس) ، فجاء بسلبه إلى سعد بن أبي وقَّاص ، فقال له سعد : هل أعانك عليه أحد ؟ قال : نعم ، قال : مَنْ ؟ قال : الله ، وكان سعد قد استكثر سلبه ، فكتب فيه إلى عمر ، فكتب عمر إلى سعد : أتعمد إلى مثل زُهرة وقد صَلِيَ بمثل ماصَلِيَ به ، وقد بقي عليك من حربك

⁽۱) السواد : الأراضي التي بين دجلة والفرات جنوبي أرض الجزيرة ، وبُمِّي السَّواد سواداً لسواده بالزَّروع والنَّخيل والأشجار ، لأنَّه حيث تاخم جزيرة العرب التي لا زرع فيها ولا شجر ، كانوا إذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزَّروع والأشجار فيسمونه سواداً ، كا إذا رأيتَ شيئاً من بُعد قلتَ ما ذلك السُّواد ، [معجم البلدان : ۲۷۲/۲] .

 ⁽٢) زهرة بن حوية التميي السّعدي ، صحابي توفي سنة ٧٧ هـ ، من أشراف الكوفة وشجعانها المقدّمين ،
 [الأعلام : ٥١/٣] .

ما بقي ، تكسر قرنه (١) ، وتفسد قلبه ، امض وفضّله على أصحابه عند العطاء بخمس مئة .

وهكذا فُضِّل أصحاب البلاء كلهم عند العطاء بخمس مئة خمس مئة ، وهم خمسة وعشرون مجاهداً (٢) .

٢ ـ مشكلة الْخُمْسِ : كان رسول الله عَيَّكَ يأخذ منه نفقة سنة ، ثمَّ يجعل ما بقي في الأموال العامَّة ، وعندما طالب العبَّاسُ وعليُّ عمرَ بفَدَك وخيبر ، ذكَرهما بقول رسول الله : « لانورَث ما تركناه صدقة » ، إن شئتم دفعتها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تعملا فيها بالَّذي كان يعمل رسول الله عَلَيْكَ ، فأخذتماها بذلك ؟ قالا : نعم ، قال : فإن عجزتما عنها فردًاها إليَّ .

٣ ـ بساط كسرى كان طوله ثلاثين ذراعاً ، وعرضه مثل ذلك ، فيه صور أنهار ، ومبان ، وأشجار ، وقضبان من ذهب ، فاستشار النّاس ، فقال علي رضي الله عنه : لم تجعل علمك جهلاً ، ويقينك شكّاً ، إنّه ليس لك من الدّنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفنيت ، قال : صدقتني ، فقطعه ، فقسّمه بين النّاس ، فأصاب عليّاً قطعة منه ، فباعها بعشرين ألفاً ، وما هي بأجود تلك القطع (٤) .

٤ ـ أرض السّواد : رأى عمر رضي الله عنه أنّ هذا الفتح لن يتكرَّر كلَّ يوم ، فإذا قُسِمَت هذه الأراضي بين المقاتلين ، لم يبقَ شيءً لمن بعدهم ، ولم يبق لبيت المال مورد ثابت ، ولم يكن معه نصٍّ من كتاب ولا سُنّة ليعتمد عليه ، فلجاً إلى الشَّورى ، فاستشار عثمان وطلحة وعلي وابن عمر ، وقال : إنّي لم أزعجكم ، إلاَّ لأن تشتركوا في

⁽١) قَرْن الرَّجِل : حَدُّ رأسه وجانبيه ، [اللَّسان : قرن] .

⁽٢) الطّبري : ١٣٤/٤ و ١٣٥

⁽٣) صحيح مسلم : ١٥١/٥

⁽٤) الطّبري : ٢١/٤

أمانتي فيا حملت من أموركم ، فإنّي واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرُّون بـالحقُّ ، خـالفني مَنْ خالفني ، ووافقني مَنْ وافقني ، ولست أريد أن تتَّبعوا هـذا الرَّأي هواي ، إذا قسمت أرض العراق ، فمن يسد الثُّغور ؟ وما يكون للذَّرِيَّة والأرامل بهذا البلد وغيره ؟

الْخَراجُ يؤدًى فيكون فيئاً للمسلمين ، المقاتلة والذرية ، ولمن يأتي من بعدهم . فقال المجلس الاستشاري : الرَّأي رأيك ، فنعم ماقلت وما رأيت .

مَسَحَ عمر رضي الله عنه أرض السَّواد ، وفرض الْخَرَاج (ضريبة إنتاج) ، تعود بعض فوائدها على الدَّافع ذاته ، كتنظيف الأنهار ، وكَرْي التَّرع ، وشق الطُرق ، والخدمات العامَّة من مدارس ومستشفيات ، وكذلك مُسِحَت أرض الشَّام ، وأرض مصر ، وأقرَّت بأيدي أهلها من أهل الذِّمَّة ، ولم يثقلوا بالتَّكاليف (۱) .

٥ ـ وحقَّق المالُ الفائض (الضَّمانَ الجماعي) ، للمسلم ولغير المسلم ، ولتقديم العطاء للنَّاس بشكل سليم منتظم ، أنشأ عمر رضي الله عنه ديوان العطاء ، ودعا عقيل بن أبي طالب ، ومَخْرَمة بن نوفل ، وجبير بن مُطْعِم ، وكانوا نسَّابي قريش وكتَّابها ، وقال لهم : اكتبوا النَّاس على منازلهم ، ابدؤوا بقرابة النَّبي عَلَيْكَ الأقرب فالأقرب ، حتَّى تضعوا عمر حيث وضعه الله (٢) .

وكان مقدار العطاء: أزواج رسول الله عليه و ١٢٠٠٠ درهم)، العبّاس (٥٠٠٠ درهم)، من شهد بدراً من المهاجرين والأنصار (٥٠٠٠ درهم)، مهاجرة الحبشة ومن أحد إلى الحديبية (٤٠٠٠ درهم)، ولمن هاجر قبل الفتح (٣٠٠٠ درهم)، ولمن هاجر قبل الفتح (٣٠٠٠ درهم)، ولأبناء البدريين ومُسُلِمَة الفتح (٢٠٠٠ درهم). ولما كثر المال قال رضي الله عنه: لأُلحقنَّ آخر النَّاس بأوَّلهم حتَّى يكونوا في العطاء سواء، وعمَّم العطاء على كلّ النَّاس، في الين والشَّام والعراق .. وفرض لكلٌ مولود عطاء قبل فطامه.

⁽١) انظر الخراج لأبي يوسف ، ص ؛ ٢٩ وما بعدها .

⁽۲) ابن سعد : ۲۱۲/۱ ، خطط المقريزي : ۹۲/۱

عمر والإدارة العامّة:

١ - ركَّز رضي الله عنه على (إحياء الْمَوَات) ، « من أحيا أرضاً ميتاً فهي له » ، ولكن ليس لحتجز حقَّ بعد ثلاث سنين : « فمن ترك الأرضَ الَّتِي أحياها ثلاث سنين مهملة ، نُزِعَت يده منها » .

٢ ـ ومصَّر الأمصار: لقد رأى رضي الله عنه بنظره البعيد أنَّ العرب إذا نزلوا في المدن الفارسيَّة فقدوا مزايا الصَّحراء، وخلائق العروبة، وغلب عليهم التَّرف، كجنود هانيبال (١) استمرؤوا العيش في إيطالية، وذاقوا لذَّة المدنية، فاسترخت عزائمهم، فعُلبوا على أمرهم، فأنشأ رضي الله عنه الكوفة والبصرة.

كتب رضي الله عنه لسعد بن أبي وقّاص: وأقم بمن معك في كلّ جمعة يوماً وليلة ، حتّى تكون لهم راحة يُجمُّون فيها أنفسهم ، وَيُرمُّون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصّلح والذّمّة ، فلا يدخلها من أصحابك إلاّ من تثق بدينه ، ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإنّ لهم حرمة وذمّة (٢).

٣ ـ ويُعَيِّن الولاة ، مختاراً الأقوى ، ولم يكن ينظر إلى صلاح الرَّجل في ذاته ،
 ولكن إلى صلاحه للولاية ، لذلك كان يولِّي الولايات أناساً وأمامه من هو أتقى منهم
 وأشد عبادة .

كان يقول: أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرَهم ، كان كأنه أميرُهم ، وإذا كان أميرُهم كان كأنّه رجل منهم ، قالوا: مانعرف هذه الصّفة إلا في الرّبيع بن زياد الحارثي ، قال: صدقتم ، فولاًه (٢) .

⁽۱) ملك قرطاجة Carthage ، صارع رومة ووصل إليها ، ثمُّ ارتـدُّ منكسراً إلى قرطاجة (موقع تونس حالياً) .

⁽٢) نهاية الأرب: ١٦٨/٦ ، العقد الفريد: ٤٩/١

⁽٣) الإصابة : ٥٠٤/١ ، عيون الأخبار : ١٦/١

وكانت شروطه رضي الله عنه على ولاته ، عثابة القسّم عند التّنصيب ، وهي : ألا يظلم أحداً في جسده ، أو في ماله ، وألا يستغل منصبه لفائدة أو مصلحة خاصة له ، أو لمن يلوذ به : « إنّي لم أستعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم ، ولكن استعملتك لتقيم فيهم الصّلاة ، وتقسم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل » ، ثمّ يشترط عليه أربعاً : ألا يركب برذوناً (۱) ، ولا يلبس ثوباً رقيقاً ، ولا يأكل نقيّاً ، ولا يغلق بابه دون حوائج النّاس (۱) .

وكتب إلى أبي موسى الأشعري: أن سَوِّ بين النَّاس في مجلسك وجاهك، حتَّى لا يبأس ضعيف من عدلك، ولا يطمع شريف في حيفك (٢).

وكان إذا بلغه أنَّ عاملاً لا يعود المريض ، ولا يدخل عليه الضَّعيف نزعه (٤) ، وكان يقول رضي الله عنه : أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ، ثمَّ أمرته بالعدل ، أكنت قضيتُ ما عليَّ ؟ قالوا : نعم ، قال : لا ، حتَّى أنظر في عمله أعلَ بما أمرته أمْ لا .

لما سبق ، كان لعمر رضي الله عنه (مكتب خاص) ، مرتبط به مباشرة ، لمراقبة أحوال الولاة ، فكان علمه بمن نأى عنه من عمّاله ورعيّته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد ، وعلى وساد واحد ، فلم يكن له في قطر من الأقطار ، ولا مصر من الأمصار ، ولا ناحية من النّواحي وال ولا عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده ، فكانت أخبار من بالمشرق والمغرب عنده صباح مساء ، حتى كان العامل منهم ليتّهم أقرب الْخَلْق إليه ، وأخصّهم به .

وكان إذا استعمل عاملاً أحصى ماله ، ليعلم ماعنده قبل ولايته إذا طبّق عليه مبدأ المحاسبة القائل : من أين لك هذا ؟

⁽١) في (اللَّسان) البِّرْذَوْنُ : الدَّابة ، من الخيل ماكان من غير نتاج العِراب ، أي ليس فيه عرق هجين .

⁽٢) الخراج ، ص : ١٣٩ ، عيون الأخبار : ٥٣/١

⁽٣) الخراج ، ص : ١٤٠

⁽٤) الخراج ، ص: ١٢٦

رأس محمد بن مسلمة هذا (المكتب الخاص) ، فكان بمقام (المفتّش العام) على العال ، يثق به عمر ثقة مطلقة ، ويبعثه في كلّ قضيَّة تحقيق .

دستور القضاء الخالد: وكان عمر رضي الله عنه يعين القضاة في كلّ الأمصار، لضان حصانة القاضي في الولاية، ولبعده عن سلطة الوالي، فيتحقّق العدل، ورسالته لأبي موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) شملت آداب القاضي، وأصول الحاكات، وقد شغلت هذه الرّسالة العلماء بشرحها والتّعليق عليها قروناً، ولو لم يكن لعمر من الآثار غيرها، لَعُدّ بها من كبار المفكّرين والمشترعين، ولو كتبها اليوم بعد أن انتشرت قوانين أصول الحاكات لكانت كبيرة، فكيف وقد كتبها عمر من نحو أربعة عشر قرنا، ولم ينقلها من كتاب، ولا استمدّها من أحد ؟ غرسة مباركة غرسها في قلبه رسول الله على الله على على مدرسة النّبوّة:

« بسم الله الرَّحن الرَّحم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك ، أمَّا بعد : فإنَّ القضاء فريضة محكمة ، وسنَّة مُتَّبعة ، فافهم إذا أُولي إليك ، وأنفذ إذا تبيَّن لك ، فإنَّه لا ينفع حق لا نفاذ له ، آسِ بين النَّاس في مجلسك ووجهك (۱) ، حتَّى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البيِّنة على من ادَّعى ، واليين على من أنكر .

والصّلح جائز بين المسلمين إلاَّ صلحاً أحلَّ حراماً ، أو حرَّم حلالاً ، ولا يمنعنَّك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحقِّ^(۱) ، فإنَّ الحقَّ قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التَّادي في الباطل .

الفهمَ الفهمَ في الله في صدرك ممّا ليس في كتاب ولا في سُنّة ، واعرف الأشباه والأمثال ، ثمّ قس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أحبّها إلى الله ، وأشبهها بالحقّ فيا ترى .

⁽١) أي سَوِّ .

⁽٢) في دعوى أخرى مثلها ، أمَّا الَّتي صدر فيها الحكم وصار حقًّا مكتسبًا لصاحبه ، فلا يبدُّل الحكم فيها .

واجعل لمن ادَّعى حقّاً غائباً ، أو بيِّنة أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بيِّنته أخذت له بحقه ، وإلاَّ استحللت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشَّك ، وأجلى للعمى ، وأبلغ في العذر . والمسلمون عدول في الشَّهادة بعضهم على بعض ، إلاَّ مجلوداً في حد ، أو مجرَّباً عليه شهادة زور ، أوظنيناً في ولاء أوقرابة ، فإنَّ الله قد تولَّى منكم السَّرائر ، ودراً عنكم الشَّبهات .

وإيّاك والقلق والضَّجر والتّأذّي بالنّاس ، والتّنكّر للخصوم في مواطن الحق ، الّتي يوجب الله بها الأَجر ، ويحسن الذّخر ، فإنّه من يخلص نيّته فيا بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه ، يكفه الله مابينه وبين النّاس ، ومن تزيّن للنّاس فيا يعلم الله خلافه منه شانَه الله ، وهتك ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنك بثواب عند الله عزّ وجلّ في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ، والسّلام » .

أوائِلُهُ رضي الله عنه:

أوَّل من عسَّ في عمله في المدينة ، وأوَّل من حمل المدَّرة وأدَّب بها ، وأوَّل من مسج أرض السَّواد وأرض الجبل ، وأوَّل من مصَّر الأمصار : الكوفة والبصرة والفسطاط ، وأوَّل من استقضى القضاء في الأمصار ، وأوَّل من دوَّن المَّواوين وفرض الأعطيات ، وأوَّل من اتَّخذ دار المدَّقيق ، حيث المدَّقيق والتَّمر والزبيب .. ليعين المنقطع من أبناء السَّبيل (٢) ، وهو أوَّل من قيل له : (يا أمير المؤمنين) من الخلفاء ، وأوَّل من اتَّخذ بيت المال ، وأوَّل من وضع التَّاريخ الهجري ، وأوَّل من جمع النَّاس على التَّراويح في شهر رمضان ، وأوَّل من ألقى الحصا في مسجد رسول الله عَيْلِيَّة ، وكان النَّاس إذا رفعوا رؤوسهم نفضوا أيديهم "١٠٠" ...

☆ ☆ ☆

⁽١) عيون الأخبار : ١٦٧١ ، صبح الأعشى : ٢٥٧١ ، البيان والتّبيين ، ص : ٢٣٧

 ⁽۲) ووضع في طريق السُّبُل مابين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمله من ماء إلى ماء ،
 [ابن سعد : ۲۰۲/۱ ، ابن الجوزي ، ص : ۵۲ ، تاريخ أبي الفداء : ۱۷٤/۱] .

⁽٣) انظر أخبار عمر: ص: ٢٥٢ وما بعدها .

ذو النُّورَيْنِ عثمان بن عفًان

رضي الله عنه

لَمَّا طعن عمر رضي الله عنه ، قال : « إنِّي جاعل هذا الأمر إلى هؤلاء النَّفر السِّنَّة الَّذِين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ » ، وجعلها شورى في ستَّة : عثان ، وعليّ ، وطلحة ، والزَّبير ، وعبد الرَّحن بن عوف ، وسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنهم (۱) ، وجعل عبد الله بن عمر معهم مشيراً وليس منهم ، وأجَّلهم ثلاثاً ، وأمر صهيباً أن يصلّى بالنَّاس .

وقام السِّتَة يتشاورون في دار عبد الرحمن بن عوف ، ومكث عمر رضي الله عنه بعدما طعنه أبو لؤلؤة ثلاثاً ، وتوفي يـوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجَّة سنة ثلاث وعشرين هجريَّة .

تنازل الزَّبير إلى عليٍّ ، وسعد بن أبي وقًاص إلى عبد الرَّحن بن عوف ، وطلحة إلى عثان بن عفّان ، وتنازل عبد الرَّحن بن عوف عن حقّه وسأل عثان وعلي : أيكا يبرأ من هذا الأمر فنفوض الأمر إليه ، إنّي أترك حقّي من ذلك ، وراح ابن عوف يبرأ من هذا الأمر فنفوض الأمر إليه ، انّي أترك حقّي من ذلك ، وراح ابن عوف يستشير النّاس فيها ، سِرّاً وجهراً ، حتّى النّساء في خدورهن ، والرّكبان ، وفي اليوم الرّابع ، اجتمع أهل الشّورى ، ودعا بعليّ وعثان ، فلما حضرا أقبل عليها ، وقال : إنّي

⁽١) ولم يذكر عمر في الشُّوري (سعيد بن زيد) لأنَّه ابن عمه .

 ⁽۲) صهيب بن سنان بن مالك ، من بني النمر بن قاسط ، من أرمى العرب سهماً ، وهو أحد السّابقين إلى الإسلام ، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلّها ، له ٣٠٧ أحاديث ، توفي في المدينة سنة ٣٨ هـ / ٢٥٩ م ،
 [الأعلام : ٢١٠/٣] .

سألت النّاس عنكما ، فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً ، ثمّ أخذ العهد من كُلّ منها أيضاً ، لئن ولاه ليعدلنّ ، وإن وُلِّي عليه ليسمعنّ وليطيعن ، ثمّ خرج بها إلى المسجد حيث وجوه النّاس ، ونودي الصّلاة جامعة ، وحين اجتمع النّاس ، قال ابن عوف : أيّها النّاس ، إنّي سألتكم سِرّاً وجهراً بأمانيكم ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرّجليْن ، إما على ، وإما عثمان ، فقم يا علي ، فقام إليه ، فأخذ عبد الرحمن بيده فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه ، وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال : اللّهم لا ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي ، عبد الرحمن : قم إليّ يا عثمان ، هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنّة نبيّه على بكر وعمر ؟ قال : اللّهم نعم ، فبايع عثمان ، وازدحم النّاس يبايعون عثمان ، وبايعه على رضي الله عنه .

مكانَة عثمان رضي الله عنه : إنّه عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأمّوي ، يجتمع هو ورسول الله عَلَيْتُم في عبد مناف وهو ذو النّورين ، أسلم في أوّل الإسلام ، دعاه أبو بكر إلى الإسلام فأسلم ، وكان يقول : إنّي لرابع أربعة في الإسلام .

ولما أسلم زوجه رسول الله عَلَيْتُ بابنته رُقَيَّة ، وهاجرا كلاهما إلى أرض الحبشة الهجرتين ، ثمَّ عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة ، وتنزوج بعد رُقَيَّة أُمَّ كلثوم بنت رسول الله عَلَيْتُ : « لو أن لنا ثالثة لزوَّجناك »(١) .

وكان له وزنه الاجتماعي الكبير ، فمثّل المسلمين عند قريش في صلح الحديبية ، وعندما شاع أنّه قُتِل في مكّة ، وبايع المسلمون بيعة الرضوان ، بايع رسول الله عَلِيلَةُ عنه .

وجهَّز جيش العسرة بثلاث مئة بعير بكامل جاهزيتها ، مع ألف دينار ، واشترى بئر رُومة بعشرين ألف درهم من صاحبها اليهودي ، وجعلها وقفاً على المسلمين (٢) .

⁽١) أسد الغابة : ٨٤/٥

⁽٢) وهي بأر غزيرة الماء ، وماؤها عذب صاف خفيف للغاية .

فُتِحَت في خلافته الرَّيّ ، وأُذربيجان ، وطبرستان ، وبلاد الـدَّيلم ، ونيسابور ، وبلخ ، وخُوارزم ، وكابُل ، ومروالروذ ، وأرمينية ، وقبرص ، وسواحل إفريقية من طرابلس إلى طنجة .

وفي عهده صارت للمسلمين (قوَّة بحريَّة) بُنيت في سواحل بلاد الشَّام ومصر ، حقَّقت انتصار ذات الصَّواري (اليرموك البحرية) (١)

وحُفِرت الترع والأنهار ، وغرست الأشجار المثمرة ، وأُمِّنت التَّجارة : (طرق ، جرس ، شرطة) .

ومن أُجلٌ مآثره ، جَمَعَ العالمَ الإسلامي كلَّه على مصحف واحد ، وقراءة واحدة ، قال علي رضي الله عنه : « لو ولِّيت ما وَلِّي عثان ، لعملت بالمصاحف ما عمل »(٢) ، وقال أيضاً عن عثان : « ذاك امرؤ يدعى في الملا الأعلى ذا النَّورَيْن ، كان خَتَنَ رسول الله عَلِيلَةٍ »(٣) .

كما وسع رضي الله عنه المسجد النَّبويُّ بعد توسعة عمر له .

محنة عثمان في خلافته: ترامت أطراف الدَّولة الإسلاميَّة ، وحلَّ الرَّخاء والثراء ، فلا بُدَّ من نتائج نفسيَّة وخلقيَّة ، وهي ضريبة طبيعيَّة لابدَّ من دفعها ومواجهتها في حياة الأُمم والشَّعوب ، إذا لم تجد من يكبح جماحها ويقوِّمها ، ويطفئ شرَّها وغلواءها ، كا فعل عمر رضي الله عنه (٤) .

عثمان ماحاد عن الحقِّ في سيرته .

⁽١) أول معركة بحرية هامّة خاضها المسلمون (٣٤ هـ / ٢٩ أب ٢٥٤ م) بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ضدّ الأسطول البيزنطي بقيادة قسطنطين ،، وموقعها على سواحل مصر غربي الإسكندريّة .

⁽٢) البداية والنّهاية : ٢١٨/٧

⁽٣) تاريخ الخلفاء ، ص : ١٤٩ ، وخَتَّن الرَّجل : زوج ابنته ، [اللَّسان : ختن] .

⁽٤) المرتضى ، ص : ١٢٥

ولا فارق الجادَّة في خلافته .

ولا خالف قواعد العدل في سياسته .

ولكن النَّفوس البشريَّة أَبطرتها نِعَمُ الحياة ، وانزلقت إلى مخاطر التَّرف ، يقول المرحوم العقَّاد : « منذ أسلم عثان إلى أَن تولَّى الخلافة ، تغيَّر المجتمع العربي في نطاق واسع ، وأصبحت الصِّبغة الإسلاميَّة نوعاً من الصِّبغة العالميَّة ، يكاد أَن يقرِّب بين أساليب المعيشة في جميع أمم الحضارة الشَّرقيَّة والغربيَّة »(۱) .

ومن هنا بدأت الحاسبة الدَّقيقة للخليفة الشَّالث من النَّاقين ، ينتظرون منه ألاَّ يجري في أمر من الأُمور على منهج ينحرف قيد شعرة عن منهج الخليفتين الأوَّل والثَّاني ، وهم أنفسهم قد انحرفوا عن منهج رعايا الخليفتيْن أبعد انحراف .

وعثان رضي الله عنه كان يشعر بهذا التفاوت العظيم بين العصرَيْن ، ويتخوَّف من استفحال هذا الدَّاء ويخوِّف منه : « إِنَّ ماابتُلِيَت به هذه الأُمَّة قَدَرٌ واقع لا يُدفع ، وإِنَّا فتنة الدُّنيا طغت على النَّفوس طغيانها الَّذي لا تجدي فيه الحيلة والمحاولة »(١) .

مع أن علاج عثان لمشكلة الدُّولة (الخارجيَّة) الَّذي فاجأَته بعد ولايته ، قد كان أحسن علاج يتولاً م خليفة في تلك الآونة : عزم وسداد ، وسرعة مع الحيطة والأَناة ، والرِّفق في سياسة الأولياء والخصوم .

وأوَّل نقمة على عثمان رضي الله عنه هي : اختياره لعُمَّال ليست لهم سوابق إسلاميَّة ، أو مكانة دينيَّة رفيعة في الجمّع ، أو صدرت منهم تصرَّفات كانت موضع نقد واستياء ، عند من ينظرون إلى الولاة بنظرة كانوا ينظرون بها إلى عمَّال رسول الله عَيْسَة وأبي بكر وعمر ، فكثرت القالة فيهم ، والأحدوثة عنهم ، ونحن لانعتذر لعثان ، ولكنه :

⁽١) العبقريات الإسلامية ، ص : ٧٦١

⁽٢) المرجع السَّابق ، ص : ٧٩٩

١ ـ حين استعملهم لم يعلم من أحوالهم خلاف السَّتر والصَّلاح ، وما استقبح من الأمور حدثت بعد ذلك .

٢ ـ طلب إلى الأعمال أهل القيادة والسياسة وإدارة الحكم ، نظراً إلى الكفاية والقدرة ، يقول كرد على : « أفليس من الحكمة السياسيّة أن يعتمد عثان على عصبته وقومه ، وهم موضع ثقته ، وأحرص النّاس على إنجاحه وبلوغه مقاصده ؟ » (١).

٣ ـ وكان عدد من عمَّال رسول الله عُرِيِّكُ كانوا من بني أُميَّة .

٤ ـ والإفراط والغلو في محاسبة الخليفة ، والانتفاع ببدأ حرّية الرَّأي الَّتي منحها الإسلام لأَفراد الأُمَّة ، استغلَّه مغرضون يقولون ما لا يفعلون ، و يفعلون غير ما يقولون ، كان منهم من أقام الخليفة عليه الحدَّ ، أو من حبس أباه في جرية (٢) .

وتكاتب أهل مصر ، وأهل الكوفة ، وأهل البَصْرة ، وتراسلوا ، وزُوِّرت كتب على لسان الصَّحابة الَّذين بالمدينة ، ولعلها فتنة (عبد الله بن سبأ الصَّنعاني) إن صحَّ وجوده ، ولكن الحقيقة تقول : هناك يد خفية تخطِّط وترسم وتشجِّع الفتنة ، كيداً للإسلام وأهله ومسيرته .

⁽١) الإدارة الإسلاميّة ، ص : ١٠٢

⁽٢) المرتضى ، ص : ١٢٩

⁽٣) وفي رواية محمد بن مسلمة ، [ابن سعد : ٢٥/٣] .

ويسأل علي رضي الله عنه من جاء من مصر: ما ردّكم بعد ذهابكم ؟ فقالوا: وجدنا مع بريد كتاباً بقتلنا ، وقال البصريّون ، والكوفيّون : إنّا جئنا لننصر أصحابنا ، فقال لهم الصّحابة : وكيف علمتم بذلك وقد افترقتم ، وصار بينكم مراحل ؟! إنّا هذا أمر اتّفقتم عليه في المدينة .

حامل البريد يتعرَّض لهم ، ثمَّ يفارقهم ، ثمَّ يرجع إليهم ! ؟! إنَّه يلفت النَّظر إليه ، ويثير الشَّبهة حوله ، ليلتقط فَيَسْأَل عمَّا معه ؟ وعثان صادق فيما يقول : والله لا كتبت ، ولا أمليت ، ولا دريت بشيء من ذلك ، والخاتم قد يزوَّر على الخاتم .

وقالوا لعلى رضي الله عنه : قم معنا إليه ، ورفض على ، فقالوا : فَلِمَ كتبت إلينا ؟ قال : والله ماكتبت إليكم كتاباً قط ، فنظر بعضهم لبعض وقالوا : ألهذا تقاتلون ، ولهذا تغضبون ؟!

قال على رضي الله عنه : كيف علمتم يا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا واللهِ أمر أبرم بالمدينة (١) .

مشاغبات الدَّهماء الَّتي لا تعجز عن أمثال هذه الأفاعيل: التجاً عثان رضي الله عنه إلى داره ، فضيَّق الثُّوار عليه (٢) ، فسار إليه جماعة من أبناء الصَّحابة عن أمر آبائهم ، منهم: الحسن والحسين ، وعبد الله بن الزَّبير ، وعبد الله بن عمر .. للدفاع عنه ، فقال عثان رضي الله عنه لمن حوله وهم سبع مئة: أقسم على من لي عليه حق أن يكف يده ، وأن ينطلق إلى منزله ، فكان آخر من غادر الحسن رضي الله عنه .

وقال لعلي : أنشد الله رجلاً رأى لله حقّاً ، وأقرّ أنّ لي عليه حقّاً أن يهريق بسببي ملء محجمة من دم ، أو يهريق دمه فيّ .

⁽١) الطّبري : ٥/٥٠١

 ⁽٢) وكتبوا أيضاً على لسان عائشة رضي الله عنها .

ورفض علي الصّــلاة في المسجــد (والإمــام محصــور) ، ولكن أُصلِّي وحــدي ، وأنصرف إلى منزلي .

وفقد عثمان الماء ، فركب علي بنفسه ، وحمل معه قِرَباً من الماء ، حتَّى أوصلها إليه ، بعدما ناله من جهالة أولئك كلامٌ غليظ ، وتنفير لدابته .

وقال معاوية لعثمان : اذهب معي إلى الشّام ، قبل أن يُهاجم ، فرفض رضي الله عنه : أنا لا أبيع جوار رسول الله عَلَيْكُ بشيء ، فقال معاوية : أبعث إليك جنداً يُقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن كانت ، عثمان : أنا أُقتِّر على جيران رسول الله عَلِيْكُ الأرزاق بجند يساكنهم ، وأُضيّق على أهل الهجرة والنّصرة ؟ معاوية : والله يا أمير المؤمني لتغتالن أو لتُغْزين ، عثمان : حسبي الله ونعم الوكيل (١) ، ورفض رضي الله عنه التّنازل عن الخلافة : « فما كنت لأخلع لهم سربالاً سربلنيه الله » . فقتل يوم الجمعة عنه التّنازل عن الخلافة : « فما كنت لأخلع لهم سربالاً سربلنيه الله » . فقتل يوم الجمعة الأمصار ، كالشّام مثلاً (١) .

☆ ☆ ☆

نظراتٌ ونَّتائج :

إن أثر العقيدة في عثان رضي الله عنه ، أوضح من أثرها في مَنْ قدموا إليه من الأمصار ليناظروه ويحاسبوه ، ولقد أبى أن يبقى حول داره أحد يحرسه كيلا يراق دمهم بسببه ، كا أبى أن يتنحّى عن الخلافة ، لا ضَنّا بشيء يلكه ، فلا شيء أغلى من الحياة وقد هانت عليه ، ويتّفق المؤرّخون أنّه تَرك الدّنيا وما له فيها ، أقل مما كان لديه يوم وَلِيَ الخلافة ، ولكنه أبى أن يخلع نفسه حذراً من أن يحمل جريرة الخلع ، وما يعقبه من النّزاع والقتال .

⁽١) الطّبري : ١٠١/٥

⁽٢) وصدق رسول الله عَيْثَةِ في حديثه بحق عثان : « يقتل في الفتنة مظلوماً » ، [تماريخ الخلفاء ، ص : 1٤٧] .

إنَّنا أمام صدمة يصطدم بها من يسأل عن أثر العقيدة وأطوارها .

ولئن كان مصرع عثمان شرًا مطبقاً ، وجانب الخير فيه صمود شيخ تجاوز الشَّانين للكرب الحيق به ، وهو ظهآن محصور في داره بغير نصير ، ولو شاء لكان له أُلوف من النَّصراء يريقون البحار من الدِّماء حيث عزَّت قطرة الماء .

ومَن القاتل ؟ أسماء مغمورة : كنانة بن بشر بن عتّاب ، عمرو بن حزم ، عمرو بن أبي بكر ، وسال دم عثان عمرو بن الْحَمق ، سودان بن حُمران .. باستثناء محمد بن أبي بكر ، وسال دم عثان رضي الله عنه على كتاب الله المجيد : ﴿ فَسَيكفيكَهُمُ اللهُ وَهُـوَ السَّميعُ العَلِيمُ ﴾ ، [البقرة : ١٣٧/٢] .

ثمَّ قال الدَّهاء : أَيحل دم عثان ولا يحل ماله ؟ فانتهبوا متاعه وكلَّ ماله ، عندها صاحت زوجه نائلة بنت الفُرافِصَة ـ الوفيَّة ـ : لصوص وربّ الكعبة ، أما والله لقد قتلتوه صوَّاماً قوَّاماً ، يقرأ القرآن في ركعة ـ في قيام اللَّيل ـ .

ومقتل عمر ، ليس كمقتل عثان ، ما وراء الحادثتَيْن ، والقيم النَّفسيَّة الكامنة وراءهما متباينة .

قُتِلَ عمر بيد دخيلة على الإسلام ، وبتخطيط من خصوم الإسلام ، وقتل عثان بأيد مسلمة حرَّكها وقادها الدَّهماء المشاغبون ، فالعقيدة لا تبطل الخلاف والنِّزاع ، ولا تلغي الحوادث والخصومات ، وإلا كانت شغلاً معطِّلاً لحياة الأمم ، ومعوِّقاً لجرى التَّاريخ .

لقد كان الحكم مطلقاً غير مقيّد في الجاهليّة ، لا محاسبة ، ولا سؤال ، أما في الإسلام فوصلت الأمور في إطار التّحوّل الكبير إلى حدّ محاسبة الخليفة على كلّ صغيرة وكبيرة ، ومن كلّ صغير وكبيرة ، ومن كلّ صغير وكبيرة ، ولكن محاسبة عثان كانت وراء مآرب شخصيّة .

ومن مجمل الرّوايات يمكن القول:

١ ـ ردَّ عثان رضي الله عنه عن نفسه كثيراً من التَّهم الَّتي وُجِّهت إليه ، واستغفر لبعض أَعماله ، ورضي الثَّائرون : « فوالله إن أردتُ إلاَّ الإصلاح مااستطعت ، أصبتُ أو أخطأت » .

- ٢ _ لم يغيّر وعده ، ولم يرسل أيَّ كتاب إلى عامله في مصر في قتل الثُّوار .
- ٣ _ كان باستطاعة عثان ردّ الثَّائرين ، ولكنه لم يرد أن يهريق أيَّ دم في الـدِّفاع عن نفسه ، ولم يرد أن يترك المدينة المنوَّرة .
 - ٤ _ الصَّحابة الأُوَّلون كانوا إلى جانبه مع أبنائهم يدافعون عنه .
- ۵ ـ طلحة والزُّبير لم يكن في ذهنها الوصول إلى الخلافة ، بل كانا يريان أنَّ علياً
 هو الأَصلح لها .
 - ٦ _ وكانت عائشة على رأيها في ذلك أيضاً .
 - ٧ _ منْ بين الثَّائرين ، مَنْ هو مدفوع بالغَيْرة على الدِّين .
- ٨ ـ إنَّ يـداً خفيَّة ـ من وراء ستار لتوقع التَّفرقة بين المسلمين ـ هي الَّتي وضعت الكتب على لسان الصَّحابة ، وهي الَّتي كانت تستعجل الأُمور .
- ٩ كان من بين الثُّوار رجال من الصَّحابة ، كعبد الله بن مسعود الَّذي كان يأمل أن يجمع المصاحف ، لكن عثان عهد بهذا العمل الجليل إلى زيد بن ثابت . وكعار بن ياسر الَّذي اختلف مع عباس بن عتبة ، فضربها عثان .

وهناك المتزهّدون السدين رأوا الأموال الكثيرة الّي تنصب على المسلمين من الفتوح ، فراعهم هذا الغنى ، مثل : أبو ذر الغفاري (جُندُب بن جنادة) ، ناهيك عن شريحة العال المعزولين كعمرو بن العاص .

١٠ _ فمن ملاحظات الثُّوار:

- جَمْعُ الأَمة على مصحف واحد ، فردَّ عثمان : إنَّا نهيتكم عن الاحتلاف فيه ، وحفظ القرآن تولاً ه الله سبحانه وتعالى .

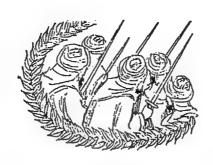
محمّى الحِمَى ، فردَّ رضي الله عنه : فوالله ما حميته لإبلي ، ولا لغني ، إنَّما حميته لإبل الصَّدقة .

- استَعْمَلَ أقرباءه وأعطاهم أموالاً طائلة ، قال : هذا بيت مالهم فليستعملوا عليه من أُحبُّوا ، تركت لهم - للثُّوار - اختيار من يرونه أميناً لبيت المال .

ـ تناول عدداً من أصحاب رسول الله عَلَيْكُم ، قال : أنا بشر أغضب وأرضى ، فإن شاء عفواً .

وعلى الرَّغ من هذا كلِّه ، إنَّ اليد الخفيَّة تحرِّك الفتنة !؟!

☆ ☆ ☆



علي بن أبي طالب

رضي الله عنه

« كان حكياً تتفجَّرُ الحكهة من بيانه ، وخطيباً تتدفَّقُ البلاغةُ على لسانه ، وواعظاً مسلء السَّلة بعيد غور مسلء السَّمع والقلب ، ومترسَّلاً بعيد غور الحبَّة ، ومتكلِّماً يضعُ لسانه حيث شاء ، وهو بالإجماع أخطبُ المسلمين ، وإمام المنشئين » . أحمد حسن الرَّيات

على بن أبي طالب (١) بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَي بن كلب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤي القرشي الهاشمي ، ابن عم رسول الله عُرِيسَةٍ .

أُمُّه : فاطمة بنت أسد بن هاشم .

وكنيته : أبو الحسن ، أخو (١) رسول الله عليه ، وصهره على ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين (٢) .

وهو أصغر إخوته: جعفر وعقيل وطالب(١٤).

وهو أوِّل أبناء جيله إسلاماً .

⁽١) واسم أبي طالب : عبد مناف .

⁽٢) قال عَلِيْتُ لعلي مرّتين : « أَنت أخي في الدُّنيا والآخرة » ، [أُسد الغابة : ٩١/٤] .

⁽٣) أُسد الغابة : ١٠/٤ و ٩١

⁽٤) مات طالب على الشّرك ، وأسلم عقيل عام الفتح ، ونال جعفر الشهادة في مؤتة ، وله من الأخوات : أم هانئ (تروّجها : هبيرة بن عمرو الخرومي) ، وجُهانة (تروّجها أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) .

على رضي الله عنه ، من بني هاشم ، واسطة العقد في قريش ، الذين امتازوا بمشاعر إنسانيَّة كريمة ، واعتدال في كلِّ شيء ، ورجاحة عقل ، والبُعد عن الظَّم ، وعشق الحق ، وعلو الهمة ، مع السَّخاء والشَّجاعة .

ولد قبل البعثة بعشر سنين ، ضمّه عَيْنِيْ إليه حتّى بعثه الله نبيّاً . لم يعبد الأوثان قط ، نشأ في أحضان رسول الله عَيْنِيْ ، وفي البيئة الإسلاميّة النّبويّة ، يقول له أبوه : أما إنّه لم يدعك إلاّ إلى خير فالزمه (١) .

وعند الهجرة ، أمره على أن ينام على فراشه متسجّباً ببردته ، وقال له : « لن يخلص إليك بشيء تكرهه » ، نام وهو الدي يعلم مدى حنق قريش على رسول الله والله على الله على ا

آخى ﷺ بينه وبين سَهْل بن حُنَيف ، وفي السَّنة الثَّانية للهجرة ، تزوَّج فاطمة بعد غزوة أُحُد ، كان عمره ٢١ سنة ، وهي لم تكمل السَّادسة عشرة من عمرها .

وفي بدر بارز الوليد بن عتبة وقتله .

وفي أُحُد قاد المينة .

وفي الخندق قتل عمرو بن عبد ود العامري الذي أنشد :

ولقد بُحِحتُ مِنَ النَّداء لجمعهم هَلْ مِنْ مبارِزْ ؟

فأجابه رضي الله عنه :

لاتعجلنَّ فقد أَتاكَ مُجيبُ صَوْتِكَ غيرُ عاجزْ

وفي الحديبية ، قمة الأدب والحب لرسول الله عَلَيْكُم : « لا والله ، لا أمحوك » .

وفي خيبر ، سقط ترسه ، فتناول باباً عند حصن ناع ، فترَّس به ، فلم يزل في يده

⁽۱) ابن هشام : ۲۲۲/۱

حتًى فتح الله على يديه ، ثمَّ ألقاه من يده ، قال أبو رافع : فقد رأيتُني أنا وسبعة معي نجتهد أن نقلب ذلك الباب على ظهره يوم خيبر فلم نستطع .

وفي سنة تسع للهجرة يرسله عَلَيْكُ ليقرأ سورة (براءة) يوم النَّحر .

وفي حجة الوداع ، وعند غدير خُم ـ بين مكة والمدينة (١) ـ قال عَلَيْكَم : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللّهم وال من والاه ، وعاد من عاداه »(٢) .

وتولى رضي الله عنه مع أهل البيت جهاز رسول الله عَلَيْتُهُ ، ودفنه ، ومع حبّهم العميق لرسول الله عَلَيْتُهُ لم يَنُح عليه أحد .

وفي خلافة أبي بكر الصِّدِيق رضي الله عنه دفعه ، كرم معدنه ، وإخلاصه لدينه ، وحرصه على وحدة الأُمَّة للبيعة ، فكان عَيْبَة نصح لأبي بكر ، (والشَّيءُ من مَعْدنه لا يستغرب) . وعندما توفي أبو بكر ، قال علي مؤبِّناً راثياً : « رحمك الله أبا بكر ، كُنْتَ واللهِ أوَّل القوم إسلاماً ، وأكلهم إيماناً ، وأشدَّهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأحوطهم على رسول الله عَيِّنِة ، وأشبههم به هدياً وخُلُقاً وسمتاً وفضلاً ، وأكرمهم عليه وأوثقهم عنده ، فجزاك الله عن الإسلام خيراً » .

وفي خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، قال علي لعثمان عندما رأى عمر قامًا في الشَّمس في يوم شديد الحر يَعُدُّ إبلَ الصَّدقة : ﴿ يَا أَبَتِ استَأْجَرُهُ إِنَّ خيرَ مَنِ استَأْجَرُتَ الشَّويُّ الأَمِينُ ﴾ (٢) ، وهو يشير بيده إلى عمر ، وقال : هذا القويُّ الأَمين .

وقالَ عمر بحقّه: « قضيّة ولا أبا حَسَن لها » ؟! واستخلفه عندما سار إلى القدس ، وتزوج عمر أُمَّ كلثوم بنت على رضى الله عنهم .

⁽١) بينه وبين الجحفة ميلان .

⁽٢) السّب : اشتكوا علياً وعتبوا عليه عندما كان بالين ، لتضييقه عليهم .

⁽٣) القَصَص : ٢٦/٢٨

وتفجَّع علي عند موت عمر ، وقال : أبكي على موت عمر ، إنَّ موت عمر ثُلْمَةً في الإسلام لاترتق إلى يوم القيامة .

قال عبد الرحمن بن عوف وهو ممسك بيد على : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنَّة نبيّه ، وفعل أبي بكر وعمر ؟ على : اللَّهم لا ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي .

وقال على رضي الله عنه أيّام خلافة عثان : لو ولّيت ما وُلّي عثان لعملت بالمصاحف ماعمل .

وأرسل رضي الله عنه الحسن والحسين في حماية عثمان ، وحمل الماء بنفسه ليوصله إلى عثمان المحاصر ، على الرَّغ مما ناله من الغوغاء من كلام غليظ ، وتنفير لدابته .

عن عمرة بن سويد قال : كنت مع علي على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها ، فبسط علي يديه ، ثمَّ قال : يقول الله عزَّ وجلً : ﴿ وَلَـهُ الْجَـوار المنتَ آتُ فِي البَحْرِ كَالأَعلامِ ﴾ ، [الرحن : ٢٤/٥٥] ، والنّذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلت عثمان ، ولا مالأت على قتله (١) .

☆ ☆ ☆

مبايّعة على رضي الله عنه:

علي بن أبي طالب	عثمان بن عفًان	عمر بن الخطَّاب	أبو بكرالصِّدِّيق	الرَّاشدون
77	٨٢	77"	٦٣ سنة	عمره عند وفاته :
٥٧	٧٠	٥٢,٥	17	عمره عندما تولى الخلافة :
٥٧ ـ ١٠ هـ	_a To_ YT	۲۳_۱۳ هـ	١١ ـ ١٣ هـ	فترة خلافته :
٥٧	٤٥	70	٣٣	عمرعلي عند بيعة :

⁽١) مختصر ابن كثير: ٤١٨/٣ ، أخرجه ابن أبي حاتم .

بقيت المدينة المنورة خمسة أيّام بعد مقتل عثان وأميرها الغافقي بن حرب ، والمصريّون يلحّون على تولية على ، وهو يهرب منهم إلى الحيطان (١١) ، ثمّ قال النّاس : « لا يصلح لها إلاّ على » ، فبويع رضي الله عنه ، وصعد المنبر ليعلن بيانه الحكومي : لقد أشار في حكة وبلاغة إلى المنهج الّذي يستقبل به عهد خلافته ، فوضع الأصبع على موضع الدّاء ، فإنّ أكبر ما ابتلي به المسلمون في هذه الفترة التّاريخيّة ، هي الاستهانة بحرمة المسلم ، والاجتراء على سفك دمه ، وإهدار كرامته ، فركّز رضي الله عنه على رعاية حُرمة المسلم :

« وفضً الله حرمة المسلم على الْحُرُم كلّها ، وشدّ بالإخلاص والتّوحيد حقوق المسلمين ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحق .. اتّقوا الله في عباده وبلاده .. وإذا رأيتم الخير فخدوا به ، وإذا رأيتم الشّر فدعوه » . وهذا منهم ما يستقبلون من عهد الخلافة الجديدة ، وختم بآية كانوا في حاجة إلى استحضارها ، ليقارنوا بها بين ماكانوا عليه قبل الإسلام وبعده ، من قلّة وضعف ، وضعة وخمول ، إلى قوّة وسعة ، وأمن وأمان ، ورخاء وثراء : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُم قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ في الأرضِ تَخافونَ أَنْ يَتَخَطّفكُمُ النّاسُ فَآواكُمْ وَأَيّدكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقكُم مِنَ الطّيبات لعلكُم تَشْكُرونَ ﴾ ، [الأنفال : ٢٦/٨] .

بويع لعلى رضي الله عنه في فترة من أدق الفترات التّاريخيّة ، وأكثرها تعقداً وامتحاناً ، قُتِلَ خليفة بقسوة ووحشيّة ، ممّا أثار المشاعر والضّائر ، وكثرت الشّائعات والتّساؤلات ، فكان عليه :

١ ـ أن يكبح الفرس عن الجماح ، وأن يزيل العقبات والحواجز عن طريق الفرس للانطلاق من جديد .

٢ _ المتلوِّثون بعمليَّة قتل عثمان لم يكونوا مشخَّصين تشخيصاً تامّاً ، يؤخذون

⁽١) الحائط: البستان من النَّخيل، إذا كان عليه حائط وهو الجدار، جمعه حيطان.

بالمشاهدة أو الشَّهادة الشَّرعيَّة ، الَّتي يسوغ بها القصاص ، حتى زوجه نائلة الوفيَّة ، لم تستطع أن تعيِّنهم بالتَّحديد ، فعشرة أُلوف يجهرون بأنَّهم كلَّهم قَتَلَة عثمان ، فمن يحاسب ؟!

ومن طالَبَ بدم عثان ، قال لهم علي بوضوح : تدخلون في الطَّاعة ، ثمَّ يقوم وليُّ عثان فيدَّعي به عنده ، ثمَّ يعمل ما يوجبه حكم الشَّريعة (١) .

بدء الخلاف وحرب الْجَمَل: بايعت عائشة وطلحة والزّبير، ثمّ طالب طلحة والزّبير علياً الأخذ بدم عثان، فاعتذر إليهم، اعتذر إليهم لأنّ هؤلاء لهم مدد وأعوان، وأنّه لا يمكنه ذلك يومه هذا (٢). فسار طلحة والزّبير إلى مكّة وبها عائشة وقد خَرَجَتْ إلى الحجّ، ليسير الجميع إلى البصرة يطلبون دم عثان، فسار علي إلى العراق، وكانت معركة الْجَمَل سنة ٣٦ هم، ويرفض علي بعد انتصاره أن يقسم أموال أصحاب طلحة والزّبير، حتّى قال: «أيكم يحبّ أن تصير أمّ المؤمنين في سهمه؟»، فسكت القوم، وسيّر عليّ عائشة إلى المدينة في غاية الإكرام والتّوقير مع أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، مع مال وافر، فكانت عائشة تقول: «ليتني مِتّ قبل يوم الجل»، وكانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتّى تبلّ خارها.

ويَقْتَلُ طَلَحَةُ بسهم غَرِب ، ويقول علي وهو يسح التُراب عن وجهه : رحمة الله عليك أبا محمَّد ، يعزُّ عليَّ أن أراكَ مجدولاً تحت نجوم السَّماء .

ورجع الزَّبير يــوم الجــل ، وفي وادي السَّبــاع (٢) يقتلــه غــدراً عمرو بن جرمــوز ، ويحمـل رأسه إلى علي ، فيقول علي رضي الله عنه : بشَّر قاتل ابن صفيَّة بالنَّار .

⁽١) المرتضى ، ص : ١٤٠ وما بعدها .

⁽٢) البداية والنَّهاية : ٢٢٨/٧

⁽٣) وادي السّباع : على طريق مكَّة من العراق ، فيه بئر ماؤها عذب ، [معجم البلدان : ١٨٢/٣] .

الْجَمَل : فورة ماء يغلي ، فارت ثمَّ هدأت وسكنت ، خلاف على دم مظلوم ، لا خلاف عقائدي ، خلاف على طريقة قصاص ، وليس خلاف منبعه اختلاف في العقيدة .

أَما حرب علي ومعاوية ، فهي حرب بين معسكرَيْن قويَّيْن منظَّمَيْن (١) . معركة صفَّن :

عين علي سهل بن حنيف بدل معاوية ، فرده من تبوك ، وقميص عثان يبكيه سبعون ألفاً على منبر دمشق ، فسار علي رضي الله عنه من الكوفة عازماً على الدُّخول إلى الشَّام ، فكانت صفين (١) . ولم يمنع رضي الله عنه الماء عن جند الشَّام ، وتكافأ الطَّرفان في القتال ، ولكن الأَشْتَر النَّخَعي (مالك بن الحارث) تمكن من خرق صفوف مَن كان حول معاوية ، وقُتِل عمار بن ياسر ، ومن المعروف قول رسول الله عَيَّتُهُ : « تقتله الفئة الباغية » ، فتضعضع جند معاوية ، فكانت خديعة رفع المصاحف فوق الرِّماح ، ويتساءل المرء : لِم لَمْ ترفع منذ اليوم الأوَّل قبل القتال ؟!

فكان رأي أهل العراق : نجيب إلى كتاب الله ونُنيب إليه ، وإلاَّ دفعنـــاكَ برمَّتـكَ إلى القوم ، أو نفعل بكَ مافعلنــا بــابن عفَّــان ، ويجيب علي رضي الله عنـــه : فــاحفظوا

⁽١) جاء في (نهج البلاغة) ص : ٣٦٦ [نشر دار الهجرة] قال علي في رسالة إلى معاوية : « إنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثان على ما بايعوهم عليه ، فلم يكن للشّاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يَرُدٌ ، وإنّا الشَّورى للمهاجرين والأنصار ، فإن اجتمعوا على رجل وسَمُّوهُ إماماً كان ذلك لله رضى ، فإن خرج على أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردُّوه إلى ماخرج منه ، فإنْ أبى قاتَلوهُ على اتّباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ماتولَّى » .

⁽٢) صِفِّين : قرب الرَّقَة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرَّقَة وبالس ، وكانت المعركة غرَّة صفر ٣٧ هـ ، قيل : كان عليَّ في مئة وعشرين ألفاً ، ومعاوية في تسعين ألفاً ، وكان عدد الضَّحايا سبعين ألفاً من الطَّرفين ، منهم من أصحاب علي خسة وعشرون ألفاً ، ومن أصحاب معاوية خسة وأربعون ألفاً ، وقتل مع علي خسة وعشرون صحابياً بدرياً ، [معجم البلدان : ٢١٤/٣] .

عنّي نهيي إياكم ، واحفظوا مقالتكم لي ، أمَّا أنا فإنْ تطيعوني فقاتلوا ، وإن تعصوني فاصنعوا مابدا لكم ، ووعظهم الأشتر وناظرهم فلم يكفُّوا عن مقالتهم ورأيهم .

التحكيم: كان يجب أن يمثّل عليّاً عبد الله بن عبّاس ، أو الأشتر النّخمي ، ففُرِض على عليّا من قبل الغوغاء _ أبو موسى الأشعري ، وهو من الّذين اعتزلوا النّاس والقتال .

وقال الخوارج بعد إيقاف القتال : يا علي ، أشركت في دين الله رجالاً ، ولا حكم إلاً لله ، ويجيب علي رضي الله عنه : كلمة حقِّ يراد بها باطل .

يقول المرحوم العقّاد: « أمَّا الَّذِين لاموه ـ يعني عليّاً ـ لقبول ه التّحكيم ، فيُخيّل إلينا من عجلتهم إلى اللَّوم أنّهم كانوا أوّل من يلومه ويفرط في لومه ، لو أنّه رفض التّحكيم ، وأصرّ على رفضه ، لأنّه لم يقبل التّحكيم ، وله مندوحة عنه ، ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب ، ووشك القتال في عسكره ، خلافاً بين من يقبلونه ويرتضونه » .

لقد تجسدت في الخوارج: محدوديَّة النَّظر، وضيق الفكر في نظرهم إلى مخالفيهم، مع تناقض في سلوكهم، لا يأكلون تمرة ساقطة من نخلة لعدم إذن صاحبها، ويسترسلون في سفك دماء المسلمين، ولا يتورَّعون عن قتل بريء لا يقول بقولم (١).

فحنة على رضي الله عنه : لابدً من قتال أهل الشَّام ، وأنصاره ليس عندهم طاعة وانقياد مثل ما كان عند جند معاوية (٢) ، والسَّب :

منذ ولاية يزيد بن أبي سفيان ، ثم معاوية من بعده لمدة طويلة ، رأى أهل الشَّام مداراة ، وإرضاء ، وعطاء ، وملاحظة الأمر الواقع ، وإعطائه حقَّه ، وبذلك تميّز جند الشَّام بالرضا والثّبات والتَّاسك .

⁽١) عبد الرَّحمن بن ملجم ، يقتل علياً ، ويخشى أن يُقْطَعَ لسانه فيتوقَّف عن ذكر الله به !!

⁽٢) ذكر المسعودي : ٤١/٣ ، أن معاوية قال لرجل : أبلغ عليّاً أنّي أقاتله بمُنة ألف مافيهم من يفرّق بين النّاقة والجل .

أما جند على رضي الله عنه: تذمر واضطراب وانقسام ، سببها الْمُناخ والبيئة في العراق : فترة القلق والاضطراب قبيل الفتح ، والمناهب الغريبة الَّتي انتشرت في المنطقة .

قال من الخوارج:

عبد الرحمن بن عمرو (ابن مُلْجَم الحميري) : أَنا أَكفيكم علي بن أَبي طالب ، فقتله في ١٧ رمضان ٤٠ هـ .

والبُرَك بن عبد الله التَّميي : وأنا أكفيكم معاوية ، فأصاب فخذه فقط .

وعمرو بن بكر التَّميي : وأَنا أَكفيكم عَمْراً ، ولم يخرج عمرو لأَلم أَصاب أحشاءه ، وخرج للصَّلاة عوضاً عنه ، خارجة بن أبي حبيبة العامري ، فقتله عمرو التَّميي . `

قال على رضي الله عنه حين أُصيب : احبسوه وأحسنوا إساره ، فإن أعِش فسأرى فيه رأيي في العفو أو القصاص ، وإن مِتُ فقتل نفس بنفس ، ولا تمثّلوا به .



حكمتُهُ وبلاغَتُهُ :

يقول صاحب مجلة (الرِّسالة) أحمد حسن الزَّيَّات : « لانعلم بعمد رسول الله عَلَيْهُ فِي مَنْ سَلَفَ وخَلَفَ أَفصح من عليٍّ فِي النَّطق ، ولا أبل منه ريقاً في الخطابة ، كان حكياً تتفجَّر الحكة من بيانه ، وخطيباً تتدفَّق البلاغة على لسانه ، وواعظاً ملء السَّع والقلب ، ومترسَّلاً بعيد غور الْحُجَّة ، ومتكلِّماً يضعُ لسانه حيث شاء ، وهو بالإجماع أخطب المسلمين ، وإمام المنشئين » (١).

أما العقَّاد فيقول في (عبقريَّة الإمام علي) : « الكَلِمُ الجوامع الَّتي رويت للإمام ،

⁽١) تاريخ الأدب العربي ، ص : ١٧٤

طراز لا يفوقه طراز في حكمة السُّلوك على أُسلوب الأمثال السَّائرة ، والتَّعبيرات الحِسان التَّي تحار فيها أيُّ مزاياها أَفضل وأقوم ، صدق المعنى ، أو بلاغة الأداء ، أو جَودَة الصِّناعة ؟ » .

من أقواله رضى الله عنه وحكمه ، ومن غريب كلامه (١):

احذروا صَوْلةَ الكريم إذا جاع ، وصولةَ اللَّئيم إذا شَبع .

الفقر يُخرس الفَطِنَ عن حُجَّته ، والمقلُّ غريب في بلدته .

العَجْزُ آفةً ، والصَّبر شجاعة ، والزُّهد ثروة ، والورع جُنَّة ، ونعم القرينُ الرِّضي .

الآداب حُللٌ مجدَّدة ، والفكر مرآة صافية .

إذا أقبلت الدُّنيا على أحد أعارته محاسنَ غيره ، وإذا أُدبرت عنه سلبته محاسِنَ نَفْسه .

ماأضر أحدّ شيئاً إلاّ ظهر في فَلتات لسانه ، وصفحات وجهه .

لاتكن عبد غيرك ، وقد جعلك الله حُرّاً .

المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه .

ماهلك امرؤٌ عرف قدره .

رُبُّ كلمة سلبت نعمة .

أدبٌ فريد ، إنَّه أدب العتاب والتَّأنيب :

« كَم أُداريكُم كَا تُدارى البكار (٢) العَمِدة (٢) ، والثِّياب المتداعية ، كلَّما حيصت من جانب تهتَّكت من آخر ، كلَّما أَطلَّ عليكم منسر من مناسر (٤) أَهل الشَّام ، أَغلق كلَّ رجل منكم بابه ، وانجحر انجحار الضَّبة في جحرها ، والضَّبْع في وجارها » (٥) .

⁽١) انظر (نهج البلاغة) ، ص : ٤٦٩ وما بعدها .

٢) الفتي من الإبل.

⁽٣) الّتي انشدخت أسنتها .

⁽٤) قطعة من الجيش.

⁽٥) بيت الضبع .

« الندَّليلُ واللهِ مَنْ نصرتموه ، ومَنْ رَمَى بكم فقد رمى بأَفْوَقَ ناصل (١) ، إنَّكم واللهِ لكثير في الباحات ، قليل تحت الرَّايات ، وإنِّي لعالم بما يصلحكم ويقيم أُودَكم ، ولكني والله لاأرى إصلاحكم بإفساد نفسي » .

« أما بعد ، يا أهل العراق ، فإنَّما أنتم كالمرأة الحامل ، حملت فاما أمَّت أملصت (٢) ، ومات قيَّمُها ، وطال تأيَّمُها ، وورثها أبعَدُها ، أما والَّذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القومُ عليكم ، ليس لأنَّهم أولى بالحقّ منكم ، ولكن لإسراعهم إلى باطلهم ، وإبطائكم عن حقّي ، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيَّتي .

أستنفركم للجهاد لم تنفروا ، وأسمعتكم فلم تسمعوا ، ودعوتكم سِرًا وجهراً فلم تستجيبوا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا » .

« شهودٌ كغُيَّاب ، وعبيد كأرباب ، أتلو عليكم الحِكَم فتنفرون منها ، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرَّقون عنها ، وأحثَّكم على جهاد أهل البغي ، فما آتي على آخر قولي حتَّى أراكم متفرِّقين أيادي سبأ^(١) ، ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم ، أقوِّمكم غدوة ، وترجعون إليَّ عشيَّة كظهر الحنيَّة (٤) ، عَجِزَ المقوَّم ، وأعضل المقوَّم » .

« أَيُّهَا القوم ، الشَّاهد أبدانهم ، الغائبة عنهم عقولهم ، الختلفة أهواؤهم ، الْمُبْتَلَى بهم أُمراؤهم ، صاحبهم يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشَّام يعصي الله وهم يطيعونه ، لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدِّينار بالدرهم ، فأخذ منِّي عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم .. » .

« إذا أمرتكم بالسَّير إليهم في أيَّام الحرِّ قلتم : هذه حَارَّة القيظ (٥) ، أمهلنا يُسَبَّخُ

⁽١) سهم مكسور ، عاري النَّصل .

⁽٢) ألقت ولدها سقاطاً.

⁽٣) ضرب العربُ المثل بأهل مدينة سبأ (الين) في الفرقة ، لتبدُّدهم في البلاد ، [اللَّسان : سبأ] .

⁽٤) الحنية : القوس .

⁽٥) حَمَارَة القيظ : شدَّة الحر .

عنَّا الحرُّ ، وإذا أمرتكم بالسَّير إليهم في الشَّتاء قلتم : هذه صَبارَّةُ القّرِ (١) ، أمهلنا ينسلخُ عنا البردُ ، كُلُّ هذا فراراً من الْحَرِّ والقُرِّ ، فإذا كنتم مِنَ الحرِّ والقُرِّ تفرّون ، فأنتم والله من السَّيف أفرُّ .

يا أشباه الرِّجال ولا رجال! حُلومُ الأَطفال ، وعقولُ ربَّات الحجال ، لوددت أنِّي لم أَركم ، ولم أَعرفكم معرفة ـ والله ـ جرَّت ندماً ، وأعقبت سَدَماً (٢) ، قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً ، وجرَّعتموني نُغَبَ التَّهام (١) أَنفاساً ، وأَفسدتم عَليَّ رأيي بالعصيان والخذلان ، حتَّى لقد قالت قريش : إنَّ ابن أَبي طالب رجلٌ شجاعٌ ، ولكن لا علم له بالحرب .

لله أبوهم ! وهل أحدٌ منهم أشدٌ لها مِراساً ، وأقدمُ فيها مَقاماً منّي ! لقد نهضتُ فيها وما بلغت العشرينَ ، وهأنذا قد ذرَّفت على السّتين ، ولكن لا رأيَ لمن لا يطاع ، ولكن لا رأيَ لمن لا يطاع » .





⁽١) صبارّة القُرّ : شدّة برد الشّتاء .

⁽٢) السُّتم: الهم مع أسف أو غيظ.

 ⁽٣) نُغّبُ التّهام : جُرّعُ الهم والحزن .

مِنَ الرَّاشِدِينَ إِلَى الأُمُويِّينَ

النّاسُ لعلى رضى الله عنه حين طعن: استخلف يا أمير المؤمنين ، فقال : لا ، ولكن أدعكم كا ترك رسول الله يَوْلِيَّةٍ - يعني بغير استخلاف ـ فإن يُرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم ، كا جمعكم على خيركم ، كا جمعكم على خيركم .

جاء في (صفوة الصَّفوة) لابن الجوزي: «قال معاوية لضرار بن ضَمْرَة: صف لي علياً ، فقال: أَوتعفيني؟ قال: لأأعْفيك ، قال: لأعْفيك ، قال: أمَّا إذاً ، فإنَّه والله كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فَصْلاً ، ويحكم عَدْلاً ، يتفجَّر العِلْمُ من جوانبه ومن نواحيه ، يستوحش من الدَّنيا وزهرها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدَّمعة ، طويل الفِكْرة ، يقلِّب كفَّه ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللَّباس ماخَشِنَ ، ومن الطَّعام ماخَشَّب (۱) .

كان واللهِ كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منّا لانكلّمُهُ هيبةً له ، ولا نبتديه ، فإن تبسّم فعن مثل اللّؤلؤ المنظوم ، يعظّم أهل الدّين ، ويحبُّ المساكين ، لا يطمع القويُّ في باطله ، ولا ييأسُ الضّعيفُ من عدله .

وأشهد بالله ، لقد رأيتُه في بعض مواقفه وقد أرخى اللَّيلُ سجوفَه (٢) ، وغارت

⁽١) ماخشب: ماغلظ،

⁽٢) سجوفه : ستره .

نجومه ، وقد مَثُلَ في محرابه قابضاً على لحيته ، يتملل تلمل السَّلم (۱) ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأنِّي أسمعه وهو يقول : يا دنيا ، أبي تعرَّضت ؟ أمْ لي تشوَّقت ؟ هيهات هيهات ، غُرِّي غيري ، قد بتتَّك ثلاثاً لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلَّة الزَّاد وبُعْدِ السَّفر ، ووحشة الطَّريق » .

« قال : فذرفت دموع معاوية حتَّى خرَّت على لحيته ، فما يملكها ، وهو ينشَّفها بكمّه ، وقد اختنق القوم بالبكاء ، ثمَّ قال معاوية : رحمَ الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنُك عليه يا ضرار ؟ قال : حزنُ مَنْ ذُبِحَ ولدُها في جِحْرها ، فلا ترفأ (٢) عبرتَها ، ولا يسكن حزنُها » .

ولم يكن رضي الله عنه مع زهده وورعه وتصلُّبه في دينه على شيء من الفظاظة والخشونة والعبوس ، ولم يكن ثقيل الظِّل ، بل كان ودوداً بشوشاً ، فيه دعابة ملحوظة .

ولم يكن رضي الله عنه حاكماً إداريّاً فقط ، بل كان على منهج الخليفتَيْن الأُوّلَيْن ، فكان وليّ أمر المسلمين ، ومعلّماً ومربّياً ونموذجاً عمليّاً ، قائماً بالحِسْبَة الدّينيّة والْخُلُقيّة .

سياسة على رضى الله عنه : كان المحور الذي تدور عليه سياسة على رضى الله عنه ، ونظام حكمه وإدارته ، هو تقديم المبادئ والقيم والمُثُل الإسلاميَّة ، على المصالح السياسيَّة والإداريَّة ، والمحافظة على روح خلافة الأنبياء ، ومنهج الخلفاء الرَّاشدين ، وكان مستعدًا كلَّ الاستعداد لأن يدفع قية هذا المنهج ، وقد دفع قية إيثار هذا المنهج باهظة ، راضياً بذلك قرير العين (٢) .

وكان الخلاف بين علي ومعاوية ، خلافاً بين مدرستَيْن ، وبين نظامَيْن ، خلافة دينيّة ، ودولة دنيويّة .

⁽١) اللَّذيع أو الجريح المشرف على الموت ، سمُّوه به تفاؤلاً بالسُّلامة .

⁽٢) لاترفأ: لاتنقطع.

⁽٣) المرتضى ، ص: ١٨٤

يقول العقاد: « ليس موضع الحسم فيها أن ينتصر عليًّ فيحكم في مكان معاوية ، أو ينتصر معاوية فيحكم في مكان عليّ ، بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون إذا تغلّب واحد منها على خصه ؟ أتكون مبادئ الخلافة الدّينيّة ، أو مبادئ الدّولة الدنيويّة ؟

الحسم حقُّ الحسم هنا إنّا هو تغليب مبادئ الْمُلْك أو مبادئ الخلافة ، ولا حيلة لعلى ولا لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه ، لو جهد له جهاد الطاقة »(١).

فلم تكن المسألة خلافاً بين علي ومعاوية على شيء واحد ينحسم فيه النّزاع بانتصار هذا أو ذاك ، ولكنها كانت خلافاً بين نظامَيْن متقابلَيْن ، وعالَمَيْن متنافسَيْن ، أحدهما يترّد ولا يستقر ، والآخر يقبل الحكومة كا استجدّت ، و عيمل فيها إلى البقاء والاسترار .

وسياسة على رضي الله عنه هي اللائقة به ولا بديل لها عنده ، وهل خطر لأحد من ناقديمه في الولاة والتّحكيم .. في عصره ، وبعد عصره ، أن يسأل نفسه : أكان في وسع على أن يصنع غير ماصنع ؟

معاوية ، مارس الحكم طويلاً ، فكسب معرفة لطبائع النّاس ، ودراسة واقع البلاد الّتي حكمها مدّة طويلة ، فرأى بعد تنوّع المشكلات ، وتعدّد عناصرها إقامة نظام حكم شخصي (عادل مَرِن) ، يحافظ على شعارات الإسلام إجمالاً ، ويتوسّع في نظم الحكم وأساليب الإدارة ، ومعاملة النّاس ، فبدأ حكمه كحاكم مسلم (عسكري وإداري) .

« خلافة النُّبوَّة ثلاثون سنة ، ثمَّ يُعطى اللهُ الْمُلْكَ _ أو ملكه _ مَنْ يشاء " (٢) .

ولا شكَّ أن سياسة معاوية كانت اجتهاداً منه ، مجانباً لما ثبت واستفاض من الحثّ على إقامة الخلافة على منهاج النَّبوَّة .

⁽١) العبقريات الإسلاميَّة ، ص : ٨٩٢

⁽٢) سنن أبي داود ، وأخرجه الترمذي أيضاً .

والموضوعيَّة تفرض أن يذكر للمرء ماله وما عليه ، وما لمعاوية كثير :

بلغت الفتوحات في زمنه الحيط الأطلسي ، وبنى أسطولاً إسلاميّاً من ألف وسبع مئة سفينة ، وفتح قبرص ورودس ، ورتّب الشّواتي والصّوائف ، وفي سنة ٤٨ هـ جهّز جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينيّة برّاً وبحراً ، فوقفت (النّار اليونانيّة) دون تحقيق الهدف ، وكان في هذا الجيش : ابن عبّاس ، وابن عمر ، وابن الزّبير ، وأبو أيوب الأنصاري (خالد بن زيد) .

جاء في (البداية والنّهاية : ١١٩/٨) : قال معاوية مخاطباً ملك الرّوم (قسطنطين بن هرقل) : والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يالعين ، لأصطلحن أنا وابن عني عليك ، ولأخرجنك من جميع بلادك ، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت ، وعند ذلك خاف ملك الرّوم ، وانكف ، وبعث يطلب الهدنة .

أسلم على الأرجح عام الفتح (١) ، فشهد حنيناً ، وكتب لرسول الله عَلَيْكُم ، ولي الشَّام بعد وفاة أخيه يزيد .

توفي معاوية سنة ٦٠ هـ ، عن ٧٨ أو ٨٢ أو ٨٦ سنة .

قال الشَّعبي : دهاة العرب أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، فأمًا معاوية بن أبي سفيان فللأناة والحلم. ، وأما عمرو بن العاص فللمعضلات ، وأمًا المغيرة فلِلْمَبادَهة ، وأمًا زياد فللصَّغير والكبير (٢) سَيِّدا شَبَاب أهل الجنَّة :

١ ـ الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وَلِدَ الحسن سنـة ٣ هـ ، وكان رسول الله عَلَيْتُهُ

⁽١) عام فتح مكة (رمضان ٨ هـ) ، وكان يقول عن نفسه : « أسلمت عام القَضِيَّة (صلح الحديبية) » ، وكتر إسلامه من أبيه وأمه .

⁽٢) أسد الغابة : ٢٤٨/٥

عبه حُبّاً شديداً ، يُركبه على ظهره على ظهره وربا صعّده على المنبر(١) ، وقال عنه على المنبر(١) ، وقال عنه على الله على يده بين فئتين عظيمتين من المسلمين »(١) ، « اللهم إنّي أحبّه فأحبّه »(١) .

كلمات موجّهة من رسول الله عَلَيْتُهُ ، قرّت في نفسه ، واستولت على مشاعره ، وامتزجت بلحمه ودمه .

ذكر ابن عساكر: مرّ الحسن في بعض حيطان المدينة ، فرأى عبدا أسود بيده رغيف ، يأكل لقمة ، ويطعم كلباً لقمة ، إلى أن شاطره الرّغيف ، فسأله الحسن عن سبب المشاطرة ، فقال العبد: استحت عيناي من عينيه أن أغابنه ، فسأل الحسن عن سيّده ، فإذا به أبان بن عثان ، والحائط له ، فأقسم الحسن على العبد ألا يبرح حتى يعود إليه ، لقد اشترى رضي الله عنه العبد والحائط ، وعاد إلى العبد ليقول له: أنت حرّ لوجه الله ، والحائط هبة منّي إليك (٤) .

ولما ضرب ابن ملجم عليها ، قال جندب بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن مت نبايع الحسن ؟ قال : لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر .

وقال بعض النَّاس: استخلف يـاأمير المؤمنين ، فقـال: لا ، ولكن أدعكم كا ترك رسول الله عَلَيْتُهُ (يعني بغير استخلاف) ، فـإن يُرِد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم ، كا جمعكم على خيركم ، كا جمعكم على خيركم بعد رسول الله عَلِيْتُهُ .

ولكن النَّاس بايعوا الحسن بن علي يوم ضُرب علي ، وهو يوم الجمعة ، السَّابع عشر

⁽١) البداية والنَّهاية : ٣٣/٨

⁽٢) البخاري ، الإصابة : ٢٣٠/١

⁽٢) في (مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر) : ٧٧ ، طبعة دار الفكر بدمشق : « اللَّهم إنِّي أُحبه فأحبه وأحب من يحبُّه » ،

⁽٤) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر : ٢٥/٧ . (طبعة دار الفكر بدمشق ـ ١٩٨٥ م) .

من رمضان سنة أربعين هجريَّة (١).

سيَّر الحسنُ قيس بن سعد بن عبادة في ١٢٠٠٠ رجل قاصداً الشَّام لقتال معاوية ، وفي (المدائن) صرخ صارخ : ألا إنَّ قيس بن سعد بن عبادة قد قُتِل ، فثار النَّاس وانتهبوا أمتعة بعضهم بعضاً ، حتَّى انتهبوا سرادق الحسن ونازعوه بساطاً كان جالساً عليه ، وطعنه بعضهم حين ركب طعنة أثبتته ، فكرههم الحسن كراهية شديدة ، حتَّى الختار بن أبي عبيد ، يقول لعمه سعد بن مسعود : هل لك بالشَّرف والغني ؟ تأخذ الحسن بن علي فتقيِّده وتبعثه إلى معاوية ، ويجيبه سعد بن مسعود : قبَّحك الله ، وقبَّح ما جئت به ، أغدر بابن بنت رسول الله عَلَيْهُ ؟ !

عام الجماعة: لقد مقت الحسن جيشه ، الله تعصف به الآراء الختلفة ، وقلّة التّدبير والخدلان ، فكتب إلى معاوية يعرض عليه الصّلح بينها ، حقناً لدماء المسلمين ، فاصطلحوا على ذلك ، واجتمعت الكلمة على معاوية .

وخطب الحسنُ النَّاس قائلاً : « أَمَّا بعد أَيُّها النَّاس ، إِنَّ الله هداكم بأَوَّلنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وإِن لهذا الأمر مُدَّة ، والدَّنيا دُوَل ، فإِنَّ الله تعالى قال لنبيِّه عَلَيْكُم : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَكُم وَمَتَاعً إلى حِينٍ ﴾ ، [الأنبياء : ١١١/٢١] .

وجاءت بعض أحياء العرب تلوم الحسن وتبكُّته ، ويتساءل المرء : أين كانوا عن نصرته ؟!

وكانت شروط الحسن في الصُّلح :

١ ـ أن لا يُذكر أبوه رضي الله عنه بسوء في حضرته .

٢ _ وإبقاء ما في بيت المال معه (خسة ملايين درهم) ، استبقاه لأولئك الحاربين

⁽١) البداية والنَّهاية : ١٤/٨

٢) البداية والنّهاية : ١٤/٨ أيضاً .

الَّذين كانوا معه ، يوزُّعه بينهم ، ويبقي لعيشته ، له ولأهل بيته ولأصحابه وحاشيته .

توفي الحسن رضي الله عنه سنة خمسين للهجرة ، وهو ابن سبع وأربعين سنة ، جاء في مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر : ٣٩/٧ : « يقال إنّه كان سُقِيَ _ أي السّم - ثمّ أفلت ، ثمّ سقي فأفلت ، ثمّ كانت الآخرة توفي فيها ، فلما حضرته الوفاة قال الطّبيب وهو يختلف إليه : هذا رجل قد قطع السّم أمعاه »(١) .

لقد حقن رضي الله عنه دماء المسلمين الَّتي كانت تسيل في سخاء وغزارة ، بعد وضع حربي شائك تفتقده الثَّقة .

الحسن من أبصر النَّاس بنفسيَّة جيش مضطرب هائج مائج ، متهيِّئ للثَّورة والغدر والتَّراجع بأقل سبب ، وهو العلم بهذا الجيش المدَّعي لنصرته ، ونصرة أبيه من قبل (٢) .

☆ ☆ ☆

العَوَامِلُ الَّتِي أَدَّت إلى انتقال الحكم من الرَّاشدين إلى الأُمويِّين :

تغيَّر المجتمع ، وانتقل النَّاس من حياة الزَّهد والتَّقشُّف إلى حياة البذخ والتَّرف ، فنشأ جيل غير جيل الصَّحابة ، جاء في عيون الأخبار : ٩/١ : « قال عبد الملك بن مروان : أنصفونا يامعشر الرَّعيَّة ، تريدون منّا سيرة أبي بكر وعمر ، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم سيرة رعيَّة أبي بكر وعمر ! نسأل الله أن يعين كلاً على كلًّ » .

وقال الشَّعبي : « كان معاوية كالجمل الطَّبِّ " ، إذا سُكت عنه تقدَّم ، وإذا رُدَّ تأخَّر » .

⁽۱) كانت جعدة بنت الأشعث تحت الحسن بن علي ، فدس إليها يزيد أن سُمّي حسناً إنّي زوجك ، ففعلت ، ثمّ لم يتزوّجها ، وقال : إنّا والله لم نرضك للحسن ، فنرضاك لأنفسنا ؟ [مختصر تاريخ ابن عساكر : ۳۹/۷ و ٤٠] .

⁽۲) المرتضى ، ص : ۲۰۳ (بتصرّف) .

⁽٣) الجلُّ الطُّبُّ: الحاذق بالمشي ، وهو الَّذي لا يضع يديه إلاَّ حيث يُبْصِر .

وكان معاوية يقول: « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين النَّاس شعرةً ما انقطعت ، قيل: وكيف ذاك ؟ قال: كنت إذا مدُّوها خلَّيتها ، وإذا خلُّوها مددتها »(١) .

لقد دافع الحكم الرَّاشدي عن نفسه في الجمل وصفِّين ، لكن الزَّمن تغيَّر ، ولئن انتقل الحكم إلى العهد الجديد ، فإنَّ روح الخلافة الرَّاشديَّة استرَّت عند رجال في مضونها الحقيقي ، متصدِّية معارضة .

وهكذا ، انتصرت أسرة بني أُميَّة على الأُسرة الهاشميَّة ، وأصبح على رأس السَّلطة ملك حكمه وراثي (٢) .

ولاية يزيد: عهد معاوية للحسن من بعده ، فلما مات الحسن ، قوي الأمر ليزيد ، ورآه لذلك أهلاً ، وذلك من شدَّة محبَّة الوالد لولده ، قال معاوية لعبد الله بن عرد : « إنِّي خفت أن أذر الرَّعيَّة بعدي كالغنم المطيرة ليس لها راع » ، فدعا للبيعة سنة ٥٦ هـ ، فكره النَّاس ذلك لما يعلمونه من سيرة يزيد ، وفي النَّاس الحسين ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزَّبير .. فأين يزيد من هؤلاء ؟!!

كتب معاوية بذلك إلى الآفاق ، بايع النَّاس ، ولم يبايع : عبد الرَّحن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عر ، والحسين بن علي ، وعبد الله بن الزَّبير ، وعبد الله بن عبّاس ، وفي عمرة معاوية ، هدد في المدينة المنوَّرة وتوعَّد .

امتنع الحسين رضي الله عنه عن بيعة يزيد ، وبقي متسكماً بذلك (٣) ، فراسله أهل العراق ، وأرسلوا إليه مئة وخسين كتاباً (١) : « إنّ معك مئة ألف » ، وبعث الحسين ابن

⁽١) عيون الأخبار : ١/٩

⁽٢) لقد استقر الحكم لمعاوية ، فهل ثأر من قتلة عثمان ؟ أَمْ نُسِيَ الأمر ؟ لقد نُسِيَ !!

 ⁽٣) قال عمر رضي الله عنه : « قد علمت ورب الكعبة متى تهلك العرب ؛ إذا ساسهم من لم يدرك الجاهليّة ،
 ولم يكن له قِدَم في الإسلام » ، [البداية والنّهاية : ٢٣٢/٨] .

⁽٤) ثمُّ أنكروا كتبهم الَّتي أرسلوها إلى الحسين عندما وصل إليهم .

عُمّه مُسلم بن عقيل إلى الكوفة ، فحلفوا له لينصرنّه بأنفسهم وأموالهم ، ولكن النّاس تخاذلوا ثانية ، وتركوا مسلم بن عقيل ، حتّى لم يبق معه أحد ، ثم حوصر في دار ، وأراد أن يرسل مع محمّد بن الأشعث يأمر الحسين بالرّجوع : « ارجع بأهلك ، ولا يغرّنك أهل الكوفة » ، ولكن عبيد الله بن زياد قتل مسلم بن عقيل .

سار الحسين رضي الله عنه ، ومعه ستون فقط ، إلى العراق ، وقبيل الكوفة بمسيرة أربعة أيّام قال : كلّما حُمّ نازل ، عند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمّتنا(١) .

وقبيل خروجه رضي الله عنه نهاه عبد الله بن عمر ، فأبى ، فاعتنقه وبكى وقال : أستودعك الله من قتيل .

وفي الطَّريق رأى الْحُسين الفرزدق ، فقال الفرزدق : يا ابن رسول الله ، القلوب معك ، والسَّيوف عليك ، والنَّصر من السَّاء (١) ، « قلوبهم معك ، وسيوفهم مع بني أميَّة » ، أفئدتهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك .

ونزل رضي الله عنه (كربلاء) ، فأرسل عبيد الله بن زياد عمر بن سعد لقتاله ، فقال الحسين : ياعمر ، اختر منّي إحدى ثلاث خصال : إمّا أن تتركني أرجع كا جئت ، فإن أبيت فسيّرني إلى يزيد يحكم فييّ ما رأى ، فإن أبيت هذه فسيّرني إلى التّرك أقاتلهم حتّى أموت (٢) .

وفي (كربلاء) ، وفي يوم عاشوراء (١٠ الحُرَّم) سنة ٦١ هـ ، نادى شَمِر بن ذي الجوشن : ماذا تنتظرون بقتله ؟ فتقدَّم إليه زرعة بن شريك التَّميي فضربه بالسَّيف على عاتقه ، ثمَّ طعنه سنان بن أنس بن عمرو النَّخعي بالرَّمح ، ثمَّ نزل فاحتزَّ رأسه .

⁽١) البداية والنّهاية : ١٥٦/٨ و ١٥٧

⁽٢) الإصابة: ١٦/١٦

⁽٣) البداية والنَّهاية : ١٧٠/٨

لقد قتل رضي الله عنه ، ولـه أربع وخمسون سنـة وستَّـة أشهر ونصف ، وقتل معـه سبعة عشر رجلاً ، كلَّهم من أولاد فاطمة رضي الله عنه (١) .

دمعت عينا يزيد لما جاءه رأس الحسين ، وردَّ السَّبي إلى المدينة المنوَّرة ، لكنه لم يلم أو يعاقب ، أو يعزل ابن زياد .

« وفي مواضع العبرة ، أنَّ كلَّ من كان له ضلع في قتل الحسين وقتاله ، قُتِل بعد ذلك ، فقد تتبَّع الختار على ضلالته وانحرافاته .. قتلة الحسين وغيرهم مَّن كانت له يد جارحة في تلك الجريمة ، فقتلهم ، والله عزيز ذو انتقام »(١) .

قال صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل: قلت لأبي: إنَّ قوماً يقولون إنَّهم يحبُّون يزيد، فقال: يابني، وهل يحب يزيداً أحدٌ يؤمن بالله واليوم الآخر؟ فقلت: ياأبت، فلماذا لا تلعنه؟ فقال: يابني، ومتى رأيتَ أباكَ يلعن أحداً (٢)؟

وقال ابن تيية : أمَّا من قتل الحسين ، أو أعان على قتله ، أو رضي بذلك ، فعليه لعنة الله والملائكة والنَّاس أجمعين ، لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً (٤).

والشَّيخ أحمد الفاروقي السَّرهندي _ مجدِّد الألف الثَّاني _ بعد كلام عن مكانة الحسين (٥) ، تلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يؤذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهيناً ﴾ ، [الأحزاب : ٥٧/٢٣] .



⁽١) البداية والنَّهاية : ١٧١/٨

⁽٢) المرتضى، ص: ٢١٣

⁽٣) فتاوی ابن تیمیة : ٤٨٣/٤

⁽٤) فتاوى ابن تبية : ٤٨٧/٤

هٔ نتاوی ابن تیمیة : ۱۱/۵

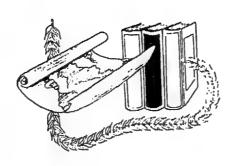
نَدِمَ الكوفيُّون بعد تنكُّرهم للحسين ومن معه ، وما ينفع النَّدم بعد التَّفريط ، حتَّى قُتِلَ بينهم وهم ينظرون ؟

قال سعد بن عبيدة : إنَّ أشياخاً من أهل الكوفة لوقوف على التَّل يبكون و يقولون : اللَّهم أنزل نصرك ، فقلت : يا أعداء الله ، ألا تنزلون فتنصرونه ؟!!

وتشكّلت فرقة قامت تطالب بالثّار من قتلة الحسين رضي الله عنه ، عرفت باسم (التّوابون) ، قادها سليان بن صُرَد سنة ٦٥ هـ ، وماذا يفيد الحسين ذلك ؟!

﴿ قُلْ هَلْ نَنَبِّئكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ اللَّانيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ صَنْعاً ﴾ ، [الكهف: ١٠٢/١٨ و ١٠٤] .





الفُتُوحَاتُ معجزة التَّاريخ الإنساني الكبرى

« فالحسق أنّ الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مشل العرب ، ولا ديناً سَمْحاً مشل دينهم » .

د . غوستاف لوبون [حضارة العرب ، ص : ٧٢٠]

كيف استطاع بدو الصَّحراء ، وبلا سابق تجربة ، خوض معارك عظمى فاصلة ، ضدّ جيوش نظاميَّة مدرَّبة ، بسلاح بسيط ، فاستطاعت أن تجعل الفتح دائمًا خالداً ، لم يغيِّر مصوَّر الأرض جغرافيًا ، بل غيَّر الإنسان ، فكراً ونمطَ حياة .

وما سبب هذا الفتح السَّريع الدَّائم ؟

أهو ضعف فارس ؟ أمُّ وَهَن بيزنطة خلال حروبها الطُّويلة ؟

أمْ الغنية ، الَّتي كانت هدفاً ؟

أَمْ هو الجمل ؟ الَّذي كان مَعْلَم قوّة في الفتوحات ، ربط الجبهات بالحجاز ، حاملاً التَّموين والإمدادات !!

أمْ هي بيئة الصَّحراء القاسية ؟ أنتجت رجالاً في غاية الخشونة والقوَّة .

أمْ هي طبيعة الرِّسالة الَّتي صقلت النَّفوس ، وربَّت الأرواح ، فخرج المؤمنون أمُّ هي التاريخ الإسلامي (١٨)

الصَّادقون ، وهم في قَّة الإخلاص (للعقيدة) ، يبلِّغونها إلى العالَمِين ؟!؟ باعوا أنفسهم لله ، فكتبوا المجد لأُمَّتهم ، والنَّصر لجيوشهم ، والخلود لأنفسهم .

وقبل أن نامس أنّها (العقيدة) ، نَفَنّد ادّعاءات : يوليوس فلهاوزن ، وبرنارد لويس ، ومرجليوث ، وبروكلمان ، وموير ، وجرجي زيدان ، وفيليب حتّي .. الّذين جعلوا : « حبّ الهناء في أحضان الهلال الخصيب » ، هدف فتوحاتنا الإسلاميّة ، نتساءل : كيف انتشر الإسلام ؟ وكيف انتشرت الشّرائع الأُخرى ؟

١ عبادة إلـه الشَّهس (آتون) ، فرضها (أمنحتب) فرعـون مصر على شعبـه ،
 فأغلق معابد الآلهة الأُخرى ، وكلُّ مخالف تعرَّض للاضطهاد والعذاب والتَّنكيل .

٢ _ والبوذيَّة لاشأن لها قبل (آزوكا) ، الَّذي تبنَّاها ونشرها في جنوب شرقي آسية .

٣ ـ والمزدكية لا اعتبار لها قبل (قبّاذ) ، الّذي فرضها على شعبه ، حتّى على المناذرة العرب .

٤ _ والزرادُشتيَّة لااعتبار لها قبل (داريوس) ، الذي تبنَّاها بعد قرن من وفاة زرادُشت ، حتَّى وصل بها إلى أثينا .

٥ _ والكونفوشيوسيَّة لاشأن لها قبل أن يتبنَّاها رئيس وزراء مقاطعة (لُو) الصِّننَة .

٦ _ والمسيحيَّة لم تكن لتنتشر لولا سلطة قسطنطين ، سنة ٣١٣ م .

بينا الإسلام ، قوَّته ذاتيَّة ، هو الَّذي أوجد رجالاً ، وربَّى أبطالاً منافحين عنه في سنيِّه الأُولى ، وتنبَّه (مايكل هارت) صاحب كتاب : (المئة الأوائل) إلى هذه الحقيقة ، فقال في الصَّفحة ١٩ : محمَّد الرَّجل الوحيد في التَّاريخ ، نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويَيْن الدِّيني والدُّنيوي .

ولم ينتصر المسلمون على دولَتَيْن واهيتَيْن ضعيفتَيْن ، للأسباب التَّالية :

١ - انتصروا في الجزيرة وهم قِلَّة على إخوانهم وأبناء عومتهم وهم كثرة ، خصوصاً في حروب الرَّدَّة ، فالبنية الجسديَّة واحدة ، والبيئة واحدة ، وانتصر الصَّدِّيق على المرتدين والمتنبَّئين .

٢ - وفي اليرموك ، خاض المسلمون معركة كان فيها الرَّوم البيزنطيَّون أضعاف عدد المسلمين ، ومعهم الكثير الكثير من العرب المتنصِّرة .

٣ ـ وترتيبات الفرس والرُّوم وإمداداتهم عريقة ، يحاربان في أرض سيطروا عليها منذ سنوات طويلة .

٤ ـ وفتح المسلمون جبهتَيْن في آن معاً ، يرموك وقادسية معاً ، نهاوند ومصر معاً .

٥ ـ والحروب تعطي خبرةً وفنوناً ومراساً ، وكان الرُّوم يستصغرون شأن العرب ، وكذلك الفُرْس .

٦ ـ والنّصر العسكري شيء عظيم ، ولكن الشّيء الأكبر انتصار العقيدة ، لذلك لم تنحسر الفتوحات الإسلاميّة عن غالب ومغلوب ، تثير الأحقاد نفسه ، وتفتّت كبده ، لقد نقل المسلمون النّاس إلى الإسلام ، ولم ينقلوا الإسلام إلى النّاس .

٧ ـ وحارب المسلمون البربر سكان الشَّمال الإفريقي ، وهم أبناء شدَّة وبيئة قاسية ، وانتصروا عليهم ، كما هم التَّرك في أواسط آسية ، فصوَّر الفتح مكتمل ، لم يترك بقاعاً خشية أهلها .

٨ ـ ورغم كلَّ الجهود الاستشراقيَّة والتَّبشيريَّة والاستعاريَّة ، الإسلام اليوم هـو
 (الدِّين الزَّاحف) ، إنَّه الأكثر انتشاراً .

الغنية هي الهدف !!

لقد دفعت الفاقة هؤلاء البدو إلى الأراضي الخصيبة ، والمدن العامرة في المالك ـ ٢٧٥ ـ

المجاورة ، إنَّها الحاجة المادِّيَّة الَّتي حرَّكتهم إلى مواطن الخصب في الشَّمال .

وجّهت هذه الفرية إلى رسول الله عَلَيْكَ ، وعُرِض عليه المال والجاه والنّساء ، فماذا كان الرَّدُ ؟ ما تركت هذا الأمر حتَّى يظهره الله أو أموت دونه ، ودانت له جزيرة العرب ، وبقي على تقشَّفه وزهده .

وقال زُهرة بن الحويَّة لرستم عندما قال له: انصرف وقومك ولكم منّا جُعْلاً: إنّا لم نأتكم بطلب الدُّنيا ، إنَّا طلبتنا وهمَّتنا الآخرة ، وأتمَّ المغيرة بن شعبة الجواب قائلاً: الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال ؟ فلو كان الهدف ثروة لقبلوا بها دون دماء ويتم وأرامل .

وقال ملك الصِّين لهبرة بن الْمَشْمِرِج الكلابي عثِّل قتيبة بن مسلم الباهلي : انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فإنِّي قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، أو أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه .. فأجاب هبيرة : كيف يكون حريصاً من خلَّف الدُّنيا قادراً عليها وغزاك ؟ وأمًا تخويفك إيّانا بالقتل ، فإنَّ لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه (١) .

ورسل المقوقس حين عادوا من عند عرو بن العاص وجيشه قبيل فتح حصن بابليون قالوا: رأينا قوماً الموت أحبًّ إليهم من الحياة ، والتّواضع أحبًّ إليهم من الرّفعة ، ليس لأحد منهم في الدّنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التّراب ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف كبيرهم من صغيرهم ، ولا السّيّد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصّلاة لم يتخلّف عنها منهم أحّد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم (٢) ، فقال المقوقس : والّذي يُحلف به ، لوأنّ هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد .

⁽١) الطبري: ١٠١/٦

⁽٢) النَّجوم الزَّاهرة : ١١/١ ، فتوح مصر وأخبارها ، ص : ٦٥

وفي اليرموك ، كم منادٍ صاح : مَنْ يبايع على الموت ؟ لا من يبايع على الغنية والثَّروة .

ومات أعظم قائد في الإسلام ، خالد بن الوليد رضي الله عنه ، مخلّفاً من حطام الدُّنيا : فرساً وحساماً وغلاماً ، فأين الغنائم ؟!

ومئة ألف مسلم ، لوأرادوا الثّروة والغنية ، تكفيهم فلسطين ، أو غوطة دمشق ، أو نصف دلتا مصر ، أو سواد العراق ، فَلِمَ فتوح في الصّين ، وإسبانية ، وفرنسة ؟

ولقد عاش العرب في باديتهم المقفرة مئات السّنين وهم يعرفون الخيرات في الشَّال ، فلماذا لم ينطلقوا إلى مواقع الخصب قبل الإسلام ؟؟!

بين الفتح والاستعار:

يقول (ساندرز) : دخلت فلسطين في الإسلام على يد « الخليفة عمر المستعمر العربي $^{(1)}$.

ويقول (المنسنيوركوكي): لقد وضع عمَّد السَّيف في أيدي الَّذين اتَّبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثمَّ سمح لأتباعه بالفجور والسَّلب، ووعد الَّذين على القتال بالاستمتاع باللَّذات، وبعد قليل أصبحت آسية الصُّغرى، وإفريقية، وإسبانية فريسة له (٢).

لقد عرف التَّاريخ فاتحين كُثُر ، مثل :

الهيكسوس ، الله الشّام يحملون ولكنهم عادوا إلى بلاد الشّام يحملون ديانة الفراعنة وأغاط حياتهم .

⁽١) قول ساندرز Saunders في مجلّة : History Today ، الصّادرة بالإنجليزيّة .

⁽٢) (البحث عن الدّين الحقيقي) تأليف المنسنيوركولي ، وقد صدر عن أتّحاد مؤسّسات التّعليم المسيحي في باريز ، طبعة ١٩٢٨ م .

والاسكندر المكدوني ، حاول أن يقيم حضارة عالميَّة بلغة إغريقيَّة ، وتفكير واحد ، ولكنه فشل ، وتجزَّأت دولته فور وفاته ، إلى بطالمة مصر ، وسلوقيين في العراق وبلاد الشَّام ، وانتيغونيين في آسية الصَّغرى ومكدونية .

والهون والجرمان والفندال ، جاؤوا من أواسط آسية ، وغيّروا وجه أوربة السّياسي بحروب وحشيّة بربريّة ، سفكوا الـدّماء أنهاراً ، ولكن السّيف أكله الصّدا ، وابتلعت حضارة الرّومان هؤلاء البداة وصهرتهم كلّيّاً .

والمغول ، استطاع قائدهم هولاكو فتح بغداد ، ولم يستطع إقامة حضارة ، ثمَّ عاد المغول إلى بلادهم مسلمين .

أما الفتح الإسلامي الله في لم ينحسر عن عزيز وذليل ، بل انحسر عن تحرير وعلم وطمأنينة ، ووحدة في العقيدة والمنهج ، بعقيدة ربًانيَّة ، أصبح بها صاحب القافلة ، وحامي الظَّعينة ، يعتقد في نفسه أنَّه مدار الكون ومحوره .

الاستعار: سيطرة فرد على فرد ، أو جماعة على جماعة ، أو دولة على دولة بغية الاستغلال ، واستنزاف الخيرات ، ومن صوره إلى جانب القوَّة العسكريَّة والاقتصاديَّة : أكثر من عشرين مليون زنجي اختطفوا من إفريقية للعمل في المناجم والزِّراعية ، وإبادة سكان في أمريكة واسترالية ، مع عنصريَّة ، وتنافس استعاري ، وابتزاز للمواد الأوَّليَّة وإفقار البلاد المستَعْمَرة ، الَّتي ربطت بقروض مشروطة ، وبأحلاف ، وقواعد عسكريَّة ..

ونتج عن الاستعار تجزئة ، وتخلُّف اقتصادي ، واحتكارات ومضاربة ، ناهيك عن الفقر والمرض والجهل .

أمَّا الإسلام: فقد جاء ليحرّر الرَّقيق، فشرَّع العتق ولم يشرَّع الرِّق، وفي حال وقوعه من مصدر واحد، هو الحرب المشروعة، كمعاملة بالمثل ، جعله متَّصلاً بالعمل الجسمى، ولا علاقة له بالعقل والفكر.

وفي الإسلام للحروب آدابها ، لقد حدّد أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه أسس الجهاد وآدابه عندما قال لجيوش الفتح: «ياأيّها النّاس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنّي : لا تخونوا ولا تُغلّوا ، ولا تغدروا ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصّوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بأنية فيها ألوان الطبّعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسّيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله »(١) .

فالإسلام لا يعرف إبادة الشَّعوب ، وما قاتل إلا الجندي في الميدان فقط ، ولا عنصريَّة : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] ، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي عنصريَّة : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] ، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ ، [الإسراء : ٧٠/١٧] ، فكان عر يخشي بلالآ (٢) ، وعبادة بن الصَّامت كان رئيس الوفد إلى القوقس (٣) ، ووصل عمر إلى القدس يجرُّ جمل غلامه ، وفي الإسلام : من لطم عملوكه ، أو ضربه ، فكفَّارته عتقه .

ولم يعرف الإسلام (محاكم التّفتيش) ، حيث الوحشيّة المروّعة الّتي لا مثيل لها : دفن على قيد الحياة ، وسحق عظام بآلات ضاغطة ، وسلَّ اللّسان ، وفسخ الفك ، وتمزيق أثداء النّساء والسّحب من الصّدر بواسطة كلاليب ، وصندوق السّكاكين والحرّاب ..

⁽١) الطّبري: ٢٢٦/٣ ، الكامل في التّاريخ: ٢٢٧/٢

⁽٢) عندما كان عمر يعرض أمراً ، فيقف بلال أحياناً مخالفاً لرأيه ، وهذا ما كان في قضيّة (أرض السّواد) .

⁽٣) كان أسود ، فقال المقوقس : وكيف رضيم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنّا ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قال الوفد : كلا ، إنّه وإن كان أسود كا ترى ، فإنّه من أفضلنا موضعاً ، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس ينكر السّواد فينا .

إنَّ حقوق الإنسان في الإسلام مصانة محفوظة .

لذلك انحسر سلطان الإسلام السّياسي والعسكري ، وبقي ابن البلاد الّي فتحت يحمد الله على نعمة الإسلام ، ويتوجّه إلى الكعبة خس مرّات كلّ يوم .

يقول لوبون : لوانتصر المسلمون في (بواتييه) لأصاب أوربَّة ماأصاب الأندلس ، حضارة زاهرة تحت راية النَّيِّ العربي .

ويعترف المبشّر (ليندن هاديس) في كتابه (الإسلام في إفريقية الشَّرقيَّة) بأنَّ الأُوربيِّين المستعمرين قضوا على الحضارة، وتركوا الخراب في المعاهد والمعابد، حيثا حلَّوا يخرِّبون وينهبون، أمَّا العرب المسلمون فإنَّهم نقلوا إلى إفريقية الكتابة، والعارة، وأدوات الحضارة.

أين شعب استرالية الأصلي ؟ وأين شعوب أمريكة الأصليّة : (الأنكا والمايا والأزتيك) ، والهنود الحر ؟

وماذا عملت حضارة أُوربة في الجزائر المسلمة ؟ وفي القارّة الهنديّة ؟

فإن كان الاستعار عاصفة مدمِّرة ، فالفتح الإسلامي الغيث المرع .

وإن كان الاستعمار القتلَ والخراب ، فالفتح الإسلامي الحياة والبناء والأمن .

وإن كان الاستعار الجهل والفقر والمرض ، فالفتح الإسلامي العِلْم والسَّعادة لكلِّ النَّاس .

قضيَّةٌ خَالِدَةٌ في تَارِيخِ الإنْسَانِيَّة :

فتح قتيبة بن مسلم الباهلي مدينة (سمرقند) ، في منطقة ما وراء النّهر ، عنوة في عهد الوليد بن عبد الملك ، رواية تقول : إنّ أهل سمرقند غدروا بالمسلمين ، فردّ قتيبة على صنيعهم ، ففتحها ، وترك فيها حامية ، ورواية أخرى تقول : فتح قتيبة سمرقند عنوة دون أن يخطرهم بنقض العهد ، وإيذانهم بالحرب .

إذن فتحت سمرقند غدراً ، وهذا أمر تأباه تعاليم الإسلام .

وفي سنة تسع وتسعين للهجرة ، سار وفد من سمرقند إلى دمشق ، حيث الخليفة الرَّاشدي الخامس عمر بن عبد العزيز يشكون إليه قتيبة ، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى سلمان بن أبي سرح عامله على سمرقند : « إنَّ أهل سمرقند شكوا ظلماً أصابهم ، وتحاملاً من قتيبة عليهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فأجلس لهم قاضياً يقضي بالحق في هذه الظلامة »(۱) ، فكان القاضي لهذه القضيَّة (جُمَيْع بن حاضر النَّاجي) - قاضي سمرقند - فاستدعى الشهود بمن حضر الفتح ، فشهدوا أنَّ قتيبة لم ينبذ إليهم عهدهم ، فأصدر حكمه واضحاً جليّاً : على الجيش الإسلامي الذي فتح سمرقند أن يتأهب للخروج منها فوراً ، وكذلك يخرج منها المسلمون الذين دخلوها بعد الفتح .

و يخطر الوالي الخليفة بدمشق بقرار الحكم الذي أصدره قاضي سمرقند ، فيجيء الرّدُ حازماً رائعاً : يُنفّذ حكم القاضي بحذافيره ، كا هو ، فبدأ الجيش الإسلامي يجمع أمتعته ، ويفك مخيّاته ، والمسلمون يودّعون أهل سمرقند ، ويبيعون أملاكهم فيها ، وكانت المفاجأة ، حين طالب أهل سمرقند ببقاء الجيش والسّكان المسلمين ، وأسلم من لم يسلم من أهل سمرقند ، عندما رأوا عدالة الإسلام وإنسانيّته ، لتقدّم لنا منطقة سمرقند : البخاري ، وابن سينا ، والخوارزمي ، والبيروني ، والفارابي ، والدّينوري ..

﴿ أَفَمَنْ أُسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقُوى مِنَ اللهِ وَرِضُوانِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَاللهُ لاَ يَهُدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، للشّفا جُرُفِ هَارٍ فَانْهَالِمِينَ ﴾ ، لا التّوبة : ١٠١/١] .



⁽١) الطّبري : ٢/٧٦٥

مِنْ حروبِ الرِّدَّةِ إلى الفُتُوحِ

لعب السَّاسانيُّون دور المشجِّع للمرتدِّين المتنبِّئين ، لذلك ، وبعد انتهاء حروب الرِّدَّة ، اخترق المثنَّى بن حارثة الشَّيباني البحرين حتَّى مصب دجلة والفرات ، للقضاء على عَّال الفرس مَّن أعان المرتدين بالبحرين وأيَّدهم .

ثمَّ سيَّر أبو بكر الصِّدِّيق خالداً. من اليامة إلى الفُرْس ، وفي (كاظمة) هزم خالد هرمز ، وفي (المنار) شالي موقع البصرة هزم (قارن بن قريانس) أيضاً ، ثمَّ فتح الحيرة والأنبار ودُومة الجندل ، ثم سار خالد إلى الحج ، وعاد إلى العراق ، فجاءه كتاب أبي بكر الصِّدِّيق : «سِرْ حتَّى تاتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنَّهم قد شَجَوا وأشْجَوا (١) ، وإيَّاك أن تعود لمثل ما فعلت .. » .

سار خالد إلى الشَّام بتسعة آلاف ، بعد أن أتمَّ فتح حوض الفرات الجنوبي ، ولم يتعرَّض للفلاحين بسوء ، ففضَّلوا حكم المسلمين على حكم الفرس ، وبقي المثنى قائداً لجبهة العراق .

وكان الصِّدِّيق قد سيَّر إلى الشَّام أربعة جيوش بقيادة :

عمرو بن العاص ، ووجهته فلسطين ، ومعه سبعة آلاف ، فقابل جيشاً روميّاً بقيادة (تَذَارق) .

يزيد بن أبي سفيان ، ووجهته دمشق ، ومعه سبعة آلاف ، فقابل جيشاً روميّاً بقيادة (جَرَجة بن توذرا) .

⁽١) ضاقوا وضيَّقوا ، والشُّجُو : الهمُّ والحزن ، [اللَّسان : شجا] .

شرحبيل بن حسنة ، ووجهته البَلْقاء ، ومعه سبعة آلاف ، فقابل جيشاً روميّاً بقيادة (الدُّراقِس) .

أبو عبيدة بن الجرَّاح ، ووجهته حمص ، ومعه سبعة آلاف ، فقابل جيشاً روميّاً بقيادة (الفِيقَار بن نَسْطُوس) .

ثمَّ سار عكرمة بن أبي جهل ومعه ستة آلاف ، قوَّة داعمة ، ودرءاً لهذه الجيوش وحماية لها .

تراسل القادة الأربعة ، وكان رأي عمرو أن يجتمعوا على اليرموك ، وهذا رأي أبي بكر أيضاً : « ولن يُؤتى مثلكم من قلّة » ، وانقضى شهر صفر وربيع الأوَّل وربيع الآخر سنة ١٣ هـ من غير حسم ، فقال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه : « والله لأُنسينَّ الرَّوم وساوس الشَّيطان بخالد بن الوليد » .

وعند اليرموك وجد خالد أنَّ كلَّ أمير يقاتل بجنده منفصلاً عن الثَّلاثة الآخرين ، فجمعهم وقال : هلَّوا ، فإنَّ هؤلاء تهيَّؤوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم ، لم نزل نردَّهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلُّوا فلنتعاور (۱) الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غَد ، حتَّى يتأمَّر كلكم ، ودعوني إليكم اليوم ، فأمَّروه .

نظام الكراديس (٢): نظام جديد رائع ، ماعرفته العرب قبلاً ، تفتَّق من عبقرية خالد العسكريَّة ، وهو نظام مرن الحركة سريعها ، يرتبط فيه الجنديُّ بأميره ، ويرتبط الأمير بالقائد العام .

قسَّم خالد الجيش إلى قرابة أربعين كُرْدوساً ، وجعل منها :

⁽١) اعْتَوَروا الشَّيءَ وتعوَّرُوه وتَعاوَروه : تداوَلُوه فيما بينهم ، [اللَّسان : عور] .

⁽٢) الكُرُدُوس : القطعة من الخيل العظية ، والكراديس : الفِرَق ، ويقال : كَرْدَس القائد خيله أي جعلها كتيبة كتيبة .. [اللّسان : كردس] .

- (قلباً) بقيادة أبي عبيدة ، ومعه ثمانية عشر كردوساً .
- و (مينةً) بقيادة عمرو بن العاص ومعه أحد عشر كردوساً .
- و (ميسرة) بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، ومعه تسعة كراديس .

وكانت الرُّوح المعنويَّة عند المسلمين عالية جداً ، حتَّى وصفهم الرُّوم بقولهم : باللَّيل رهبان ، وبالنَّهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رُجِم لإقامة الحق فيهم .

وقال بعض علوج الرُّوم ، بعد سماع هذا الوصف : بطن الأَرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها .

وسمع خالد جندياً يقول: ماأكثر الرَّوم، وأقل المسلمين؟! فقال: بل ماأقل الرُّوم، وأكثر المسلمين، إنَّا تكثر الجنود بالنَّصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرِّجال، والله لوددت أن الأشقر براء من تَوَجِّيه (١) وأنَّهم أضعفوا العدد.

وكانت ساعات حاسمة فاصلة ، حقَّق خلالها المسلمون نصراً حاسماً على الرَّوم ، وحين سمع هرقل بالخبر ، اتَّجه إلى القسطنطينية ، وقال مودِّعاً : سلام عليك يا سوريَّة ، سلاماً لا لقاء بعده .

عزل خالد : عزل عمرُ خالداً عن القيادة العامّة ، وجعل عليها أبا عبيدة بن الجرّاح ، والسّبب : تصرّف خالد ببيت المال أيام الصّدّيق ، فكان أبو بكر يغفر له ذلك ، ولا يحاسبه .

وافتتن النَّاس بخالد ، فلم يعودوا يحبُّون القتال إلاَّ تحت رايته .

وجاء في كتاب عمر : لم أعزل خالداً عن سخط ، ولا عن خيانة ، ولكن النَّـاس فتنوا به .

⁽١) الأُشقر: فَرَس خالد، والوّجا: أن تشتكي الفَرّس باطن الحافر، [اللّسان: وجا].

وما صنعه عمر مع خالد ، صنعه مع كلِّ ولاته ، حاسب الجميع ، وهو أوَّل من حاسب نفسه ، وعمر لم يحاسب خالداً عيزان غير الّذي حاسب به جميع ولاته .

وعندما توفي خالد ، لم يترك من حطام الدُّنيا شيئاً ، قال عمر : على مثله تبكي البواكي ، ولما مدحه الشَّاعر الخنزومي قال عمر : قصَّرْتَ في الثَّناء على أبي سليان رحمه الله ، إنَّه كان ليحب أن يذل الشِّركَ وأهلَه .

يقول المرحوم العقاد: لقد استحق خالد المجد بيقين ، واستحق العزل بظن ، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الإبقاء على رضاه ، لكان ذلك الظّن حقيقياً بالغض عنه ، والتّجوّزِ فيه ، وكفى بالرّجلين فضلاً أن يختلفا ، ومن وراء اختلافها فضل يعترف به كلاهما .

وبما يلفت النَّظر ، عبارة جاءت في البداية والنَّهاية [١٢/٧] : بقي خالد أميرًا ، وأبو عبيدة أمير الأمراء .

ومما يلفت النَّظر أيضاً قول خالد الَّذي أورده الطَّبري [٣٩٦/٣] : فهلَّوا فلنتعاور الإمارة ، ودعوني إليكم اليوم .

وورد أيضاً : وسار أبو عبيدة إلى دمشق ، هو وعمرو في المجنبتين ، وخالد أمير القلب ، فنزل على الباب الشَّرقي وباب كيسان .

ومما سبق يمكن القول ، بقي خالد أميراً على القتال والحرب ، قائداً لمن جاء معه من العراق ، وكان أبو عبيدة القائد الأعلى لكلّ جند الشّام ، فعمر يقول (البداية والنّهاية : ١٩/٧) بعد فتح دمشق : استخلف عليها ، وسر أنت وخالد إلى حمص ، واترك عَمْراً وشرحبيل على الأردن وفلسطين .

قال معاذ بن جبل : « أبو عبيدة صِنْوُ خالـد » ، ومع ذلـك كان خالـد يرجع إلى أبي عبيدة في كلّ أموره .

أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجرَّاح الفهري القرشي :

ولد بمكَّة سنة ٤٠ ق.هـ ، وتوفي بغور الأُردن الشَّمالي بطاعون عَمَواس سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) .

أحد العشرة المبشّرين بالجنَّة ، من السَّابقين إلى الإسلام ، أسلم قبل دخول رسول الله عَلِيالَة إلى دار الأرقم .

شهد المشاهد كلَّها ، آخى ﷺ بينه وبين محمد بن مسلمة ، وفي بدر جعل أبوه يتصدى له ، فجعل أبو عبيدة فقتله .

ثبت يوم أُحُد ، وانتزع حلقات الدّرع من جبهة رسول الله عَلَيْتَهُ ، فكسرت ثناياه فهو أهتم .

وفي الحديبية قال لعمر: ألا تسمع ينا بنّ الخطاب رسولَ الله يقولُ ما يقول ؟! وكان أحد الشّهود على الصّلح مع أبي بكر وعمر وابن عوف وسعد وعثان ومحمد بن مسلمة .

وقاد عدَّة سرايا ، وبعد فتح مكَّة ، قاد كتيبة من الجيش دخلها من الشَّمال الغربي قُبالة جبل هند .

قال عنه رسول الله عليالية : « هذا أمين هذه الأمَّة » .

امتاز بعقل راجح ، وقلب كبير ، فأخذ بجامع عقول النَّاس وقلوبهم .

وخلال الفتح في بلاد الشَّام: جعل الانتقام والحقد والعنف جانباً ، واتَّخذ من التَّسامح منهجاً ، فحربه ليست حرباً خاطفة ، أو ضربة مباغتة مرتجلة ، فهو مع إمكاناته وقدراته القياديَّة ، لا يقتحم الخاطر غير الحسوبة ، و يؤكِّد على الاستطلاع ، مع الحيطة والتَّدابير والاحترازيَّة ، ومثال تسامحه :

فتحت دمشق نصفها حرباً ، ونصفها سلماً ، فإذا به يُجْري عليها كلها مجرى السّلم .

وتأمين متطلّبات الجند عن طريق الشّراء ، لا السّطو والنّهب والاغتصاب ، وهذه صورة جديدة للجندي الفاتح الحرّر ، مع عدم إلحاق الضّرر بممتلكات المواطنين أو أرزاقهم ، وهذا استلزم قدرة انضباطيّة عالية عند أبي عبيدة ، ومتابعة لمستوى جنده الأخلاقي .

وكانت معاهدات الصُّلح الَّتي وقَّعها ، تضن الأنفس والأمن والمعتقد وأماكن العبادة .

قال عمر لما قدم إلى الشَّام : أين أخي ؟ فلما أتاه اعتنقه ، ثمَّ دخل عليه بيته ، فلم يجد في بيت أبي عبيدة إلا سيفه وترسه ورحله ، فبكى عمر وشهق ، وقال : لو اتَّخذت متاعاً أو شيئاً ؟ أبر عبيدة : إنَّ هذا سيبلغنا المقيل .

قال عمر لمن حوله يوماً: تمنّوا ، فقال أحدهم : أتمنى لو أن لي هذه الدّار مملوءة ذهباً أنفقه في سبيل الله ، وقال آخر : أتمنى لو أنّها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً أنفقه في سبيل الله ..

قال عمر : أُتمنى لو أن هذه الدَّار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجرَّاح .

لم يخرج أبو عبيدة من الطَّاعون الَّذي حلَّ في غور الأُردن سنة ١٨ هـ ، ولم يميِّز نفسه عن جنده ، وقال لعمر : « دعني في جندي » ، ولما أُصيب بأُصبعه (الخنصر) ، وظهرت بثرة صغيرة ، جعل ينظر إليها ، فقيل له : إنَّها ليست بشيء ، فقال : إني لأرجو أن يبارك الله فيها ، فإنَّه إذا بارك في القليل كان كثيراً (١) .

☆	☆	☆	
		أُسد الغابة : ١٢٨/٣	(١)

فَتْحُ مِصْرَ :

طلب عمرو بن العاص من عمر بن الخطّاب وهو في الجابية سنة ١٨ هـ: « ائدن لي في السّير إلى مصر ، إنّك إن فتحتها كانت قوّة للمسلمين وعوناً لهم » ، وهذا كلام سلم صحيح ، لأنّ بقاء مصر بيد الرّوم يعرّض سيادة المسلمين الفاتحين في بلاد الشّام لخطر هجوم من الغرب ، فأذن عمر لعمرو ، الّذي توجّه إلى مصر ومعه أربعة آلاف رجل فقيط ، وفي رفح جاءه كتاب من عمر ، فلم يتسلّمه من حامله حتّى شارف العريش (۱) ، فتابع إلى الفرّما التي فُتِحَت سنة ١٩ هـ ، ثم بلبيس ، ثمّ حاصر حصن بابليون (مفتاح مصر كلها) ، وطلب العون من عمر ، فأمدّه رضي الله عنه ، وكتب اليه : « إنّي قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، على كلّ ألف رجل منهم رجل مقام الألف : الزّبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصّامت ، ومسلمة بن مخلد ، واعلم أنّ معك اثني عشر ألفاً ، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلّة » (۱) .

وطال بجيش عرو المكوث في أرض مصر ، وطالت وقفتهم أمام أسوار حصن بابليون ، فكتب عررضي الله عنه إلى عرو يقول : « أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم في فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ماأحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نيّاتهم ، وقد كنت وجّهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أنّ الرّجل منهم مقام ألف رجل على ماكنت أعرف ، إلا أن يكون غيّرهم ماغيّرهم ، فإذا أتاك كتابي ، فاخطب النّاس ، وحضّهم على قتال عدوّهم ، ورغّبهم في الصّبر والنيّة ، وقدّم أولئك الأربعة في صدور النّاس ، ومُر النّاس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند زوال يوم الجمعة ،

⁽١) جاء في رسالة عمر رضي الله عنه : « إني مرسل إليك كتاباً ، وأمرتـك فيـه بـالانصراف عن مصر ، فإن أدركك قبل أن تدخلها ، أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يـأتـيـك كتـابي فـامض لوجهك ، واستّعن بالله واستنصره » .

 ⁽٢) النَّجوم الزَّاهرة : ١/٨

فإنَّها ساعة تنزل الرَّحمة فيها ، ووقت للإجابة ، وليعج النَّاس إلى الله ، ويسألوه النَّصر على عدوِّهم » .

وأسباب تأخُّر الفتح : فيضان نهر النَّيل ، ومتانة أسوار الحصن ، وقلَّة عدد الجند المسلمين ، ووجود قوات روميَّة داخل الحصن ، مع فَقْدِ المسلمين لمعدَّات الحصار .

وأثناء الحصار أرسل المقوقس وفداً إلى عمرو ، وعاد الوفد بعد ثلاثة أيّام ليقول للمقوقس : رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتّواضع أحب إليهم من الرّفعة ، ليس لا حدهم في الدّنيا رغبة ولا نهمة ، وإنّا جلوسهم على التّراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيّد من العبد ، وإذا حضرت الصّلاة لم يتخلّف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم (١) .

قال المقوقس: والَّذي يُحلف به ، لو أنَّ هؤلاء استقبلوا الجبالَ لأزالوها ، وطلب من عمرو رُسُلاً يحاورهم ، فبعث عمرو عشرة نفر ، أميرهم عبادة بن الصَّامت بن قيس الأَنصاري ، فهابه المقوقس لطوله وسواده ، وقال : خُّوا عنِّي هذا الأسود ، وقدَّموا غيره يكلِّمني ، فقالوا جميعاً : إنَّ هذا الأسود أَفضَلُنا رأياً وعلماً ، وهو سيِّدنا وخيرنا والمقدَّم علينا ، وإنَّا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وليس يُنكر السَّوادُ فينا .

وكان لبُّ الحوار: إسلام ، أو جزية ، أو قتال .

وصنع المسلمون السَّلالم ، وصعد الزُّبير بن العوام مع قلَّة فدائية أسوار الحصن ، وفُتِحَت أبوابه .

نتائج الفتح: أعطى عرو بن العاص الأمان لأهل مصر على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وبرّهم وبحرهم .. (عهد الله وذمّة رسوله وذمّة الخليفة أمير المؤمنين ، وذمم المؤمنين) .

⁽۱) النُّجوم الزَّاهرة : ۱۱/۱ ، وفتوح مصر وأُخبارها لابن عبد الحكم ، ص : ٦٥ في التاريخ الإسلامي (١٩)

وأخذ جزية تساوي عَشْر ماكان يدفعه المصريُّون للروم ، يعفى منها النَّساء والأَطفال والفقراء ورجال الدِّين ، وضمن لهم حرِّيَّة إقامة الشَّعائر الدِّينيَّة ، فخلَّصهم من التَّدخل الروماني ، ولم يضع يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، وترك الأرض لأهلها تشجيعاً للزِّراعة ، قبالة (خراج) معقول جدًا ، وأعاد فتح قناة سيزوستريس التي تصل البحرين الأحمر بالمتوسِّط ، وسمًّاها : خليج أمير المؤمنين .

وبيَّن حصار (بابليون) عن حاجة المسلمين لأدوات الحصار ، وبناء السُّفن .

وبدأ بعد فتح (بابليون) فتح الشَّمال الإفريقي كله ، والتَّوسُّع جنوباً باتِّجاه بلاد النُّوبة .

جبهة الغرب: الشَّمال الإفريقي وأوربة:

وصل عمرو بن العاص إلى برقة ، ووصل عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى سبيطلة (٢٠ ، وهو قائد اليرموك البحريَّة (ذات الصَّواري : ٣١ هـ) ، ووصل عقبة بن نافع بن عبد القيس الأُموي القرشي الفهري حتَّى البحر الحيط (مصب نهر السَّنغال) .

وعقبة فاتح من كبار القادة في صدر الإسلام ، باني مدينة القيروان ، وُلِدَ في حياة النَّبِيِّ عَلَيْكُ [١ ق. هـ - ٦٣ هـ] ، ولا صحبة له ، وشهد فتح مصر ، وهو ابن خالة عمرو بن العاص ، فوجَّهه عمرو إلى إفريقية سنة ٤٢ هـ والياً ، فافتتح كثيراً من تخوم السُّودان وكورها في طريقه ، وعلا ذكره ، فولاً معاوية إفريقية استقلالاً سنة ١٠ هـ ، وسيَّر له عشرة آلاف فارس ، ولكنه عزله سنة ٥٥ هـ ، فعاد إلى الشَّرق ،

⁽١) درهما في العام (جنيهان) على الأغنياء ، ٢٤ درهما على متوسّطي الحال ، ١٢ درهما على العبال والصناع ، والفقير يعفى ويعطى من بيت المال .. (الخراج ، ص : ٣٦) ، يقول غوستاف لوبون الحضارة العرب ، ص : ١٣٤] : « جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السّابةين من ضرائب » ، وتقول لورافيشيا فاغليري [دفاع عن الإسلام ، ص : ٣٢] : « ادفعوا جزية يسيرة تُسْبَغُ عليكم حماية كاملة » .

⁽٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، لابن عذاري الرَّاكُشي : ١٠/١

وقال لمعاوية : فتحتُ البلاد ، ودانَتْ لي ، وبنيتُ المنازل ، واتخذتُ مسجداً للجاعة ، وسكَّنتُ النَّاس ، ثمَّ أرسلت عبد الأنصار ـ أبا المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلَّد الأنصاري ـ فأساء عَزْلي ، فاعتذر له معاوية ، ووعده أن يعيده إلى عمله (١) .

وبعد وفاة معاوية ، بعثه يزيد والياً على المغرب سنة ٦٢ هـ ، فتقدّم إلى المغرب الأقصى ، فبلغ البحر الحيط (الأطلسي)(٢) ، ولكنه استشهد في طريق عودته إلى القيروان على يد كُسَيْلة البُرْنُسي .

قال عبد الملك بن مروان: لا يصلح للطّلب بدم عقبة إلا من هو مثله ديناً وعقلاً ، فقدّم زهير بن قيس البَلوي سنة ٦٩ هـ ، فقتل كسيلة ، ثم قتله أتباع كسيلة في برقة ، فسيَّر عبد الملك حسَّان بن النعان سنة ٧٨ هـ ، الَّذي كان لقبه (الشَّيخ الأمين) ، وهو قاتل أخطر زعية في البربر (الكاهنة دهينا) ، ثم رحل قاصداً عبد الملك ، واعتزل الأعمال في أوَّل عهد الوليد بن عبد الملك ، وتوجَّه إلى أرض الرُّوم غازياً فتوفي بها .

وعندما ولي موسى بن نصير الشَّال الإفريقي ، كان طارق بن زياد في حامية مدينة طنجة (٢) ، وتذكر الرِّوايات أنَّ يُلْيان حاكم سبتة أرسل ابنته إلى قصر لذريق لتتأدَّب وتنشأ فيه ، فطمع بها لذريق ، ونال منها ، فكتبت إلى أبيها تخبره ، ففكر بالانتقام من لذريق ، فاتصل بطارق وزيَّن له فتح الأندلس ، وزار يليان موسى ، ومن الطَّبيعي أن يشكَّ موسى في صحَّة المعلومات الَّتي قدَّمها يليان إليه .

وهنا يُطْرَح سؤال : هل يليان وقصّة إبنته هما السّبب في فتح المسلمين للأندلس ؟

⁽۱) البيان المغرب : ۲۲/۱

⁽٢) البيان المغرب: ٢٧/١

⁽٢) طنجة على مضيق جبل طارق ، ألذي كان يسمَّى : خليج الزُّقاق ، بحر الزُّقاق ، زقاق البحر ، أعمدة هرقل ، فرضة المجاز ، المضيق ، زقاق سبتة ، ثم أصبح في كل لغات العالم : مضيق جبل طارق .

كان انتصار معركة وادي لِكّة في ٢٨ رمضان ٩٢ هـ (تموز ٧١١ م) ، قال طارق قبيل بدئها : إنّي عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ..

قرَّرت المعركة مصير الأندلس لثانية قرون (١) ، وكان خط سير طارق هدفه المباشر طليطلة ، وهذه الفتوح باعتراف طارق باسم موسى ، « وفوق الأمير ـ موسى ـ أمير أعظم ـ الخليفة بدمشق » .

وعبر موسى بن نصير إلى الأندلس لكنه سلك طريقاً آخر غير الذي سلكه طارق ، وكان اللِّقاء بينها في سرقسطة ، وفتوحات عبد العزيز بن موسى في غربي الأندلس (يابرة وقامرية) ، وشرقاً في مالقة وغَرْناطة ومرسية .

وكانت خطَّة موسى اكتساح حوض المتوسِّط الشَّمالي عبر جبال الألب ، ثمَّ سهل البو ، ثمَّ إلى القسطنطينية ، فدمشق ، وخاف الوليد على مصير الجيش ، وليته لبَّى طلب موسى ، لعاد إلى دمشق عن طريق القسطنطينية ، فموسى لم يُهزم له جيش قط ، والوضع الدَّاخلي في أوربة كان يسمح بذلك .

وبعد فتح الأندلس ، تقدّم السمح بن مالك الخولاني (٢) سنة ١٠٠ هـ فوصل تولوز ، واستشهد على أسوارها سنة ١٠٠ هـ .

واخترق عنبسة بن سُحَم الكلبي سنة ١٠٣ هـ حوض نهر الرون ، فعبر مونبلييه ، ولانجر ، وسانس ، ولكنه خاف من قطع خطوط تموينه ، فعاد ، فأصيب في شعبان

⁽۱) والمسلمون الأندلسيون اليـوم برئـاسـة الـدكتـور عبـد الرحمن مـدينـا يعتزون بـإسـلامهم ، ويفتخرون بالمناسبـات الإسلاميّـة التي يحيونها بشكل رسمي ، وعلمهم القـومي ثـلاثـة أضـلاع : أخضر ، أبيض ، أخضر ، [الشرق الأوسط : ٤١٦٦ تاريخ ١٩٩٠/٥/٢٥] .

^{. (}٢) كان يشبُّه بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

كان انتصار معركة وادي لِكّة في ٢٨ رمضان ٩٢ هـ (تموز ٧١١ م) ، قال طارق قبيل بدئها : إنّي عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ..

قرَّرت المعركة مصير الأندلس لثانية قرون (١) ، وكان خط سير طارق هدفه المباشر طليطلة ، وهذه الفتوح باعتراف طارق باسم موسى ، « وفوق الأمير ـ موسى ـ أمير أعظم ـ الخليفة بدمشق » .

وعبر موسى بن نصير إلى الأندلس لكنه سلك طريقاً آخر غير الذي سلكه طارق ، وكان اللّقاء بينها في سرقسطة ، وفتوحات عبد العزيز بن موسى في غربي الأندلس (يابرة وقلمرية) ، وشرقاً في مالقة وغَرْناطة ومرسية .

وكانت خطّة موسى اكتساح حوض المتوسّط الشّمالي عبر جبال الألب ، ثمّ سهل البو ، ثمّ إلى القسطنطينية ، فدمشق ، وخاف الوليد على مصير الجيش ، وليته لبّى طلب موسى ، لعاد إلى دمشق عن طريق القسطنطينية ، فهوسى لم يُهزم له جيش قط ، والوضع الدّاخلي في أوربة كان يسمح بذلك .

وبعد فتح الأندلس ، تقدَّم السح بن مالك الخولاني (٢) سنة ١٠٠ هـ فوصل تولوز ، واستشهد على أسوارها سنة ١٠٠ هـ .

واخترق عنبسة بن سُحَيم الكلبي سنة ١٠٣ هـ حوض نهر الرون ، فعبر مونبلييه ، ولانجر ، وسانس ، ولكنه خاف من قطع خطوط تموينه ، فعاد ، فأصيب في شعبان

والمسلمون الأندلسيون اليوم برئاسة الدكتور عبد الرحمن مدينا يعتزون بإسلامهم ، ويفتخرون بالمسلمون الإسلامية التي يحيونها بشكل رسمي ، وعلمهم القومي ثلاثة أضلاع : أخضر ، أبيض ، أخضر ، [الشرق الأوسط : ١٩٦٠ تاريخ ١٩٩٠/٥/٢٥] .

^{. (}٢) كان يشبُّه بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

سنة ١٠٧ هـ ، فاستشهد ، بعد غارة سريعة بعيدة المدى ، استطلع المسلمون خلالها على أحوال أوربة .

أنقذ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي جيش المسلمين بعد استشهاد السَّمح في طولوز (طولوشة) ، وبعد العودة إلى الأندلس توجَّه الغافقي مع جيش مسلم إلى بوردو ثمَّ إلى بواتييه ، حيث واجه شارل مارتل بجيش أوربي كثيف ، فانسحب عند حلول الظلام ، فأحجم الفرنجة بقيادة شارل مارتل عن مطاردة المسلمين ، لتوجسهم من أن يكون انسحاب المسلمين خديعة حربيَّة .

لقد أساء شارل مارتل سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م إلى أوربة حضارياً ، يقول غوستاف لوبون : تقرَّر مصير العالم في بواتييه ، ولو انتصر المسلمون ، فماذا كان يصيب أوربة ؟ كان يصيب أوربة المتبربرة مثل ماأصاب إسبانية من التقدَّم والارتقاء ، والحضارة الزَّاهرة الرَّفيعة تحت راية النَّبيِّ العربي ، وكان لا يحدث في أوربة التي تكون قد هذَّبت ، ماحدث فيها من الكبائر ، كالحروب الدِّينيَّة ، وملحمة سان بارتلمي (١) ومظالم محاكم التَّفتيش (٢) .

« إِنَّ كلَّ بلد خفقت فوقه راية الرَّسول تحوَّل بسرعة ، فازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصِّناعة والزِّراعة أيا ازدهار »(٢).

لو فتح المسلمون فرنسة ، لغدت باريس مثل قرطبة ، مركزاً للحضارة والعلم ،

⁽۱) أمر بها سنة ۱۵۷۲ م شارل التَّاسع وزوجه كاترينا ، عندما قتلت خمسة من زعماء البروتستانت في باريس ظنَّت أنَّهم ياْترون بها وبالملك ، انتشر الخبر فانقض الكاثـوليـك والحرس الملكي على البروتستانت ، وقتلوا منهم ألفي نسمة ، وفي الولايات ۱۰۰۰ ـ ۸۰۰۰ نسمة وضرب البابا غريغوار الثالث عشر أوسمة خاصة تخليداً لما حدث ، وخلد على جدران الشاتيكان . [روح الثورات ، لوبون ، ص : 12] .

⁽٢) حضارة العرب ، ص : ٢٨٩

⁽٣) حضارة العرب ، ص: ٣٩١

حيث كان رجل الشَّارع فيها يكتب ويقرأ ، في الوقت الَّذي كان فيه ملوك أوربة لا يعرفون كتابة أسمائهم ، ويبصون بأختامهم ، « فالحقُّ أنَّ الأُمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سَمُّحاً مثلَ دينهم »(١) .

جزر البحر المتوسط: فُتِحت قبرص سنة ٢٨ هـ بقيادة عبد الله بن قيس، ورودُس سنة ٥٢ هـ بقيادة عبد الله بن قيس، ورودُس سنة ٥٢ هـ بقيادة جنادة ، ووصلها الأُسطول العباسي أيام الرَّشيد (٢) ، ووصلها الجيش الأَندلسي أيام الحكم بن هشام سنة ٢١٠ هـ ، وأقام فيها عمر بن عيسى بن شعيب إمارة .

ووصل الأسطول الإسلامي سردينية وكورسيكا منذ أيام موسى بن نصير سنة ٩٢ هـ ، وأيام عبد الله العامري سنة ٩٢ هـ ، ثم مجاهد بن عبد الله العامري سنة ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م .

ووصل الأسطول الإسلامي جزر الباليار منذ أيام موسى بن نصير ، عندما أرسل ابنه عبد الله إليها ، ثمَّ وصلها عصام الخولاني سنة ٢٩٠ هـ ، ثمَّ مجاهد العامري الذي وصل روما ومرسيليا أيضاً .

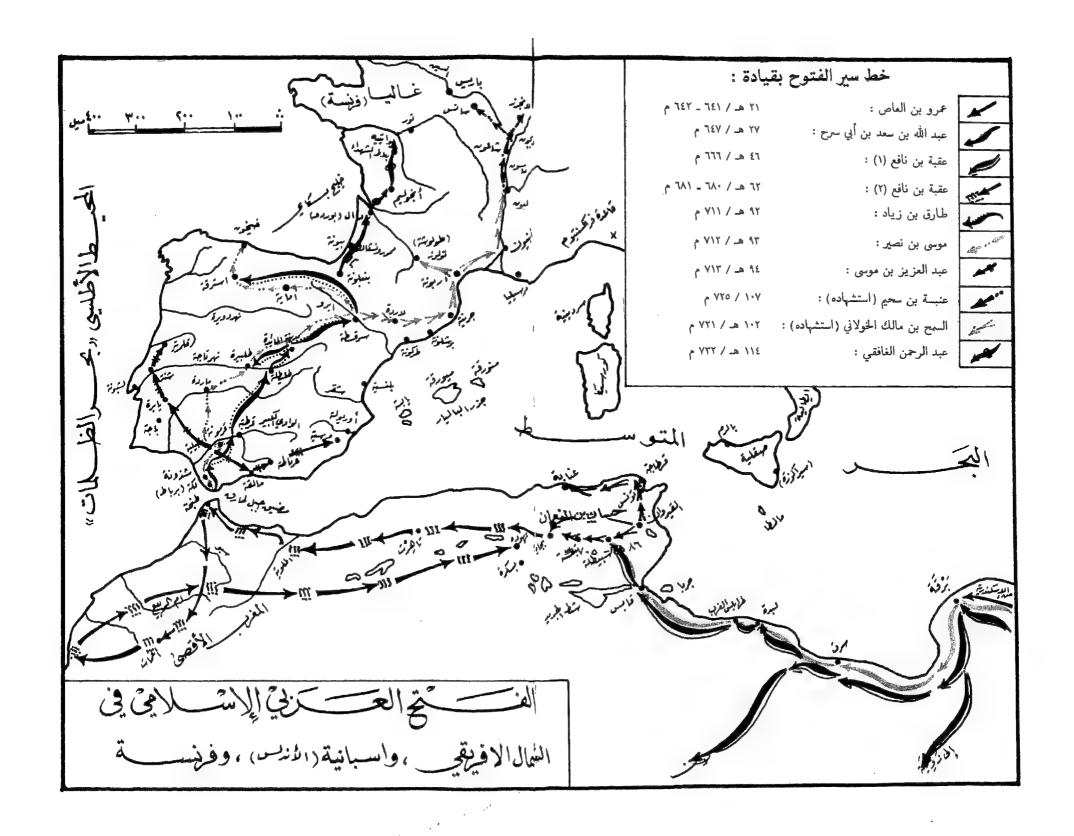
أمَّا مالطا (النَّحل) فهي مفتاح حوض المتوسط ، فتحت سنة ٢٥٦ هـ أيام الأَغالبة ، وفتح أسد بن الفرات (٢) درَّة جزر المتوسط (صقِلَيَّة) سنة ٢١٢ هـ .



⁽١) حضارة العرب ، ص: ٧٢٠

⁽٢) بقيادة حميد بن معيوف .

⁽٣) أُسد بن الفرات [١٤٢ ـ ٢١٣ هـ = ٧٥٠ ـ ٧٢٨ م] تلميـذ مـالـك ومحمد بن الحسن الشَّيبـاني ، قــاضي القيرواني ، توفي من جراحات أصابته وهو محاصر سراكوزة برّاً وبحراً .



الجبهة الشّرقيّة:

فتوح العراق: غادر خالد العراق إلى الشّام، تاركاً المثنى بن حارثة الشّيباني خلفاً له، وبعد اشتباكات مع الفرس محدودة، سار المثنّى يطلب المدد من المدينة المنوّرة بسبب حشود الفرس، فسَيَّر عمر رضي الله عنه أبا عبيد بن مسعود الثّقفي إلى العراق، وأوصاه ألا يتسرّع، فسيَّر رستُم (بهمنَ جاذويه) لقتاله، وكانت معركة الجسر، حيث عبر أبو عبيد نهر الفرات متسرّعاً، وحمى المثنى وفرسان المسلمين الانسحاب، واستشهد أبو عبيد مع أربعة آلاف من المسلمين (۱).

ثمُّ كانت البويب (٢) ، فكان النَّصر للمثنَّى على جيش الفرس بقيادة (مهران) .

وجمع يزدجرد كلَّ طاقاته ، فأعلن عمر النَّفير العام ، واستشار ، فكان الرَّأي الغالب : آبعث رجلاً من أصحاب رسول الله عَلَيْهُ ، وقرَّر عمر السَّير بنفسه ، فقال عبد الرحمن بن عوف : بأبي وأمي اجعل عجزها بي - فما فديت أحداً بأبي وأمي بعد النَّبيِّ عَلَيْهِ - وأقم وابعث جنداً ، فإن يُهْزَم جيشك ليس كهزيمتك (٢) .

عر: أشيروا علي ؟! فأشاروا فلم يقبل ، ثم قال عبد الرحمن بن عوف : إليك الأسد في براثنه ، سعد بن أبي وقاص ، إنه الأسد عاديا ، فسيَّره عمر بعد أن قال له : « لا يغرَّنك من الله إن قيل خال رسول الله عَلَيْتُهُ ، وصاحب رسول الله عَلَيْتُهُ ، فإنَّ الله لا يحو السَّيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا على عدو السَّيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالنَّاس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربَّهم وهم عباده ، يتفاضلون

⁽۱) انظر : الطبري : ٣٠٢/٦ ، الكامل في التاريخ : ٣٠٢/٢ ، البداية والنهاية : ٣٢٢/٦ ، مروج الـ ذُهب : ٣١٦/٢

⁽٢) البَوَيْبُ : نهر كان بالعراق موضع الكوفة ، [معجم البلدان : ١٢/١٥] .

⁽٣) الطبري : ١٨١/٣

بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطَّاعة ، فانظر الأَمر الَّذي رأَيتَ رسولَ الله عَلَيْكَ يلزمه فالزَّمْهُ »(١) .

وصل سعد العراق ، وقد مات المثنى بسبب جراح انتقضت عليه .

مراسلات عمر: كتب عمر لسعد: اكتب إليَّ أين بلغكَ جمعُهم ، ومَنْ رأسهم الّذي يلي مصادمتكم ، وصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الّذي بينكم وبين المدائن صِفْهُ كأنّي أنظرُ إليه ، واجعلني من أمركم على الجليَّة .

وبعد أن جاءه ماأراد من سعد ، كتب إليه : قد جاء إليَّ كتابُك وفهمته ، فأقم بكانك حتَّى ينغض (٢) الله لك عدوَّك ، واعلم أن لها ما بعدها ، فإن منحك الله أدبارهم ، فلا تنزع عنهم حتَّى تقتحم عليهم المدائن (٢) ، فإنَّه خرابها إن شاء الله .

وعلى الرَّغ من وجود أكثر من سبعين بدريّاً ، وثلاث مئة وخسين بمن كان له صحبة بين الحديبية والفتح ، وثلاث مئة بمن شهد الفتح ، وسبع مئة من أبناء الصحابة ، كانت هيبة إمبراطورية الفرس باقية في النَّفوس ، فجاء العلاج من عند عررضي الله عنه : « إنِّي أُلقي في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم »(1).

القادسية (الحرم ١٤ هـ) : قاد رستم الجيش الفارسي ، وعلى الرَّغ من البطولات النادرة من جند الإسلام ، فتكت الفيلة بعدد من الجند المسلم ، وعصر اليوم الثاني من المعركة ، طلعت نواصي الخيل من الشَّام ، وعلى مقدمتها القعقاع بن عزو التَّميي ، فقطع الجند ـ وكانوا ألف فارس ـ أعشاراً ، وصلوا ميدان المعركة يثيرون الأرض نقعاً حتى المساء .

⁽١) الطبري: ٨٤/٤

⁽٢) نغض الشِّيء : تحرُّك واضطرب ، [اللَّسان : نغض] .

⁽٣) المدائن (طيسفون): عاصمة الفرس ، قرب موقع بغداد حالياً .

⁽٤) لأخبار المراسلات : الطّبري : ٤٨٠/٣ ، الكامل في التاريخ : ٣٠٩/٢ ، البداية والنهاية : ٣٧/٧ ، ابن خلدون : ١١/٢

ودخل القعقاع المعركة ، وطلب المبارزة ، فخرج إليه (بهمن جاذويه) ، فصاح القعقاع مستبشراً : يا لثارات أبي عبيد وأصحاب الجسر ، وقتل القعقاع بهمن ، وفي اليوم الرَّابع ، قُتل رستم ، وفقاً القعقاع وهلال بن عَلَّفة أعين الفيلة فانتهى خطرها ، وكتب الله للمسلمين النَّصر .

سار سعد ومن معه إلى المدائن عن طريق بابل ، بعد أن أرسل عتبة بن غزوان إلى الأبُلّة لمنع الإمدادات جنوباً ، ودخل سعد إيوان كسرى ، واتَّخذه مصلَّى ، دخله وهو يتلو : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُروعٍ وَمَقامٍ كَريم ونعمة كانوا فيها فَاكهين كذليك وَأُورَثناها قَوْماً آخَرينَ ﴾ ، [النَّخان : ٢٥/٤٤] ، ثمُّ صلى صلاة الفتح ثماني ركعات بلا فاصل .

وأرسل سعد الغنائم ، وفيها تاج كسرى وحليته وسوارَيْه وثيابه وسيفه وجواهره ، فقال عمر : إنَّ قوماً أرسلوا هذا لذوو أمانة ، فقال على : إنَّك عففتَ فعفَّت الرَّعيَّة ، وقال عمر سراقة بن مالك المدلجي سواري كسرى وتاجه ، وقال له : ارفع يديك وقل : الله أكبر ، الحد لله الَّذي سلبها كسرى بن هرمز ، الَّذي كان يقول : أنا ربُّ النَّاس ، وألبسها سراقة رجلاً أعرابياً من بني مُدْلج .

نهاوند (٢١ هـ) : تابع سعد الفتح وهو مقيم في المدائن لقروح أصابته ، فسيّر القعقاع شرقاً ، وعبد الله بن الْمُعْتَم شمالاً ، ففتحت : الأهواز وحلوان وتكريت ونصيبين والرَّها ..

وكتب يزدَجَرُد لكلِّ بقايا مملكته أن يجتمع الجند المقاتلون في نهاوند ، فكتب سعد إلى عمر : بلغ الفرس مئة وخسين ألف مقاتل ، فأرسل عمر محمَّد بن مسلمة إلى سعد ليستعد النَّاس ، وقال : أشيروا عليَّ برجل أُولِيه ذلك الثَّغر غداً ؟! وبعد تداول قال : أما والله لأُولينَّ أمرهم رجلاً ليكونَنَّ أُول الأَسنَّة إذا لقيها غداً ، فقيل : مَنْ يا

أمير المؤمنين ؟ قال : النُّعان بن مقرِّن المزني (١) ، فقالوا : هو لها .

دخل عمر المسجد فلمح النعمان يصلي ، فلما فرغ من صلاته قبال لمه عمر : لقد انتدبتك لعمل ، فأجاب النعمان : إن يكن جباية للضّرائب فلا ، وإن يكن جهاداً في سبيل الله فنعم (٢) .

وفي نهاوند نظم النعان الجيش: المقدّمة وعليها نعيم بن مقرّن ، وعلى الجنبتَيْن: حذيفة بن اليان وسويد بن مقرّن ، وعلى القلب القعقاع بن عمرو ، وعلى السّاقة: الجاشع بن مسعود .

وكانت القوات الفارسيَّة بقيادة (الفيرزان) .

وقبيل بدء المعركة ، قال النعان : إنّي مكبّر ثلاثاً ، فإذا كبّرت التّكبيرة الأولى فليتهيّأ من لم يتهيّأ ، ويشد الرّجل نعله ، ويصلح من شأنه ، فإذا كبّرت الثّانية فشد الرّجل إزاره وتهيأ لوجه حملته وليتأهّب للنهوض ، فإذا كبّرت الثّالثة ، فإنّي حامل إن شاء الله فاحملوا معاً ، وإن قتلت فالأمير حذيفة (٢) ، وعدّ سبعة آخرهم المغيرة بن شعبة ، ثمّ قال :

« اللَّهم اعزز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل النَّعان أُوَّل شهيد اليوم على إعزاز

⁽۱) قال عبد الله بن مسعود : إن للإيمان بيوتاً وللنفاق بيوتاً ، وإنَّ من بيوت الإيمان بيت ابن مقرِّن ، تسعة إخوة كلهم لهم صحبة : سنان ، سويد ، عبد الله ، عبد الرحمن ، عقيل ، معقل ، مرضي ، نعيم ، ضرار ، (عماشرهم النعمان) ، نازلت بحقهم : ﴿ وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يُسؤمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ﴾ ، التّوبة : ١٩٧٩] .

⁽٢) طلب النعان من عمر أن يعزله عن النخراج: أنشدك الله لما عزلتني وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين .

 ⁽٣) حذيفة بن اليان : أمين سر رسول الله ﷺ في المنافقين ، قبره في المدائن ، قال عندما حضره الموت :
 « هذه آخر ساعة في الدُّنيا ، اللهم إنَّك تعلم أنَّي أُحبك ، فبازك لي في لقائك » .

دينك ونصر عبادك ، اللّهم إنّي أسألك أن تقرّ عيني اليوم بفتح يكون فيه عزّ الإسلام ، أمّنوا يرحمكم الله » .

قال المغيرة : والله ماعلمت من المسلمين أحداً يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله حتَّى يُقْتَل أو يظفر .

وأثناء تقدَّم النعان زلق فرسه من كثرة الدماء ، وجاءه سهم في جنبه ، فرآه أخوه نعيم فسجًاه بثوب وأخذ الرَّاية قبل أن تقع وناولها إلى حذيفة بن اليان ، وقال المغيرة : اكتموا مصاب أميركم حتَّى ننتظر ما يصنع الله فينا وفيهم لئلا يهن النَّاس .

هُزِم الفرس ، وهرب الفيرزان فتبعه القعقاع فأدركه مع نعيم بن مقرن في (ثنية همدان) ، وغسل معقل بن يسار وجه النعان ، فقال النعان : من أنت ؟ قال : أنا معقل بن يسار ، قال : مافعل النّاس ؟ قال : فتح الله عليهم ، قال النعان : الحمد لله ، اكتبوا بذلك إلى عمر ، وفاضت روحه . فقال معقل للجند : هذا أميركم قد أقرّ الله عينيه بالفتح ، وختم له بالشّهادة .

وجاء طريف بن سهم بشيراً ، وقال لعمر : أبشر يا أمير المؤمنين بفتح أعز الله به الإسلام ، وأذل به الكفر وأهله ، فحمد عمر الله عز وجل ، ثم قال : النّعان بعثك ؟ قال : احتسب النّعان يا أمير المؤمنين ، فبكي عمر واسترجع ، وقال : ومن ويحك ؟ قال طريف : فلان وفلان .. حتّى عد له ناساً كثيراً ، ثم قال : وآخرين يا أمير المومنين لا تعرفهم ، فبكي عمر وقال : لا يضرهم ألا يعرفهم عمر ، ولكن الله يعرفهم .

صعد عمر المنبر ، ونعى الشهيد مؤبّناً رجولته ، فضجّ الحاضرون بالبكاء (١) .

⁽١) لأخبار نهاوند : الطبري : ١١٤/٤ ، الكامل في التاريخ : ٢/٣ ، البداية والنهاية : ١٠٥/٧ ، أحداث سنة ٢١ هـ .

لقد تمَّ النَّصر المسلمين في نهاوند ، ولكن مصرع النعان نسج سحابة مظلمة فوق العيون ، فلقد ربح النعان معركة وإن خسر جسده فَخُلِّد ، ولو خسر معركة من أجل جسده لأَهله التاريخ .

وفتحت بعد نهاوند ـ الَّتِي سُمِّيت فتح الفتوح ـ سنة ٢٢ هـ : الرَّي ، وطبرستان ، وأَذربيجان ، وكرمان ومكران وخراسان .. وتتالت الانكسارات على يزدَجَرُد على الرَّغ من نجدات الصَّغد والتَّرك ، فقُتِلَ سنة ٣١ هـ ، فكان آخر ملك من آل أردشير بن بابك .

☆ ☆ ☆

الجبهة الشَّرقيَّة (ماوراء النَّهر(١) والسِّند(١)):

ماوراء النهر: فاتح ماوراء النهر قتيبة بن مسلم الباهلي (٢) (أبو حفص) ، النّم فيه مدح ، أمير خراسان زمن عبد الملك بن مروان من جهة الحجّاج بن يوسف الثقفي (أمير العراقين) وكل ماكان يليها سنة ٨٦ هـ ، فكانت خراسان مضافة إليه ، وكان قبلها على الرّي . تولّى خراسان بعد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة .

وعندما سيَّره الحجاج لفتح ماوراء النَّهر قال له: إذا غزوت فكن في مُقَدَّم النَّاس ، وإذا قفلت فكن في أُخُرِياتهم وساقتِهم (١) .

كانت منطقة ماوراء النهر دويلات منها : فَرْغانة ، الشَّاش ، أَشروسنة ، الصَّغد ، خُوارزم ، صاغنيان ، الختل .. فاستطاع قتيبة قبيل الفتح :

⁽١) مارواء النهر : ماوراء نهر سيحون وجيحون اللَّذين يصبان في بحر خوارزم (بحر أرال) .

⁽٢) وادي السَّند شرقي الهند ، باكستان حالياً .

⁽٣) من قبيلة خاملة الذِّكر ، رفعه عمله وجهاده .

⁽٤) الطبري : ٢٥/٦

- ١ ـ أن يوطّد الأمن والعدل في خراسان قاعدة انطلاق الفتوح إلى ماوراء النهر .
 ٢ ـ مع استطلاع دائم ، جمع من خلاله معلومات وافية عن طبيعة بلاد ماوراء
 - النهر .
- ٣ ـ كا حشد أربعين ألف مجاهد ، مع أسرهم . ٤ ـ ونظّم خطوط المواصلات ، مع خدمات بريد سريع مع الكوفة - حيث الحجاج ـ ومنها إلى دمشق ـ حيث مقرّ الخلافة ـ .

مشكلات الفتح:

١ ـ طول خط المواصلات : ٣ ـ ٤ آلاف كيلومتر .

٢ ـ واختلاف الطَّبيعة الجغرافيَّة لميدان القتال ، فقد تصل الحرارة شتاء إلى - ٢٠ مئوية ، مع بساط من الثلج يغطِّي الأَرض (١) ، مع طبيعة جبليَّة صعبة جداً تعرقل نقل إمدادات التَّموين ، وتسهل فيها الكائن والمباغتة ، وتكثر المفاجآت ، مع سهولة الدِّفاع بعدد قليل من الجند ضدَّ كثرة .

والتّاريخ يقف بإجلال أمام قتيبة الّذي تغلّب على كلّ هذه المعضلات ، فسلاح المهندسين (الفَعَلَة) استطاع تنظيم المواصلات ، وإزالة العوائق ، مع التّغلّب على الحواجز المائيّة ، وكان يكن بجنده شتاءً بعد تأمين الخيام المناسبة ، واللّباس المناسب ، والتدفئة ، والتّموين الكافي للجند والخيل .. لقد كان الطريق شاقاً من مَرُو إلى كاشغر ، استغرق من الزّمن ثلاث عشرة سنة ، خطوات بطيئة ، ولكنها مدروسة وثابتة ، فالجبال هنا (على الحدود الصّينيّة الرّوسيّة حالياً) يبلغ ارتفاعها ٧٤٣٩ م وفيها قم ارتفاعها ٧٦٩٠ م !!

من أهم المدن الَّتي فُتِحَت ، بيكَند ، ثم سمرقند .

قال المجشَّر بن مُزاحم السُّلمي لقتيبة : إنَّ لي حاجة ، فاخْلني ، فأخلاه ، فقال :

⁽١) يبلغ سَمْكُ الثلج في المنطقة ٥٠ سم وأكثر .

إن أردت الصّغد يوماً من الدّهر فالآن ، فإنّهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا ، وإنّا بينك وبينهم عشرة أيّام ، قال : أشار بهذا عليك أحد ؟ قال : لا ، قال : فأعلمته أحداً ؟ قال : لا ، قال : والله لئن تكلّم به أحد لأضربنّ عنقك ، وبدأ بحشد الفرسان والمجانيق وأدوات الحصار ، وهو يكتم هدفه .

استنجد أهل الصّغد بالشّاش وفرغانة قائلين: إنّ العرب إن ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ماأتونا به ، فانظروا لأنفسكم .. فانتخبوا فرساناً من الأبطال ، ووجهوهم إلى سمرقند نجدة ، ولكن استطلاع قتيبة الدائم أعلمه بخبرهم ، فسيّر ٣٠٠ ـ ٢٠٠ من أهل النجدة ، عليهم صالح بن مسلم ، لرصد حركة فرسان الشّاش وفرغانة ، وأمرهم أن يكنوا في مكان حدّده لهم ، وأن يهاجموا الكين ليلا ، لشدّة وقع الكين الليلي على العدو ، والفوضى الّتي تلحق بالجند ليلا أكبر لعدم وضوح الرؤيا ، ولا يقدّر المهاجم قدرة المهاجم وطاقاته ، ويسمح بسحب الجند من سمرقند والعودة دون معرفة المحاصرين .

قسم صالح بن مسلم جنده على طرفي طريق - برأي قتيبة - قرب سمرقند ، وفي ساعة محدّدة ، ومكان متّفق عليه ، هوجمت النجدات . قال أحد رجال الكين : إنا لنختلف عليهم بالطّعن والضّرب ، إذ تبيّنت تحت جنح الظلام قتيبة ، فقتلناهم فلم يفلت منهم إلا الشّريد ، وقيل عن هذه الإمدادات : ماقتلتم إلا ابن ملك ، أو عظيماً من العظهاء ، أو بطلاً من الأبطال .

وأثناء حصار سمرقند ، فعلت الجانيق فعلتها في أسوار المدينة الحاصرة ، ولكن الثُّلَم كانت ترمم بسرعة من قبل الحاصرين ، وفتحت ثلمة كبيرة عجزوا عن إصلاحها ، فطلبوا الصَّلح ، وكان من شروطه تسليم الأَصنام ، فأمر قتيبة بتحريقها ، فقالوا : إنَّ فيها أَصناماً من حرَّقها هَلك ، فقال قتيبة : أنا أحرقها بيدي ، فجاء (غوزك) حاكم سمرقند وجثا بين يديه ، وقال : أيَّها الأَمير ، إنَّ شكرك عليَّ واجب ، لا تَعرِض لهذه الأَصنام ، فدعا قتيبة بالنَّار ، وأخذ شعلة بيده ، وخرج فكبَّر ثمَّ أشعلها .

ي ٣٠٥ _ في التاريخ الإسلامي (٢٠)

وفي هذه الفترة ، أمر الحجَّاج محمد بن القاسم الثَّقفي أن يوجِّه من قبله من أهل العراق إلى قتيبة ، وأرسل مدداً من العراق سنة ٩٥ هـ ، توفي الحجاج سنة ٩٥ هـ ، فأقرَّ الوليد عمال الحجَّاج كلَّهم على أعمالهم الَّتي كانوا عليها في حياته .

فتح كاشغر (٩٦ هـ) : أعلن قتيبة النَّفير العام ، وقال : لا يجوزن أحد النَّهر إلا بجواز ، أي (بتصريح) وإجازة رسميَّة ، وجعل بعض الجند على مناطق العبور والجسور لتنفيذ أمره هذا ، وأرسل سلاح المهندسين (الفَعَلَة) لفتح الطَّريق إلى الصِّين ، فأتاه موت الوليد بن عبد الملك وهو بفرغانة (١) .

كان شعور قتيبة مع عبد العزيز بن الوليد ، لا مع سلمان بن عبد الملك ، فكتب إلى سلمان كتاباً يهنّئه بالخلافة ، ويعزّيه بالوليد ، ويطلعه على جهاده ، وطاعته لعبد الملك والوليد ، وأنّه له على مثل ماكان لها من الطّاعة والنّصيحة إن لم يعزله عن خراسان .

وأطلعه في كتاب ثان على فتوحه وهيبته في صدور التَّرك ، وينم المهلّب وآل المهلب ، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد بن المهلّب على خراسان ليخلعنّه . وفي الكتاب الثّالث : لئن لم تقرّني على ماكنتُ عليه ، وتؤمّنني ، لأَخلعنّك خلع النعل ، ولأملأنّها خيلاً ورجالاً (٢) .

أرسل سليان له وكيع بن حسّان التيمي فقتله مع إخوته غدراً ، فات قتيبة ميتة أشرف من القادة الآخرين الّذين نكّل بهم سليان .

السّند: عاصمتها (أرور) على نهر السّند، وملكها آنذاك: داهر بن جج بن سيلانج، وديانتها البرهميّة، وفيهم الزُّط Jet (زنوج الهند) الّذين عوملوا بقسوة

⁽١) وقصة ملك الصين ، والوفد المسلم برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي ، وإرسال الملك صحافاً من ذهب فيها تراب من تراب الصين .. مفصّلة في الطبري : ٥٠١/٦

⁽٢) الطبري : ٢/٥٠٨

وعنف حسب قوانين (مانو) ، الَّتي قضت ألاَّ يتملَّك الزُّط أيَّ شيء فيا عدا الكلاب والحير ، وأن يرتدوا ملابس الموتى ، وألاّ يستخدموا الأواني المشويَّة ، وأن يستخدموا الحلي المصنوعة من الحديد الّذي علاه الصَّدأ .

بدأ التفكير بفتح السنّد منذ أيّام عمر رضي الله عنه ، سنة ١٥ هـ ، حيث أرسل عثان بن أبي العاص الثّقفي فوصل الدَّيْبُل (١) ، ثمَّ سيَّر أبو موسى الأشعري الرَّبيعَ بن زياد الحارثي بالخيل والفرسان والعتاد ، لاستطلاع مكران وكرمان لمعرفة أحوال السّند .

وفي أيَّام عثان بن عفان عسكر الجيش الإسلامي في قندابيل ومكران بقيادة عبد الله بن عامر بن كُريز بن ربيعة ، الَّذي أُرسل حُكَم بن جبلة العبدي للاستطلاع ، لمعرفة : الطرق ، وطبيعة النَّاس وأحوالهم ، وأنواع التَّسليح ، ومعاقل السَّكن ..

وكان للعرب المسلمين تجّار في جزيرة سرانديب (سيلان) مع زوجاتهم ، ألقت بهم رياح هوجاء إلى ساحل الدّيبُل ، فسطا القراصنة على تجارتهم ، وقتلوا عدداً منهم ، فصاحت امرأة من بني يربوع - كا يذكر البلاذري - : يا حجّاج . وحينا علم الحجاج بهذه الاستغاثة من بعض الّذين نجوا ، قال : لبيك . وطلب أمراً من دار الخلافة لفتح الدّيبُل ، وحينا جاءت الموافقة ، أرسل عبد الله بن نبهان السّلمي إلى الدّيبل فاستشهد ، ثمّ أرسل بديل البجلي فاستشهد أيضاً ، فأرسل محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثّقفي ، وكان عمره سبعة عشر عاماً فقط على إمارة السّند .

عُرِف محمد بن القاسم الثَّقفي بالتَّواضع واللُّطف والحبَّة والهيبة والعدل والرَّأي الحصيف والأُهبة والكفاية .. قال حزة الحنفى :

⁽١) الدَّيْبَلُ: قرب موقع مدينة كراتشي حالياً ، عند مصب نهر السّند .

إِنَّ الشَّجاعـةَ والسَّاحـةَ والنَّهى للحَسَد بنِ القساسم بنِ محَسدِ إِنَّ الشَّجاعـةَ والسَّاحـةَ والنَّهى للحَسدِ عشرة حجَّةٍ يا قُرب ذلكَ سؤدداً من مولدِ

وبعد وصول ستة آلاف من خيرة جند الشّام ، انطلق محمد بن القاسم برّاً إلى شيراز ، وأرسلت المنجنيقات وأدوات الحصار والسّهام على ظهر سفن حربية ، كان عليها خُرَيم بن عمرو الْمُرّي ، واللّقاء عند الدَّيْبُل .

أمر الحجَّاج الخياطين بصنع رؤوس السِّباع والفيلة ، وسيَّرها مع ثلاثة آلاف جمل سنة ٩٢ هـ ، مع مراسلات دائمة ، وتوجيهات مسترة : « وعندما تصلون إلى سواد الدَّيبل اجعلوا الشَّمس خلفكم ، ومن طلب الأَمان أُعطوه الأَمان ، احفروا الخندق بعرض اثنى عشر ذراعاً ، وبعمق ستة أذرع » .

وحوصرت الدّيبل ، ونصب منجنيق (العروس) الذي كان يعمل على خدمته خمس مئة رجل ، رئيسهم جعونة السُّلمي (جعونة المنجنيقي) ، ورأى محمد بن القاسم راية وسط الدّيبل ترتفع عالياً ، فقال لجعونة : اكسر الرّاية ولك عشرة آلاف درهم إنعاماً ، فقال جعونة : إذا أخطأت فاقطع يدي ، فأصابها من الرّمية الأولى .

وخلال الحصار ، أخذ راهب الأمان ، فبشّر العبيد بالخلاص ، وفتحت الدّيبل ، فعين محمد بن القاسم عليها وداع بن حميد البحري عاملاً ، وأوصاه بأن يقوم بأعمال الحسابات والنفقات و يمك سجلات الديوان .

سيَّر محمد بن القاسم المجانيق عبر نهر السِّند إلى (بيرون) ، وجاءته رسالة من الحجاج بعد فتح الدَّيبل يقول فيها : عليك أن تعيش حياة حسنة مع أصحابك ، وتسعى لاحترام كلِّ واحد منهم ، وتقوِّي قلوبهم .. أنفق ما وجدته في حصن الدَّيبل من النَّخائر في سبيل ترفيه الرَّعيَّة واستملاك قلوب السُّكان ، وإذا أصبح الصُّناع والتّجار في راحة ورفاهية ، فإن الولاية ستكون مزروعة ومعمورة إن شاء الله تعالى (۱) .

⁽١) فتح السُّند (فتح نامة) أبو المظفر محمد بن سام ، وفتح السِّند علي بن حامد بن أبي بكر الكوفي .

وفاوض محمد بن القاسم ملك البلاد (داهر) ، وكان كلَّ قول يقوله ، وكلَّ جواب يجيبه داهر ، يكتب في سجل أمام جمهور كبير من النَّاس ، وبحضور عدد من الأعيان ، كلَّ ذلك تمشيًا مع التَّوصيات الصَّادرة عن الحجاج .

وقبيل إتمام الفتح في مُلْتان والبَنْجاب ، كتب الحجاج إلى مُمَّد بن القاسم : علمت أحوالك من المبعوثين الَّذين بعثتهم ، وعلمت بالمرض الَّذي أصاب جيادكم ، لذا فإنَّني مرسل إليك بألفي فرس ليركبها من يستحقها من الميامين .

لقد كان لدى الحجاج مشروع لفتح الصّين ، فهناك تعاون تام بين قتيبة ومحمّد بن القاسم ، فلقد كتب يوماً إليها : أيكما سبق إلى الصبّين فهو عامل عليها وعلى صاحبها .

ومن الملفت للنظر ، تكرر عبارات معينة في الكتب التي أرخت فتح السند (١) ، منها : واجتمع الصَّناع والتَّجار والعمَّال وأرسلوا إلى محَّدُ بن القاسم يطلبون فيها الأمان ، فأعطاهم الأمان (٢) .

ثمَّ أعطي الأمان للصُّنَاع والتَّجار وعوام النَّاس ، وتركوا بعضاً من أسراهم ، وتشكَّلت محكمة لردِّ المظالم ومحاكمة الَّذين حملوا السِّلاح وقاتلوا ضدَّ المسلمين ، ثمَّ نُودي على العوام المتضرِّرين بالحرب ، والَّذين نَهبَت أموالهم أثناء القتال من عوام النَّاس والصُّنَاع والتَّجار والكسبة والصِّغار ، وتقرَّر إعطاء كلِّ منهم اثني عشر درهماً (٤) ، مع إعطاء الأمان للسُّكان ، والحرِّيَّة الدينيَّة للجميع (براهمة ، ونصارى ، ويهود) .

عُزِل محمد بن القاسم وهو في قمَّة فتوحه ، وعزله مرتبط بالسِّياسة المعادية للحجَّاج

⁽١) فتح السُّند (فتح نامة) أبو المظفر محمد بن سام ، وفتح السِّند على بن حامد بن أبي بكر الكوفي .

⁽۲) فتح نامة ، ص: ۲۷۰۲

⁽٣) فتح نامة ، ص : ٢٤٧٢

⁽٤) فتح نامة ، ص : ٢٤٧٣ و ٢٤٧٨

وآله ، واعتماد سليان بن عبد الملك على يزيد بن المهلُّب وآله ، قيَّده يزيد بن أبي كبشة السكسكي ، فقال محمد :

أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر؟ مات محمد بن القاسم الثّقفي في واسط ، بعد أن سجنه صالح بن عبد الله خليفة الحجّاج على المشرق .





الدَّولةُ الأُمَويَّةُ

[۲۱ ـ ۱۳۲ هـ = ۲۲۱ ـ ۲۵۰ م]

الخلفاء الأُمويُّون :

٤١ هـ معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أُميَّة .

٦٠ هـ يزيد الأوَّل بن معاوية .

٦٤ هـ معاوية الثَّاني بن يزيد .

٦٤ هـ مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميَّة

٥٥ هـ عبد الملك بن مروان .

٨٦ هـ الوليد بن عبد الملك .

٩٦ هـ سلمان بن عبد الملك .

٩٩ هـ عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم .

١٠١ هـ يزيد الثَّاني بن عبد الملك .

١٠٥ هـ هشام بن عبد الملك .

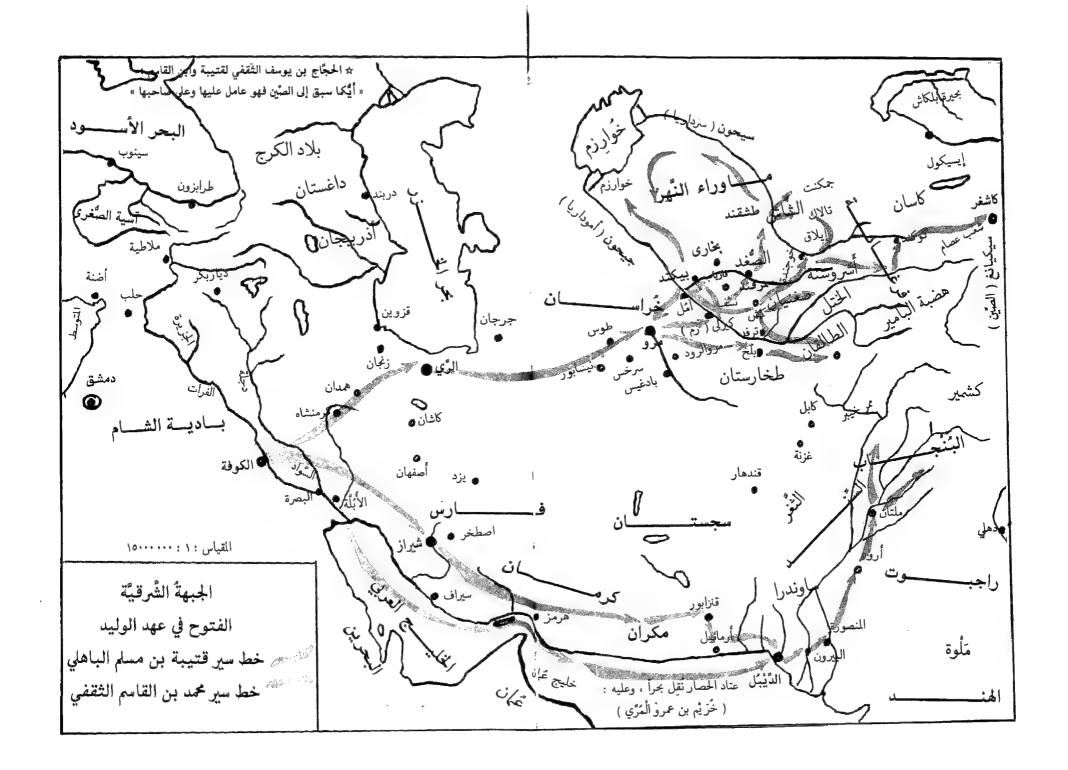
١٢٥ هـ الوليد الثَّاني بن يزيد الثَّاني .

١٢٦ هـ يزيد الثَّالث بن الوليد الأوَّل .

١٢٦ هـ إبراهيم بن الوليد بن يزيد التَّاني .

١٢٧ ـ ١٣٢ هـ مروان الثَّاني بن محمد بن مروان بن الحكم .

تنازل الحسن رضي الله عنه لمعاوية سنة ٤١ هـ (عام الجماعة) ، على أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين ، يولّون عليهم من أحبّوا ، وكان التنازل في الكوفة بحضور الحسن والحسين .



ولاية العهد: إنّها فكرة المغيرة بن شعبة ، حينا أراد معاوية عزله عن الكوفة سنة ٤٩ هـ ، ليستعمل عليها سعيد بن العاص ، فبلغ الخبر المغيرة ، فجاء إلى دمشق ، وقابل يزيد وقال له : « إنّه قد ذهب أعيان أصحاب النّبيّ عَيَالِيّه وكبراء قريش .. وإنّا بقي أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً ، وأعلهم بالسنّة والسّياسة ، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة » ، وعرض يزيد الأمر على أبيه ، فاستدعى معاوية المغيرة وقال : ما يقول يزيد ؟ المغيرة : يا أمير المؤمنين قد رأيت ماكان من سفك الدّماء والاختلاف بعد عثان ، وفي يزيد منك خلف ، فاعقد له . معاوية : ومن لي بهذا ؟ المغيرة : أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرّين أحد يخالفك (١) .

ردَّ معاوية المغيرة إلى الكوفة ، وعدل عن عزله ، وطلب منه أن يهد لبيعة يزيد .

وفي المدينة المنوَّرة عرض مروان بن الحكم الأمر على النَّاس ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: ما الخيار أردتم لأمَّة محَّد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقليَّة ، كلَّا مات هرقل ، قام هرقل .

وأنكر البيعة ليزيد مع عبد الرحمن بن أبي بكر ، الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر .

قَت البيعة ليزيد بولاية العهد والسَّيوف على الرِّقاب ، خلافاً لشروط الخلافة ، التي انتقلت بذلك من خلافة إسلاميَّة شوريَّة إلى ملكيَّة وراثيَّة ، إنَّه معاوية ، أحد دهاة العرب وأوفرهم حظاً في السِّياسة ، وكان الحِلْم غالباً عليه ، قال يوماً لقيس بن سعد بن عبادة : يا قيس ، واللهِ ماكنت أود أن تنكشف الحروب الَّتي كانت بيني وبين

⁽١) الطبري : ٣٠١/٥

⁽٢) الكامل في التَّاريخ : ٢١٤/٣

عليّ عليــه السّلام وأنت حيّ ، فقــال قيس : والله إنّي كنت أكره أن تنكشف تلــك الحروب وأنت أمير المؤمنين ، فلم يقل معاوية له شيئاً .

ودخل عقيل بن أبي طالب على معاوية في دَيْنِ عليه وقد كُفَّ بصره ، فأجلسه معاوية على سريره ، ثمَّ قال له : أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم ، فقال عقيل : وأنتم ، معشر بني أُميَّة ، تصابون في بصائركم .

قال معاوية : إنّي لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعم حلمي ، وذنب لا يسعه عفوي ، وحاجة لا يسعها جودي .

وفي عهد يزيد استشهد الحسين رضي الله عنه في كربلاء .. وحاصر مسلم بن عقبة المرّي المدينة المنوَّرة ، وسار الحصين بن غير إلى عبد الله بن الزَّبير الحروج إلى الشَّام للبيعة . فجاء نعى يزيد أثناء ذلك ، ويرفض عبد الله بن الزَّبير الحروج إلى الشَّام للبيعة .

معاوية الشّاني: عهده أربعون يوماً فقط ، مرض وانزوى في داره ، قال على النبر: إنَّ جدِّي معاوية نازع الأمر أهله ، ثمَّ قُلِّد أبي الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه ، وأخلفه الأمل ، وقصر عنه الأجل ، وصار في قبره رهيناً بذنوبه ، وأسيراً بجرمه ، ثمَّ بكى حتَّى جرت دموعه على خدَّيه ، ثمَّ قال : فشأنكم وأمركم ، ألا فليُصَلِّ بالناس حسان بن مالك ، وتشاوروا في خلافتكم رحمكم الله .

مروان بن الحكم (الفرع المرواني) : عقد أنصار بني أميَّة مؤتمر الجابية سنة ٦٤ هـ ، وبايعوا مروان بن الحكم ، ثمَّ خالد بن يزيد (١) ، ثمَّ عمرو بن سعيد بن العاص ، ولكن مروان نقض هذا ، وأوصى من بعده لابنيه : عبد الملك ، ثمَّ عبد العزيز .

⁽١) خالد بن يزيد أوّل من بدأ حركة التّعريب في العصر الأموي ، درس الكبياء ، ثمّ أمر بنقل كتب الكبياء إلى العربيّة .

عبد الملك بن مروان : عُرِف بالشَّجاعة والفصاحة ، حفظ القرآن الكريم وقرأ العلوم الدِّينيَّة على مشيخة الحجازيِّين في المدينة المنوَّرة ، المؤسّس التَّاني للدُّولة الأُمويَّة ، أفرد يوماً للمظالم من جور الولاة ، وظلم العتاة ، وفي ليلة واحدة قالوا له وقد سار لقتال الختار بن أبي عبيد سنة ٦٦ هـ : قُتِلَ عبيد الله بن زياد وانهزم جنده ، وهَزَمَ عبد الله بن الزَّبير جندك ودخل أرض فلسطين ، ولحق به أخوه مصعب ، وامبراطور الرُّوم نزل الثَّغور في طريقه إلى الشَّام ، وعدد من أخبار السَّوء ، وبقي رابط الجأش ، شديد الإيمان بكفايته ومقدرته ، فلم يُرَ في ليلة قبلها أشد ضحكاً ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أبسط لساناً ، ولا أثبت جناناً من تلك اللَّيلة .

أخمد الثَّورات : ثورة عبد الله بن الزَّبير (١) ، وثورة عبد الرَّحن بن الأشعث ، ليبدأ عهد الفتوح بعد الاستقرار الدَّاخلي .

عَرَّب عبد الملك الدَّواوين (٢) والنَّقد (٣) ، فبنى داراً لضرب النَّقود بدمشق ، وأمر بجمع العملة المستعملة في جميع أنحاء الدَّولة ، وضرب بدلاً منها عملة جديدة من النَّهب والفضَّة ، ولئن بدئ بتنظيم البريد أيَّام معاوية ، فإنَّه تقدمً أكثر واكتمل أيَّام عبد الملك ، الَّذي جعل الصُّوى (٤) على الطُّرقات لتحديد الاتِّجاه والمسافات .

وأوصى عبد الملك رجاله بحمل البريد إليه في أيّ ساعة من ليل أو نهار: « فتأخير البريد ساعة من نهار ، إضرار سنة بمصالح العباد » ، وقال لحاجبه : وَلّيتك حجابة بابي إلاّ عن أربعة : المؤذّن فإنّه داعي الله فلا حجاب عليه ، وطارق اللّيل فشرما أتى به ، ولو وجد خيراً لنام ، والبريد ، فتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه ، فربّا أفسد على

⁽۱) قال عبد الملك لمصعب عندما طلب منه أن ينضم إليه ويترك أخاه : والله إنَّ فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبداً : عجب قد ملاه ، واستغناء برأيه ، و بخل التزمه ، فلا يسود رجل فيه تلك الخصال .

⁽٢) كانت بالفارسيَّة في العراق ، وبالرُّوميَّة في بلاد الشُّام ، وبالقبطيَّة في مصر .

⁽٣) وذلك سنة ٨١ هـ .

⁽٤) الصُّوى : (مفردها الصُّوَّة) : حجر يكون علامة في الطُّريق ، [اللَّسان : صوى] .

القوم سنة إذا حُبِسَ البريد ساعة ، والطُّعام إذا أدرك » .

وأرسل عبد الملك إلى عامله على إفريقية حسان بن النعان يأمره بإنشاء دار لصناعة السُّفن في تونس ، فكانت هذه أوَّل دار صناعة متخصِّصة في الإسلام .

الوليد بن عبد الملك : عِثِّل عهده ، قَبَّة الجد الأُموي ، حيث الفتوح ما وراء النَّهر ، وبلاد السِّند ، والأندلس .

سأله أحد أولاده : ياأبت ماالسّياسة ؟ فأجاب : هيبةُ الخاصّة مع صدق مودّتها ، واقتيادُ قلوب العامّة بالإنصاف لها ، واحتالُ هفوات الصّنائع (١) .

سليمان بن عبد الملك: نكّل بولاة أخيه الوليد ونكّل بأسرة الحجّاج بن يوسف الثّقفي ، لرأي الحجّاج وآله تولية عبد العزيز بن الوليد ، متناسياً بلاء هؤلاء الفاتحين العظام وجليل أعمالهم ، إنّه الحقد لعوامل شخصيّة ، ولا ندري كيف تنبغ المواهب ، وتبرز القادة ، وتخلص القلوب ، إذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل خاتمة هؤلاء القادة الفاتحين : قتيبة ، ومحمد بن القاسم ، وطارق ، وموسى بن نصير !!

سر عمر بن عبد العزيز: تمثّل فترة حكمه غرَّة في جبين الأُمويِّين ، كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة ، استخلف بإشارة من رجاء بن حَيْوَة (٢) ، وحين بويع جاءه مركب الخلافة ، فأبى وقال : ائتوني ببغلتي ، وأمر ببيع الخيل وجعل أثمانها في بيت المال .

وندب نفسه للنَّظر في المظالم ، بعيداً عن كبرياء الملوك وجبروتهم ، فأعاد للنَّاس

⁽١) عيون الأخبار: ١٠/١، وبنيت في عهد الوليد المستشفيات، والمستشفيات المتخصّصة للمجذومين وأخرى للمجانين، وبني المسجد الأموي: ٨٨ ـ ٩٦ هـ في دمشق.

⁽٢) رجاء بن حيوة بن جرول الكندي (أبو المقدام): ت ١١٢ هـ = ٧٢٠ م، شيخ أهل الشَّام في عصره، كان ملازماً لعمر بن عبد المزيز في عهدي الإمارة والخلافة، واستكتب سليان بن عبد الملك، وهو الذي أشار على سليان باستخلاف عمر، وله معه أخبار، [الأعلام: ١٧/٣].

سيرة الخلفاء الرَّاشِدين ، ووضع الجزية عَّن أسلم ، لأنَّ الله إنَّا بعث محمداً عَلَيْكَ هاديـاً ، ولم يبعثه جابياً ، وفي عهده أصبح الخوارج حماة للأمن .

قام ليلاً لإصلاح المصباح ، فقيل له : لوأمرت فَتَاكَ ؟! قال : رحت عمر وعدت وأنا عمر .

ولما ولي خرج ليلة ومعه فتاه ، فدخل المسجد ، فرَّ في الظَّلمة برجل فعثر به ، فرفع رأسه إليه وقال : أمجنون أنت ؟ فقال عمر : لا ، فهمَّ فتاه بضرب الرَّجل ، فقال له عمر : صه ، إنَّا سألني أمجنون أنت ؟ فقلت له : لا (١)

يزيد بن عبد الملك : أقعد حبَّابة عن يينه ، وسلامة عن يساره ، ماتت حبابة فات بعدها بأيَّام .

هشام بن عبد الملك : غزير العقل ، حليم عفيف ، اشتهر بالتّدبير وحسن السّياسة ، اهتم بتعمير الأرض وتقوية الثّغور ، وحفر القنوات ، وكان كلفاً بالخيل ، وهو أوّل من أقام لها الحلبات من الخلفاء .

الوليد بن يزيد بن عبد الملك : اشتهر باللَّهو والخلاعة والجون ، قتله يزيد بن الوليد والأمويُّون لسوء سيرته .

مروان بن محمّد : رولي يزيد بن الوليد لمدّة خمسة أشهر فقط ، فقام من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد لمدّة شهرين ، سار إليه مروان بن محمّد وخلعه ثمّ قتله ، من المشكلات الّتي لاقاها اشتعال نار العصبيّة بين النزاريّة والمضريّة (الينيّة) ، فتعصّب مروان للنّزاريّة على الينيّة ، فال الينيّون إلى الدّعوة العبّاسيّة ، لُقّب (بالحمار) لصبره وجلده

⁽١) كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته : انظر إلى من قبلك من الأرض فأعطوها بالمزارعة على النّصف ، وإلاّ فعلى الثّلث ، حتَّى تبلغ العَشْر ، فإن لم يزرعها أحدّ فامنحها ، وإلاّ فأنفق عليها من مال المسلمين ، ولا تبيرَنَّ قِبَلك أرضاً .

في محاربة الخارجين عليه ، كان يصل السّير بالسّير ، ولقّب (الجعدي) نسبة إلى مؤدّبه الجعد بن درهم ، من أصحاب المقالات في الاعتزال .

أسباب سقوط الدُّولة الأمويّة:

١ _ تولية العهد اثنين ، أورثت شقاقاً ومنافسة بين أفراد البيت الأموي .

٢ ـ ظهور روح العصبيّة: نزاريّة ، ومضريّة عنيّة .

٣ ـ انغاس بعض الخلفاء في التَّرف ، كيزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد بن يزيد .

٤ ـ تعصب الأمويين للعرب بعث روح الشَّعوبيَّة في الجمتع ، بدأت باللِّسان والأقلام ، وانتهت بالأسِنَّة والرِّماح .

استغلَّ العبَّاسيون ماكان يضره الموالي لبني أُميَّة ودولتهم من كراهية ، سقطت الدَّولة الأُمويَّة في المشرق سنة ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م ، لتقوم دولة الأُمويِّين في الأندلس على يد عبد الرَّحن الدَّاخل (عبد الرَّحن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ـ صقر قريش) سنة ١٣٨ هـ .





الدُّولة العبَّاسيَّة

[۱۳۲ _ ۲۵۸ م = ۱۲۵۸ م]

تربَّع على عرش الخلافة العبَّاسيَّة سبع وثلاثون خليفة ، أوَّهم أبو العبَّاس عبد الله السَّفاح بن محمد (١) ، وآخرهم عبد الله المستعصم بالله ، وذلك ضمن ثلاثة أدوار :

١ ـ دور القوّة ، قمّة الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، ويضمّ هذا الدّور الخلفاء العشرة الأول ، و عمثّل هارون الرّشيد واسطة العقد فيهم ، انتهى هذا الدّور سنة ٢٤٧ هـ .

٢ ـ دور النَّفوذ التَّركي ، بدأ بالمنتصر بالله بن المتوكّل ، وانتهى بالمقتدي بأمر الله سنة ٤٦٧ هـ .

٣ ـ دور النَّفوذ البويهي ، بدأ بأحمد المستظهر بالله بن المقتدي ، وانتهى بسقوط بغداد بيد التتار وقتل المستعصم بالله سنة ٦٥٦ هـ .

⁽۱) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، أبو العباس : [١٠٤ - ١٣٩ هـ = ٧٢٧ - ٢٧٧ م] ، أوَّل خلفاء الدَّولة العباسيَّة ، وأحد الجبَّارين الدَّهاة من ملوك العرب ، ويقال له (المرتضى) و (القائم) ، وَلِدَ ونشأ بالشراة (بين الشَّام والمدينة) ، وقام بدعوته أبو مسلم الخراساني مقوِّض عرش الدُّولة الأُمويَّة ، فبويع له بالخلافة جهراً في الكوفة سنة ١٣٢ هـ ، وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد (آخر ملوك الأمويِّين في الشَّام) ، وكافا أبا مسلم بأن ولاَّه خراسان ، وكان شديد العقوبة ، عظيم الانتقام ، تتبَّع بقايا الأمويين بالقتل والصَّلب والإحراق ، حتَّى لم يبق منهم غير الأطفال والجالين إلى الأندلس ، ولُقّب بالسَّفاح لكثرة ما سفح من دمائهم ، وكانت إقامته بالأنبار ، وكان الأمويُّون يتخذون رجالاً من الخاصَّة يستشيرونهم في بعض شؤونهم ، وكان سخياً جداً ، وهو أول من وصل بمليوني درهم من خلفاء الإسلام .. ويوصف بالفصاحة والعلم والأدب ، وله كلمات مأثورة ، من وصل بمليوني درهم من خلفاء الإسلام .. ويوصف بالفصاحة والعلم والأدب ، وله كلمات مأثورة ، كانت في أيامه ثورات قعتها القوَّة وفتوة الملك ، ومرض بالجدري فتوفي شاباً بالأنبار ، ومما كتب في سيرته (أخبار السَّفاح) للمدائني ، و (أخبار أبي العباس) للخراز ، [الأعلام : ١٦٧٤] .

من أعظم الخلفاء العبَّاسيِّين :

أبو جعفر المنصور (عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبَّاس) ، الَّـذي تخلُّص من أبي مسلم الخراساني ، فبدأت السُّلطة الحقيقيَّة للعبَّاسيّين .

من أحسن النّاس خلقاً ، يجلس في صدر النّهار للنّظر في أمور الدّولة ، والتُّغور ، والولايات ، والسّبُل ، والمال ، والنّفقات للرَّعيَّة ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء نظر في كتب الثّغور والأطراف والآفاق ، فإذا مضى ثلث اللّيل قام إلى فراشه ، فإذا مضى الثّلث الثّاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصلّى حتّى يطلع الفجر ، ثمّ يخرج فيصلّي بالنّاس ، ثمّ يدخل فيجلس في إيوانه ، فيتغيّر لونه ، ويربد وجهه ، وتحمر عيناه .

الجد في بلاطه: لم يُرَ المنصور في لهو قط، قال: ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر، لا يكون على بابي أعف منهم، قيل له: يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال: هم أركان المُلك، ولا يصلح الملك إلا بم ، كا أن السَّرير لا يصلح إلا بأربع قوائم، إن نقصت واحدة تداعى ووهى ، أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والتَّالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرَّعيَّة فإنِّي عن ظلمها غني ، والرَّابع .. ثمَّ عض على أصبعه المُسبَّحة ، الَّتي تسمَّى أيضاً السَّبابة ، ثلاث مرَّات ، يقول في كل مرَّة : آه ، قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصِّحَة .

وولّى رجلاً من العرب حضرموت ، فكتب إليه والي البريد أنّه يكثر الخروج في طلب الصّيد ببزاة وكلاب قد أعدّهما ، فعزله ، وكتب إليه : ثكلتك أُمُّك ، وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العُدّة الّتي أعددتها للنكاية في الوحش ، إنا إنّا استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحوش ، سلّم ماكنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك مذموماً مدحوراً .

وكان يصل البريد إلى المنصور في اليوم مرّتين من الولايات ، يذكر الوالي في رسالته : سعر القمح والحبوب ، وسعر كل مأكول ، وكل ما يقضي به القاضي في نواحيه ، وكل حدث .. فيجيب المنصور بردّ السّعر إلى حاله إن ارتفع ، وإن شكّ في حكم قاضِ نبّهه ووبّخه .

ثبات ، مع علو همّة ، واقتصاد في ثروة الدّولة ، واهتمام بأمور الرّعيّة ، وجد في البلاط ، وفصاحة وبلاغة .. فحينا صحّت عزيته على قتل أبي مسلم ، فزع من هول ذلك الموقف وزيره عيسى بن موسى ، فكتب إلى المنصور يقول :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا تـــدبر فـإن فساد الرَّأي أن تتعجَّلاً فأجابه المنصور:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزية في في أن تتردّدا ولا تهمل الأعداء يوماً بغدوة وبادرهمو أن يلكوا مثلها غدا

توفي المنصور سنة ١٥٨ هـ ، فخلفه ابنه محمد المهدي ، الذي عُرِف بعدله ، حيث جلس للمظالم بنفسه .

ثمَّ حكم الدَّولة العبَّاسيَّة موسى الهادي بن محمد المهدي ، الَّذي كان شجاعاً قويّاً حازماً .

ثمَّ خلفه هارون الرَّشيد بن محمد المهدي بن المنصور ، واسطة العقد في الدَّولة العبَّاسيَّة ، لذلك نفرد له محاضرة خاصة به ، وهي المحاضرة الَّتي أُلقيت على مدرج اتّحاد الكتَّاب العرب بدمشق :

هَارُونُ الرَّشِيد الخليفةُ المفترَى عَلَيْه

بسم الله ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِنا رسول الله ، وآلهِ وأصحابه ، وبعد ..

لقد قيل: «إنَّ غايةَ التَّاريخِ هي إدراكُ الماضي كا كان ، لا كا نتوهَمُ أنَّه كان ، وكذلك ليس هو تصويرُ الماضي كا يجب أن يكون ، أو كا نريدُهُ أن يكون »، هذا أوَّلا ، أمَّا ثانيًا : إنَّ عبارةَ (الغزو الفكريُّ) عبارة يرفُضُها الكثيرون ، مع أن الغزو حقيقة واقعة ، يستهدف الجذورَ منَّا لا القشور ، ويحاول القضاءَ على الجوهر لا العَرَض ، ويشوِّه الأصول لا الفروع ، ويريد أن تسود الأمَّة المغزوَّة ، أخلاق الأمَّة الغازية ، وعاداتُها وتقاليدُها . (الغزو) موجود ، ودليله :

ليس من باب المصادفات ، أن يأتينا داڤيد صموئيل مرجليوث ليقدم النُّصح لرئيس جمع اللَّغة العربيَّة بدمشق ، المرحوم محمد كرد علي قائلاً : عليكم بالعاميَّة الحكيَّة ، تبنّوها وادعوا إليها ، وعليكم بالحرف اللاَّتيني ، ولئن رُفضت هذه الدَّعوة في هذا القطر العربي الاُصيل ، فلقد تبنّاها في مصر (أستاذ الجيل) أحمد لطفي السيِّد ، و (عيد الأدب العربي) طه حسين ، ولويس عوض ، الذي تبنّى عاميَّة محكيَّة ، ورفض الاعتراف للعرب بالوحدة ، وبقوميَّتهم العربيَّة ، وبالوطن العربيَّ الواحد ، ودان الرئيس العربيَّ الرَّاحل جمال عبد الناصر ، لأنَّه حاول رفع الحواجز بين قوميات ودان الرئيس العربي ، لاحظوا دقَّة انتقاء ألفاظه (قوميَّات) وليست قوميَّة واحدة ، (وعالماً عربيًا) ، لا وطناً واحداً !!

وقال أيضاً : « حطِّموا عمودَ الشِّعر ، لقد ماتَ الشَّعرُ العربي ، ماتَ عام ١٩٣٣ م ، مات بوتِ أحمد شوقي ، ماتَ ميتةَ الأبد » .

معاولُ هدامة ، تخرّبُ الذُّوقَ العربيّ ، في حضارتِهِ وأصالَتِه ، وتحطّمُ القيمَ الجاليّة ، ليصلوا بنا إلى الضّياع .

(الغزو الفكري) تعبير دقيق لمعركة لا نسمع فيها صليل السَّيوف ، ولا أزيزَ الرَّصاص ، ولا أنينَ الجرحى ، معركة صامتة ، تريد أن تصرع الأُمَّة فكريّا ، وتحرفها عن أصالتها .

وليس من المصادفات ، أن يقف (لين وايت) المؤرِّخُ الأمريكي ليقول: بتفوَّق التَّقنية (التَّقنية (التَّقنية في العصور الوسطى!! أين التَّقنية (التَّقنية وما البرهان؟ ومع ذلك أصبح (لين وايت) مرجعاً يعتمد، وقال متادياً: كلُّ مخترعات الصِّين، وصلتنا من شرقي آسية إلى أوربة مباشرة، ولم ينقُلُها العربُ بعد تطويرها وتحسينها.

وليس من المصادفات ، الحديثُ والتَّركيزُ على ما يُدعى ، أو يُسمَّى (المعجزةُ اليونانيَّة) ، فلا حضارةً إلا حضارةً اليونان ، ولا علوم إلا علومَ اليونان .

مع أن المنصفينَ من علماء الغرب يعترفون « لئن أشْعَلَ العرب سراجَهم من ثقافة اليونان ، فإنَّهم ما لبثوا أن أصبحوا شعلةً وهَّاجة ، استضاءً بنورها أهلُ الأرض »(١).

لقد أعادَ العربُ المسلمون التَّفكيرَ والنَّظر تماماً في العلوم اليونانيَّة ، وتعترف زيغريد هونكة (ص: ١١٣ ، شمس العرب) بأن ماقامَ به العربُ ، لهو عملٌ إنقاذي ، له مغزاهُ الكبير في تاريخ العالم .

ولقد قدَّم العربُ للإنسانيَّةِ هدايا ثمينةً ، منها طريقةُ البحثِ العلمي ، الَّتِي مهَّدت أمام الغربِ طريقَة لمعرفةِ أسرارِ الطَّبيعة ، البحثُ العلمي هو الذي أوصلَ الطَّبيبَ العربي عبدَ اللَّطيفِ البغدادي إلى قوله : « التَّجربةُ أصدقُ من جالينوس » ، وهو

⁽١) وليم أوسلر ، [الكيمياء عند العرب ، ص : ٩] .

الّذي أوصلَ ابنَ الهيثم إلى تصويب آلية الإبصار ، وبالتّالي نقض نظرية إقليدس وبطليوس ، فابنُ الهيثم أبو المنهج العلمي ، لذلك يقول (ول ديورانت) : لا مبالغة مها قلنا في أثر ابن الهيثم في العِلْم في أوربة .

(الغزو الفكري) غزو لانراه ، ولكننا نَلْمَسُ آثارَه .

تشوية لتاريخنا ، وطعن بأعلامه ، وتجريح بتأريخه ، وتشكيك برواياته ، ورفض لعطاءاته ، وطمس لعصره الذّهبي وحضارته الإنسانيّة ، وافتراءات على رجالاته ، حتّى كتب بعضهم تاريخنا معتمداً على ماكان ذائعاً على السنة عامّة الورّاقين ، أو الكتب الّي تُلْقِي الأخبار على عواهنها من غير تمحيص أو تحقيق ، مع الأخذ من كتب الخصوم ، وبالكتب الموضوعة لأخبار الجّان .

إنَّ الأَممَ الحيَّةَ تحافظُ على تراثها ، وتبذلُ كلَّ ما في وُسْعِها لتحقيق هذا الهدف ، وهي في الوقت ذاته أمينة في حراستها ، وتقطع أيدي العابثين فيه في محاولاتهم الأُولى ، لأن العبث في تراثِ الأُمَّة وتاريخها ، خطوة مدروسة همدم ذاتيتها ، وتحطيم طاقاتها ، وبالتَّالي ضياعِها أُمَّةً متينة البنيان ، قوية التَّرابط ، سلية الهدف .

ولقد قلتُ في يوم من الأيّام ، وأُعيدُ اليوم : « الهزيمةُ أمامَ المبادئ الدَّخيلة أقسى وأمرٌ من الهزيمة العسكريّة ، لأنّ الهزيمة العسكريّة ، لأنّ الهزيمة العسكريّة قد تُبْقي على كيان الأُمّة ، أمّا الانهزامُ الفكري فعناه بَدْءُ النّهايةِ للأُمّة كلّها .

وكلَّ أُمَّة بخير ، ما دامت تلتصق بذاتيتها ، وتفخر برجالاتها ، وكلُّ أُمَّة تبدأ بالانهيار عندما تبدأ التَّقليد ، وتتلاشى الأُمَّة عندما ترى أن معينَ فخرِها واعتزازِها قد نَضَب .

ولـذلـك قيل : « إنَّ الأُمَّةَ الَّتِي تريـدُ البقاءَ ، تحمي تـاريخَهـا وتراثهـا وأعلامَهـا وآدابَها بسياج متينٍ من الحراسة » .

وبعد هذه المقدِّمة أتساءل: سيرة الخليفة العبَّاسي، هارون الرَّشيد، أهي كا صوَّرَها الأصفهاني في كتابه الأغاني بما فيها من نُواسيَّات؟ أمْ هي سيرة خليفة عربيًّ ملتزم، بلغ بملك العرب المسلمين مالم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعدَه، من هيبة السَّلطَان، وسعة الآفاق، وتأمين الحدود والثَّغور؟!

وهل حقّاً بغدادُ الرَّشيد ، هي بغدادُ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ ، بما في هذه اللَّيالي من ملذَّاتٍ وخمور وفجور ؟

ومن رسمَ شخصيَّةَ الرَّشيد ، النَّواسيُّ والمغنَّون ، أمْ أبو يوسف القاضي ، وعبدُ الله بنُ المبارك ، والإمامُ الشَّافعي ، والفضيلُ بنُ عياض ؟

وأنا لستُ في هذه الأمسية ، في موقف الدِّفاع عن مدان أحاولٌ تبرئَّتُه .

ولست أمامَ خليفةٍ أُحاولُ تبريرَ أخطائِهِ وهفواتِهِ .

ولستُ أمام (معصوم) عن الخطأ ، ولكن حَسْبُ المرء نبلاً أن تُعَدُّ معايبُه .

ولكنني أمام خليفة مفترى عليه ، شُوِّهَتُ سيرتُه عن قصد وعمد ، بعد وفاتِه بزمن ، واستر هذا التَّشوية حتَّى عصرنا الحاضر ، حتَّى جعلت مجلة (روز اليوسف) الرَّشيد موضع سخريتها وَهُزْئِها في كلِّ عدد من أعدادها في النِّصفِ التَّاني من عقد الخسينات ، مما جعل المثقَّف ثقافة مبتورة ، أو غير المثقَّف ، إن رأى رجلاً مخموراً ، حَوْلَة بعض النَّساء يقول : إنَّه مثلُ هارون الرَّشيد ،

فهل حقّاً هذه هي حياةُ الرَّشيدِ وسيرتُه ؟

ومن رسمَ الصُّورةَ الحقيقيَّةَ للرَّشيد ، ومن شوَّهَها ؟

إنَّه الرَّشيدُ بنُ محمدِ المهدي بنِ عبد الله المنصور بنِ محمد بنِ علي بنِ عبد الله بنِ العبَّاس بن عبد المطَّلب .

أُمُّه الخيزرانُ الْجُرَشيَّة ، وصفها ابنُ تَغْرِي بِرْدِي في النَّجومِ الزَّاهرةِ : وكانت عاقلةً لبيبةً ديِّنة ، كانت تنفقُ دخلَها كلَّه في الصَّنقاتِ وأبواب الخير .

ولد بالرَّيِّ سنة ١٥٠ هـ .

استُخْلِفَ بعد وفاة أخيه موسى الهادي سنة ١٧٠ هـ ، عاصره في الأندلس عبد الرَّحنِ الدَّاخل ، ثمَّ هشام بنُ عبد الرَّحن ، ثمَّ الحكم بنُ هشام ، وعاصره في فرنسة شارلُ الكبير ، (المعروف بشارلان) ، وفي القسطنطينية قسطنطين السَّادس ، وكانت تديرُهُ أُمَّه (إيريني) ، ثم استبدَّت بالْمَلْك ، ثمَّ خلفها نِقْفُور .

زوجُه : زبيدة بنت جعفر بن المنصور : سيدة جليلة ، ذات يد طُولى في الحضارة والعمران ، والعطف على الأدباء والشُّعراء ، ومن ذوات العقل والرَّأي والفصاحة والبلاغة .

أمَّا أساتذتُهُ فَهُم :

المفضَّلُ الضَّبِّي ، أشبعَهُ البلاغةَ والأدبَ ، إنَّه المفضَّلُ بنُ محمدِ أبو العبَّاس ، راويـة علامةٌ بالشَّعرِ والأدبِ وأيَّام العرب ، لزمَ المهديَّ فأوكل إليه تأديبَ ابنِه الرَّشيد .

وحمزةُ الزّيَّات ، الَّذي قرأ الرَّشيدُ على يده القرآنَ الكريمَ أربعَ مرَّات ، واختارَ لنفسه قراءةٌ صارتْ إحدى القراءات السَّبع .

وعليُّ بنُ حمزة (الكِسَائي) علَّمه العربيَّةَ ، وأيَّام النَّاسِ ، والفِقْه .

وملأة (الأصمعيُّ) عبدُ الملكِ بنُ قُرَيْبٍ طُرَفاً من طرائفِ العربِ الأدبيَّة ، ومُلَحاً من مُلَحِهم . وخرج إلى مجلس الخليل بن أحمد الفراهيدي في البَصْرة .

ورحلَ بولديه الأمينَ والمأمونَ إلى المدينة المنوَّرة لسماع الموطَّأ على مالك .

لما سبق تدلُّ مناقشاتُ الرَّشيدِ الكثيرةُ للعلماءِ والأُدباء على سَعَةِ علمِهِ وأدبِهِ ، ويدلُّ نقدهُ للشَّعرِ والشُّعراءِ على أنَّه بحرٌ واسعٌ في اللَّغة والعلمِ والأدب .

مرَّ الرَّشيدُ بالمفضَّلِ الضَّبي ، فأوماً إليه بالجلوس فجلس ، فقال له : يامفضَّل ، قال : لبَّيكَ ياأميرَ المؤمنين ، قال : كم من الأساء في : (فسيكفيكَهُمُ) الله ؟!

قال الضّبيُّ مجيباً: ثلاثةُ أساء يا أميرَ المؤمنين ، قال : وما هي ؟ قال الضّبيُّ : الياء لله عزَّ وجلَّ ، والكاف الثانيةُ لرسولِ الله وَ اللهِ مَا والهاءُ والميمُ والواو للكفار ، قال الرّشيدُ : صدقت ، كذا أفادنا الكِسَائي ، يا مفضًّل هل عندك مسألةٌ ، قال المفضَّل : نعم يا أمير المؤمنين ، قولُ الفرزدق :

أخذنا باطرافِ السَّاء عليكُم لنا قراها ، والنَّجومُ الطَّوالعُ

قال الرَّشيد: هيهات ، قد أخذنا هذا قَبْلَك ، فقد أخبرنا الشَّيخ ـ يعني الكِسَائي ـ أنَّ لنا قَمَرَيْها ، يعني الشَّمس والقمر ، كا قالوا: العُمَرَيْن ، يريدون أبا بكر وعمر ، وذلك أنَّه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد ، وكان أحدُهُما أخف على أفواه القائلين غلَّبوه : قال تعالى : ﴿ بُعْدَ المشرقينُ فَبئسَ القرينُ ﴾ ، [الزِّخرف: ٢٧/٢] ، وهو المشرق والمغرب .

وقال الأحمرُ النَّحُوي: بعثَ إليَّ الرَّشيدُ لتأديب ولده محمد الأمين ، فلما دخلت عليه قال: ياأحمر ، إنَّ أميرَ المؤمنين قد دفعَ إليك مهجة نَفْسه ، وغرة قلبه ، فصيَّرُ يدكَ عليه مبسوطة ، وطاعَتَكَ عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعكَ أميرُ المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرِّفه الآثار ، وروِّه الأشعار ، وعلمه السَّنن ، وبصَّره مواقع الكلام ، وابدأه وامنَعْهُ الضَّحكَ إلا في أوقاتِه ، وخُذْهُ بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ،

ورَفْعِ مِجَالِسِ القُوَّادِ إِذَا حضروا مِجلِسَهُ ، ولا تمرَّنَّ بك ساعةٌ إلاَّ وأنتَ مغتنمٌ منها فائدةً تُفيدُه إيَّاها ، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحتِه فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوِّمُهُ ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشَّدَّة والغلظة .

ودخلت امرأة على الرَّشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! أقر الله عينك ، وفرَّحَكَ عما آتاك ، وأمَّ سَعُدتك ، لقد حكمت فقسطت . فقال لهما : من تكونينَ أيَّتها المرأة ؟ فقالت : من آل برمك ، مَّن قتلت رجالَهُم ، وأخذت أموالَهُم ، وسلبت نَوَالَهُم ، فقال الرَّشيد : أمَّا الرِّجال فقد مض أمر الله ، ونفذ فيهم قدره ، وأمَّا المال فردود إليك ، ثمَّ التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال : أتدرون ما قالت المرأة ؟ قالوا : ما نراها قالت إلاَّ خيراً ، قال : ما أظنَّكُم فهمتم ذلك ، أمَّا قولُها أقرَّ الله عينك ، فتعني أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عَمِيت ، وأمَّا قولُها وفرَّحَك عما آتاك ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿ حتَّى إذا فَرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخذناهُم بَغْتَة ﴾ ، [الأنعام : ٢٤٤١] ، وأمَّا قولُها وأتمَّ الله سعدك ، فرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخذناهُم بَغْتَة ﴾ ، [الأنعام : ٢٤٤١] ، وأمَّا قولُها وأتمَّ الله سعدك ، فأخذته من قول الشَّاع :

إذا تمُّ أمرّ بــــدَا نقصـــهُ تَرَقَّبْ زَوَلاً إذا قيــــلَ تَمْ

وأمًّا قولُها لقد حكمتَ فَقَسِطْتَ ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿ وأمَّا القاسِطُونَ ﴾ - أي الجائرون ، والْمُقْسِطون العادلون _، ﴿ وأمَّا القاسِطُونَ فكانوا لجهنَّمَ حَطَباً ﴾ ، [الجن : ١٥/٧٢] ، فتعجَّبوا من ذلك .

☆ ☆ ☆

أمَّا إيمانُ الرَّشيد ، فيكفيه أنَّه كانَ يحجُّ عاماً ، ويغزوَ عاماً ، وحجَّ ماشياً مرَّةً ، ولم يحج خليفةٌ قبلَه ولا بعدَه ماشياً .

قال منصور بنُ عَمَّار : ما رأيتُ أغزرَ دمعاً عند الذَّكرِ من ثلاثة : فضيلِ بن عياض ، وأبي عبدِ الرَّحن الزَّاهد ، وهارون الرَّشيد .

روى ابن عساكر عن : إبراهيم بن المهدي قال : كنت يوماً عند الرَّشيد ، فدعا طَبَّاخَه فقال : أعندك في الطَّعام لحم جزورٍ ؟ قال : نعم ، ألوان منه ، قال : أحْضِره مع الطَّعام ، فلما وُضِع بين يديه ، أخذ لقمة منه فوضعها في فمه ، فضحك جعفر البرمكي ، فترك الرَّشيد مضغ اللَّقمة ، وأقبل عليه فقال : ممَّ تضحك ؟ قال : بكم تقول إن هذا الطَّعام من لحم الجزور يقوم عليك ؟ قال الرَّشيد : بأربعة دراهم ، قال جعفر : لا والله ياأمير المؤمنين ، بل بأربع مئة ألف درهم ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بدة طويلة ، فلم يوجد عنده ، فقلت : لا يَخْلُونَ المطبخ من لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أبع مئة ألف درهم ، من المير المؤمنين ، قصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربع مئة ألف درهم ، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلاً هذا اليوم ، قال جعفر : فضحكت لأن أمير المؤمنين إنّا ناله من ذلك هذه اللقمة ، فهي على أمير المؤمنين بأربع مئة ألف .

فبكى الرَّشيدُ بكاءً شديداً ، وأمرَ برفع السّماطِ من بين يديه ، وأقبلَ على نفسهِ يوبّخُها ويقولُ : هلكتَ واللهِ ياهارون ، وأمر بمبالغَ توزّعُ على فقراء الْحَرَمَيْن ، وعلى فقراء بغداد والكوفة والبصرة ، ودخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ماشأنك ياأميرَ المؤمنين باكياً في هذا اليوم ؟ فذكر أمْرَهُ ، فقال أبو يوسف لجعفرِ البرمكي : هل كان ما تذبحونَه من الْجُزُر يَفْسُدُ أو يأكُلُه النّاسُ ؟ قال : بل يأكُلُه النّاسُ ، فقال : أبشر ياأميرَ المؤمنين بثواب الله من الصّدقة ، وبما رزقَكَ من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلِمَن خَافَ مقامَ رَبّه جَنّتانِ ﴾ ، استدعى الرّشيد طعاماً ، فكان غداؤه في ذلك اليوم عشاءً .

وحدَّثَ إبراهيمُ بنُ المهدي أيضاً: استزرتُ الرَّشيدَ بالرِّقة ، فزارني ، فلما وُضِعَ الطَّعامُ رأى الرَّشيد طبق سمك ، فاستصغرَ القطع ، وقال: لِمَ صَغْرَ طبّاخُك تقطيعَ السَّمك ؟ فقلت: ياأميرَ المؤمنين ، هذه ألسنةُ السَّمك ، وفي الطبق أكثرُ من مئة وخسينَ لساناً ، فسألَ الرَّشيد عن كُلْفَة هذا الطبق ، فأخبره إبراهيمُ بنُ المهدي أنَّه قامَ

بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرَّشيدُ يدة وحلف أن لا يُطْعَمَ شيئاً دونَ أن يُحْضِرَ إليه إبراهيم ألف درهم ، فلما حضرَ المال أمر أن يُتَصَدَّق به ، وقال : أرجو أن يكون كفَّارة إسرافك في إنفاقك على طبق سمك ، ثمَّ ناولَ الطَّبق بعض خدمه وقال : اخرج من دار أخي ، ثم انظر أوَّلَ سائلِ تراه فادْفَعْهُ إليه .

قال محمدُ بنُ حازم (أبو معاويةَ الضَّرير) : ماذكرتُ عندَ الرَّشيد حديثاً إلا قال : صلى اللهُ وسلَّمَ على سيدي ، وإذا سمعَ فيه موعظةً بكى حتَّى يَبِلَّ الثَّرى ، وأكلتُ عنده يوماً ، ثم قمت لأغسلَ يديَّ فصبَّ الماءَ عليَّ وأنا لاأراه ، ثمَّ قبال : يبا أبا معاوية ، أتدري مَنْ يَصُبُّ عليكَ الماء ؟ قلت : لا ، قال : يصبُّ عليكَ أميرُ المؤمنين ، قبالَ أبو معاوية : فدعوتُ له ، فقال : إنَّا أردتُ تعظيمَ العِلْم .

☆ ☆ ☆

أمَّا جهادُ الرَّشيد ، فهو جهادٌ دائم ، إنَّه جبارُ بني العباس ، أقامَ (ديوانَ العرض) مُلْحَقاً بديوانِ الحرب ، ومن وظائِفِه استعراضُ الجند ، ومعرفة كفاءاتهم من قبّل مشرفينَ متخصّصين .

وفي سنة ١٨٧ هـ نقض صاحب الرَّوم نِقْفورُ الصَّلحَ الَّـذي كان بين المسلمينَ وبين الإمبراطورةِ (إيريني) بعد أن خَلَعَها الرومُ وملَّكُوه ، فكتبَ إلى الرشيد :

من يَقْفُورَ ملكِ الروم ، إلى هارونَ ملكِ العرب ، أما بعد ، فإنَّ الملكةَ الَّتي كانت قبلي أَقامَتْكَ مقامَ الرَّخ ، وأقامت نَفْسَها مقامَ البَيْدَق ، فحملت إليكَ من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها ، لكن ذاكَ ضعفُ النَّساء وحقهن ، فإذا قرأت كتابي فارددُ ماحصلَ قِبَلكَ من أموالها ، وافتد نفسك .. وإلاَّ فالسَّيفُ بيننا وبينك .

فلما قرأ الرشيدُ الكتابَ ، استفزَّه الغضبُ ، ودعا بدواةٍ وكتبَ على ظهرِ الكتاب : بسم الله الرحمن الرحم ، من هارونَ أميرِ المؤمنين إلى نقفورَ كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا بن الكافرة ، والجوابَ ما تراهُ لا ما تسمَعُه ، والسَّلام .

وسار الرشيد حتى أناخ بباب هِرَقْلَة ، ففتح وغنم ، فطلب نِقفورُ الموادعة على جزية يؤدِّيها في كلِّ سنة ، فأجاب الرشيدُ إلى ذلك ، فلما رَجَعَ من غزوته ، وصار بالرُّقَة نقض نقفورُ العهد ، وخان الميثاق ، وكان البردُ شديداً ، فيئس نقفورُ من رجعة بالرُّقة نقض نقفورُ العهد كرُّ راجعاً في أشدِّ محنة ، فلم يبرح بلادَ الرُّوم حتَّى رضي وبلغَ ماأراد .

وفي غزوةِ الرشيدِ هذه لِهرَقْلَة ، اتَّخَذَ قُلُنْسُوَةً كُتبَ عليها (غازِ حاجٌ) .

☆ ☆ ☆

رجالٌ حولَ الرَّشيد أَفاضلُ ، وعلماء أجلاء ، لزموا مجلسَ الرَّشيدِ في قصره ، أو رحَلَ إليهم ليسمعَ منهم ، وينهلَ من معينِ علومهم ، أُوَّلُهم :

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب ، قاضي القضاة عند الرَّشيد ، كَلَفه الرَّشيد ، كَلَفه الرَّشيد بوضع كتاب نستطيع أن نقول : إنه (مَنْهج اقتصاديٌّ) ، يجمع الرشيد بموجبه الْخَراج في الدَّولة الإسلاميَّة ، بموجب الشَّريعة المطهَّرة ، لا يحيد عنها ، ولا يَظُلِمُ في جبايته أحداً من الرَّعية على اختلاف أجناسهم وعقائدهم .

وضع أبو يوسف كتابه (الْخراج) بطلب من الرشيد ، وقد قدم له بنصيحة وموعظة للرَّشيد رائعة ، حملت معان سامية : « يا أمير المؤمنين ، إنَّ الله ـ وله الحمد قد قلدك أمراً عظياً ، ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب ، قلدك أمر هذه الأمَّة ، فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتنك عليهم ، وابتلك بهم ، وولاك أمره ، وليس يلبث البنيان ـ إذا أسس على غير التَّقوى ـ أن يأتيه الله من القواعد فيهدمة على من بناه وأعان عليه ، فلا تضيعن ماقلدك الله من أمر هذه الأمَّة والرَّعيَّة ، فإنَّ القوَّة في العمل ، بإذن الله » .

^{☆ [} هارون معرّب لا اشتقاق له في العربية . الهيرون ضرب من التمر الجيد] . اللّسان : هرن .

ماتَ أبو يوسفَ القاضي الذي لازمَ الرَّشيدَ سنة : اثنتين وثمانين ومئة للهجرة ، فعيَّن الرشيدُ أبا عبدِ الله محمد بنِ الحسنِ الشَّيباني قاضياً للقضاة ، وهو صاحبُ أبي حنيفة ، فلازم الرشيدَ ، وكان يصحبُهُ في سفره .

قال الإمامُ الشَّافعي: أَمَنُّ النَّاسِ عليَّ في الفقهِ محمدُ بنُ الحسن.

هذه الشَّخصيَّةُ العلميةُ أصبحَ صاحبها فقيهَ الدُّولةِ الأُوَّل بعد موتِ أَبِي يوسف.

عبدُ اللهِ بنُ المبارك : عالمُ المشرقِ والمغربِ وما بينها ، لِما جمعَ من علمٍ وفقهٍ وأُدبٍ ونحوِ ولغةٍ وزهدٍ وشجاعةٍ وورعٍ وفروسيةٍ وجهاد .

ولما ماتَ ابنَ المبارك سنةَ إحدى وستين ومئة ، وبلغَ خبرُ وفاتِه الرشيـدَ قال : ماتَ سيدُ العلماء ، ثمَّ جلسَ للعزاء ، وأُمرَ الأُعيانَ أَن يعزُّوهُ في ابن المبارك .

الفضيلُ بن عياض : كان يقول ـ على الرَّغ من مواعِظِه المتتاليةِ للرشيد ـ : وَدِدْتُ أَن اللهَ زادَ فِي عُمُرهِ من عُمُري .

مالكُ بنُ أنس: جلسَ الرشيدُ بين يديه ، وسمعَ منه ، وقدَّمَ إلى الرشيد رسالةً تضَّنت خطةً كاملةً إسلاميةً ملتزمة ، مع رحمةِ النَّاس ، وكظم الغيظ ، والحياء من الله ، واتباع معالِيَ الأخلاق ، ومصافحة الرَّعيَّة تحبَّباً لها ، ولا يدخلُ جوفَهُ إلاَّ حلالُ الطَّعام ، وسمَحَ له باللَّهو المباح .

والإمامُ الشَّافعي ، تكررت لقاءاتُه مع الرشيد ، وقال الرشيدُ له : « كثَّرَ اللهُ في أهلِ بيتي مِثْلَكَ » ، وكان الرشيدُ يَحْضُرُ مناظراتِ الشَّافعي ومحمد بن الحسن الشيباني .

القاضي أبو يوسف ، صاحبُ (الخراج) .

محمدٌ بنُ الحسنِ الشيباني (قاضي القضاة) .

عبدُ الله بنُ المبارك (العالمُ القدوة) .

الفضيلُ بنُ عياض (العالمُ الزاهدُ النَّاصح) .

مالك بن أنس (إمام دار الهجرة) . الإمام الشَّافعي (ثالثُ الأَّئَةِ العظام) .

رجالٌ مخلصون ، وعلماء عاملون ، كلُّهم كانوا رجالاً حول الرشيد ، بعضهم بنصحه وتوجيهاته ، وبعضهم بمجالسه ومراسلاته ، فن هؤلاء وأمثالهم اكتملت للرَّشيد شخصيتُهُ الإسلاميَّة .

☆ ☆ ☆

من شوَّة سيرة الرَّشيد ؟

هــذه السّيرةُ العطرةُ الطّيبــةُ ، لرجـلٍ مـؤمنٍ ملتزم ، لا يُحب المِراءَ في الــدّين ، ويكرهُ الزّندقةَ والزّنادقة ، ويحب العلمَ والعلماء .

الرَّشِيدُ .. شخصةً مستقرةً مطمئنة ، شخصيةً لا ازدواجية فيها ، لم تخشعْ للموعظة مرَّة ، بل خشعتْ لها في كلِّ مرَّة ، تغضب للهِ في كلِّ مرة ، وتتذوَّق الأدبَ الرفيعَ في كلِّ مرَّة .

الرَّشيدُ .. الَّذي وقَّعَ وزيرُهُ في ليلةٍ واحدة زيادةً على أَلفِ توقيع ، ونظرَ الرشيدُ فيها جميعَها ، لم يخرجُ شيئاً فيها عن موجب الفقهِ والدين واللَّغة العربية .

قالَ عمرو بنُ بحر (الجاحظ) : اجتمع للرشيد من الجِدِّ والْهَزْلِ ، مالم يجتمعُ لغيرِهِ من بعده ، كانَ أبو يوسف قاضية ، والبرامكة وزراءه ، وحاجبُهُ الفضلُ بنُ الربيع ، أُنْبَة النَّاس وأشدَّهم تعاظياً ..

وقالَ ابنُ طباطبا: « وكانت دولةُ الرشيدِ من أحسنِ الدُّول ، وأكثرِها وَقاراً ورونقاً وخيراً ، وأُوسَعِها رقعةَ مملكةٍ .. ولم يجتعُ على باب خليفةٍ من العلماء والشُّعراء والفقهاء والقراء والقضاةِ والكتباب ، مااجتمع على بابِ الرَّشيد .. كانَ فاضلاً راويةً

للأخبارِ والآثارِ والأشعارِ ، صحيحَ الذَّوقِ والتمييز ، مهيباً عند الخاصَّة والعامَّة ، فن شوَّهَ هذه السّيرةَ الطّيبة ؟ ولماذا الرَّشيدُ بالذات ؟

شوَّهَ سيرةَ الرَّشيد:

١ - ألف ليلة وليلة ، الَّتي من الثابت أنَّ مادَّم أخذها العرب من الفرس والهنود ، ذكر ابن النَّديم في الفهرست أنَّها مترجمة عن أصل فارسيِّ اسمه (الهزار أفسان) ، أي ألف خرافة . نُقِلَ إلى العربية في القرن الثالث الهجري على حين أنَّ غالب القصص يرجع إلى أصل هندي ، ووجوه الشَّبه الَّتي نجدها بين كتب هندية وفارسية لاشك في أنَّها أقْدَمُ من الأصلِ العربي ، فأسماء شاه زمان ، وشهرَيار .. أسماء فارسية ، والقصص التي تتكلَّم بها البهائم والوحوش لها نظائرها في الأدب الهندي ، وفي القصة الهندية (سوكاستباتي) ، قصة خليلة تَسْرَدُ لصاحبها قصة في غياب زوجها ، تقص عليه في كل يوم قصّة ، وتختنها دائماً بقولها : سأقص البقية غداً إذا بقيت في البيت الليلة .

ونجدُ اسمَ هارونَ الرشيد في بعضِ قَصَصِ أَلفِ ليلةٍ وليلة ، لذلك ظنَّ بعضَهُم أَنَّه بطلٌ من أبطالِها ، فشوَّهَت أَلفُ ليلةٍ وليلة كذباً وخيالاً سيرةَ الرَّشيد ، الَّذي أصبحَ رمزاً للعصر الذهيِّ الغابر ، تفعلُ فيه الأعاجيبُ ، وتحاكُ حولَهُ الأساطيرُ .

ترجم (أنطوان جالان) الفرنسي ألف ليلة وليلة ، تحت عُنْوانِ (اللّيالي العربيَّة) لأنها تُرْجمَتْ عن العربيَّة .

وظن الأوربيون أن الرَّفاة في قصر الرشيد ، لا يمكن أن يكون إلا كا كان في قصر شارلمان من شراب وفسق وفجور ، فجعلوا الرشيد بطلاً لروايات ألف ليلة وليلة ، وبصورة تشبه ما يجري في قصورهم ، مع أن الرشيد لم يسمع بألف ليلة وليلة ، لأنها ترجمت إلى العربية بعدة بمئة سنة وأكثر ، وأضيف إليها على مر الأعصر حتى العصر المملوكي .

٢ ـ الأَغاني لأبي الفَرَجِ الأَصفهاني :

أَلصقَ الأَصفهانيُّ بالرشيد افتراءً أخبارَهُ مع أبي نواس ، وكلُّ أخبارِ الرشيدِ مع أبي نواس مُسْتَمَدَّةٌ من الأَغاني ، والأَغاني كتابٌ أدبيٌّ لا كتابُ تاريخٍ مُعْتَمَدٍ ، وهو كتابٌ مشكوكٌ صراحةً بأمانَة مؤلِّفه .

إِنَّ كتابَ الأَغاني ، الَّذي جعله كثيرونَ مرجعاً تاريخياً ، والَّذي قرنَ بين الرشيدِ وأَبِي نواس ، صاحِبَة متَّهم في أمانته الأَدبية والتَّاريخيَّة ، جاء في (ميزانِ الاعتدالِ في نواس ، صاحِبَة متَّهم في أمانته الأَدبية والتَّاريخيَّة ، جاء في (ميزانِ الاعتدالِ في نقدِ الرجال) للذَّهبي : إِن الأَصفهانيَّ في كتابِهِ الأَغاني كان يأتي بالأَعاجيبِ بحدَّثنا وأُخبرنا .

وقال الخطيب البغدادي : كانَ أبو الفرج ِ الأصفهاني أكذب النَّاس .

فن يقرأ الأغاني يرى حياة العباسيين لهوا ومجونا وغناء ، وهذا يناسب المؤلّف وخياله وحياته وما حوله ، وهذه الصورة الّتي رسمها الأصفهاني مرفوضة ، لأنّه يأتي بالأعاجيب بحدّثنا وأخبرنا ، وهي صورة افتراء بحقّ من كان يحج عاماً ويغزو عاماً ، ويصلّى في كلّ ليلة مئة ركعة .

٣ ـ أحمد أمين في كتابه هارون الرشيد : [الهلال : آب ١٩٥١] العدد ٣ .

قالَ أَحمدُ أمين عن الرشيد : إنّه رجلٌ عاطفيٌّ ذوّاق ، يخضعُ للمؤثراتِ الوقتيَّة ، فيصلّي مئة ركعةٍ كلَّ يوم ، ويحجُّ ماشياً ، ويهيمُ من ناحية أُخرى بالجمال والغناء ومجالسِ الشَّراب ، ويحدِّثُهُ أبو العتاهية حديثَ الزُّهدِ فيبكي حتَّى تخضَلَّ لحيَتُهُ ، ويقولُ له ابنُ مريمَ نكتةً فيضحكُ حتَّى يستلقىَ على قفاه .

ثم يقول أحمد أمين : كانت نكبة البرامكة نقطة سوداء في تاريخ الرشيد ، وروَّعَ الحادثُ الغربيين لأَنَّه لم يكن في نظرهم عادلاً .

أحمد أمين أديبٌ وليسَ مؤرِّخاً أولاً ، فهو في تأليفه أبعدُ النَّاسِ عن التَّمحيص

ودراسة النُّصوص والمصادر ، وصدق المؤلِّف ، والثقة بما كتب ، وهو ذو شخصيَّتَيْن : أزهريَّةً واستشراقيةٌ ثانياً .

قال أحمد أمين عن الرشيد : إنّه يهمُ بالجمالِ والغناء ومجالسِ الشراب ، ونسيَ أنَّ الشرابَ الَّذي تعاطاهُ الرشيدُ هو (النَّبيذُ) ، الَّذي يُتَّخَذُ من الزبيبِ أو المر ، ويطبخُ أوفى طبخ ، والَّذي أحلَّه أبو حنيفةَ ما دامَ لا يسكر .

لقد شرب الرشيد نبيذ زمانه ، لا نبيذ هذا الزمان ، وتنبّه إلى ذلك العلامة ابن خلدون ، فقال : لم يعاقر الرشيد الخر ، لأنّه كان يصحب العلماء والأولياء ، ويحافظ على الصلوات والعبادات ، ويصلي الصبّح في وقته ، ويغزو عاماً ويحج عاماً ، وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيه معروفة ، وأما الخر الصّرف فلا سبيل إلى اتهامه بها ، ولا تقليد الأخبار الواهية بها ، فلم يكن الرجل بحيث يُواقع محرّماً من أكبر الكبائر عند أهل اللّة .

وأحمد أمين يعرف الحقيقة ويُراوغ عنها ، فهو يقول في ضحى الإسلام : ونحن مع اتفاقنا في الرَّأي مع ابن خلدون في أنَّ الرشيدَ لم يشرب الخرّ ، إنَّا المعروف عنه أنَّه شربَ النَّبيذ ، لكنه لم يذكر أيَّ نبيذ !!

ومما نذكره هنا أيضاً ، أن العلماء الأتقياء ، والأولياء النُّصحاء ، كالفضيل بن عياض ، وأبي يوسف القاضي ، والإمام مالك ، ومحمد بن الحسن الشَّيباني .. لم ينبّهوا الرَّشيد ، ولو مرَّة واحدة إلى ارتكابه الحرام ، كشرب الخر مثلاً ، لقد كانت نصائحهم كلُّها عامَّة ، لقاء الله ، والخشية منه ، وذكر الموت والدار الآخرة ، والزَّهد في المُلك .. ولو وَجدَ خرّ مسكر في حياة الرشيد لنبهه إلى ذلك الفضيل ، أو أبو يوسف ، أو العتاهية ، أو الكسائي ..

ومن الغريب أنَّ أحمد أمين يعتمدُ في تصويره حياة الرشيد ، على كتابِ ألف ليلة وليلة ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةٍ وليلة قَصَصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله وليلة ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةٍ وليلة قَصَصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله وليلة ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةٍ وليلة وليلة عَصَصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله وليلة ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة وليلة عَصَصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله وليلة ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة قصصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة قصصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة قصصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة قصصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة قصصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة عصصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة قصصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة قصصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله ، ثم يذكر قولَ ابنِ النديم : ألفُ ليلةً وليلة قصصَّ تافهة ، فإذا حذفنا مانقله ، ثم ين التاريخ الإسلامي (٢٢)

أحمدُ أمين من الأغاني وألف ليلة وليلة ، خرج كتابُهُ ينطق بحقيقة الرشيد .

وقال أحمد أمين: إن نكبة البرامكة نقطة سوداء في حياة الرشيد، وأنا سأذكر بعد قليل أسباب نكبة البرامكة، ولكن أحمد أمين في ضحى الإسلام يعترف بأن البرامكة كانوا وراء الثقافة الفارسيّة يحمونها، وكادوا للإسلام وأهله، ثم قال: رأى الفرس أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقّق مطالبهم، فقد انتقلوا من يد عربية وهي اليد الأموية، إلى يد أخرى عربية هي يد العباسيين، ومطمع نفوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها، في سلطتها ولغتها ودينها، ورأوا أن ذلك لا يتحقّق والإسلام في سلطانه، فأخذوا يعملون على نشر المانويّة والزرادشتيّة والمزدكيّة ظاهراً إن أمكن، وخُفيّة إذا لم يُمْكِن.

أَفَبَعدَ هذا كلِّه ، كيف تكونُ نكبةُ البرامكة نقطةً سوداءً في تاريخ الرشيد ؟

٤ ـ قدّم محمد المعروف بدياب الإتليدي في القرن السَّابع عشرَ الميلادي كتاباً عنوانه : إعلامُ النَّاسِ مما وَقَعَ للبرامكة مع بني العبَّاس ، أُوردَ فيه قصةً عن العبَّاسة مع جعفر البرمكي ، فمن العبَّاسة ؟

إنّها عُلَيَّةُ بنتَ المهدي بنِ المنصور ، من أكملِ النّساء فضلاً وعقلاً وإيماناً ، قال الصّولي (إبراهيمُ بنُ العبّاس) : لاأعرف لخلفاء بني العباس بنتاً مثلَها ، كانت أكثرَ أيام طُهْرِها مشغولة بالصّلاة ، ودرسِ القرآن ، ولزوم الحراب ، تزوجها موسى بن عيسى العباسى .

والإتليدي يروي قصة رفضها المؤرخون الأقدمون كالبغدادي في تاريخ بغداد ، إنها مرفوضة لأن الذي روَّج لها الأصفهاني في كتابه الأغاني ، وهو الموسوم بأنه يأتي بالأعاجيب بحدثنا وأخبرنا .

والقصةُ تؤكدُ أن الرشيدَ ثَمِلَ من الخر وكذلك أُختُهُ العبَّاسة وجعفرُ البرمكي ،

وحياةُ الرَّشيدِ تكذَّبُ تعاطِيَهُ الخر ، ثمَّ تذكَرُ القصةُ مواقعةَ جعفرٍ للعباسةِ فولدت لمه ثلاثةَ بنين ، والرَّشيدُ لا علمَ له بذلك !!

وفي مَطْلَعِ هذا القرن سجلَ جرجي زيدان هذه القصة في رواياتِهِ تاريخُ الإسلام ، والتي فيها كلَّ شيء إلاَّ التاريخُ والإسلامُ ، وجعل كتابَهُ تحت عنوان : العباسةُ أُختُ الرشيد ، فالحديثُ خوضٌ في عِرْضِ الرشيدِ وشرفِهِ ، لذلك لم يجعل عُنُوانَ روايته : العباسةُ بنتُ المهدي .

إن كتابَ الإتليدي : إعلامُ الناس لم يصل ليدِ شريحةٍ كبرى من القارئينَ لقِدَمـهِ ، فجاءَ جرجي زيدان ، ونسجَ في كتابِهِ روايةَ غرام وفجور ، تُؤلمُ كلَّ غيورٍ على تـاريخِـهِ وتراثِهِ وأعلامه .

ه ـ نكبة البرامكة وهلاكهم :

نكبَ الرشيدُ البرامكةَ سنة ١٨٧ هـ ، بأمرٍ أصدرَهُ وهو في الأنبار ، فقتلَ جعفرَ بنَ يحيى ، وحبسَ يحيى في الرقة إلى أن مات ، فلماذا نكبَ الرشيدُ البرامكة ؟ من المؤرخين من جَعَلَ سببَ النكبة دخولَ يحيى بنِ خالد بلا استذان على مجلسِ الرشيد ، وهذا سببٌ غيرُ كاف لنكبة بطشت بالبرامكة كلّهم .

ورواية أخرى تقول: إن سبب نكبتهم كيد يحيى بن خالد البرمكي لـلإسـلام وأهله ، وحبَّهُ للإلحاد ومروِّجيه ، ولعلَّ هذا السَّبب ، من جملةٍ أسبابٍ ممكنة .

وروايةً ثالثةً جعلت السَّببَ إطلاق يحبى بنِ خالدٍ البرمكي ليحبى بنِ عبدِ الله الطَّالبي ، ولعلَّ هذا أيضاً عامِلٌ من جملة عوامل ممكنة .

ورواية رابعة جعلت السّبب إنفاق المال الكثير ، لبناء قصور البرامكة ، والإسراف الكبير في الإنفاق على الفرس المقرّبين لآل برمك ، ولعلّ هذا من أسباب النكبة الجماعيّة للبرامكة .

ورواية خامسة جعلت السبب قصة العباسة مع جعفر ، وهي قصة مدحوضة تاريخيًا .

لقد جاءً في أمرِ الرشيد من الأنبار : « لا أمانَ للبرامكةِ ولا لمن أواهُم » .

فرأيي في سبب النكبة التالي:

إن نكبة البرامكة نكبة جماعية ، فهي لابدً عقابً على فعل جماعيّ ، خُطّط له لكنه لم يتم ، فالرشيدُ لم يُرِقُ دما يوما ، ولم يسجن شخصاً في أيّ يوم ، إلا لسبب يقرّه الدين والعقل والمنطق السلم .

والمتهم عند الرشيد يسوق حجَجَه على أعلى مستوى يتصوَّره دفاع عن متهم ، في حضرة خليفة يحسن الاستاع ، بوجود قاض هو أعظم أهل الأرض علما يومذاك ، أبو يوسف ، ومن بعده محمد بن الحسن الشيباني ، فلم يُرِق الرشيد دما إلا إذا دانت الأدلة صاحبة ، وكان دأبه أن يضرب بشدة ، لكن العدل كان شأنة في كل حكم ، والمتصفّح لتاريخ الرشيد ، يلمس بوضوح أنه ماأمر بقتل إنسان إلا في حالات ثلاث :

زنديقٌ يعلنُ كفرَهُ ويجاهِرُ به ، ويستخفُّ بقيم الآخرينَ ويسخرُ منها .

ومسلم تبيح الشريعة قتلَة في حالات ثلاث : الثيّب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتّارك لدينه المفارق للجاعة .

وثائرٌ يهدفُ قلبَ نظامِ الحكمِ ، يشيعُ الفوضى والذعرَ والقتلَ والفتكَ ، وهذا تقرَّهُ الدُّولُ في كلِّ عصرٍ ، إنَّه قانونُ السُّلطةِ في كلِّ زمنِ ، الدَّفاعُ عن النفسِ والدَّولة .

لما سبق ، فن باب أولى ألا ينكل الرشيد بجهاعة بظن ، أو بسبب إساءة فردية من أحد أفرادها ، وعلى ذلك يمكن القول : نكب الرشيد البرامكة لأنهم كانوا يميلون إلى فارسيَّة كسرويَّة ، لقد حَمَوا الفرسَ بجاههم وبالأموالِ الَّتي وُضِعت بين أيديهم ، وآووا كثيرين ممن اتَّهِمُوا بالزندقة ، قالَ الأَصعيُّ في البرامكة :

إذا ذُكِرَ الشِّركُ في مجلس أنارتُ وجوه بني برمكُ وإن تُليَتُ عنا مَا يُدَالُ اللَّحاديث عن مَا زُدَكُ اللَّحاديث عن مَا زُدَكُ اللَّحاديث عن مَا زُدَكُ اللَّحاديث عن مَا رُدَكُ اللَّحاديث عن مَا رُدَكُ اللَّهُ اللَّالِي اللَّهُ اللَّالِي الللْمُلِلْمُ الللِّهُ اللْمُلِمُ اللَّهُ اللَّالِمُ اللَّهُ اللَّهُ ال

واستعمَلَ أكثرُ من مؤرِّخ عبارَة « دولة البرامكة » ، وبالفعلِ فقد أصبحوا دولة ضمنَ دولة ، ولم يكن الرشيدُ ذلك الخليفة السَّاذجَ البسيطَ ليدع لهم الحبلَ على الغارب .

لقد نكبَ الرَّشيدُ البرامكةَ بسبب (إساءةِ استعمالِ السُّلطة) ، لذلك قالَ الرشيدُ بعد نكبتهم :

وبعد نكبة البرامكة ، انتقمَ الشَّعوبيونَ من الرَّشيد ، فشوَّهوا سيرَتَـهُ ، وروَّجوا إشاعةَ العبَّاسةِ لطمس معالِم حركتِهم .

☆ ☆ ☆

لماذا شوَّهوا سيرة الرَّشيد بالذات ؟

لماذا لم يشوِّهوا سيرةَ غيرِهِ من خلفاء بني العباس ، كالمنصورِ ، أو المأمونِ ، أو المعتصم ، كما شوَّهوا سيرةَ الرَّشيد ؟

في رأيي .. كان التَّشوية مدروساً محكماً ، سُدِّدَ إلى واسطة العقد في الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، إنَّ قُمَّة التَّقدَّم العلمي ، وذروة الحضارة العربية ، بما فيها من خير ورفاه ، مع القوَّة والْمنَعة ، تمثّلت في عصر الرشيد ، لقد كانت بغداد في عهد الرَّشيد ، الدَّولة الأقوى في العالم كلّه ، والمتأمّل في جدول الخلفاء العباسيين ، يجد في بدايته عشرة خلفاء ، يثلون عصر القوة والنَّهضة والتَّقدُم والعلم والرَّفاه ، والرَّشيد عثّل قَمَّة هؤلاء العشرة ، لذلك وُجّهت سهام التَّشويه والتَّهم والافتراء إليه بالذَّات .

إنَّ الطَّعنَ المباشرَ والعلنيِّ لحضارتنا الرَّائدة ، طريقةٌ جرَّبها أعداؤنا فلم تجدِ نفعاً ، فردَّةُ الفعلِ عندنا قويَّةٌ لردِّ الطعن أو التشويه ، فلجؤوا إلى الطعنِ الخفي ، والتشويه غير المباشر .

دولةُ الرشيد الَّتي صوَّرها المشوِّهون ، دولـةَ أبي نواس ، ودولـةَ الجواري ، ودولـةَ ألفِ ليلةٍ وليلة ، هي دولةُ أعلام العلم والاختراع .

جابرُ بنُ حيان الكوفي كان على اتِّصالِ وثيقِ ببَلاطِ الرَّشيد ، وتحتّ رعايته .

ومن (بيت الحكمة) حيث جعلَ الرشيدُ كنوزَ العلومِ ، نهلَ الحسنُ بنُ الهيمْ ، والْخُوارزميُّ ، وأبو حنيفةَ الدِّينوري . فلماذا هذا التَّندُّرُ على أعلامِ تاريخنا ؟ ولماذا هذا الافتراءُ على حقائِقِ تاريخنا ؟ أمْ أَن الافتراءَ أصبحَ حرفةً تُنْفَقُ عليها الملايينُ ، من قبل جهاتٍ يهمُّها أَن تشعرَ الأَجيالُ العربيةُ بعقدةِ النقص .

رحمَ اللهُ خليلَ مردم بك ، الَّذي جعل خاتمة نشيدنا العربيِّ السُّوريِّ :

فنا الوليد ومنا الرشيد فلم لانسوة ولم لانشيد؟

فنا الوليد حيث كانت عنى دمشق في الدَّيْبُل وسمرقند ، ويسراها في طليطلة وسرقسطة ، وعيناها تَرْنُوان نحو القسطنطينية ، عاصمة الرَّوم البيزنطيِّين .

ومنا الرَّشيد ، الَّذي كان حولَهُ أَبو يوسف القاضي ، والإمامُ الشافعي ، ومحمدُ بنُ الحسنِ الشَّيباني ، والإمامُ مالك ، والفضيلُ بنُ عياض ، وعبدُ اللهِ بنُ المبارك ، والَّذي رعى العلمَ وشجعَهُ ، ورعى العلماءَ وشجعَهُم .

قال القلقشندي في (مآثر الإنافة في معالم الخلافة) : كان الرشيدُ يستلقي على ظهره ، وينظرُ إلى السَّحابةِ المارَّةِ ويقول : اذهبي حيثُ شئت يأْتِني خَراجُك .

وصاغ الشاعر محمود غنيم عبارات الرشيد شعراً ، حيث قال :

أينَ الرَّشيدُ وقد طاف الغامُ به مُلكٌ كَمُلْكُ (بني التَّاميز) ماغَرَبت شمسٌ عليـــه، ولا برقٌ تخطَّــاهُ ماض تعيش على أنقاضه أمم وتستمد القُوى من وحى ذكراة

فحينَ جـــاوزَ بغـــداداً تحـــدّاهُ؟

أيها السَّادة ..

هذا بعض جهدى بحقّ الرشيد ضمنَ الوقت الحدّد .

وسأترك أموراً أخرى عنه إلى مناسبة أخرى مثل:

- _ ولايةُ العهد لولديه الأمين والمأمون بين الخطأ والصُّواب .
 - _ علاقات الرشيد وشارلان بين الحقيقة والخيال .
- ـ علاقةُ الرشيد بآل البيت رضوان الله عليهم ، بين رعايتهم ومراقبتهم .
 - _ وهل ندم الرشيد على نكبته للبرامكة ؟
- _ وهل كانت وفاةُ الرشيد في طوسَ سنة ١٩٣ هـ _ وهو لم يُتمّ الخامسة والأربعين من عمره _ ميتةً طبيعية أمْ هي مؤامرة ، أمْ ثأر ، أم غلطة من طبيب جبريل بن بختيشوع ، الصَّديق الحميم لجعفر البرمكي ؟

أيها السَّادة ..

هذا بعض رأيي في الرشيد ، قد يوافِقُني عليه عددٌ منكم ، وقد يخالِفُني عليه عددٌ آخر ، وحسى أن أقولَ قولَ العقلاء الواعين : إن اختلافَ الرَّأي لا يفسدُ للوُدِّ قضيَّة .

شكراً لحضوركم ، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

د . شوقي أبو خليل

المحتوى

٥	بين يدي الكتاب
٧	شبه جزيرة العرب قبل الإسلام:
٧	الأعصر التَّاريخيَّة
١.	شبه جزيرة العرب
17	. العرب
۱۷	المالك العربيّة قبل الإسلام
۲١	أيًام العرب
37	معارف العرب
40	دين العرب
77	الاضطراب الفكري قبيل البعثة
79	البعثة النَّبويَّة:
79	أرض النُّبوَّة
77	طبيعة الرّسالة الخاتمة
77	دعوة الحقّ
۲۷	محمد علي (الإنسان)
3	تكامل إنساني
73	الإسلام يخرج إلى القبائل ، والهجرة
01	الجهاد : بدر الكبرى :
94	الحرب الاقتصاديَّة (عير قريش)
٥٨	بدر الكبرى
70	نتائج بدر الكبرى

1

٨٦	حُدٌ (تَأُوُّلَ الرُّماةُ فأخطؤوا) :
٦٨	أسباب أحد
٧٤	عند فَقْد المبادأة يستحيل تحقيق النَّصر
Ψ.	لماذا لم يهاجم أبو سفيان المدينة المنوّرة
YY	حمراء الأسد
Y1	نتائج أُحُد
'λ\	غزوة بني النَّضير
ГΛ	لخندق ، عزوة الأحزاب :
ГΛ	لسيبها
٨٨	استعدادات المدينة المنؤرة
9.4	إتمام حفر الخندق
٩٤	الأحزاب في شالي المدينة المنوِّرة
97	عليّ رضي الله عنه وعمرو بن عبد ود العامري
99	نعيم بن مسعود الأشجعي ، و (الحرب حدعة)
1.5	انسحاب الأحزاب
	غزوة بني قريظة
1.0	« الآن نغزوهم ولا يغزوننا »
٧٠٧	للح الحديبية (الفتح المبين):
111	ثلاث سفارات مهّدت لعقد الصّلح
118	عروة بن مسعود التُّقفي (المفاوض العاقل)
7/1	بيعة الرِّضوان
11%	المفاوضات
17.	كتابة الصُّلح
178	نزول سورة الفتح
170	نظرات في صلح الحديبية
179	ممن نتائح الحديث

122	غزوة خيبر (الفتح القريب) :
188	خيبر والمستشرقون
154	أسباب غزوة خيبر
121	من المدينة إلى خيبر
121	عمرة القضاء
188 .	نظرات ونتائج في غزوة خيبر وعمرة القضاء
189	كُتُبُ رسول الله ﴿ إِلَيْهِ وَغَرُوهُ مَوْتَةً :
189	الكتب
101	غزوة مؤتة (غزوة جيش الأُمراء)
107	من دستور الحرب في الإسلام
107	رسول الله ﷺ يصف المعركة
104	ارتداد خالد رضي الله عنه
101	ملاحظات
109	فتح مكَّة (الفتح الأعظم) :
109	أًسباب الفتح
171	أبو سفيان أدري بما جري
777	أبو سفيان في المدينة
175	الرَّاجِع بسخطه
	A .
371	حاطب بن أبي بلتعة
17£ 17Å	حاطب بن أبي بلتعة استطلاع قريش
ነገለ	استطلاع قريش
\\X \\\	استطلاع قريش خطَّة الفتح الأعظم
\\\ \\\ 3\\	استطلاع قريش خطَّة الفتح الأَعظم الطُّلقاء
\\\ \\\ \\£	استطلاع قريش خطَّة الفتح الأعظم الطُّلقاء نتائج وملاحظات

!

١٨٨	نتائج وملاحظات
190	تبوك (غزوة العُسْرَة) :
190	أسبابها
197	النَّفير العام ومبدأ الحرب الشَّاملة
7.7	الى تبوك
4.5	الثَّلاثة الذين خُلِّفوا
۲.0	نتائج وملاحظات
۲۰۸	الخلفاء الرَّاشدون :
7.9	الشروط خلافة رسول الله صلية ومتطلّباتها
۲۱۰	هلِ اجتمعت هذه الشُّروط في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه
717	الأمر شوري في الإسلام
710	أبو بكر الصَّدِّيق رضي الله عنه خليفةً :
Y14	بيانه الحكومي
719	المرتدُّون
777	أبرع قادة في التَّاريخ (ألوية الأمراء : أحد عشر لواء)
777	أسس قتال المرتدين
770	نتائج وملاحظات
777	الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه :
۲۳.	البيان الحكومي ، سياسة الدُّولة
777	عمر يفتح جبهات القتال
777	خمس مشكلات
777	عمر والإدارة العامّة
ለግን	دستور القضاء الخالد
779	أوائله رضي الله عنه
78.	ذو النُّورين عثمان بن عفان رضي الله عنه :
137	مكانة عثمان رضي الله عنه

محنة عثمان في خلافته نظرات ونتائج عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : مبايعة عليّ رضي الله عنه
عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه :
**
مبايعة عليّ رضي الله عنه
بدء الخلاف وحرب الْجَمَل
معركة صفّين
التَّحكيم
حكمته وبلاغته
من الرَّاشدين إلى الأُمويين :
سياسة عليّ رضي الله عنه
سيدا شباب أهل الجنَّة
عام الجاعة
العوامل الَّتي أدَّت إلى انتقال الحكم من الرَّاشدين إلى الأُمويِّين
ولاية يزيد
الفتوحات (معجزة التَّاريخ الإنساني الكبرى) :
بين الفتح والاستعمار
قضية خالدة في تاريخ الإنسانيَّة
من حروب الرِّدَّة إلى الفتوح:
نظام الكراديس
عزل خالد
أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجرَّاح الفهري القرشي
ر، فتح مصر
جبهة الغرب : الشَّمال الإفريقي وأُوربة
جزر البحر المتوسيط
الجبهة الشَّرقيَّة ، فتوح العرَّاق
الجبهة الشَّرقيَّة ، ماوراء النهر والسِّند

٣١٣	الدُّولة الأُمويَّة :
414	الخلفاء الأمويُّون
718	ولاية العهد
411	أسباب سقوط الدولة الأمويّة
*** •	الدُّولة العبَّاسية :
44.	أبو جعفر المنصور
777	هارون الرَّشيد الخليفة المفترى عليه
47.5	من شوه سيرة الرشيد
721	لماذا شوهوا سيرة الرشيد بالذات



للمؤلف

(منشورات دار الفكر بدمشق) :

- _ آراء يهدمها الإسلام .
- ـ الإسلام في قفص الاتّهام .
- ـ الإسلام وحركات التَّحرر العربيَّة .
- ـ أطلس التَّاريخ العربي (ملوَّن) .
 - _ الإنسان بين العلم والدِّين .
- _ عوامل النَّصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي .
 - _ غريزة أم تقدير إلهى ؟
 - ـ في التَّاريخ الإسلامي .
 - ـ قراءة علميَّة للقراءات المعاصرة .
 - _ من ضيّع القرآن ؟
 - ـ هارون الرَّشيد .
 - الهجرة حدث غيّر مجرى التّاريخ.

سلسلة في الميزان:

- ـ جرجي زيدان في الميزان .
 - ـ فيليب حتي .
 - ـ كارل بروكلمان .
 - ـ غوستاف لوبون .

غزوات الرَّسول الأَّعظم (١٠/١) :

ـ بدر الكبرى . ـ صلح الحديبية .

ـ تبوك . ـ غزوة أُحُد .

ـ حروب الرِّدة . ـ غزوة خيبر .

ـ حُنَين والطَّائف ــ غزوة مؤتة .

ـ الخندق . ـ ـ فتح مكَّة .

المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام (١٤/١):

- الأَرْك . - فتح صِقِلِيَّة .

ـ بلاط الشُّهداء . _ القادسيَّة .

- ذات الصّواري . مصرع غَرْناطة .

ــ الزَّلاقة . ـــ نهاوند .

ـ العقاب . . . وادي الخازن .

ـ عمورية . ـ اليرموك .

ـ فتح الأندلس . _ فتح سمرقند

أُحبُّ أَن أُعرف (٦/١) : (تحت الطبع) :

ـ أنا عربي ـ محمد بن عبد الله علي (قبل البعثة)

_ حضارة أجدادي _ عمد بن عبد الله عليه (من البعثة إلى الهجرة)

- العرب قبيل الإسلام - محمد بن عبد الله عَلَيْكُ (في المدينة المنوّرة)

* * *

أُحبُّ أَن أَكُونَ (٢٠/١) : (قصص للأَطفال) :

ـ أمزح صادقاً	- أعرف الحقيقة
- راحة أم <i>ي</i>	ـ أعرف واجباتي
ـ العافية تأج	ــ أَنا لاأُسخر من أحد
ـ قبيل النَّوم	ـ حُرِمتُ اللَّبن
- الكلمة الطيّبة	ـ دموع شجرة
ـ لكلِّ أُوانه	ـ رحلة اطِّلاعيَّة
ـ للعب آدابه	ـ زائرون في بيتنا
ـ مهنة والدي	ـ صيدليَّة منزلي
ـ نسي الزَّمن	ـ الفضول المؤذي
ـ هوايتي المفيدة	ـ في الغابة

☆ ☆ ☆

- أضواء على مواقف المستشرقين والمبشّرين جمعية الدَّعوة الإسلاميّة العالمية .

- تحرير لا استعبار جعية الدَّعوة الإسلامية العالمية.

ـ تسامح الإسلام وتعصُّب خصومه جمعية الدَّعوة الإسلامية العالمية.

ـ الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة

\$ \$ \$



كليَّة الدَّعوة الإسلامية العالمية.



الله المُحْتَمَعِ قَارِئُ الفِحْدِ 96 بِنَاءُ مُحْتَمَعٍ قَارِئُ



بناء مجتمع قارئ . . . أولوية لبناء المجتمع الإنساني السليم

خدمات دار الفكر

- ١ خدمة القراء عبر الهاتف. ٢- خدمة القراء عبر البريد.
- ٣- خدمات الإعارة المجانية. ٤ - نادي قراء دار الفكر.
- ٥- بنك القارئ النهم. ٦- تزويد القراء بالقوائم والنشرات الإعلانية.
- ٨-الكتاب المسموع (المكتبة الصوتية). ٧- بطاقة الإهداء.

نحن نتواصل معك أينما كنت وكيفما شئت

Dar al Fikt Damaseus Syria



Darai Fikrai Mula Beirut - Lebanon



وَ الْمُعَالِمُ فَا

(في الشَّاريخ الإسلامي) مجموع محاضرات ألقيت على طْلَابِ السُّنَةُ الثَّالِثَةُ فِي كُلِّيَّةِ الشُّر يَعِـةُ فِي جِـامِعِـةُ دَمِشْقِ ، بدءاً من العام الدراسي : ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ م ، وهي محاضرات ما فكُّرت بطبعها عندما ألقيتها ، حيث اعتمدتُ على نقاط رئيسة كنتُ أُسجِّلها ، تاركاً لخزانة الذَّاكرة إغناء الحاضرات بالمعلومات المطلوبة شرحاً للنَّقـاط المـدوَّنـة ، ولكن إلحـاح عدد من الطلاب في أخذ قصاصات هذه الحاضرات لتصويرها ، جعلني أَفكُر جدِّيًّا في إغنائها وتوثيقها ودفعهـا للطِّباعة ، خصوصاً حينًا رأيت عدداً من طلابنا الَّـذين تخرُّجوا من الكلُّيَّـة يطــالبـونني ـ بين أونــة وأخرى عنـــد مصادفتهم في مكان مــا ، أو مقــابلتهم في الكليّــة خــلال زياراتهم لها ـ بطبع المحاضرات الَّتي استنعوا بها .

فبناء على طلب طلابنا ، أُقدَّم هذه المحاضرات مطبوعة بين دَّفّتي هذا الكتاب ، أملاً أن يكون فيها الخير والفائدة لهم ، ولمن يقع هذا الكتاب بين يديه .

By: Dr. Shawqi Abli Khalli

http://www.Flkr.com/ E-Mail: Info@Fikr.com